

القِصَّة فِى القُرآنِ الكَرِيمِ

الجزء الثانى

الإمام الأكبر

الدكتور / محمد سيد طنطاوى

شيخ الأزهر



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

اسم الكتـــاب: القصة في القرآن الجزء الثاني
اسم المؤلـــف: د . محمد سيد طنطاوي
تاريـخ النشـر: طبعة أولى يناير ١٩٩٧.

رقم الإيـــداع: ٩٠١١٧٠٩ / ١٩٩٦
الترقيم الدولي: I . S . B . N 977 - 14 - 0507 - 1
النـــاشــــــر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة
مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٣٣٠٢٨٧ - ٠١١/٣٣٠٢٨٩
فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥
فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥
ص.ب: ٩٦ الفجالة
إدارة النشــــر: ٢١ ش أحمد عرابي - المهندسين - القاهرة
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤
فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦
ص.ب: ٢٠ امبابة

مقدمة الجزء الثانى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ومن والاه .

وبعد . . فقد تحدثنا فى الجزء الأول من كتاب «**القصة فى القرآن الكريم**» عن قصة آدم وإدريس ، ونوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، وإسماعيل وإسحاق ،ويعقوب ويوسف وموسى وهارون عليهم الصلاة والسلام .

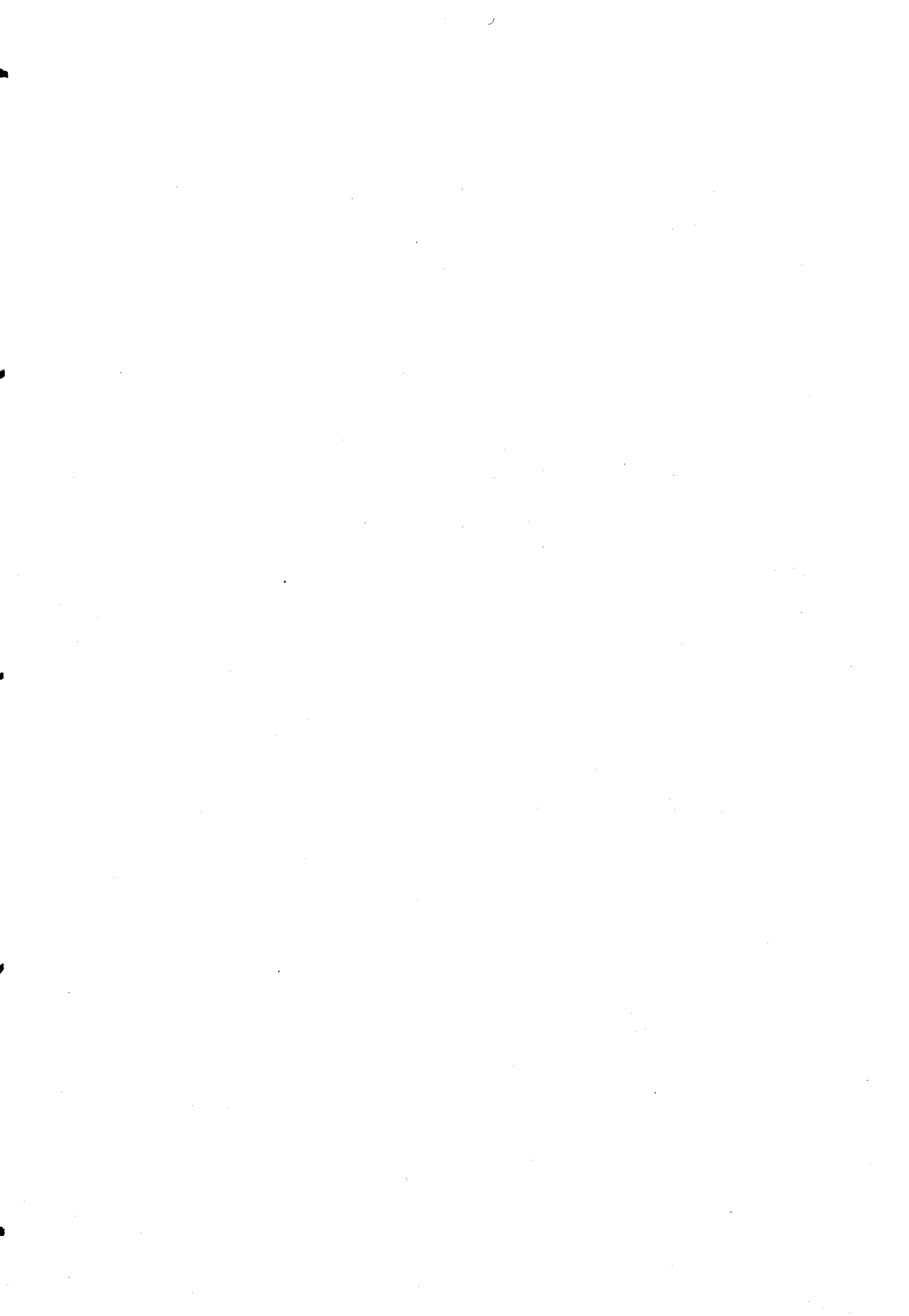
وهانحن نتحدث عن قصص بقية الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومنهم شعيب وداود وسليمان وزكريا ويحيى وأيوب ويونس ، وإلياس واليسع وذو الكفل وعيسى . . ثم عن حديث القرآن عن خير الأنام محمد ﷺ .

كما تحدثنا خلال ذلك عن قصص أصحاب الكهف ، وصاحب الجنتين ، وذى القرنين وأصحاب القرية ، وأصحاب الجنة ، وأصحاب الأخدود ، وأصحاب الفيل وغيرهم ممن جاء الحديث عنهم فى القرآن الكريم .

ونسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

شيخ الأزهر

محمد سيد طنطاوى



قصة شعيب ـ عليه السلام ـ

١ ـ وردت قصة شعيب ـ عليه السلام ـ فى سور متعددة ، منها قوله ـ تعالى ـ فى سورة «الأعراف» :

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا
تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾
وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ
ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟
بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ
وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

٢ ـ وقوله : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ أى : وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا ، ومدين اسم للقبيلة التى تنسب إلى مدين ابن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكانوا يسكنون فى المنطقة التى تسمى «معان» بين حدود الحجاز والشام ، وهم أصحاب الأيكة ـ والأيكة : منطقة مليئة بالشجر كانت مجاورة لقرية «معان» وكان يسكنها بعض الناس فأرسل الله شعيبا إليهم جميعا .

وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم فهو أخوهم فى النسب ، وكان النبى ﷺ إذا ذكر شعيب قال : «ذلك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه ، وقوة حجته» .

وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان فدعاهم إلى توحيد الله ـ تعالى ـ ونهاهم عن الخيانة وسوء الأخلاق .

وعن السدى وعكرمة : أن شعيبا أرسل إلى أمتين : إلى أهل مدين الذين أهلكوا بالصيحة ، وإلى أصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة ، وأنه لم يبعث نبى مرتين إلا شعيب ـ عليه السلام ـ .

ولكن المحققين من العلماء اختاروا أنهما أمة واحدة فأهل مدين هم أصحاب الأيكة أخذتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة ـ أى السحابة ـ وأن كل عذاب كان كالمقدمة للآخر .

وبعد أن دعاهم إلى وحدانية الله شأن جميع الرسل فى بدء دعوتهم قال لهم : ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى : قد جاءتكم معجزة شاهدة بصحة نبوتى توجب عليكم الإيمان بى والأخذ بما آمركم به والانتهاء عما أنهاكم عنه .

ثم أخذ فى نهيهم عن أبرز المنكرات التى كانت متفشية فيهم فقال ـ كما حكى القران عنه ـ :

﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ﴾ أى : فأتموا الكيل والميزان للناس بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان ، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب الزيادة .

﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى : ولاتنقصوهم حقوقهم بتطفيف الكيل ونقص الوزن فيما يجرى بينكم وبينهم من معاملات .

وفائدة التصريح بالنهى عن النقص بعد الأمر بالإيفاء ، تأكيد ذلك الأمر وبيان قبح ضده .

ثم نهاهم عن الإفساد بوجه عام فقال : ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾ أى : لاتفسدوا فى الأرض بما ترتكبون فيها من ظلم وبغى ، وكفر وعصيان ، بعد أن أصلح أمرها وأمر أهلها الأنبياء وأتباعهم الصالحون الذين يعدلون فى معاملاتهم ويلتزمون الحق فى كل تصرفاتهم .

ثم ختمت الآية بتلك الجملة الكريمة التى استجاش بها شعيب مشاعر الإيمان فى نفوس قومه حيث قال لهم : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

أى : ذلكم الذى آمركم به وأنهاكم عنه خير لكم فى الحال والمآل فبادروا إلى الاستجابة لى إن كنتم مصدقين قولى ، ومنتفعين بالهدايات التى جئت بها إليكم من ربكم .

فاسم ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ الإشارة يعود إلى ما ذكر من الأمر بالوفاء فى الكيل والميزان والنهى عن بخس الناس أشياءهم وعن الإفساد فى الأرض .

ثم انتقل شعيب إلى نهيهم عن رذائل أخرى كانوا متلبسين بها فقال : ﴿ وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ توعدون : من التوعد بمعنى التخويف والتهديد ، أى : ولاتقعدوا بكل طريق من الطرق المسلوكة تهددون من آمن بى بالقتل ، وتخيفونه بأنواع الأذى ، وتلصقون بى وأنا نبيكم التهم التى أنا برىء منها ، بأن تقولوا لمن يريد الإيمان برسالتى : إن شعيبا كذاب وإنه يريد أن يفتنكم عن دينكم .

وقوله : ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أى : وتصرفون عن دين الله وطاعته من آمن به ، وتطلبون لطريقه العوج بإلقاء الشبه أو بوصفها بما ينقصها ، مع أنها هى الطريق المستقيم الذى هو أبعد مايكون عن شائبة الاعوجاج .

ثم ذكرهم شعيب بنعم الله عليهم فقال : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ أى : اذكروا ذلك الزمن الذى كنتم فيه قليلى العدد فكثركم الله بأن جعلكم موفورى العدد ، وكنتم فى قلة من الأموال فأفاضها الله بين أيديكم ، فمن الواجب عليكم أن تشكروه على هذه النعم ، وأن تفردوه بالعبادة والطاعة .

ثم أتبع هذا التذكير بالنعم بالتخويف من عواقب الإفساد فقال : ﴿ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى : وانظروا نظر تأمل واعتبار كيف كانت عاقبة المفسدين من الأمم الخالية والقرون الماضية ، كقوم لوط وقوم صالح ، فسترون أنهم قد دمروا تدميرا بسبب إفسادهم فى الأرض ، وتكذيبهم لرسلهم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ لأن سيركم على طريقهم سيؤدى بكم إلى الدمار .

ثم نصحهم بأن يأخذوا أنفسهم بشىء من العدل وسعة الصدر ، وأن يتركوا أتباعه أحرارا فى عقيدتهم حتى يحكم الله بين الفريقين ، فقال : ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

أى : إن كان بعضكم قد آمن بما أرسلنى الله به إليكم من التوحيد وحسن الأخلاق ، وبعضكم لم يؤمن بما أرسلت به بل أصر على شركه وعناده ، فتربصوا وانتظروا حتى يحكم الله بيننا وبينكم بحكمه العادل ، الذى يتجلى فى نصرة المؤمنين ، وإهلاك الظالمين ـ سبحانه ـ خير الحاكمين .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حكت لنا جانبا من الحجج الناصعة ، والنصائح الحكيمة ، والتوجيهات الرشيدة التى وجهها شعيب ـ خطيب الأنبياء ـ إلى قومه .

ارجع البصر ـ أيها القارئ الكريم ـ فى هذه النصائح ترى شعيبا ـ عليه السلام ـ يأمر

قومه بوحدانية الله لأنها أساس العقيدة وركن الدين الأعظم ، ثم يتبع ذلك بمعالجة الجرائم التى كانت متفشية فيهم ، فيأمرهم بإيفائهم الكيل والميزان ، وينهاهم عن بخس الناس أشياءهم وعن الإفساد فى الأرض ، وعن القعود فى الطرقات لتخويف الناس وتهديدهم ، وعن محاولة صرفهم عن طريق الحق ، بإلقاء الشبهات ، وإشاعة الأباطيل ، مستعملا فى وعظه التذكير بنعم الله تارة ، وبنقمه على المكذبين تارة أخرى .

٣ ـ ولقد كان من المنتظر أن يتقبل قوم شعيب هذه المواعظ تقبلا حسنا ، وأن يصدقوه فيما يبلغه عن ربه ، ولكن المستكبرين منهم عموا وصموا عن الحق ، واستمع إلى القرآن وهو يحكى موقفهم فيقول :

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾

أى : قال الأشراف المستكبرون من قوم شعيب له ردا على مواعظه لهم : والله لنخرجنك يا شعيب أنت والذين آمنوا معك من قريتنا بغضا لكم ، ودفعا لفتنتكم المترتبة على مساكنتنا ومجاورتنا ، أو لتعودن وترجعن إلى ملتنا وما نؤمن به من تقاليد ورثناها عن آبائنا ، ومن المستحيل علينا تركها ، فعليك يا شعيب أنت ومن معك أن تختاروا لأنفسكم أحد أمرين : الإخراج من قريتنا أو العودة إلى ملتنا .

هكذا قال المترفون المغرورون لشعيب وأتباعه باستعلاء وغلظة وغضب .

وقد أكدوا قولهم بالجملة القسمية للمبالغة فى إفهامه أنهم مصممون على تنفيذ مايريدونه منه ومن أتباعه .

ونسبوا الإخراج إليه أولا وإلى أتباعه ثانيا ، للتنبيه على أصالته فى ذلك ، وأن الذين معه إنما هم تبع له ، فإذا ما أُخرج هو كان إخراج غيره أسهل .

وجملة : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ ﴾ وهى - أى جملة ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ المقصود الأعظم - فهؤلاء المستكبرون يهمهم فى المقام الأول أن يعود من فارق ملتهم وديانتهم إليها ثانية .

والتعبير بقولهم : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ يقتضى أن شعيبا ومن معه كانوا على ملتهم ثم خرجوا منها ، وهذا محال بالنسبة لشعيب - عليه السلام - فإن الأنبياء معصومون - حتى قبل النبوة - عن ارتكاب الكبائر فضلا عن الشرك .

وقد أجيب عن ذلك بأن المستكبرين قد قالوا ما قالوا من باب التغليب ، لأنهم لما رأوا أن أتباعه كانوا من قبل ذلك على ملتهم ثم فارقوهم واتبعوا شعيبا ، قالوا لهم : إما أن تخرجوا مع نبيكم الذى اتبعتموه وإما أن تعودوا إلى ملتنا التى سبق أن كنتم فيها ، فأدرجوا شعيبا معهم فى الأمر بالعودة إلى ملتهم من باب تغليبهم عليه هنا ، هذا هو الجواب الذى ارتضاه كثير من العلماء وهناك أجوبة أخرى ذكرها المفسرون ومنها :

١ - أن هذا القول جار على ظنهم أنه كان فى ملتهم ، لسكوته قبل البعثة عن الإنكار عليهم .

٢ - أنه صدر عن رؤسائهم تلبيسا على الناس وإيهاما لهم بأنه كان على دينهم وما صدر عن شعيب - عليه السلام - كان على طريق المشاكلة .

٣ - أن قولهم : ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ بمعنى : أو لتصيرن ، إذ كثيرا ما يرد «عاد» بمعنى «صار» فيعمل عمل كان ، ولا يستدعى الرجوع إلى حالة سابقة .

هذه بعض الأجوبة التى أجاب بها العلماء على قول قوم شعيب ولعل أرجحها هو الرأى الأول «لبعده عن التكلفة ، واتساقه مع رد شعيب عليهم» ، فقد قال لهم :

﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ أى : أتجبروننا على العودة إلى ملتكم حتى ولو كنا كارهين لها ، لاعتقادنا بأنها باطلة وقبيحة ومنافية للعقول السليمة والأخلاق المستقيمة ، لا ، لن نعود إليها بأى حال من الأحوال ، فالهمزة لإنكار الوقوع ونفيه ، والتعجب من أحوالهم الغريبة حيث جهلوا أن الدخول فى العقائد اختيارى محض ولا ينفع فيه الإجبار أو الإكراه .

ثم صارحهم برفضه التام لما يتوهمونه من العودة إلى ملتهم فقال :

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ .

أى : قد اختلقنا على الله ـ تعالى ـ أشنع أنواع الكذب إن عدنا فى ملتكم الباطلة بعد إذ نجانا الله بهدايتنا إلى الدين الحق وتنزيهنا عن الإشراك به ـ سبحانه ـ .

ثم كرر هذا الرفض بأبلغ وجه فقال : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ أى ما يصح لنا ولايتأتى منا أن نعود فى ملتكم الباطلة فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا فى حال أو فى وقت مشيئة الله ـ المتصرف فى جميع الشئون ـ عودتنا إليها ، فهو وحده القادر على ذلك ولايقدر عليه غيره لا أنتم ولانحن ، لأننا موقنون بأن ملتكم باطلة وملتنا هى الحق والموقن لايستطيع إزالة يقينه ولاتغييره وإنما ذلك بيد مقلب القلوب ، الذى وسع علمه كل شىء .

وهذا اللون من الأدب العالى ، حكاه القرآن عن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فى مخاطبتهم ، فأنت ترى أن شعيبا ـ عليه السلام ـ مع ثقته المطلقة فى أنه لن يعود هو وأتباعه إلى ملة الكفر أبدا ، مع ذلك هو يفوض الأمر إلى الله تأدبا معه ، فلايجزم بمشيئته هو ، بل يترك الأمر لله ، فقد يكون فى علمه ـ سبحانه ـ مايخفى على البشر ، مما تقتضيه حكمته وإرادته .

ثم يترك شعيب ـ عليه السلام ـ قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتوجه إلى الله بالاعتماد والدعاء فيقول : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ .

أى : على الله وحده وكلنا أمرنا ، فهو الذى يكفينا أمر تهديدكم ووعيدكم ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ربنا احكم بيننا وبين قومنا الذين ظلمونا بالحق وأنت خير الحاكمين ، لخلو حكمك عن الجور والحيف .

فقوله : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ إظهار للعجز من جانب شعيب ، وأنه فى مواجهته لأولئك المستكبرين لايعتمد إلا على الله وحده ، ولايأوى إلا إلى ركنه المكين ، وحصنه الحصين ، والجملة الكريمة تفيد الحصر لتقديم المعمول فيها .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا ﴾ إعراض عن مجادلتهم ومفاوضتهم بعد أن تبين له عنادهم وسفههم وإقبال على الله ـ تعالى ـ بالتضرع والدعاء .

والفتح : أصله إزالة الإغلاق عن الشىء ، واستعمل فى الحكم ، لما فيه من إزالة الإشكال فى الأمر ، ومنه قيل للحاكم : فاتح وفتاح لفتحه أغلاق الحق ، وقيل للحكومة : الفتاحة ـ بضم الفاء وكسرها .

أخرج البيهقى عن ابن عباس قال : ما كنت أدرى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ ﴾ حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول لزوجها وقد جرى بينها وبينه كلام : تعال أفاتحك ، تريد أقاضيك وأحاكمك .

وقوله : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بهذا القيد إظهار للنصفة والعدالة .

والخلاصة أنك إذا تأملت فى رد شعيب ـ عليه السلام ـ على ما قاله المستكبرون من قومه ، تراه يمثل أسمى ألوان الحكمة وحسن البيان ، فهو يرد على وعيدهم وتهديدهم بالرفض التام لما يبغون ، والبغض السافر لما يريدونه منه ، ثم يكل الأمور كلها إلى الله ، مظهرا الاعتماد عليه وحده ، ثم يتجه إليه ـ سبحانه ـ بالدعاء متلمسا منه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق الذى مضت به سنته فى التنازع بين المرسلين والكافرين ، وبين سائر المحقين والمبطلين .

وهنا نلمح أن الملأ من قوم شعيب قد يئسوا من استمالة شعيب وأتباعه إلى ملتهم ، فأخذوا يحذرون الناس من السير فى طريقه ، ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه الحكيم فيقول : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ .

أى : قال الأشراف الكافرون من قوم شعيب لغيرهم : ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ لشرفكم ومجدكم ، بإيثار ملته على ملة آبائكم وأجدادكم ، وخاسرون لثروتكم ولربحكم المادى ، لأن اتباعكم له سيحول بينكم وبين التطفيف فى الكيل والميزان وهو مدار غناكم واتساع أموالكم .

وقولهم هذا يقصدون به تنفير الناس من دعوة شعيب ، وتثبيطهم عن الإيمان به ، وإغرائهم بالبقاء على عقائدهم الباطلة ، وتقاليدهم البالية التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، فهم لم يكتفوا بضلالهم فى أنفسهم ، بل عملوا على إضلال غيرهم .

وبعد هذه المحاولات والمجادلات التى دارت بين شعيب وقومه ، جاءت الخاتمة التى حكاها القرآن فى قوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أى : فأخذتهم الزلزلة الشديدة فأصبحوا فى دارهم هامدين صرعى لاحراك بهم .

ثم يعقب القرآن على مصرعهم بالرد على قولتهم : إن من يتبع شعيبا خاسر ، فيقرر على سبيل التهكم أن الخسران لم يكن من نصيب من اتبع شعيبا ، وإنما الخسران كان من نصيب الذين خالفوه وكذبوه ، فيقول : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

أى : الذين كذبوا شعيبا وتطاولوا عليه وهددوه وأتباعه بالإخراج من قريتهم ، كأنهم عندما حاقت بهم العقوبة لم يقيموا فى ديارهم ناعمى البال ، يظلهم العيش الرغيد والغنى الظاهر .

يقال : غنى بالمكان يغنى ، أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد .

والجملة الكريمة استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا ﴾ فكأن سائلا قال : فكيف كان مصيرهم؟ فكان الجواب : الذين هددوا شعيبا ومن معه وأنذروهم بالإخراج كانت عاقبتهم أن هلكوا وحرموا من قريتهم حتى لكأنهم لم يقيموا بها ، ولم يعيشوا فيها مطلقا ، لأنه متى انقضى الشىء صار كأنه لم يكن .

ثم أعاد القرآن الموصول وصلته لزيادة التقرير ، وللإيذان بأن ما ذكر فى حيز الصلة هو الذى استوجب العقوبتين ، فقال : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

أى : الذين كذبوا شعيبا وكفروا بدعوته كانوا هم الخاسرين دينيا ودنيويا ، وليس الذين اتبعوه كما زعم أولئك المهلكون .

وبهذا القدر اكتفى القرآن عن التصريح بإنجائه هنا ، وقد صرح بإنجائه فى سورة هود فقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ . . ﴾ .

وأخيرا تطوى السورة الكريمة صفحتهم مشيعة إياهم بالتبكيت والإهمال من رسولهم وأخيهم فى النسب فتقول : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ .

الأسى : الحزن ، وحقيقته اتباع الفائت بالغم ، يقال : أسيت عليه ـ أسا ، أى : حزنت عليه .

والمعنى فأعرض عنهم شعيب بعد أن أصابهم ما أصابهم من النقمة والعذاب وقال مقرعا إياهم : ياقوم ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ﴾ التى أرسلنى بها إليكم من العقائد والأحكام والمواعظ ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ بما فيه إصلاحكم وهدايتكم فكيف أحزن على قوم كافرين ، بذلت جهدى فى سبيل هدايتهم ونجاتهم ، ولكنهم كرهوا النصح واستحبوا العمى على الهدى .

لا ، لن آسى عليهم ، لن أحزن من أجل هلاكهم ، لأنهم لايستحقون ذلك .

وفى سورة «هود» آيات كريمة قصت علينا ما كان بين شعيب ـ عليه السلام ـ وقومه وكيف أنه دعاهم إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده بأسلوب بليغ حكيم ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، فكانت عاقبتهم الهلاك كالذين من قبلهم ، قال ـ تعالى ـ :

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ
ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ
إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟
ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟
فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ
وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ
مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ
ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى
مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ
أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ
مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم
بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ
وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا
ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ
إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى
عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟
إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ
﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

وتلك هى قصة شعيب ـ عليه السلام ـ كما حكتها هذه السورة الكريمة .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا . . ﴾ معطوف على ما سبقه من قصة صالح ـ عليه السلام ـ عطف القصة على القصة .

أى : وكما أرسلنا صالحا ـ عليه السلام ـ إلى ثمود ، فقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيبا ـ عليه السلام ـ فقال لهم مقالة كل نبى لقومه : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فإنكم لا إله لكم على الحقيقة سواه ، فهو الذى خلقكم ، وهو الذى رزقكم وهو الذى إليه مرجعكم .

ثم بعد أن أمرهم بإخلاص العبادة لله ، نهاهم عن التطفيف فى الكيل والميزان فقال : ﴿ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾

والمكيال والميزان : اسمان للآلة التى يكال بها ويوزن .

ونقص الكيل والميزان يكون من وجهين : أحدهما أن يكون الاستنقاص من جهتهم إذا باعوا لغيرهم .

وثانيهما : أن يكون الاستنقاص من جهة غيرهم إذا اشتروا منه ، بأن يأخذوا منه أكثر من حقهم .

فكأنه ـ عليه السلام ـ يقول لهم : لاتنقصوا المكيال والميزان لا عند الأخذ ولاعند الإعطاء ، فلا تعطوا غيركم أقل من حقه إذا بعتم ، ولا تأخذوا منه أكثر من حقكم إذا اشتريتم .

وإلى هذين الأمرين أشار قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ . الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .

ثم بين لهم الأسباب التى دعته إلى أمرهم ونهيهم فقال :

﴿ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾

والخير : كلمة جامعة لكل مايرضى الإنسان ويغنيه ويسره .

ومحيط : أى شامل بحيث لايستطيع أحد الإفلات منه ، كما يحيط الظرف بالمظروف .

أى أخلصوا لله عبادتكم ، والتزموا العدل فى معاملاتكم ، فإنى أراكم تملكون الوفير من المال ، وتعيشون في رغد من العيش ، وفى بسطة من الرزق ، ومن كان كذلك فمن الواجب عليه ، أن يقابل هذه النعم بالشكر لواهبها وهو الله ـ تعالى ـ وأن يستعملها استعمالا يرضيه ، وأن يعطى كل ذى حق حقه .

وإنى ـ أيضا ـ أخاف عليكم إذا ما تماديتم فى مخالفة ما آمركم به وما أنهاكم عنه ، عذاب يوم أهواله وآلامه شاملة لكل ظالم ، بحيث لايستطيع أن يهرب منها .

فأنت ترى أن شعيبا ـ عليه السلام ـ بعد أن أمرهم بما يصلح عقيدتهم ونهاهم عما يفسد معاملاتهم وأخلاقهم ، ذكرهم بما هم فيه من نعمة وغنى قطعا لعذرهم حتى لايقولوا له : نحن فى حاجة إلى تطفيف المكيال والميزان لفقرنا ، ثم أخبرهم بأنه ما حمله على هذا النصح لهم إلا خوفه عليهم .

ثم واصل شعيب ـ عليه السلام ـ نصحه لقومه ، فأمرهم بالوفاء بعد أن نهاهم عن النقص على سبيل التأكيد ، وزيادة الترغيب فى دعوته فقال :

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾

أى : وياقوم أوفوا عند معاملاتكم أدوات كيلكم وأدوات وزنكم ، ملتزمين فى كل أحوالكم العدل والقسط .

﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ . . ﴾ أى : ولاتنقصوهم شيئا من حقوقهم ، يقال : بخس فلان فلانا حقه إذا ظلمه وانتقصه ، وهو يشمل النقص والعيب فى كل شىء .

والجملة الكريمة تعميم بعد تخصيص ، لكى تشمل غير المكيل والموزون كالمزروع والمعدود ، والجيد والردىء .

قال الجمل ما ملخصه : وقد كرر ـ سبحانه ـ نهيهم عن النقص والبخس وأمرهم بالوفاء ، لأن القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح ، وهو تطفيف الكيل والميزان ومنع الناس حقوقهم ، احتيج فى المنع منه إلى المبالغة فى التأكيد ، ولاشك أن التكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية بالمأمور به والمنهى عنه ، فلهذا كرر ذلك ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل . .»[(١)]

وقوله : ﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال نعم الله فى غير ما خلقه له .

أى : ولاتسعوا فى أرض الله بالفساد ، وتقابلوا نعمه بالمعاصى ، فتسلب عنكم ، ثم أرشدهم إلى أن ما عند الله خير وأبقى مما يجمعونه عن الطريق الحرام فقال :

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾

أى : مايبقيه الله لكم من رزق حلال ، ومن حال صالح ، ومن ذكر حسن ، ومن أمن وبركة فى حياتكم ، بسبب التزامكم بالقسط فى معاملاتكم ، هو خير لكم من المال الكثير الذى تجمعونه عن طريق بخس الناس أشياءهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص٤١٦ .

وجملة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ معترضة لبيان أن هذه الخيرية لاتتم إلا مع الإيمان .

أى : مايبقيه الله لكم من الحلال ، هو خير لكم إن كنتم مصدقين بما أرسلت به إليكم ، أما إذا لم تكونوا كذلك فلن تكون بقية الله خيرا لكم ، لأنها لا تكون إلا للمؤمنين ، فاستجيبوا لنصيحتى لتسعدوا فى دنياكم وآخرتكم .

وجملة ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ تحذير لهم من مخالفته بعد أن أدى ما عليه من بلاغ .

أى : وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ لكم أعمالكم وأحاسبكم عليها ، وأجازيكم بها الجزاء الذى تستحقونه ، وإنما أنا ناصح ومبلغ ما أمرنى ربى بتبليغه ، وهو وحده ـ سبحانه ـ الذى يتولى مجازاتكم .

٥ ـ وإلى هنا نجد شعيبا ـ عليه السلام ـ قد أرشد قومه إلى ما يصلحهم فى عقائدهم ، وفى معاملاتهم ، وفى صلاتهم بعضهم ببعض ، وفى سلوكهم الشخصى ، بأسلوب حكيم جامع لكل مايسعد ويهدى للتى هى أقوم .

فماذا كان رد قومه عليه؟

لقد كان ردهم عليه ـ كما حكاه القرآن الكريم ـ طافحا بالاستهزاء به ، والسخرية منه ، فقد قالوا له : ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ .

أى : قال قوم شعيب له ـ على سبيل التهكم والاستهزاء ـ : يا شعيب أصلاتك ـ التى تزعم أن ربك كلفك بها والتى أنت تكثر منها ـ تأمرك أن نترك عبادة الأصنام التى وجدنا عليها أباءنا؟ والاستفهام للإنكار والتعجب من شأنه .

وأسندوا الأمر إلى الصلاة من بين سائر العبادات التى كان يفعلها ، لأنه ـ عليه السلام ـ كان كثير الصلاة ، وكانوا إذا رأوه يصلى سخروا منه .

وجملة ﴿أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ إنكار منهم لترك ما تعودوه من نقص الكيل والميزان بعد إنكارهم لترك عبادة الأصنام .

أى : أصلاتك تأمرك أن نترك عبادة الأصنام ، وتأمرك أن نترك ما تعودنا فعله فى أموالنا من التطفيف فى الكيل والميزان .

إن كانت صلاتك تأمرك بذلك ، فهى فى نظرنا صلاة باطلة ، لا وزن لها عندنا ، بل نحن نراها لونا من ألوان جنونك وهذيانك .

وجملة ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ زيادة منهم فى السخرية منه - عليه السلام - وفى التهكم عليه ، فكأنهم - قبحهم الله - يقولون له : كيف تأمرنا بترك عبادة الأصنام ، وبترك النقص فى الكيل والميزان ، مع علمك اليقينى بأن هذين الأمرين قد بنينا عليهما حياتنا ، ومع زعمك لنا بأنك أنت الحليم الذى يتأنى ويتروى فى أحكامه الرشيد الذى يرشد غيره إلى ماينفعه؟ .

إن هذين الوصفين لايليقان بك ، مادمت تأمرنا بذلك ، وإنما اللائق بك أضدادهما ، أى الجهالة والسفه والعجلة فى الأحكام .

هكذا رد قوم شعيب على شعيب ، وهو رد يحمل السخرية فى كل مقطع من مقاطعه ، ولكنها سخرية الشخص الذى انطمست بصيرته ، وقبحت سريرته!

٦ - ومع كل هذه السفاهة ، ترى شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء - يتغاضى عن سفاهاتهم ، لأنه يحس بقصورهم وجهلهم ، كما يحس بقوة الحق الذى أتاهم به من عند ربه ، فيرد عليهم بقوله : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي .. ﴾ والبينة : مايتبين به الحق من الباطل ، ويتميز به الهدى من الضلال .

أى : قال شعيب لقومه بأسلوب مهذب حكيم : يا قوم أخبرونى إن كنت على حجة واضحة وبصيرة مستنيرة منحنى إياها ربى ومالك أمرى .

﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ ﴾ - سبحانه - ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ يتمثل فى النبوة التى كرمنى بها ، وفى المال الحلال الذى بين يدى ، وفى الحياة الطيبة التى أحياها .

وجواب الشرط محذوف والتقدير : أخبرونى إن كنت كذلك ، هل يليق بى بعد ذلك أن أخالف أمره مسايرة لأهوائكم؟ كلا إنه لايليق بى ذلك ، وإنما اللائق بى أن أبلغ جميع ما أمرنى بتبليغه دون خوف أو تقصير .

ثم يكشف لهم عن أخلاقه وسلوكه معهم فيقول :

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ .. ﴾ .

أى : ما أريد بأمرى لكم بعبادة الله وحده ، وبنهيى إياكم عن التطفيف والبخس ، مجرد مخالفتكم ومنازعتكم ومعاكستكم ، أو أن آمركم بشىء ثم لا أفعله ، أو أنهاكم عنه ثم أفعله ، من أجل تحقيق منفعة دنيوية .

كلا ، كلا إنى لا أريد شيئا من ذلك وإنما أنا إنسان يطابق قولى فعلى ، وأختار لكم ما أختاره لنفسى .

ثم بين لهم أنه مايريد لهم إلا الإصلاح فيقول : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ . . ﴾ .

أى : ما أريد بما أنصحكم به إلا إصلاحكم وسعادتكم ، ومادمت أستطيع ذلك ، وأقدر عليه ، فلن أقصر فى إسداء الهداية لكم .

ثم يفوض الأمور إلى الله ـ تعالى ـ فيقول :

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

أى : وما توفيقى فيما أدعوكم إليه من خير أو أنهاكم عنه من شر إلا بتأييد الله وعونه ، فهو وحده الذى عليه أتوكل وأعتمد فى كل شئونى ، وهو وحده الذى إليه أرجع فى كل أمورى .

ثم يواصل شعيب ـ عليه السلام ـ نصحه لقومه ، فينتقل بهم إلى تذكيرهم بمصارع السابقين ، محذرا إياهم من أن يكون مصيرهم كمصير الظالمين من قبلهم فيقول :

﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ . . ﴾ .

والمعنى : وياقوم لاتحملنكم عداوتكم لى ، على افتراء الكذب علىّ ، وعلى التمادى فى عصيانى ومحاربتى ، فإن ذلك سيؤدى بكم إلى أن يصيبكم العذاب الذى أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح .

وقوله : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ تذكير لهم بأقرب المهلكين إليهم .

أى : إذا كنتم لم تتعظوا بما أصاب قوم نوح من غرق ، وبما أصاب قوم هود من ريح دمرتهم ، وبما أصاب قوم صالح من صيحة أهلكتهم ، فاتعظوا بما أصاب قوم لوط من عذاب جعل أعلى مساكنهم أسفلها ، وهم ليسوا بعيدين عنكم لا فى الزمان ولا فى المكان .

والمراد بالبعد ـ فى قوله ـ ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ بعد الزمن والمكان والنسب .

فزمن لوط ـ عليه السلام ـ غير بعيد من زمن شعيب ـ عليه السلام ـ .

وديار قوم لوط قريبة من ديار قوم شعيب ، إذ منازل مدين عند عقبة أيلة بجوار معان مما يلى الحجاز ، وديار قوم لوط بناحية الأردن إلى البحر الميت .

وكان مدين بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ وهو جد قبيلة شعيب ، المسماة باسمه ، متزوجا بابنة لوط .

ثم فتح لهم بعد ذلك باب الأمل فى رحمة الله ، إن هم تابوا إليه ـ سبحانه ـ وأنابوا فقال : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ .

أي : واستغفروا ربكم من كل مافرط منكم من ذنوب ثم توبوا إليه توبة صادقة نصوحا : ﴿ إِنَّ رَبِّي ﴾ ومالك أمرى ﴿ رَحِيمٌ ﴾ ، أى : واسع الرحمة لمن تاب إليه ، ﴿ وَدُودٌ ﴾ أى : كثير الود والمحبة لمن أطاعه .

٧ ـ وهكذا نجد شعيبا ـ عليه السلام ـ وهو خطيب الأنبياء ـ يلون لقومه النصح ، وينوع لهم المواعظ ، ويطوف بهم فى مجالات الترغيب والترهيب .

ولكن القوم كانوا قد بلغوا من الفساد نهايته ، ومن الجهل أقصاه . . فقد ردوا على هذه النصائح الغالية بقولهم : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ . . ﴾ .

أى : قال قوم شعيب له على سبيل التحدى والتكذيب : يا شعيب إننا لانفهم الكثير من قولك ، لأنه قول لم نألفه ولم تتقبله نفوسنا ، ولقد أطلت فى دعوتنا إلى عبادة الله وترك النقص فى الكيل والميزان حتى كرهنا دعوتك وسئمناها ، وصارت ثقيلة على مسامعنا وخافية على عقولنا .

فمرادهم بهذه الجملة الاستهانة به ، والصدود عنه ، كما يقول الرجل لمن لايعبأ بحديثه : لا أدرى ما تقوله ، ولا أفهم ما تتفوه به من ألفاظ .

ثم قالوا له ـ ثانيا ـ ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ أى : لا قوة لك إلى جانب قوتنا ، ولاقدرة عندك على مقاومتنا إن أردنا قتلك أو طردك من قريتنا .

ثم قالوا له ـ ثالثا ـ ﴿ وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ ورهط الرجل : قومه وعشيرته الأقربون ، ومنه الراهط لجحر اليربوع ، لأنه يحتمى فيه .

ولفظ «الرهط» اسم جمع يطلق غلبا على العصابة دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة .

أى : ولولا عشيرتك التى هى على ملتنا وشريعتنا لرجمناك بالحجارة حتى تموت ، ولكن مجاملتنا لعشيرتك التى كفرت بك هى التى جعلتنا نبقى عليك .

ثم قالوا له ـ رابعا ـ ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أى : وما أنت علينا بمكرم ، أو محبوب أو قوى حتى نمتنع عن رجمك ، بل أنت فينا الضعيف المكروه .

٨ ـ وهنا نجد شعيبا ـ عليه السلام ـ ينتقل فى أسلوب مخاطبته لهم من اللين إلى الشدة ، ومن التلطف إلى الإنكار ، دفاعا عن جلال ربه ـ سبحانه ـ فيقول لهم :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ . . ﴾

أى : أرهطى وعشيرتى الأقربون ، الذين من أجلهم لم ترجمونى ، أعز وأكرم عندكم من الله ـ تعالى ـ الذى هو خالقكم ورازقكم ومميتكم ومحييكم .

﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا . . ﴾ أى : وجعلتم أوامره ونواهيه التى جئتكم بها من لدنه - سبحانه - كالشيء المنبوذ المهمل الملقى من وراء الظهر بسبب كفركم وطغيانكم ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ أى : إن ربى قد أحاط علمه بأقوالكم وأعمالكم السيئة ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب مهين .

ثم زاد فى توبيخهم وتهديدهم فقال : ﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ والمكانة مصدر مكن ككرم ، يقال مكن فلان من الشيء مكانه ، إذا تمكن منه أبلغ تمكن والأمر فى قوله ﴿ اعْمَلُوا ﴾ للتهديد والوعيد .

أى : اعملوا كل مافى إمكانكم عمله معى ، وابذلوا فى تهديدى ووعيدى ما شئتم ، فإن ذلك لن يضيرنى ، وكيف وأنا المتوكل على الله المعتمد على عونه ورعايته؟

وإنى سأقابل عملكم السيئ هذا بعمل آخر حسن من جانبى ، وهو الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - وإلى مكارم الأخلاق .

وقوله : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ استئناف مؤكد لتهديده لهم .

أى : اعملوا ما شئتم وأنا سأعمل ما شئت فإنكم بعد ذلك سوف تعلمون من منا الذى ينزل به عذاب يخزيه ويفضحه ويهينه ، ومن منا الذى هو كاذب فى قوله وعمله .

﴿ وَارْتَقِبُوا ﴾ عاقبة تكذيبكم للحق ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ أى : إنى معكم منتظر ومراقب لما يفعله الله - تعالى - بكم .

وبذلك نرى شعيبا - عليه السلام - فى هاتين الآيتين ، قد استعمل مع قومه أسلوبا آخر فى المخاطبة ، يمتاز بالشدة عليهم والتهديد لهم ، لا غضبا لنفسه ، وإنما لأجل حرمات الله - تعالى - والدفاع عن دينه .

ولم يطل انتظار شعيب - عليه السلام - ومراقبته لمايحدث لقومه ، بل جاء عقاب الله - تعالى - لهم بسرعة وحسم ، بعد أن لجوا فى طغيانهم ، وقد حكى - سبحانه - ذلك فقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا . . ﴾ .

أى : وحين جاء أمرنا بعذابهم ، وحل أوان هذا العذاب ، نجينا نبينا شعيبا ونجينا الذين آمنوا به وصدقوه ، حالة كونهم مصحوبين برحمة عظيمة كائنة منا لا من غيرنا .

﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ من قومه ﴿ الصَّيْحَةُ ﴾ التى زلزلتهم وأهلكتهم ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ ﴾ التى كانوا يسكنونها ﴿ جَاثِمِينَ ﴾ أى : هامدين ميتين لاتحس لهم حركة ، ولاتسمع لهم ركزا .

من الجثوم وهو للناس والطير بمنزلة البروك للإبل ، يقال : جثم الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم إذا وقع على صدره ولزم مكانه فلم يبرحه .

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ أى : كأن هؤلاء الهلكى من قوم شعيب ، لم يعيشوا فى ديارهم قبل ذلك عيشة ملؤها الرغد والرخاء والأمان .

يقال : غنى فلان بالمكان ، إذا أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد .

﴿ أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ أى : ألا هلاكا مصحوبا بالخزى واللعنة والطرد من رحمة الله لقبيلة مدين ، كما هلكت من قبلهم قبيلة ثمود .

وهكذا طويت صفحة أخرى من صفحات الظالمين وهم قوم شعيب ـ عليه السلام ـ كما طويت من قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح ولوط ـ عليه السلام ـ .

٩ ـ هذا ، ومن أهم العبر والعظات التى تتجلى واضحة فى قصة شعيب مع قومه كما جاءت فى هذه السورة الكريمة :

أن الداعى إلى الله لكى ينجح فى دعوته ، عليه أن ينوع خطابه للمدعوين ، بحيث يشتمل توجيهه على الترغيب والترهيب ، وعلى الأسباب وما تؤدى إليه من نتائج ، وعلى مايقنع العقل ويقنع العاطفة .

ففى هذه القصة نجد شعيبا ـ عليه السلام ـ يبدأ دعوته بأمر قومه بعبادة الله ـ تعالى ـ ثم ينهاهم عن أبرز الرذائل التى كانت منتشرة وهى نقص المكيال والميزان ثم يبين لهم الأسباب التى حملته على ذلك :

﴿ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ .

ثم ينهاهم نهيا عاما عن الإفساد فى الأرض ﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

ثم يرشدهم إلى أن الرزق الحلال مع الإيمان والاستقامة ، خير لهم من التشبع بزينة الحياة الدنيا بدون تمييز بين ما هو صالح وما هو طالح : ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

ثم يذكرهم بأنه لايأمرهم إلا بما يأمر به نفسه ، ولاينهاهم إلا عما ينهاها عنه وأنه ليس ممن يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم ،﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ . . ﴾ .

ثم يذكرهم بمصارع السابقين ، ويحذرهم من أن يسلكوا مسلكهم ، لأنهم لو فعلوا ذلك لهلكوا كما هلك الذين من قبلهم : ﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ . . ﴾ .

ثم يفتح لهم باب الأمل فى عفو الله عنهم متى استغفروه وتابوا إليه : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ .

ثم تراه يثور عليهم عندما يراهم يتجاوزون حدودهم بالنسبة لله - تعالى - وللحق الذى جاءهم به من عنده - سبحانه - : ﴿ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ . . ﴾ .

وهكذا نجد شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء كما وصفه الرسول ﷺ يرشد قومه إلى ما يصلحهم ويسعدهم بأسلوب حكيم ، جامع لكل ألوان التأثير والتوجيه السديد .

وليت الدعاة إلى الله فى كل زمان ومكان يتعلمون من قصة شعيب - عليه السلام - مع قومه أسلوب الدعوة إلى الله - تعالى - .

١٠ - وفى سورة «الشعراء» آيات تحكى لنا جانبا من قصة شعيب - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى - :

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى

خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

والأيكة : منطقة مليئة بالأشجار ، كانت ـ فى الغالب ـ بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة ، ولعلها المنطقة التى تسمى بعمان .

قال ابن كثير : «هؤلاء ـ أعنى أصحاب الأيكة ـ هم أهل مدين على الصحيح ، وكان نبى الله شعيب من أنفسهم وإنما لم يقل ههنا : أخوهم شعيب ، لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهى شجرة ، وقيل شجر ملتف كالغيضة ، كانوا يعبدونها ، فلهذا لما قال : كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، لم يقل : إذ قال لهم أخوهم شعيب ، وإنما قال : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ فقطع نسبة الأخوة بينهم ، للمعنى الذى نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسبا ، ومن الناس من لم يتفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، فزعم أن شعيبا ـ عليه السلام ـ بعثه الله إلى أمتين ، والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا فى كل مقام بشىء ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما فى قصة مدين سواء بسواء» .(١)

وقد افتتح شعيب ـ عليه السلام ـ دعوته لقومه ، بأمرهم بتقوى الله ـ تعالى ـ وببيان أنه أمين فى تبليغهم ما أمره الله بتبليغه إليهم ، وبمصارحتهم بأنه لا يسألهم أجرا على دعوته إياهم إلى مايسعدهم .

ثم نهاهم عن أفحش الرذائل التى كانت منتشرة فيهم فقال لهم : ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ . وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ . .﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص١٦٨ .

والجبلة : الجماعة الكبيرة الكثيرة من الناس الذين كانوا من قبل قوم شعيب ، والمقصود بهم أولئك الذين كانوا ذوى قوة كأنها الجبال فى صلابتها ، كقوم هود وأمثالهم ممن اغتروا بقوتهم ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

قال القرطبى : وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴾ .

الجبلة : هى الخليقة ، ويقال : جبل فلان على كذا ، أى : خلق فالخلق جِبِلة وجُبُلة - بكسر الجيم والباء وضمهما - والجبلة : هو الجمع ذو العدد الكثير من الناس ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ (١)

والمعنى : قال شعيب - عليه السلام - لقومه ناصحا ومرشدا ، ياقوم أوفوا الكيل أى : أتموه ﴿ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ الذين يأكلون حقوق غيرهم عن طريق التطفيف فى الكيل والميزان .

ثم أكد نصحه هذا بنصح آخر فقال : ﴿ وَزِنُوا ﴾ للناس الذين تتعاملون معهم ﴿ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أى : بالعدل الذى لاجور معه ولاظلم .

ثم أتبع هذا الأمر بالنهى فقال : ﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى : ولاتنقصوا للناس شيئا من حقوقهم ، أيا كان مقدار هذا الشىء .

﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ والعُثُو : أشد أنواع الفساد ، يقال : عثا فلان فى الأرض يعثو ، إذا اشتد فساده .

أى : ولاتنتشروا فى الأرض حالة كونكم مفسدين ، فيها بالقتل وقطع الطريق وتهديد الآمنين .

فقوله : ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ حال مؤكدة لضمير الجمع فى قوله : ﴿ تَعْثَوْا ﴾ .

ثم ذكرهم بأحوال السابقين ، وبأن الله - تعالى - هو الذى خلقهم وخلق أولئك السابقين فقال : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ من ماء مهين ، وخلق - أيضا - الأقوام السابقين ، الذين كانوا أشد منكم قوة وأكثر جمعا ، والذين أهلكهم - سبحانه - بقدرته بسبب إصرارهم على كفرهم وبغيهم .

واستمع قوم شعيب إلى تلك النصائح الحكيمة ، ولكن لم يتأثروا بها ، بل اتهموا نبيهم فى عقله وفى صدقه ، وتحدوه فى رسالته فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿ إِنَّمَا

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٣ ص١٣٦ .

أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

قالوا له بسفاهة وغرور : إنما أنت يا شعيب من الذين أصيبوا بسحر عظيم جعلهم لايعقلون مايقولون ، أو إنما أنت من الناس الذين يأكلون الطعام ، ويشربون الشراب ، ولامزية لك برسالة أو بنبوة علينا ، فأنت بشر مثلنا ، وما نظنك إلا من الكاذبين فيما تدعيه ، فإن كنت صادقا فى دعوى الرسالة فأسقط علينا ﴿كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أى : قطعا من العذاب الكائن من جهة السماء .

وجاء التعبير بالواو هنا فى قوله ﴿وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ للإشارة إلى أنه جمع بين أمرين منافيين لدعواه الرسالة ، وهما : كونه من المسحرين وكونه بشرا وقصدوا بذلك المبالغة فى تكذيبه ، فكأنهم يقولون له : إن وصفا واحدا كاف فى تجريدك من نبوتك فكيف إذا اجتمع فيك الوصفان ، ولم يكتفوا بهذا بل أكدوا عدم تصديقهم له فقالوا : وما نظنك إلا من الكاذبين .

ثم أضافوا إلى كل تلك السفاهات ، الغرور والتحدى حيث تعجلوا العذاب ، ولكن شعيبا ـ عليه السلام ـ قابل استهتارهم واستهزاءهم بقوله : ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

أى : ربى وحده هو العليم بأقوالكم وأعمالكم ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب أليم .

ثم يعجل ـ سبحانه ـ ببيان عاقبتهم السيئة فيقول :

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ .

قال الآلوسى : وذلك على ما أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والحاكم عن ابن عباس : أن الله ـ تعالى ـ بعث عليهم حرا شديدا ، فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا أجواف البيوت ، فدخل عليهم ، فخرجوا منها هرابا إلى البرية ، فبعث الله ـ تعالى ـ عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس ، وهى الظلة ، فوجدوا لها بردا ولذة ، فنادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحتها ، أسقطها الله عليهم نارا ، فأهلكتهم جميعا .(١)

وقال ابن كثير : فى سورة «الأعراف» ذكر الله ـ تعالى ـ أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا

(١) تفسير الآلوسى جـ١٩ ص١٢٠ .

فى ديارهم جاثمين ، وذلك لأنهم قالوا : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا .. ﴾ فلما أرجفوا بنبى الله ومن تبعه ـ أى : حاولوا زلزلتهم وتخويفهم ـ أخذتهم الرجفة .

وفى سورة هود قال : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ وذلك لأنهم استهزءوا بنبى الله فى قولهم : ﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم ، وهاهنا قالوا : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. ﴾ على وجه التعنت والعناد فناسب أن ينزل بهم ما استبعدوا وقوعه فقال : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ (١)

ثم ختم ـ سبحانه ـ قصة شعيب مع قومه بمثل ما ختم به قصص الرسل السابقين مع أقوامهم فقال ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

١١ ـ هذا ، ومن الدروس التى نأخذها من قصة شعيب ـ عليه السلام ـ :

(ا) أن الرسل جميعا قد جاءوا برسالة واحدة فى أصولها ، ألا وهى الدعوة إلى إخلاص العبادة لله ـ عز وجل ـ والحض على التحلى بمكارم الأخلاق .

وهذا ما تراه فى دعوة كل نبى لقومه ، فنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كل واحد منهم كانت النصيحة الأولى التى يوجهها لقومه أن يقول لهم : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (٢)

(ب) أن المرشد العاقل ، والواعظ الحكيم ، والداعية الموفق ، من صفاته أن يهتم أول ما يهتم بإزالة أبرز المنكرات المتفشية فى بيئته ، ويقدم الأهم على المهم .

وهذا ما نراه واضحا فى دعوة خطيب الأنبياء ، شعيب ـ عليه السلام ـ فقد بدأ دعوته لقومه بنهيهم عن الإشراك بالله ـ عز وجل ـ فى العبادة ، ثم أمرهم بإيفاء الكيل والميزان ، كما نهاهم عن إيذاء الناس وعن الإفساد فى الأرض بصفة عامة ، فهو يقول لهم :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص١٧٠ .
(٢) سورة الشورى : الآية ١٣ .

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ . (١)

(جـ) كذلك من الدروس النافعة والعظات البليغة أن الداعية العاقل المخلص ، لايكتفى بأسلوب واحد فى دعوته غيره إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، وإنما يلون فى خطابه على حسب حال المدعوين أمامه ، فهو تارة يأمر وتارة ينهى ، وطورا يرغب وطورا يرهب ، وأحيانا يبشر وأحيانا ينذر ، وهذا ما نراه واضحا - أيضا - فى أسلوب شعيب - عليه السلام - وهو يدعو قومه إلى وحدانية الله - تعالى - وإلى التخلى عن الرذائل التى كانت متفشية فيهم فهو يقول لهم : ﴿ وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ . وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٢)

ويقول لهم :

﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ . وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ .(٣)

ويقول لهم : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . (٤)

(د) نأخذ من قصة شعيب - عليه السلام - أيضا ، أن المرشد اللبيب الفطن ، هو الذى يكون قدوة حسنة لغيره بفعله وسلوكه ، قبل أن يكن قدوة له بقوله ومنطقه .

وهذا مايتجلى بوضوح فى قصة شعيب - عليه السلام - مع قومه ، فإنه يجابههم بكل قوة ، بأنه لايدعوهم إلى شىء هو يتركه ، ولاينهاهم عن شىء هو يفعله ، فيقول لهم - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا

(١) سورة الأعراف : الآية ٨٥ .
(٢) سورة الأعراف : الآيتان ٨٦ ، ٨٧ .
(٣) سورة هود : الآيتان ٨٩ ، ٩٠ .
(٤) سورة الشعراء : الآيات ١٧٨ ، ١٨٠ .

حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ . (١)

(هـ) كذلك من الدروس الحكيمة التى نأخذها من قصة شعيب مع قومه ، أن اللين شىء ، وأن الضعف شىء آخر ، وأن العقلاء يلتزمون أدب الحوار مع غيرهم بكل تواضع وأناة ، فإذا ما خرج السفهاء فى مناقشاتهم عن حدود الدين والأخلاق ، تصدى العقلاء لهم بكل قوة وحزم ، ولقنوهم مايوقفهم عند حدودهم ، وزجروهم زجرا يردعهم ويخرسهم .

انظر إلى شعيب ـ عليه السلام ـ تراه قد خاطب قومه بكل أدب وحكمة ، ولكنهم عندما طلبوا منه العودة إلى ملتهم الفاسدة ، وعقيدتهم الباطلة ، زجرهم بقوله : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا .. ﴾ .

وعندما قالوا له : ﴿ وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ رد عليهم بقوله : ﴿ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

وهكذا نرى شعيبا ـ عليه السلام ـ فى موقف اللين شىء ، وفى موقف الشدة شىء آخر ، فهو لايغضب لنفسه ، فإذا ما تطاول قومه على خالقهم ـ عز وجل ـ وقف لهم بالمرصاد ، وغضب لربه غضبا يردعهم ويخيفهم .

هذه بعض الدروس النافعة ، والعظات البليغة التى نأخذها من قصة شعيب ـ عليه السلام ـ مع قومه ، وإنها لدروس بليغة لقوم يعقلون .

---

(١) سورة هود : الآية ٨٨ .

قصة داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ

١ ـ قصة داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ وردت فى سور متعددة ، منها : سورة الأنبياء ، والنمل ، وسبأ ، وص .

وداود وسليمان نبيان كريمان ، وملكان عظيمان ، جمع الله ـ تعالى ـ لهما بين الملك والنبوة ، وينتهى نسب داود ـ عليه السلام ـ إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكانت ولادته فى بيت لحم بفلسطين ، قبل ميلاد المسيح عيسى ابن مريم بحوالى ألف سنة ، وقد تكرر اسم داود فى القرآن ست عشرة مرة فى سور شتى ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٠ ، ٢٥١] .

وقد مدح النبى ﷺ أخاه داود مدحا عظيما ، ففى صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال : «أحب الصيام إلى الله ـ تعالى ـ صيام داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه ، وينام سدسه» .

٢ ـ أما سليمان فهو ابن داود ، فقد ورد اسمه فى القرآن سبع عشرة مرة ، ومن ذلك قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ . . . ﴾ [البقرة : ١٠٢]

أى : واتبع الضالون والجاحدون من بنى إسرائيل ما تقولته واختلقته الشياطين كذبا على ملك سليمان ـ عليه السلام ـ حيث زعموا أن ملكه يقوم على السحر ، والحق أن سليمان قد أخلص العبادة لخالقه ـ عز وجل ـ أتم الإخلاص وأكمله ، ولكن الشياطين هم الذين كفروا ، إذ تعلموا السحر وعلموه لغيرهم بقصد الإفساد والإضلال .

ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى مدح فيها النبى ﷺ أخاه سليمان ، ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن عفريتا من الجن تفلت علىّ

البارحة ليقطع علىّ الصلاة ، أى : ليحملنى على الخروج من الصلاة - فأمكننى الله - تعالى - منه ، فأردت أن أربطه فى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه ، ولكنى تركته بعد أن تذكرت قول أخى سليمان : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ .

ويعد عهد داود وسليمان - عليهما السلام - هو العهد الوحيد الذى عاش فيه قومهما بنو إسرائيل فى رخاء وأمان واطمئنان .

٣ - ومن الآيات القرآنية التى تحدثت عن هذين النبيين الكريمين ، قوله - تعالى - فى سورة «الأنبياء» .

وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَدَاوُدَ ﴾ منصوب بفعل مقدر ، أو معطوف على قوله - سبحانه - قبل ذلك : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ ﴾ .

والحرث : الزرع ، قيل : كان كَرْما - أى عنبا - تدلت عناقيده .

وقوله : ﴿ نَفَشَتْ ﴾ من النفش وهو الرعى بالليل خاصة ، يقال : نفشت الغنم والإبل ، إذ رعت ليلا بدون راع .

وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات روايات ملخصها : أن رجلين دخلا على داود - عليه السلام - أحدهما صاحب زرع ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الزرع

لداود : يا نبى الله ، إن غنم هذا قد نفشت فى حرثى فلم تبق منه شيئا ، فحكم داود ـ عليه السلام ـ لصاحب الزرع أن يأخذ غنم خصمه فى مقابل إتلافها لزرعه .

وعند خروجهما التقيا بسليمان ـ عليه السلام ـ فأخبراه بحكم أبيه ، فدخل سليمان على أبيه فقال له : يا نبى الله ، إن القضاء غير ما قضيت ، فقال له : كيف؟ قال : ادفع الغنم إلى صاحب الزرع لينتفع بها ، وادفع الزرع إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان ، ثم يعيد كل منهما إلى صاحبه ما تحت يده ، يأخذ صاحب الزرع زرعه ، وصاحب الغنم غنمه ، فقال داود ـ عليه السلام ـ القضاء ما قضيت يا سليمان .[١]

والمعنى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ قصة داود وسليمان ، وقت أن كانا يحكمان فى الزرع الذى «نفشت فيه غنم القوم» ، أى : تفرقت فيه وانتشرت ليلا دون أن يكون معها راع فرعته وأفسدته .

قال القرطبى : «ولم يرد ـ سبحانه ـ بقوله : ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ الاجتماع فى الحكم وإن جمعهما فى القول ، فإن حكمين على حكم واحد لايجوز وإنما حكم كل واحد منهما على انفراده ، وكان سليمان الفاهم لها بتفهيم الله ـ تعالى ـ له» .[٢]

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ جملة معترضة جىء بها لبيان شمول علم الله ـ تعالى ـ وإحاطته بكل شىء .

أى : وكنا لما حكم به كل واحد منهما عالمين وحاضرين ، بحيث لايغيب عنا شىء مما قالاه .

وضمير الجمع فى قوله : ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ لداود وسليمان ، واستدل بذلك من قال : إن أقل الجمع اثنان ، وقيل : ضمير الجمع يعود عليهما وعلى صاحب الزرع وصاحب الحرث أى : وكنا للحكم الواقع بين الجميع شاهدين .

والضمير المنصوب فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ يعود إلى القضية أو المسألة التى عرضها الخصمان على داود وسليمان .

أى : ففهمنا سليمان الحكم الأنسب والأوفق فى هذه المسألة أو القضية ، وذلك لأن داود ـ كما يقول العلماء ـ قد اتجه فى حكمه إلى مجرد التعويض لصاحب الحرث ، وهذا عدل فحسب ، أما حكم سليمان فقد تضمن مع العدل البناء والتعمير ، وجعل العدل دافعا إلى البناء والتعمير ، وهذا هو العدل الحى الإيجابى فى صورته البانية الدافعة وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء من عباده .

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ١٧ ص٣٨ ، وتفسير ابن كثير جـ٥ ص٣٤٩ .

(٢) تفسير القرطبى جـ١١ ص٣٠٧ .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ثناء من الله ـ تعالى ـ على داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ والمقصود من هذا الثناء دفع ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من أن داود لم يكن مصيبا فى حكمه .

أى : وكلا من داود وسليمان قد أعطيناه من عندنا ﴿ حُكْمًا ﴾ أى : نبوة وإصابة فى القول والعمل ﴿ وَعِلْمًا ﴾ أى : فقها فى الدين ، وفهما سليما للأمور .

وقد توسع بعض المفسرين فى الحديث عن هذا الحكم الذى أصدره داود وسليمان فى قضية الحرث أكان بوحى من الله إليهما ، أم كان باجتهاد منهما ، وقد رجح بعض العلماء أنه كان باجتهاد منهما فقال : اعلم أن جماعة من العلماء قالوا : إن حكم داود وسليمان فى الحرث المذكور فى هذه الآية كان بوحى ، إلا أن ما أوحى إلى سليمان كان ناسخا لما أوحى إلى داود .

وفى الآية قرينتان على أن حكمهما كان باجتهاد لا بوحى ، وأن سليمان أصاب فاستحق الثناء باجتهاده وإصابته ، وأن داود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده ، ولم يستوجب لوما ولا ذما لعدم إصابته .

كما أثنى ـ سبحانه ـ على سليمان بالإصابة فى قوله : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ وأثنى عليهما فى قوله : ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ .

فدل قوله : ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ على أنهما حكما فيها معا ، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر ، ولو كان وحيا لما ساغ الخلاف ، ثم قال : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ فدل ذلك على أنه لم يفهمها داود ، ولو كان حكمه فيها بوحى لكان مفهما إياها كما ترى .

فقوله : ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ مع قوله ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ قرينة على أن الحكم لم يكن بوحى بل باجتهاد وأصاب فيه سليمان دون داود بتفهيم الله إياه ذلك .

والقرينة الثانية : هى أن قوله ـ تعالى ـ ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا ﴾ يدل على أن فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع ، لا أنه ـ تعالى ـ أنزل عليه فيها وحيا جديدا ناسخا ، لأن قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا ﴾ أليق بالأول من الثانى كما ترى . .[1]

٤ ـ ثم بين ـ سبحانه ـ نماذج من النعم التى أنعم بها على داود ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ .

---

(١) راجع تفسير أضواء البيان جـ٥ ص٥٩٩ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

والتسخير : التذليل أى : وجعلنا الجبال والطير يسبحن الله ـ تعالى ـ ويقدسنه مع داود ، امتثالا لأمره ـ سبحانه ـ .

قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته ، بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم به تقف الطير فى الهواء فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويبا ، ولهذا لما مر النبى ﷺ على أبى موسى الأشعرى ، وهو يتلو القرآن من الليل ، وكان له صوت طيب ، فوقف واستمع إليه وقال : «لقد أوتى هذا من مزامير آل داود» .(١)

وقال صاحب الكشاف : «فإن قلت : لم قدمت الجبال على الطير؟ قلت : لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب ، وأدل على القدرة ، وأدخل فى الإعجاز ، لأنها جماد ، والطير حيوان ، إلا أنه غير ناطق ، روى أنه كان يمر بالجبال مسبحا وهى تجاوبه ، وقيل : كانت تسير معه حيث سار» .(٢)

وتسبيح الجبال والطير مع داود ـ عليه السلام ـ هو تسبيح حقيقى ، ولكن بكيفية يعلمها الله ـ تعالى ـ كما قال ـ سبحانه ـ ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . ﴾ (٣)

وشبيه بالآية التى معنا قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ (٤)

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ . وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٥)

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ أى : كنا فاعلين ذلك لداود من تسخير الجبال والطير معه ، يسبحن الله وينزهنه عن كل سوء ، على سبيل التكريم له ، والتأييد لنبوته ، إذ أن قدرتنا لايعجزها شىء ، سواء أكان هذا الشىء مألوفا للناس أم غير مألوف .

وقوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٥ ص٣٥٢ .
(٢) الكشاف جـ٣ ص١٢٩ .
(٣) سورة الإسراء الآية ٤٤ .
(٤) سورة سبأ الآية ١٠ .
(٥) سورة «ص» الآيات ١٧ ـ ١٩ .

واللبوس : كل مايلبس كاللباس والملبس : والمراد به هنا : الدرع .

أى : وبجانب ما منحنا داود من فضائل ، فقد علمناه من لدنا صناعة الدروع بحذق وإتقان ، وهذه الصناعة التى علمناها إياها بمهارة وجودة ﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾ .

أى : لتجعلكم فى حرز ومأمن من الإصابة بآلة الحرب ، وتقى بعضكم من بأس بعض ، لأن الدرع تقى صاحبها من ضربات السيوف ، وطعنات الرماح .

يقال : أحصن فلان فلانا ، إذا جعله فى حرز وفى مكان منيع من العدوان عليه ، والاستفهام فى قوله : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ للحض والأمر أى : فاشكروا الله ـ تعالى ـ على هذه النعم ، بأن تستعملوها فى طاعته ـ سبحانه ـ .

قال القرطبى ـ رحمه الله ـ : «وفى هذه الآية أصل فى اتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول والألباب ، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء ، فالسبب سنة الله فى خلق ، فمن طعن فى ذلك فقد طعن فى الكتاب والسنة ، وقد أخبر الله ـ تعالى ـ عن نبيه داود أنه كان يصنع الدروع ، وكان ـ أيضا ـ يصنع الخوص ، وكان يأكل من عمل يده ، وكان آدم حراثا ، ونوح نجارا ، ولقمان خياطا ، وطالوت دباغا ، فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس ، وفى الحديث : «إن الله يحب المؤمن المحترف المتعفف ، ويبغض السائل الملحف» .[1]

٥ ـ ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك جانبا من نعمه على سليمان بن داود فقال :

وقوله : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ﴾ معطوف على معمول ﴿ سَخَّرْنَا ﴾ فى قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك :﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ و﴿ عَاصِفَةً ﴾ حال من الريح .

أى : وسخرنا لسليمان الريح حال كونها عاصفة أى : شديدة الهبوب ، كما سخرنا مع أبيه الجبال يسبحن والطير .

يقال : عصفت الريح تعصف إذا اشتدت ، فهى عاصفة وعصوف سميت بذلك لتحطيمها ما تمر عليه فتجعله كالعصف وهو التبن .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ أى : جعلناها مع قوتها وشدتها تجرى بأمر سليمان وإذنه إلى الأرض التى باركنا فيها وهى أرض الشام ، وقيل : يحتمل أن يكون المراد بها ما هو أعم من أرض الشام .

ووصفت الريح هنا بأنها عاصفة ، وفى آية أخرى بأنها رخاء قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَسَخَّرْنَا

---

(١) تفسير القرطبى جـ١١ ص٣٢١ .

لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾[1] لأنها تارة تكون عاصفة ، وتارة تكون لينة رخاء ، على حسب ما تقتضيه حكمته ـ سبحانه ـ .

وقال ـ سبحانه ـ هنا : ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ أى تجرى بأمره إلى تلك الأرض فى حال إيابه ورجوعه إليها ، حيث مقر مملكته ومسكنه ، فالمقصود من الآية الكريمة الإخبار عن جريانها فى حال عودته إلى مملكته .

أما الآية الأخرى التى تقول : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾[1] أى : حيث أراد لها أن تجرى ، فالمقصود منها الإخبار عن جريها بإذنه فى غير حال عودته إلى مملكته ، وبذلك أمكن الجمع بين الآيتين ، إذ الجهة فيهما منفكة .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ أى : وكنا بكل شىء يجرى فى هذا الكون عالمين علما مطلقا لا كعلم غيرنا من خلقنا ، فإنه علم محدود بما نشاؤه ونقدره .

فالجملة الكريمة بيان لإحاطة علم الله ـ تعالى ـ بكل شىء ، والتنبيه بأن ما أعطاه الله ـ تعالى ـ لسليمان ، إنما كان بإرادته ـ سبحانه ـ وعلمه .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ ﴾ بيان لمنة أخرى من المنن الكثيرة التى امتن بها ـ سبحانه ـ على عبده . ويغوصون من الغوص وهو النزول تحت الماء ، ومنه الغواص الذى ينزل تحت الماء لاستخراج الجواهر وغيرها .

أى : وسخرنا ـ أيضا ـ لسليمان من يغوص له ، أى : لأجله ، من الشياطين ، فينزلون تحت مياه البحار ليستخرجوا منها الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان .

وفى التعبير بقوله : ﴿ لَهُ ﴾ إشعار بأن غوصهم لم يكن لمنفعة أنفسهم أو باختيارهم ، وإنما هم كانوا يغوصون من أجل مصلحة سليمان ـ عليه السلام ـ وبأمره .

وقوله : ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ ﴾ أى : لم تكن مهمتهم الغوص فقط ، وإنما كان سليمان يسخرهم ويكلفهم بأعمال أخرى كثيرة كبناء المدائن والقصور وصنع التماثيل والمحاريب ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ . يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [2]

---

(1) سورة ص الآية ٣٦ .

(2) سورة سبأ الآيتان ١٢ ، ١٣ .

فاسم الإشارة فى قوله : ﴿ ويعملُونَ عملاً دُونَ ذَلِكَ ﴾ يعود إلى الغوص أى : ويعملون له عملا كثيرا سوى ذلك الغوص .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿ وكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أى : وكنا لهؤلاء الشياطين حافظين من أن يخرجوا عن طاعته ، أو أن يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون له .

٦ ـ وفى سور «سبأ» آيات أخرى تحدثت عن جانب من النعم التى أنعم الله ـ تعالى ـ بها على هذين النبيين الكريمين ، ألا وهى قوله ـ تعالى ـ :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً ﴾ بيان لما مَنّ الله ـ تعالى ـ به على عبده داود ـ عليه السلام ـ من خير وبركة .

أى : ولقد آتينا عبدنا داود فضلا عظيما وخيرا وفيرا ، وملكا كبيرا بسبب إنابته إلينا ، وطاعت لنا .

ثم فصل ـ سبحانه ـ مظاهر هذا الفضل فقال : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ والتأويب إذا رَجَّع مع غيره مايقوله .

والجملة مقول لقول محذوف : أى : وقلنا يا جبال رددى ورجعى مع عبدنا داود تسبيحه لنا ، وتقديسه لذاتنا ، وثناءه علينا ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾ .

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ : يخبر ـ تعالى ـ عما أنعم به على عبده ورسوله داود ـ عليه السلام ـ مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العُدَّة والعَدَد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبح ، تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات الرائحات وتجاوبه بأنواع اللغات .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبى موسي الأشعرى يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته ثم قال : «لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير آل داود» . [١]

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين هذا النظم وبين أن يقال : «وآتينا داود منا فضلا : تأويب الجبال معه والطير»؟

قلت : كم بينهما من الفرق؟ ألا ترى إلى مافيه من الفخامة التي لاتخفى ، من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الألوهية ، حيث جعلت الجبال مُنَزَّلَةً مَنْزِلَةَ العقلاء ، الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا ، إشعارا بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته ، غير ممانع على إرادته .[٢]

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ بيان لنعمة أخرى من النعم التى أنعم بها ـ سبحانه ـ عليه .

أى : وصيرنا الحديد لينا فى يده ، بحيث يصبح ـ مع صلابته وقوته ـ كالعجين فى يده ، يشكله كيف يشاء ، من غير أن يدخله فى نار ، أو أن يطرقه بمطرقة .

أى : ألنا له الحديد ، لكى يعمل منه دروعا سابغات ، والدرع السابغ ، هى الدرع الواسعة التامة ، يقال : سبغ الشيء سبوغا ، إذا كان واسعا تاما كلاما ، ومنه قولهم : نعمة سابغة ، إذا كانت تامة كاملة .

قال ـ تعالى ـ :﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [٣]

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٤٨٥ .

(٢) تفسير الكشاف جـ٣ ص٥٧١ .

(٣) سورة لقمان الآية ٢٠ .

وقوله : ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ والتقدير هنا بمعنى الإحكام والإجادة وحسن التفكير فى عمل الشىء ، والسرد : نسج الدروع وتهيئتها لوظيفتها .

أى : آتينا داود كل هذا الفضل الذى من جملته إلانة الحديد فى يده ، وقلنا له يا داود : اصنع دروعا سابغات تامات ، وأحكم نسج هذه الدروع ، بحيث تكون فى أكمل صورة ، وأقوى هيئة .

روى أن الدروع قبل عهد داود كانت تعمل بطريقة تثقل الجسم ، ولاتؤدى وظيفتها فى الدفاع عن صاحبها ، فألهم الله ـ تعالى ـ داود ـ عليه السلام ـ أن يعملها بطريقة لاتثقل الجسم ولاتتعبه ، وفى الوقت نفسه تكون محكمة إحكاما تاما بحيث لاتنفذ منها الرماح ، ولاتقطعها السيوف ، وكان الأمر كله من باب الإلهام والتعليم من الله ـ تعالى ـ لعبده داود ـ عليه السلام ـ .

ثم أمر ـ سبحانه ـ داود وأهله بالعمل الصالح فقال :

﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

أى : واعملوا عملا صالحا يرضينى ، فإنى مطلع ومحيط ومبصر لكل ما تعملونه من عمل ، وسأجازيكم عليه يوم القيامة بالجزاء الذى تستحقونه .

قال القرطبى : «وفى هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع ، وأن التحرف بها لاينقص من مناصبهم ، بل ذلك زيادة فى فضلهم وفضائلهم ، إذ يحصل لهم التواضع فى أنفسهم ، والاستغناء عن غيرهم ، وكسب الحلال الخالى عن الامتنان ، وفى الصحيح أن النبى ﷺ قال : إن خير ما أكل المرء من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده» .(١)

هذا ما أعطاه ـ سبحانه ـ لنبيه داود من فضل ، أما سليمان فقد أعطاه ـ سبحانه ـ أفضالا أخرى ، عبر عنها فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ .

والغدوة والغداة : أول النهار إلى الزوال ، والرواح : من الزوال إلى الغروب .

والمعنى : وسخرنا لنبينا سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ الريح ، تجرى بأمره فى الغدوة الواحدة مسيرة شهر ، وتعود بأمره فى الروحة مسيرة شهر ، أى : أنها لسرعتها تقطع فى مقدار الغدوة الواحدة مايقطعه الناس فى شهر من الزمان ، وكذلك الحال بالنسبة للروحة الواحدة ، وهى فى كل مرة تسير بأمر سليمان ، ووفق إرادته التى منحه الله ـ تعالى ـ إياها .

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٤ ص٢٦٧ .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ (١)

وقوله ـ سبحانه : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (٢)

ثم بين ـ تعالى ـ نعمة ثانية من النعم التى أنعم بها على سليمان فقال : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ .

والقطر : هو النحاس المذاب ، مأخوذ من قطر الشىء يَقْطُر قَطْرًا وقطَرانا ، إذا سال .

أى : كما ألنا لداود الحديد ، أسلنا لابنه سليمان النحاس وجعلناه مذابا ، فكان يستعمله فى قضاء مصالحه ، كما يستعمل الماء ، وهذا كله بفضلنا وقدرتنا .

ثم بين ـ سبحانه ـ نعمة ثالثة أنعم بها على سليمان ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ .

أى : وسخرنا له من الجن من يكونون فى خدمته ، ومن يعملون بين يديه مايريده منهم ، وهذا كله بأمرنا ومشيئتنا وقدرتنا .

﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ أى : من ينحرف من هؤلاء الجن عما أمرناه به من طاعة سلميان ، ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى : ننزل به عذابنا الأليم ، الذى يذله ويخزيه فى الدنيا والاخرة .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض الأشياء التى كان الجن يعملونها لسليمان ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ .

والمحاريب : جمع المحراب ، وهو كل مكان مرتفع ، ويطلق على المكان الذى يقف فيه الإمام فى المسجد ، كما يطلق على الغرفة التى يصعد إليها ، وعلى أشرف أماكن البيوت .

قالوا والمراد بها : أماكن العبادة ، والقصور المرتفعة .

والتماثيل : جمع التمثال وقد يكون من حجر أو خشب أو نحاس أو غير ذلك .

قال القرطبى ما ملخصه : والتماثيل جمع تمثال ، وهو كل ما صور على مثل صورة حيوان أو غير حيوان ، وقيل : كانت من زجاج ونحاس ورخام ، تماثيل أشياء ليست

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٨١ .

(٢) سورة «ص» الآية ٣٦ .

بحيوان ، وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور فى المساجد ليراها الناس ، فيزدادوا عبادة واجتهادا .

وهذا يدل على أن ذلك كان مباحا فى زمانهم ، ونسخ ذلك بشرع محمد ﷺ [1]

والجفان : جمع جَفْنَة ، وهي الآنية الكبيرة ، والجَوَاب : جمع جابية ، وهى الحوض الكبير الذى يجبى فيه الماء ويجمع لتشرب منه الدواب .

والقدور : جمع قدر ، وهو الآنية التى يطبخ فيها الطعام من نحاس أو فخار أو غيرهما .

وراسيات : جمع راسية بمعنى ثابتة لاتتحرك .

أى : أن الجن يعملون لسليمان ـ عليه السلام ـ مايشاء من مساجد وقصور ، ومن صور متنوعة ، ومن قصاع كبار تشبه الأحواض الضخمة ، ومن قدور ثابتات على قواعدها ، بحيث لاتحرك لضخامتها وعظمها .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ مقول لقول محذوف .

أى : أعطينا سليمان كل هذه النعم ، وقلنا له ولأهله : اعملوا يا آل داود عملا صالحا شكرا خالصا على نعمى وفضلى وإحسانى .

وهكذا يختم القرآن هذه النعم بهذا التعقيب الذى يكشف عن طبيعة الناس فى كل زمان ومكان ، حتى يحملهم على أن يخالفوا أهواءهم ونفوسهم ، ويكثروا من ذكر الله ـ تعالى ـ وشكره .

وحقيقة الشكر : الاعتراف بالنعمة للمنعم ، والثناء عليه لإنعامه ، واستعمال نعمه ـ سبحانه ـ فيما خلقت له .

والإنسان الشكور : هو المتوفر على أداء الشكر ، الباذل قصارى جهده فى ذلك ، عن طريق قلبه ولسانه وجوارحه .

ثم ختم ـ سبحانه ـ النعم التى أنعم بها على داود وسليمان ، ببيان مشهد وفاة سليمان ، فقال : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ﴾ .

والمراد بدابة الأرض : قيل هى الأَرَضَة التى تأكل الخشب وتتغذى به ، يقال : أرضت الدابة الخشب أَرْضًا ـ من باب ضرب ـ إذا أكلته ، فإضافة الدابة إلى الأرض ـ بمعنى الأكل والقطع ـ من إضافة الشىء إلى فعله .

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٤ ص٢٧٢ .

و﴿ مِنسَأَتَهُ ﴾ أى : عصاه التى كان مستندا عليها ، وسميت العصا بذلك لأنها تزجر بها الأغنام إذا جاوزت مرعاها ، من نسأ البعير ـ كمنع ـ إذا زجره وساقه ، أو إذا أخره ودفعه .

والمعنى : فلما حكمنا على سليمان ـ عليه السلام ـ بالموت ، وأنفذناه فيه ، وأوقعناه عليه ، ﴿ مَا دَلَّهُمْ ﴾ أى : الجن الذين كانوا فى خدمته ﴿ عَلَىٰ مَوْتِهِ ﴾ بعد أن مات وظل واقفا متكئا على عصاه ﴿ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ﴾ .

أى : أنهم لم يدركوا أنه مات ، واستمروا فى أعمالهم الشاقة التى كلفهم بها ،حتى جاءت الدابة التى تفعل الأرض ـ أى الأكل والقطع ـ فأكلت شيئا من عصاه التى كان متكئا عليها ، فسقط واقعا بعد أن كان واقفا .

﴿ فَلَمَّا خَرَّ ﴾ أى : فلما سقط سليمان على الأرض ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنّ ﴾ أى : ظهر لهم ظهورا جليا ﴿ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ﴾ كما يزعم بعضهم .

﴿ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ أى : مابقوا فى الأعمال الشاقة التى كلفهم بها سليمان .

وذلك أن الجن استمروا فيما كلفهم به سليمان من أعمال شاقة ، ولم يدركوا أنه قد مات ، حتى جاءت الأرضة فأكلت شيئا من عصاه ، فسقط على الأرض وهنا فقط علموا أنه قد مات .

قال ابن كثير : «يذكر ـ تعالى ـ فى هذه الآية كيفية موت سليمان ـ عليه السلام ـ وكيف عمَّى الله موته على الجان المسخرين له فى الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئا على عصاه ، ـ وهى منسأته ـ مدة طويلة نحوا من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض ـ وهى الأرضة ـ ضعف وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ـ تبينت الجن ـ والإنس أيضا ـ أن الجن لايعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك»[1] .

٨ ـ وفى سورة «ص» حديث متنوع عن داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ ويبدأ هذا الحديث عنهما بقوله ـ تعالى ـ :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٤٨٩ .

ٱصْبِرْ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

والخطاب فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ للنبى ﷺ .

أى : اصبر ـ أيها الرسول الكريم ـ على ما قاله أعداؤك فيك وفى دعوتك لقد قالوا عنك إنك ساحر ومجنون وكاهن وشاعر ، وقالوا عن القرآن الكريم : إنه أساطير الأولين ، وقالوا فى شأن دعوتك إياهم إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ وقالوا غير ذلك مما يدل على جهلهم وجحودهم للحق ، وعليك ـ أيها

الرسول الكريم ـ أن تصبر على ماصدر منهم من أباطيل ، فإن الصبر مفتاح الفرج ، وهو الطريق الذى سكله كل نبى من قبلك .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ معطوف على جملة «اصبر» . . وداود ـ عليه السلام ـ : هو ابن يسى من سبط «يهوذا» بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ ذَا الأَيْدِ ﴾ صفة لداود ، والأيد : القوة ، يقال : آدَ الرجل يئيد أيْدًا وإيادا ، إذا قوى واشتد عوده ، فهو أيِّد ، ومنه قولهم فى الدعاء : أيدك الله ، أى : قواك و﴿ أَوَّابٌ ﴾ صيغة من آب إذا رجع .

أى : اصبر ـ أيها الرسول الكريم ـ على أذى قومك حتى يحكم الله بينك وبينهم .

واذكر ـ لتزداد ثباتا وثقة ـ قصة حال عبدنا داود ، صاحب القوة الشديدة فى عبادتنا وطاعتنا وفى دحر أعدائنا ، ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أى : كثير الرجوع إلى ما يرضينا .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض مظاهر فضله ونعمه على عبده داود ـ عليه السلام ـ فقال :

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾ .

والعشى : الوقت الذى يكون من الزوال إلى الغروب أو إلى الصباح ، والإشراق : وقت إشراق الشمس ، أى : سطوعها وصفاء ضوئها ، قالوا : وهو وقت الضحى .

فالإشراق غير الشروق ، لأن الشروق هو وقت طلوع الشمس ، وهو يسبق الإشراق أى : إن من مظاهر فضلنا ، على عبدنا داود ، أننا سخرنا وذللنا الجبال معه ، بأن جعلناها بقدرتنا تقتدى به فتسبح بتسبيحه فى أوقات العشى والإشراق .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ مَعَهُ ﴾ للإشعار بأن تسبيحها كان سبيل الاقتداء به فى ذلك .

أى : أنها إذا سمعته يسبح الله ـ تعالى ـ ويقدسه وينزهه ، رددت معه مايقوله .

وهذا التسبيح من الجبال لله ـ تعالى ـ إنما هو على سبيل الحقيقة ولكن بكيفية لايعلمها إلا هو ـ عز وجل ـ بدليل قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (١)

---

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

والقول بأن تسبيح الجبال كان بلسان الحال ضعيف لأمور منها : المخالفة لظاهر ماتدل عليه الآية من أن هناك تسبيحا حقيقيا بلسان المقال ، ومنها : أن تقييد التسبيح بلسان الحال موجود منها فى كل وقت ، ولايختص بكونه فى هذين الوقتين أو مع داود .

وخص - سبحانه - وقتى العشى والإشراق بالذكر ، للإشارة إلى مزيد شرفهما ، وسمو درجة العبادة فيهما .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً .. ﴾ معطوف على الجبال وكلمة محشورة : بمعنى مجموعة ، وهى حال من الطير ، والعامل قوله : ﴿ سَخَّرْنَا ﴾ .

أى : إنا سخرنا الجبال لتسبح مع داود عند تسبيحه لنا ، كما سخرنا الطير وجمعناها لتردد معه التسبيح والتقديس لنا .

والتعبير بقوله : ﴿ مَحْشُورَةً ﴾ يشير إلى أن الطير قد حبست وجمعت لغرض التسبيح معه ، حتى لكأنها تحلق فوقه ولاتكاد تفارقه من شدة حرصها على تسبيح الله - تعالى - وتقديسه .

وجملة ﴿ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ مقررة لمضمون ماقبلها من تسبيح الجبال والطير .

واللام فى ﴿ لَّهُ ﴾ للتعليل ، والضمير يعود إلى داود - عليه السلام - .

أى : كل من الجبال والطير ، من أجل تسبيح داود ، كان كثير الرجوع إلى التسبيح .

ويصح أن يكون الضمير يعود إلى الله - تعالى - فيكون المعنى : كل من داود والجبال والطير ، كان كثير التسبيح والتقديس والرجوع إلى الله - تعالى - بما يرضيه .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أى : قوينا ملك داود ، عن طريق كثرة الجند التابعين له ، وعن طريق ما منحناه من هيبة ونصرة وقوة .

﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ أى : النبوة ، وسعة العلم ، وصالح العمل ، وحسن المنطق .

﴿ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ أى : وآتيناه أيضا الكلام البليغ الفاصل بين الحق والباطل ، وبين الصواب والخطأ ، ووفقناه للحكم بين الناس بطريقة مصحوبة بالعدل وبالحزم الذى لايشوبه تردد أو تراجع .

٩ - ثم ساق - سبحانه - مايشهد لعبده داود بذلك فقال : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ .

والاستفهام للتعجب والتشويق لما يقال بعده ، لكونه أمرا غريبا تتطلع إلى معرفته النفس .

والنبأ : الخبر الذى له أهمية فى النفوس .

و﴿ الْخَصْمِ ﴾ : أى المتخاصمين أو الخصماء ، وهو فى الأصل مصدر خصمه أى : غلبه فى المخاصمة والمجادلة والمنازعة ، ولكونه فى الأصل مصدرا صح إطلاقه على المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث ، قالوا : وهو مأخوذ من تعلق كل واحد من المتنازعين بخصم الآخر ، أى : بجانبه .

والظرف فى قوله : ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ متعلق بمحذوف ، والتسور : اعتلاء السور ، والصعود فوقه ، إذ صيغة التفعل تفيد العلو والتصعد ، كما يقال تسنم فلان الجمل ، إذا علا فوق سنامه .

والمحراب : المكان الذى كان يجلس فيه داود ـ عليه السلام ـ للتعبد وذكر الله ـ تعالى ـ .

والمعنى : وهل وصل إلى علمك ـ أيها الرسول الكريم ـ ذلك النبأ العجيب ، ألا وهو نبأ أولئك الخصوم ، الذين تسلقوا على داود غرفته ، وقت أن كان جالسا فيها لعبادة ربه ، دون إذن منه ، ودون علم منه بقدومهم .

إن كان هذا النبأ العجيب لم يصل إلى علمك ، فها نحن نقصه عليك .

وقوله : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ .. ﴾ بدل مما قبله ، والفزع : انقباض فى النفس يحدث للإنسان عند توقع مكروه .

أى : أن هؤلاء الخصوم بعد أن تسوروا المحراب ، دخلوا على داود ، فخاف منهم ، لأنهم أتوه من غير الطريق المعتاد للإتيان وهو الباب ، ولأنهم أتوه فى غير الوقت الذى حدده للقاء الناس وللحكم بينهم ، وإنما أتوه فى وقت عبادته .

ومن شأن النفس البشرية أن تفزع عندما تفاجأ بحالة كهذه الحالة .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما قاله أولئك الخصوم لداود عندما شاهدوا عليه أمارات الوجل والفزع ، فقال : ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ .

والبغى : الجور والظلم ، وأصله من بغى الجرح إذا ترامى إليه الفساد .

والشطط : مجاوزة الحد فى كل شىء ، يقال : شط فلان على فلان فى الحكم واشتط ، إذا ظلم وتجاوز الحق إلى الباطل .

وقوله : ﴿ خَصْمَانِ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى : نحن خصمان ، والجملة استئناف معلل للنهى فى قولهم ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ أى : قالوا لداود : لاتخف ، نحن خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحكم الحق ، ولا تتجاوزه إلى غيره ، ﴿ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ أى : وأرشدنا إلى الطريق الوسط ، وهو طريق الحق والعدل .

وإضافة سواء للصراط ، من إضافة الصفة إلى الموصوف .

ثم أخذا فى شرح قضيتهما فقال أحدهما : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ .

والمراد بالأخوة هنا : الأخوة فى الدين أو فى النسب ، أو فيهما وفى غيرهما كالصحبة والشركة .

والنعجة : الأنثى من الضأن .

وقوله : ﴿ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أى : ملكنى إياها ، وتنازل لى عنها ، بحيث تكون تحت كفالتى وملكيتى كبقية النعاج التى عندى ، ليتم عددها مائة .

وقوله : ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ أى : غلبنى فى المحاجة والمخاطبة وأنه أفصح وأقوى منى ، يقال فلان عز فلانا فى الخطاب ، إذا غلبه ، ومنه قولهم فى المثل : من عزَّ بزَّ ، أى : من غلب غيره سلبه حقه ، أى : قال أحدهما لداود - عليه السلام - : إن هذا الذى يجلس معى للتحاكم أمامك أخى ، وهذا الأخ له تسع وتسعون نعجة ، أما أنا فليس لى سوى نعجة واحدة ، فطمع فى نعجتى وقال لى : ﴿ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ أى : ملكنيها وتنازل لى عنها ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ أى : وغلبنى فى مخاطبته لى ، لأنه أقوى وأفصح منى .

وأمام هذه القضية الواضحة المعالم ، وأمام سكوت الأخ المدعى عليه أمام أخيه المدعى ، وعدم اعتراضه على قوله ، أمام كل ذلك ، لم يلبث أن قال داود فى حكمه : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ . . ﴾ .

أى : قال داود - عليه السلام - بعد فراغ المدعى من كلامه ، وبعد إقرار المدعى عليه بصدق أخيه فيما ادعاه : والله إن كان ما تقوله حقا أيها المدعى ، فإن أخاك فى هذه الحالة يكون قد ظلمك بسبب طلبه منك أن تتنازل له عن نعجتك لكى يضمها إلى نعاجه الكثيرة .

وإنما قلنا إن داود - عليه السلام - قد قال ذلك بعد إقرار المدعى عليه بصحة كلام المدعى ، لأنه من المعروف أن القاضى لايحكم إلا بعد سماع حجة الخصوم أو الخصمين حتى يتمكن من الحكم بالعدل .

ولم يصرح القرآن بأن داود - عليه السلام - قد قال حكمه بعد سماع كلام المدعى عليه ، لأنه مقرر ومعروف فى كل الشرائع ، وحذف ماهو مقرر ومعلوم جائز عند كل ذى عقل سليم .

ثم أراد داود ـ عليه السلام ـ وهو الذى آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، أراد ـ أن يهون المسألة على نفس المشتكى ، وأن يخفف من وقع ما قاله أخوه الغنى له ، وما فعله معه ، فقال : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ .. ﴾ .

أى : قال داود للمشتكى ـ على سبيل التسلية له ـ : وإن كثيرا من الخلطاء أى : الشركاء ـ جمع خليط ، وهو من يخلط ماله بمال غيره .

﴿ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أى : ليعتدى بعضهم على بعض ، ويطمع بعضهم فى مال الآخر ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فإنهم لايفعلون ذلك لقوة إيمانهم ، ولبعدهم عن كل مالا يرضى خالقهم .

وقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ بيان لقلة عدد المؤمنين الصادقين الذين يعدلون فى أحكامهم .

فكأنه ـ سبحانه ـ يقول : ما أقل هؤلاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات ويحرصون على إعطاء كل ذى حق حقه .

وبهذا نرى أن داود ـ عليه السلام ـ قد قضى بين الخصمين ، بما يحق الحق ويبطل الباطل .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما حاك بنفس داود ـ عليه السلام ـ بعد أن دخل عليه الخصمان ، وبعد أن حكم بينهما بالحكم السابق فقال : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ .

والظن معناه : ترجيح أحد الأمرين على الآخر .

وفتناه : بمعنى امتحناه واختبرناه وابتليناه ، مأخوذ من الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار .

أى : وظن داود ـ عليه السلام ـ أن دخول الخصمين عليه بهذه الطريقة ، إنما هو لأجل الاعتداء عليه ، وأن ذلك لون من ابتلاء الله ـ تعالى ـ له ، وامتحانه لقوة إيمانه ، ولكن لما لم يتحقق هذا الظن ، وإنما الذى تحقق هو القضاء بينهما بالعدل ، استغفر ربه من ذلك الظن ، ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أى : ساجدا لله ـ تعالى ـ وعبر عنه بالركوع لأنه فى كل منهما انحناء وخضوع لله ـ عز وجل ـ ﴿ وَأَنَابَ ﴾ أى : ورجع داود إلى الله ـ تعالى ـ بالتوبة وبالمداومة على العبادة والطاعة .

واسم الإشارة فى قوله ـ تعالى ـ ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ يعود إلى الظن الذى استغفر منه ربه ، وهو ظنه بأن حضور الخصمين إليه بهذه الطريقة غير المألوفة ، القصد منها الاعتداء عليه ، فلما ظهر له أنهما حضرا إليه فى خصومة بينهما ليحكم فيها ، استغفر ربه من ذلك الظن السابق ، فغفر الله ـ تعالى ـ له .

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أى : فغفرنا له ذلك الظن الذى استغفر منه . . .
﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ ﴾ أى : لقربة منا ومكانة سامية ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أى : وحسن مرجع فى الآخرة وهو الجنه .

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه القصة ، بتلك التوجيهات الحكيمة ، والآداب القويمة ، التى وجهها ـ سبحانه ـ إلى كل حاكم فى شخص داود ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ .

والخليفة : هو من يخلف غيره وينوب منابه ، فهو فعيل بمعنى فاعل ، والتاء فيه للمبالغة ، أى : يا داود إنا جعلناك ـ بفضلنا ومنتنا ـ خليفة ونائبا عنا فى الأرض ، لتتولى سياسة الناس ، ولترشدهم إلى الصراط المستقيم .

والجملة الكريمة مقولة لقول محذوف معطوفة على ما سبقتها ، أى : فغفرنا له ذلك وقلنا له يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض .

والفاء فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ . . ﴾ للتفريع ، أو هى جواب لشرط مقدر ، والهوى : ميل النفس إلى رغباتها بدون تحر للعدل والصواب .

أى : إذا كان الأمر كما أخبرناك فاحكم ـ يا داود ـ بين الناس بالحكم الحق الذى أرشدك الله ـ تعالى ـ إليه ، وواظب على ذلك فى جميع الأزمان والأحوال : ولاتتبع هوى النفس وشهواتها ، فإن النفس أمارة بالسوء .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ . . ﴾ بيان للمصير السيئ الذى يؤدى إليه اتباع الهوى فى الأقوال والأحكام .

ثم بين ـ سبحانه ـ عاقبة الذين يضلون عن سبيله فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ .

أى : إن الذين يضلون عن دين الله وعن طريقه وشريعته ، بسبب اتباعهم للهوى ، لهم عذاب شديد لايعلم مقداره إلا الله ـ تعالى ـ لأنهم تركوا الاستعداد ليوم الحساب ، ومافيه من ثواب وعقاب .

١٠ ـ هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات مايأتى :

١ ـ سمو منزلة داود ـ عليه السلام ـ عند ربه ، فقد افتتحت هذه الآيات ، بأن أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أن يتذكر ماحدث لأخيه داود ، ليكون هذا التذكير تسلية له عما أصابه من المشركين وعونا له على الثبات والصبر .

ثم وصف ـ سبحانه ـ عبده داود بأنه كان قويا فى دينه ، ورجاعا إلى ما يرضى ربه ، وأنه ـ سبحانه ـ قد وهبه نعما عظيمة ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب .

ثم ختمت هذه الآيات ـ أيضا ـ بالثناء على داود ـ عليه السلام ـ حيث قال ـ سبحانه ـ : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ وبيان أنه ـ تعالى ـ قد جعله خليفة فى الأرض .

ومن الأحاديث التى وردت فى فضله ـ عليه السلام ـ ما أخرجه البخارى فى تاريخه أن رسول الله ﷺ كان إذا ذكر داود ، حدث عنه قال : «كان أعبد البشر» .

وأخرج الديلمى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «لاينبغى لأحد أن يقول إنى أعبد من داود» .

٢ ـ أن قصة الخصمين اللذين تسورا على داود المحراب ، قصة حقيقية ، وأن الخصومة كانت بين اثنين من الناس فى شأن غنم لهما ، وأنهما حين دخلا عليه بتلك الطريقة الغريبة التى حكاها القرآن الكريم ، فزع منهما داود ـ عليه السلام ـ وظن أنهما يريدان الاعتداء عليه ، وأن الله ـ تعالى ـ يريد امتحانه وثباته أمام أمثال هذه الأحداث .

فلما تبين لداود بعد ذلك أن الخصمين لايريدان الاعتداء عليه ، وإنما يريدان التحاكم إليه فى مسألة معينة ، استغفر ربه من ذلك الظن السابق ـ أى ظن الاعتداء عليه فغفر الله ـ تعالى ـ له .

والذى يتدبر الآيات الكريمة يراها واضحة وضوحا جليا فى تأييد هذا المعنى .

قال أبو حيان ما ملخصه ـ بعد أن ذكر جملة من الآراء ـ : والذى أذهب إليه مادل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين للمحراب كانوا من الإنس ، دخلوا من غير المدخل ، وفى غير وقت جلوسه للحكم وأنه فزع منهم ظانا أنهم يغتالونه ، إذ كان منفردا فى محرابه لعبادة ربه ، فلما اتضح له أنهم جاءوا فى حكومته ، وبرز منهم اثنان للتحاكم ، وأن ما ظنه غير واقع ، استغفر من ذلك الظن ، حيث اختلف ولم يقع مظنونه ، وخر ساجدا منيبا إلى الله ـ تعالى ـ فغفر الله له ذلك الظن ولذلك أشار بقوله : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ ولم يتقدم سوى قوله ـ تعالى ـ :﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ ويعلم قطعا أن الأنبياء معصومون من الخطايا ، ولايمكن وقوعهم فى شىء منها ضرورة أننا لوجوزنا عليهم شيئا من ذلك لبطلت الشرائع ، ولم نثق بشىء مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم ، فما حكى الله ـ تعالى ـ فى كتابه ، يمر على ما أراده ـ تعالى ـ وما حكى القصاص مما فيه غض من منصب النبوة ، طرحناه .[1]

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ٧ ص٣٩٣ .

٣ ـ ومع أن ما ذكرناه سابقا ، وما نقلناه عن الإمام أبى حيان ، هو المعنى الظاهر من الآيات ، وهو الذى تطمئن إليه النفس ، لأنه يتناسب مع مكانة داود ـ عليه السلام ـ ومع ثناء الله ـ تعالى ـ عليه وتكريمه له .

أقول مع كل ذلك ، إلا أننا وجدنا كثيرا من المفسرين عند حديثهم عن قصة الخصوم الذين تسوروا على داود المحراب ، يذكرون قصصا فى نهاية النكارة ، وأقوالا فى غاية البطلان والفساد .

فمثلا نرى ابن جرير وغيره يذكرون قصة مكذوبة ملخصها : «أن داود ـ عليه ـ السلام ـ كان يصلى فى محرابه ، ثم تطلع من نافذة المكان الذى كان يصلى فيه ، فرأى امرأة جميلة فأرسل إليها فجاءته ، فسألها عن زوجها فأخبرته بأن زوجها ، اسمه «أوريا» وأنه خرج مع الجيش الذى يحارب الأعداء ، فأمر داود ـ عليه السلام ـ قائد الجيش أن يجعله فى المقدمة لكى يكون عرضة للقتل ، وبعد قتله تزوج داود بتلك المرأة .[١]

ونرى صاحب الكشاف بعد أن يذكر هذه القصة ، ثم يعلق عليهابقوله : «فهذا ونحوه مما يقبح أن يُحدَّثَ به عن بعض المتسمين بالصلاح من أبناء المسلمين ، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء» ، نراه يذكر معها قصصا أخرى ملخصها : أن داود ـ عليه السلام ـ لم يعمل على قتل «أوريا» وإنما سأله أن يتنازل له عن امرأته ، فانصاع لأمره وتنازل له عنها ، أو أنه خطبها بعد أن خطبها «أوريا» ، فآثر أهلها داود على «أوريا» .

قال صاحب الكشاف : كان أهل زمان داود ـ عليه السلام ـ يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته ، فيتزوجها إذا أعجبته ، وكان لهم عادة فى المواساة بذلك قد اعتادوها ، فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له «أوريا» ، فأحبها ، فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ، ففعل ، فتزوجها ، وهى أم سليمان ـ عليه السلام ـ وقيل : خطبها «أوريا» ثم خطبها داود فآثر أهلها داود على «أوريا» .[٢]

والذى نراه أن هذه الأقوال وما يشبهها عارية عن الصحة ، وينكرها النقل والعقل ، ولا يليق بمؤمن أن يقبل شيئا منها .

ينكرها النقل : لأنها لم تثبت من طريق يعتد به ، بل الثابت أنها مكذوبة .

قال ابن كثير : قد ذكر المفسرون ههنا قصة ، أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبى حاتم هناحديثا لايصح سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشى ، عن أنس ـ ويزيد وإن كان من الصالحين ـ لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة .[٣]

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ٢٣ ص٩٣ ، وتفسير القرطبى جـ١٥ ص١٦١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ٤ ص٨٠ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ٧ ص٥١ .

وقال السيوطى : القصة التى يحكونها فى شأن المرأة وأنها أعجبته ، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل ، أخرجها ابن أبى حاتم من حديث أنس مرفوعا ، وفى إسناده ابن لهيعة - وحاله معروف - عن ابن صخر ، عن زيد الرقاشى ، وهو ضعيف .

وقال البقاعى : وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود - وقد أخبرنى بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك فى حق داود - عليه السلام - لأن عيسى - عليه السلام - من ذريته ، ليجدوا سبيلا إلى الطعن فيه .(١)

إذن فهذه القصص وتلك الأقوال غير صحيحة من ناحية النقل ، لأن رواتها معروفون بالضعف ، وبالنقل عن الإسرائيليات .

ويروى أن الإمام عليا رضي الله عنه قال : «من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة ، وهو حد الفرية على الأنبياء» .(٢)

وهى غير صحيحة من ناحية العقل ، لأنه ليس من المعقول أن يمدح الله - تعالى - نبيه داود هذا المدح فى أول الآيات وفى آخرها كما سبق أن أشرنا ، ثم نرى بعد ذلك من يتهمه بأنه أعجب بامرأة ، ثم تزوجها بعد أن احتال لقتل زوجها ، بغير حق ، أو طلب منه التنازل له عنها ، أو خطبها على خطبته .

إن هذه الأفعال يتنزه عنها كثير من الناس الذين ليسوا بأنبياء ، فكيف يفعلها واحد من أعلام الأنبياء ، هو داود - عليه السلام - الذى مدحه الله - تعالى - بالقوة فى دينه ، وبكثرة الرجوع إلى ما يرضى الله - تعالى - وبأنه - سبحانه - آتاه الحكمة وفصل الخطاب ، وبأن له عند ربه ﴿ لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ .

والخلاصة : أن كل ماقيل عند تفسير هذه الآيات ، مما يتصل بزواج داود بتلك المرأة أو بزوجها لا أساس له من الصحة ، لأنه لم يقم عليه دليل أو ما يشبه الدليل ، بل قام الدليل على عدم صحته إطلاقا ، لأنه يتنافى مع عصمة الأنبياء ، الذين صانهم الله - تعالى - من ارتكاب ما يخدش الشرف والمروءة قبل النبوة وبعدها .

قال الإمام ابن حزم ما ملخصه : «ما حكاه الله - تعالى - عن داود قول صادق صحيح ، لايدل على شىء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود .

وإنما كان ذلك الخصم قوما من بنى آدم بلاشك ، مختصمين فى نعاج من الغنم .

ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء ، فقد كذب على الله - تعالى - مالم يقل ، وزاد فى القرآن ماليس فيه ، لأن الله - تعالى - يقول :﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾

---

(١) راجع تفسير القاسمى جـ١٤ ص٥٠٨٨ .
(٢) راجع تفسير الكشاف جـ٤ ص٨١ .

فقال هو : لم يكوناخصمين ، ولابغى بعضهم على بعض ، ولاكان لأحدهما تسع وتسعون نعجة ، ولا كان للآخر نعجة واحدة ولا قال له : ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ .[١]

٤ ـ هذا : وهناك أقوال أخرى ذكرها المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات ، منها : أن استغفار داود ـ عليه السلام ـ إنما كان سببه أنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع حجة الآخر .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : لم لايجوز أن يقال إن تلك الزلة التى جعلت داود يستغفر ربه ـ إنما حصلت لأنه قضى لأحد الخصمين ، قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر ، فإنه لما قال له : «لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه» فحكم عليه بكونه ظالما بمجرد دعوى الخصم بغير بينة لكون هذا الخصم مخالفا للصواب ، فعند هذا اشتغل داود بالاستغفار والتوبة ، إلا أن هذا من باب ترك الأولى والأفضل .[٢]

والذى نراه أن هذا القول بعيد عن الصواب ولايتناسب مع منزلة داود ـ عليه السلام ـ الذى آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وذلك لأن من أصول القضاء وأولياته ، ألا يحكم القاضى بين الخصمين أو الخصوم إلا بعد سماع حججهم جميعا ، فكيف يقال بعد ذلك إن داود قضى لأحد الخصمين قبل أن يستمع إلى كلام الآخر .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف سارع داود إلى تصديق أحد الخصمين ، حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه؟ .

قلت : ما قال داود ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه ، ولكنه لم يحك فى القرآن لأنه معلوم ، ويروى أنه قال : أريد أخذها منه وأكمل نعاجى مائة فقال داود : إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا ، وأشار إلى طرف الأنف والجبهة .[٣]

ومنهم من يرى أن استغفار داود ـ عليه السلام ـ كان سببه : أن قوما من الأعداء أرادوا قتله ، فتسوروا عليه المحراب ، فلما دخلواعليه لقصد قتله وجدوا عنده أقواما ، فلم يستطيعوا تنفيذ ما قصدوه ، وتصنعوا هذه الخصومة فعلم داود قصدهم ، وعزم على الانتقام منهم ، ثم عفا عنهم ، واستغفر ربه مما كان قد عزم عليه ، لأنه كان يرى أن الأليق به العفو لا الانتقام .[٤]

وهذا القول ـ وإن كان لابأس به من حيث المعنى ـ إلا أن الرأى الذى سقناه سابقا ، والذى ذهب إليه الإمام أبوحيان ، أرجح وأقرب إلى ما هو ظاهر من معنى الآيات .

---

(١) راجع تفسير القاسمى جـ١٤ ص٥٠٨٩ .
(٢) راجع تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص١٨٢ .
(٣) تفسير الكشاف جـ٤ ص٨٧ .
(٤) تفسير الآلوسى جـ٢٣ ص١٨٦ .

وملخصه : أن الخصومة حقيقية بين اثنين من البشر ، واستغفار داود ـ عليه السلام ـ سببه أنه ظن أنهم جاءوا لاغتياله ولإيذائه ، وأن هذا ابتلاء من الله ـ تعالى ـ ابتلاه بهم ثم تبين له بعد ذلك أنهم ماجاءوا للاعتداء عليه وإنما جاءوا ليقضى بينهم فى خصومة فاستغفر ربه من ذلك الظن ، فغفر الله ـ تعالى ـ له .

ولعلنا بهذا البيان نكون قد وفقنا للصواب ، فى تفسير هذه الآيات الكريمة ، التى ذكر بعض المفسرين عند تفسيرها أقوالا وقصصا لايؤيدها عقل ، أو نقل ، ولايليق بمسلم أن يصدقها ، لأنها تتنافى مع عصمة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الذين اختارهم الله ـ تعالى ـ لتبليغ دعوته ، وحمل رسالته ، وإرشاد الناس إلى إخلاص العبادة له ـ سبحانه ـ وإلى مكارم الأخلاق ، وحميد الخصال .

١١ ـ ثم ذكر ـ سبحانه ـ جانبا من قصة سليمان ـ عليه السلام ـ فمدحه لكثرة رجوعه إلى الله ، وذكر بعض النعم التى منحها إياه ، كما ذكر اختباره له ، وكيف أن سليمان ـ عليه السلام ـ طلب من ربه المغفرة والملك فأعطاه ، سبحانه ـ ما طلبه قال ـ تعالى ـ :

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾

فى هذه الآيات الكريمة مسألتان ذكر بعض المفسرين فيهما كلاما غير مقبول .

أما المسألة الأولى فهى مسألة : عرض الخيل على سيدنا سليمان والمقصود به .

وأما المسألة الثانية فهى معنى قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ .

وسنسير فى تفسير هذه الآيات على الرأى الذى تطمئن إلى صحته نفوسنا ، ثم نذكر بعده بعض الأقوال التى قيلت فى هذا الشأن ، ونرد على ما يستحق الرد منها ، فنقول - وبالله التوفيق - :

المخصوص بالمدح فى قوله - تعالى - : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ محذوف ، والمقصود به سليمان - عليه السلام - أى : ووهبنا - بفضلنا وإحساننا - لعبدنا داود ابنه سليمان - عليهما السلام - ونعم العبد سليمان فى دينه ، وفى خلقه وفى شكره لخالقه - تعالى - .

وجملة ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ تعليل هذا المدح من الله - تعالى - لسليمان - عليه السلام - أى : إنه رجاع إلى ما يرضى الله - تعالى - مأخوذ من آب الرجل إلى داره ، إذا رجع إليها .

و﴿ إِذْ ﴾ فى قوله : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ منصوب بفعل تقديره : اذكر ، و ﴿ عَلَيْهِ ﴾ متعلق بعُرِض و ﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾ يطلق على الزمان الكائن من زوال الشمس إلى آخر النهار ، وقيل إلى مطلع الفجر .

والصافنات : جمع صافن ، والصافن من الخيل : الذى يقف على ثلاثة أرجل ويرفع الرابعة فيقف على مقدم حافرها .

والجياد : جمع جواد ، وهو الفرس السريع العدو ، الجيد الركض ، سواء أكان ذكرا أم أنثى ، يقال : جاد الفرس يجود جُودَة فهو جواد ، إذا كان سريع الجرى ، فاره المظهر .

أى : اذكر - أيها العاقل - ما كان من سليمان عليه السلام - وقت أن عرض عليه بالعشى الخيول الجميلة الشكل ، السريعة العدو .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله سليمان - عليه السلام - خلال استعراضه للخيول الصافنات الجياد على سبيل الشكر لربه ، فقال - تعالى - : ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ .

والخير : يطلق كثيرا على المال الوفير ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ والمراد به هنا : الخيل الصافنة الجيدة ، والعرب تسمى الخيل خيرا ، لتعلق الخير بها ، روى البخارى عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» .

و﴿ عَن ﴾ هنا تعليلية ، والمراد بـ ﴿ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ طاعته وعبادته والضمير فى قوله ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ ﴾ يعود إلى الخيل الصافنات الجياد ، والمراد بالحجاب : ظلام الليل الذى يحجب الرؤية .

والمعنى : فقال سليمان وهو يستعرض الخيل أو بعد استعراضه لها : إنى أحببت استعراض الصافنات الجياد ، وأحببت تدريبها وإعدادها للجهاد ، من أجل ذكر ربى وطاعته وإعلاء كلمته ، ونصرة دينه ، وقد بقيت حريصا على استعراضها وإعدادها للقتال فى سبيل الله ، حتى توارت واختفت عن نظرى بسبب حلول الظلام الذى يحجب الرؤية ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ أى : قال سليمان لجنده ردوا الصافنات الجياد علىَّ مرة أخرى ، لأزداد معرفة بها ، وفهما لأحوالها .

والفاء فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ ﴾ فصيحة تدل على كلام محذوف يفهم من السياق ، و«طفق» فعل من أفعال الشروع يرفع الاسم وينصب الخبر ، واسمه ضمير يعود على سليمان و﴿ مَسْحًا ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف ، والسوق والأعناق : جمع ساق وعنق .

أى : قال سليمان لجنده : ردوا الصافنات الجياد علىّ ، فردوها عليه ، فأخذ فى مسح سيقانها وأعناقها إعجابا بها ، وسرورا بما هى عليه من قوة هو فى حاجة إليها للجهاد فى سبيل الله ـ تعالى ـ .

هذا هو التفسير الذى تطمئن إليه نفوسنا لهذه الآيات ، لخلوه من كل ما يتنافى مع سمو منزلة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ .

ولكن كثيرا من المفسرين نهجوا نهجا آخر ، معتمدين على قصة ملخصها : أن سليمان ـ عليه السلام ـ جلس يوما يستعرض خيلا له ، حتى غابت الشمس دون أن يصلى العصر ، فحزن لذلك وأمر بإحضار الخيل التى شغله استعراضها عن الصلاة ، فأخذ فى ضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، قربة لله ـ تعالى ـ .

فهم يرون أن الضمير فى قوله ـ تعالى ـ ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ يعود إلى الشمس ، أى : حتى استترت الشمس بما يحجبها عن الأبصار .

وأن المراد بقوله ـ تعالى ـ ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ ﴾ الشروع فى ضرب سوق الخيل وأعناقها بالسيف لأنها شغلته عن صلاة العصر .

قال الجمل : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ ﴾ أى : جعل يضرب سوقها وأعناقها بالسيف ، هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين [1] .

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ٣ ص٥٧٣ وغيرها من كتب التفسير .

ولم يرتض الإمام الرازى ـ رحمه الله ـ هذا التفسير الذى عليه أكثر المفسرين وإنما ارتضى أن الضمير فى ﴿ تَوَارَتْ ﴾ يعود إلى الصافنات الجياد وأن المقصود بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ ﴾ الإعجاب بها والمسح عليها بيده حبا لها .

فقد قال ما ملخصه : إن رباط الخيل كان مندوبا إليه فى دينهم ، كما أنه كذلك فى دين الإسلام ، ثم إن سليمان ـ عليه السلام ـ احتاج إلى الغزو ، فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها ، وذكر أنى لا أحبها لأجل الدنيا وإنما أحبها لأمر الله ، وطلب تقوية دينه ، وهو المراد من قوله : ﴿ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ ثم إنه ـ عليه السلام ـ أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أى : غابت عن بصره .

ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه ، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها .

والغرض من ذلك : التشريف لها لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدو ، وإظهار أنه خبير بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها مايدل على المرض .(١)

وقال بعض العلماء نقلا عن ابن حزم : تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة ، خرافة موضوعة ، قد جمعت أفانين من القول لأن فيها معاقبة خيل لاذنب لها والتمثيل بها ، وإتلاف مال منتفع به بلا معنى ، ونسبة تضييع الصلاة إلى نبى مرسل ، ثم يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها .

وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب حب الخير ، من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمس أو تلك الصافنات بحجابها .

ثم أمر بردها ، فطفق مسحا بسوقها وأعناقها بيده ، برا بها ، وإكراما لها ، هذا هو ظاهر الآية الذى لايحتمل غيره ، وليس فيها إشارة أصلا إلى ما ذكروه من قتل الخيل ، وتعطيل الصلاة .(٢)

والحق أن ماذهب إليه كثير من المفسرين من أن سليمان ـ عليه السلام ـ شغل باستعراض الخيل عن صلاة العصر ، وأنه أمر بضرب سوقها وأعناقها ، لادليل عليه لا من النقل الصحيح ولا من العقل السليم .

وأن التفسير المقبول للآية هو ما ذكره الإمام الرازى والإمام ابن حزم ، وما سبق أن ذكرناه من أن المقصود بقوله ـ تعالى ـ ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ ﴾ إنما هو تكريمها .

وأن الضمير فى قوله : ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ ﴾ يعود إلى الصافنات لأنه أقرب مذكور .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص١٩٢ فقد أفاض وأجاد فى تفسيره للآيات .

(٢) راجع تفسير القاسمى جـ١٤ ص٥١٠١ .

١٢ ـ ثم تحدثت الآيات الكريمة بعد ذلك عن فتنة سليمان ـ عليه السلام ـ فقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَتَنَّا ﴾ من الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار والامتحان ، تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى : اختبرته لتعلم جودته .

قال الآلوسى : وأظهر ما قيل فى فتنة سليمان ـ عليه السلام ـ أنه قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله ـ تعالى ـ ولم يقل : إن شاء الله ، طاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة وجاءت بشق رجل .

وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة مرفوعا ، وفيه : «فوالذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرسانا» .

ولكن الذى فى صحيح البخارى أربعين بدل سبعين ، وأن الملك قال له : قل : إن شاء الله ، فلم يقل ـ أى فلم يقل ذلك على سبيل النسيان .

والمراد بالجسد ذلك الشق الذى ولدته له ، ومعنى إلقائه على كرسيه : وضع القابلة له عليه ليراه .(١)

وقد ذكروا أن سليمان : إنما قال : «تحمل كل امرأة فارسا يجاهد فى سبيل الله» على سبيل التمنى للخير ، وطلب الذرية الصالحة المجاهدة فى سبيل الله .

ومعنى «فلم يقل» أى : بلسانه على سبيل النسيان ، والنسيان معفو عنه إلا أن سليمان ـ عليه السلام ـ لسمو منزلته اعتبر ذلك ذنبا يستحق الاستغفار منه ، فقال بعد ذلك ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ .

وقوله : «لأطوفن الليلة» كناية عن الجماع ، قالوا : ولعل المقصود ، طوافه عليهن ابتداء من تلك الليلة ، ولامانع من أن يستغرق طوافه بهن عدة ليال .

وقد استنبط العلماء من هذا الحديث أن فتنة سليمان ، هى تركه تعليق ما طلبه على مشيئة الله ، وأن عقابه على ذلك كان عدم تحقق ما طلبه .

وهذا الرأى فى تقديرنا هو الرأى الصواب فى تفسير الآية الكريمة لأنه مستند إلى حديث صحيح ثابت فى الصحيحين وفى غيرهما ، لأنه يتناسب مع عصمة الأنبياء وسمو منزلتهم ، فإن النسيان الذى لايترتب عليه ترك شىء من التكاليف التى كلفهم الله ـ تعالى ـ بها جائز عليهم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٣ ص١٩٨ .

وقد ذكرنا عند تفسيرنا لقوله - تعالى - :﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أن الوحى مكث فترة لم ينزل على رسول الله ﷺ لأنه نسى أن يقول - عندما سأله المشركون عن بعض الأشياء - إن شاء الله ، وقال سأجيبكم على ما سألتمونى عنه غدا .[1]

ومن العلماء من آثر عدم تعيين الفتنة التى اختبر الله - تعالى - بها سيدنا سليمان - عليه السلام - بتركه المشيئة ، فقال بعد أن ذكر الحديث السابق : وجائز أن تكون هذه الفتنة التى تشير إليها الآيات هنا وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشق ، ولكن هذا مجرد احتمال .

ثم قال : وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبى الله سليمان - عليه السلام - فى شأن يتعلق بتصرفات فى الملك والسلطان ، كما يبتلى الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم ، ويبعد خطاهم عن الزلل ، وأن سليمان أناب إلى ربه ورجع ، وطلب المغفرة ، واتجه إلى الله بالرجاء والدعاء .[2]

ونرى أنه رأى لا بأس به ، وإن كنا نؤثر عليه الرأى السابق لاستناده فى استنباط المراد من الفتنة هنا إلى الحديث الصحيح .

هذا وهناك أقوال أخرى ذكروها فى المقصود بفتنة سليمان وبالجسد الذى ألقاه الله على كرسى سليمان ، وهى أقوال ساقطة تتنافى مع عصمة الأنبياء - عليهم السلام - .

ومن هذه الأقوال قول بعضهم : إن الجسد الذى ألقى على كرسى سليمان ، عبارة عن شيطان تمثل له فى صورة إنسان ، ثم أخذ من سليمان خاتمه الذى كان يصرف به ملكه ، وقعد ذلك الشيطان على كرسى سليمان ، ولم يعد لسليمان ملكه إلا بعد أن عثر على خاتمه .

وقول بعضهم : إن سبب فتنة سليمان - عليه السلام - هو سجود إحدى زوجاته لتمثال أبيها الذى قتله سليمان فى إحدى الحروب ، وقد بقيت على هذه الحال هى وجواريها أربعين ليلة ، دون أن تعلم سليمان بذلك .

وقول بعضهم : إن سبب فتنة سليمان أنه ولد له ولد فخاف عليه من الشياطين ، فأمر السحاب بحفظه وتغذيته ، ولكن هذا الولد وقع ميتا على كرسى سليمان ، فاستغفر سليمان ربه ، لأنه لم يعتمد عليه فى حفظ ابنه ، إلى غير ذلك من الأقوال الساقطة الباطلة ، التى تتنافى مع عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وتتنافى - أيضا - مع

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة الكهف ص٤٩٨

(٢) راجع تفسير فى ظلال القرآن جـ٢٣ ص١٠٠

كل عقل سليم ولامستند لها إلا النقل عن الإسرائيليات وعن القصاص الذين يأتون بقصص ما أنزل الله بها من سلطان .(١)

قال أبوحيان - رحمه الله - نقل المفسرون فى هذه الفتنة وفى إلقاء الجسد أقوالا يجب براءة الأنبياء منها ، يوقف عليها فى كتبهم ، وهى مما لايحل نقلها ، وهى إما من أوضاع اليهود ، أو الزنادقة ، ولم يبين الله - تعالى - الفتنة ماهى ، ولا الجسد الذى ألقاه على كرسى سليمان .

وأرق ماقيل فيه أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن فى الحديث الذى قال فيه : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، والجسد الملقى هو المولود شق رجل .(٢)

وقوله - سبحانه - : ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي..﴾ بيان لما قاله سليمان - عليه السلام - بعد الابتلاء والاختبار من الله - تعالى - له .

أى : قال سليمان - عليه السلام - يارب اغفر لى ما فرط منى من ذنوب وزلات .

﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ عظيما ﴿لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ أى : لايحصل مثله لأحد من الناس من بعدى ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ يا إلهى ﴿الْوَهَّابُ﴾ أى : الكثير العطاء لمن تريد عطاءه .

وقدم سليمان - عليه السلام - طلب المغفرة على طلب الملك ، للإشارة إلى أنها هى الأهم عنده .

قال الإمام الرازى - رحمه الله - : دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا ، لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم بعدها طلب المملكة ، وأيضا الآية على أن طلب المغفرة من الله - تعالى - سبب لانفتاح أبواب الخيرات فى الدنيا لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم توسل به إلى طلب المملكة .(٣)

ولايقال كيف طلب سليمان - عليه السلام - الدنيا والملك مع حقارتهما إلى جانب الآخرة ، وما فيها من نعيم دائم ؛ لأن سليمان - عليه السلام - ما طلب ذلك إلا من أجل خدمة دينه وإعلاء كلمة الله فى الأرض ، والتمكن من أداء الحقوق لأصحابها ونشر العدالة بين الناس ، وإنصاف المظلوم ، وإعانة المحتاج ، وتنفيذ شرع الله - تعالى - على الوجه الأكمل .

فهو - عليه السلام - لم يطلب الملك للظلم أو البغى ، وإنما طلبه للتقوى به على تنفيذ شريعة الله - تعالى - فى الأرض .

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ٢٣ ص١٠١ والآلوسى جـ٢٣ ص٢٠٠ وغيرهما .

(٢) راجع تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ص٣٩٧ .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ ص١٩٦ .

ولقد وضح الإمام القرطبى هذا المعنى فقال : كيف أقدم سليمان على طلب الدنيا مع ذمها من الله - تعالى - . .؟ .

فالجواب : أن ذلك محمول عند العلماء على أداء حقوق الله - تعالى - وسياسة ملكه ، وترتيب منازل خلقه ، وإقامة حدوده ، والمحافظة على رسومه وتعظيم شعائره ، وظهور عبادته ، ولزوم طاعته ، وحاشا لسليمان - عليه السلام - أن يكون سؤاله طلبا لنفس الدنيا ، لأنه هو والأنبياء أزهد خلق الله فيها ، وإنما سأل مملكتها لله ، كما سأل نوح دمارها وهلاكها لله ، فكانا محمودين مجابين إلى ذلك .

ومعنى قوله : ﴿ لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ أى : أن يسأله ، فكأنه سأل منع السؤال بعده ، حتى لايتعلق به أمل أحد ، ولم يسأل منع الإجابة .[1]

والفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ للتفريع على ما تقدم من طلب سليمان من ربه أن يهبه ملكا لاينبغى لأحد من بعده .

والتسخير : التذليل والانقياد ، أى : دعانا سليمان - عليه السلام - والتمس منا أن نعطيه ملكا لاينبغى لأحد من بعده ، فاستجبنا له دعاءه ، وذللنا له الريح ، وجعلناها منقادة لأمره بحيث تجرى بإذنه رخية لينة ، إلى حيث يريدها أن تجرى .

وقوله : ﴿ تَجْرِي ﴾ حال من الريح ، وقوله :﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ من إضافة المصدر لفاعله ، أى : بأمره إياها ، ولاتنافى بين هذه الآية وبين قوله - تعالى - فى آية أخرى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا . . ﴾ [2] لأن المقصود من الآيتين بيان أن الريح تجرى بأمر سليمان ، فهى تارة تكون لينة وتارة تكون عاصفة ، وفى كلتا الحالتين هى تسير بأمره ورغبته .

وقوله : ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ معطوف على الريح أى : سخرنا له الريح تجرى بأمره ، وسخرنا له الشياطين ، بأن جعلناهم منقادين لطاعته ، فمنهم من يقوم ببناء المبانى العظيمة التى يطلبها سليمان منهم ومنهم الغواصون الذين يغوصون فى البحار ليستخرجوا له منها اللؤلؤ والمرجان ، وغير ذلك من الكنوز التى اشتملت عليها البحار .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴾ معطوف على كل بناء ، داخل معه فى حكم البدل من الشياطين .

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٥ ص٢٠٤ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٨١ .

أى : أن الشياطين المسخرين لسليمان كان منهم البناءون ، وكان منهم الغواصون وكان منهم المقيدون بالسلاسل والأغلال ، لتمردهم وكثرة شرورهم .

فمعنى : ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ مقرونا بعضهم ببعض بالأغلال والقيود ، والأصفاد : جمع صفد وهو مايوثق به الأسير من قيد وغل .

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه أباح لسليمان ـ عليه السلام ـ أن يتصرف فى هذا الملك الواسع كما يشاء فقال : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا ﴾ أى : منحنا هذا الملك العظيم لعبدنا سليمان ـ عليه السلام ـ وقلنا له : هذا عطاؤنا لك ﴿ فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى : فاعط من شئت منه ، وأمسك عمن شئت ، فأنت غير محاسب منا لا على العطاء ، ولا على المنع .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما أعده لسليمان ـ عليه السلام ـ فى الآخرة ، فقال : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا ﴾ أى فى الآخرة ﴿ لَزُلْفَىٰ ﴾ لقربى وكرامة ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أى : وحسن مرجع إلينا يوم القيامة .

١٣ ـ وفى سورة «النمل» قصة طويلة حكى القرآن الكريم معظمها عما دار بين سليمان وبين ملكة سبأ ، قال ـ تعالى ـ :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ .

أى : والله لقد أعطينا داود وابنه سليمان علما واسعا من عندنا ، ومنحناهما بفضلنا وإحساننا معرفة غزيرة بعلوم الدين والدنيا .

أما داود فقد أعطاه ـ سبحانه ـ علم الزبور ، فكان يقرؤه بصوت جميل ، كما علمه صناعة الدروع ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ . (١)

وأما سليمان فقد آتاه ـ سبحانه ـ ملكا لاينبغى لأحد من بعده ، وعلمه منطق الطير ، ورزقه الحكم السديد بين الناس ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (٢)

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بيان لموقفهما من نعم الله ـ تعالى ـ عليهما ، وهو موقف يدل على حسن شكرهما لخالقهما .

والواو فى قوله : ﴿ وَقَالا ﴾ للعطف على محذوف ، أى : آتيناهما علما غزيرا فعملا بمقتضاه وشكرا الله عليه ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا بسبب ما آتانا من علم ونعم ، على كثير من عباده المؤمنين ، الذين لم ينالوا ما نلنا من خيره وبره ـ سبحانه ـ .

قال صاحب الكشاف : «وفى الآية دليل على شرف العلم ، وإنافة محله وتقدم حملته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجل النعم ، وأجزل القسم ، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من عباد الله»(٣) .

وفى التعبير بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ ﴾ دلالة على حسن أدبهما ، وتواضعهما ، حيث لم يقولا فضلنا على جميع عباده .

والمراد بالوراثة فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ وراثة العلم والنبوة والملك ، أى : وورث سليمان داود فى نبوته وعلمه وملكه .

قال ابن كثير : وقوله : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ أى : فى الملك والنبوة وليس المراد وراثة المال ، إذ لو كان كذلك ، لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، ولكن

(١) سورة سبأ الآية ١٠ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٧٩ .
(٣) تفسير الكشاف جـ٣ ص٣٥٣ .

المراد بذلك وراثة الملك والنبوة فإن الأنبياء لاتورث أموالهم ، أخبر بذلك رسول الله - ﷺ - «نحن معاشر الأنبياء لانورث وما تركناه صدقة» .[1]

ثم حكى - سبحانه - ما قاله سليمان على سبيل التحدث بنعم الله عليه ، فقال - تعالى - : ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ.. ﴾ .

أى : وقال سليمان - عليه السلام - على سبيل الشكر لله - تعالى - : يأيها الناس : علمنا الله - تعالى - بفضله وإحسانه فهم ما يريده كل طائر إذا صوت أو صاح ، وأعطانا - سبحانه - من كل شىء نحتاجه وننتفع به فى ديننا أو دنيانا .

وقدم نعمة تعليمه منطق الطير ، لأنها نعمة خاصة لايشاركه فيها غيره ، وتعتبر من معجزاته - عليه السلام - .

وقيل : إنه علم منطق جميع الحيوانات ، وإنما ذكر الطير لأنه أظهر فى النعمة ، ولأن الطير كان جندا من جنده ، يسير معه لتظليله من الشمس .

وعبر عن نعم الله - تعالى - عليه بنون العظمة فقال : ﴿ وَأُوتِينَا ﴾ ولم يقل أوتيت ، للإشعار بأنه عبد من عباد الله المطاعين ، الذين سخر لهم جنودا من الجن والإنس والطير ، ليكونوا فى خدمته ، وليستعملهم فى وجوه الخير لا فى وجوه الشر ، فهو لم يقل ذلك على سبيل التباهى والتعالى ، وإنما قاله على سبيل التحدث بنعمة الله .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ يعود إلى ما أعطاه الله - تعالى - إياه من العلم والملك وغيرهما .

أى : إن هذا الذى أعطانا إياه من العلم والملك ، وكل شىء تدعو إليه الحاجة ، لهو الفضل الواضح ، والإحسان الظاهر منه - عز وجل - .

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر ملك سليمان - عليه السلام - فتقول : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ .

والحشر : الجمع ، يقال : حشر القائد جنده إذا جمعهم لأمر من الأمور التى تهمه .

وقوله : ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ من الوزع بمعنى الكف والمنع ، يقال : وزعه عن الظلم وزعا ، إذا كفه عنه .

ومنه قول عثمان بن عفان رضي الله عنه : «إن الله ليزع بالسلطان ما لايزع بالقرآن» .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص١٩٢ .

ومنه قول الشاعر :

ولايزَع النفسَ اللجوجَ عن الهوى   من الناس ، إلا وافرُ العقل كاملهُ

والمعنى : وجُمع لسليمان ـ عليه السلام ـ عساكره وجنوده من الجن والإنس والطير ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أى : فهم محبوسون ومجموعون بنظام وترتيب ، بحيث لايتجاوز أحدهم مكانه أو منزلته أو وظيفته المسئول عنها .

فالتعبير بقوله : ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ يشعر بأن هؤلاء الجنود مع كثرتهم ، لهم من يزعهم عن الفوضى والاضطراب ، إذ الوازع فى الحرب ، هو من يدير أمور الجيش ، وينظم صفوفه ، ويرد من شذ من أفراده إلى جادة الصواب .

ولقد ذكر بعض المفسرين هنا أقوالا فى عدد جيش سليمان ، رأينا أن نضرب عنها صفحا ، لضعفها ، ويكفينا أن نعلم أن الله ـ تعالى ـ قد سخر لسليمان جندا من الجن والإنس والطير ، إلا أن عدد هؤلاء الجنود مرد علمه إلى الله ـ تعالى ـ وحده ، وإن كان التعبير القرآنى يشعر بأن هؤلاء الجند المجموعين ، يمثلون موكبا عظيما ، وحشدا كبيرا .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قالته نملة عندما رأت هذا الجيش العظيم المنظم ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ والمعنى : وحشر لسليمان جنوده ، فسار هؤلاء الجنود فى قوة ونظام ، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ ﴾ أى : على مكان يعيش فيه النمل فى مملكة سليمان ، ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ على سبيل النصح والتحذير بعد أن رأت سليمان وجنوده : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ أى : ادخلوا أماكن سكناكم ، وابتعدوا عن طريق هذا الجيش الكبير ، وانجوا بأنفسكم ، كى ﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما فعله سليمان بعد أن أدرك ما قالته النملة لأفراد جنسها ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ أى : فسمع قولها السابق فاهتزت نفسه ، وتبسم ضاحكا من قولها ، لفطنتها إلى تحذير أبناء جنسها ، ولسروره بما قالته عنه وعن جيشه ، حيث وصفتهم بأنهم لايقدمون على إهلاك النمل ، إلا بسبب عدم شعورهم بهم .

وقوله : ﴿ ضَاحِكًا ﴾ حال مؤكدة لأنه قد فهم الضحك من التبسم ، وقيل : هو حال مقدرة ، لأن التبسم أول الضحك .

ثم حكى سبحانه - ما نطق به سليمان بعد ذلك فقال : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ . . ﴾ .

أى : وقال سليمان : يا رب ألهمنى المداومة على شكرك والامتناع عن جحود نعمك ، والكف عن كل ما يؤدى إلى كفران مننك التى أفضتها على وعلى والدى .

ووفقنى كذلك لأن ﴿ أَعْمَلَ ﴾ عملا ﴿ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ عنى وتقبله منى ﴿ وَأَدْخِلْنِي ﴾ يا إلهى ﴿ بِرَحْمَتِكَ ﴾ وإحسانك ﴿ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ الذين رضيت عنهم ورضوا عنك .

وهكذا جمع سليمان - عليه السلام - فى هذا الدعاء البليغ المؤثر ، أسمى ألوان الخشية من الله - تعالى - والشكر له - سبحانه - على نعمه والرجاء فى رضاه وعطائه الجزيل .

١٤ - ثم تحكى السورة الكريمة بعد ذلك ما دار بين سليمان - عليه السلام - وبين جندى من جنود مملكته وهو الهدهد ، فقال - تعالى - :

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ
كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى
بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ
وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ
مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ
لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾

والتفقد : تطلب الشىء ومعرفة أحواله ، ومنه قولهم : تفقد القائد جنوده ، أى : تطلب أحوالهم ليعرف حاضرهم من غائبهم .

والطير : اسم جنس لكل مايطير ، ومفرده طائر ، والمراد بالهدهد هنا : طائر معين وليس الجنس .

أى : وأشرف سليمان ـ عليه السلام ـ على أفراد مملكته ليعرف أحوالها ، فقال بعد أن نظر فى أحوال الطير : ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ أى : ما الذى حال بينى وبين رؤية الهدهد ثم تأكد من غيابه فقال بل هو من الغائبين .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بيان للحكم الذى أصدره سليمان ـ عليه السلام ـ على الهدهد بسبب غيابه بدون إذن .

أى : لأعذبن الهدهد عذابا شديدا يؤلمه ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بحجة قوية توضح سبب غيابه ، وتقنعنى بالصفح عنه ، وبترك تعذيبه أو ذبحه .

فأنت ترى أن سليمان ـ عليه السلام ـ وهو النبى الملك الحكيم العادل ـ يقيد تعذيب الهدهد أو ذبحه ، بعدم إتيانه بالعذر المقبول عن سبب غيابه ، أما إذا أتى بهذا العذر فإنه سيعفو عنه ، ويترك عقابه .

فكأنه ـ عليه السلام ـ يقول : هذا الهدهد الغائب إما أن أعذبه عذابا شديدا وإما أن أذبحه بعد حضوره ، وإما أن يأتينى بعذر مقبول عن سبب غيابه ، وفى هذه الحالة فأنا سأعفو عنه .

ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما كان من الهدهد ، فقال : ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أى : فمكث الهدهد زمانا غير بعيد من تهديد سليمان له ، ثم أتاه فقال له : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أى : علمت أشياء أنت لم تعلمها ، وابتدأ كلامه بهذه الجملة التى فيها مافيها من المفاجآت لترغيبه فى الإصغاء إليه ، ولاستمالة قلبه لقبول عذره بعد ذلك .

وقوله : ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ تفسير وتوضيح لقوله قبل ذلك : أحطت بما لم تحط به ، وسبأ فى الأصل : اسم لسبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ثم صار بعد ذلك اسما لحى من الناس سموا باسم أبيهم ، أو صار اسما للقبيلة ، أو لمدينة تعرف بمأرب باليمن ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال .

أى : قال الهدهد لسليمان بادئا حديثه بما يشير إلى قبول عذره : علمت شيئا أنت لم تعلمه ، وجئتك من جهة قبيلة سبأ بنبأ عظيم خطير ، أنا متيقن من صدقه .

ثم قص عليه ما رآه فقال : ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ والمراد بهذه المرأة : بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان ، ورثت الملك عن أبيها .

أى : إنى وجدت قبيلة سبأ تحكمها امرأة ، وتتصرف فى أمورهم دون أن يعترض عليها معترض ، أو ينافسها منافس .

وقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ معطوف على ما قبله ، أى : وبين يديها جميع الأشياء التى تحتاجها لتصريف شئون مملكتها ، والمحافظة على قوتها واستقرارها .

وفضلا عن كل ذلك ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ أى : لها سرير ملك فخم يدل على غناها وترفها ، ورقى مملكتها فى الصناعة وغيرها .

والمراد أن لها عرشا عظيما بالنسبة إلى أمثالها من الدنيا .

ثم أضاف إلى ذلك قوله : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ . . ﴾ .

أى : والأهم من كل ذلك أنى وجدت هذه المرأة ومعها قومها يتركون عبادة الله - تعالى - ويعبدون الشمس التى هى من مخلوقاته - عز وجل - .

﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ التى هى عبادتهم للشمس ، وما يشبهها من ألوان الكفر والفسوق عن أمر الله - تعالى - .

﴿ فَصَدَّهُمْ ﴾ أى فمنعهم الشيطان ﴿ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ الحق ﴿ فَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ لا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى عبادة الله - تعالى - الذى لامعبود بحق سواه .

وقوله : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ بيان لما ترتب على إغواء الشيطان لهم ، وقد قرأ عامة القراء ﴿ أَلاَّ ﴾ - بتشديد اللام - و﴿ يَسْجُدُوا ﴾ فعل مضارع منصوب بأن المدغمة فى لفظه لا ، وهو مع ناصبه فى تأويل مصدر ، فى محل نصب على أنه مفعول لأجله .

والمعنى : وزين لهم الشيطان أعمالهم من أجل أن يتركوا السجود لله - تعالى - ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ ﴾ أى : الذى يظهر الشىء المخبوء فى السموات والأرض ، كائنا ما كان هذا الشىء لأنه - سبحانه - لايخفى عليه شىء فيهما .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ معطوف على ما قبله .

والمعنى : زين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا لله الذى يعلم المخبوء والمستور فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون من أسرار ، وما تعلنون من أقوال .

وقوله - تعالى - : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ فى معنى التعليل لحقيقة السجود لله - تعالى - وحده .

أى : اجعلوا سجودكم لله ـ تعالى ـ وحده ، واتركوا السجود لغيره ، لأنه ـ سبحانه ـ لا إله بحق سواه ، وهو ـ سبحانه ـ صاحب العرش العظيم ، الذى لايدانيه ولايشبهه شىء مما يطلق عليه هذا اللفظ .

١٥ ـ ثم تحكى السور بعد ذلك ما كان من سليمان ـ عليه السلام ـ وما كان من ملكة سبأ بعد أن وصلها كتابه ، فقال ـ تعالى ـ :

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ ﴾ حكاية لما قاله سليمان ـ عليه السلام ـ فى رده على الهدهد ، الذى قال له فى تبرير عذره : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ إلخ .

والفعل : «ننظر» من النظر بمعنى التأمل فى الأمور ، والتدبر فى أحوالها ، أى : قال سليمان للهدهد بعد أن استمع إلى حجته : سننظر ـ أيها الهدهد ـ فى أقوالك ، ونرى أكنت صادقا فيها أم أنت من الكاذبين .

وهكذا نرى نبى الله سليمان ـ وهو العاقل الحكيم ـ لايتسرع فى تصديق الهدهد أو تكذيبه ، ولايخرجه النبأ العظيم الذى جاءه به الهدهد عن اتزانه ووقاره ، وإنما يبنى أحكامه على ما سيسفر عنه تحققه من صدق خبره أو كذبه .

وهذا هو اللائق بشأن النبى الكريم سليمان ، الذى آتاه الله ـ تعالى ـ النبوة والملك والحكمة .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾

بيان لما أمر به سليمان ـ عليه السلام ـ الهدهد ، بعد أن قال له : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .

أى : خذ ـ أيها الهدهد ـ كتابى هذا ، فاذهب به إلى هؤلاء القوم من أهل سبأ ، ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى : انصرف عنهم إلى مكان قريب منهم ﴿ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى : فتأمل ماذا يقول بعضهم لبعض ، وبماذا يراجع بعضهم بعضا ، ثم أخبرنى بذلك .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما فعلته ملكة سبأ ، بعد أن جاءها كتاب سليمان ـ عليه السلام ـ فقال ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ . إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

أى : قالت لحاشيتها بعد أن قرأت الكتاب وفهمت مافيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ ﴾ أى : يأيها الأشراف من قومى ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وصفته بالكرم لاشتماله على الكلام الحكيم ، والأسلوب البديع ، والتوجيه الحسن ، ولجمال هيئته ، وعجيب أمره .

ثم أفصحت عن مصدره فقالت : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾ وعن مضمونه فقالت : ﴿ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ وفى ذلك إشارة إلى وصفه بالكرم ، حيث اشتمل على اسم الله ـ تعالى ـ وعلى بعض صفاته ، وعلى ترك التكبر ، وعلى الدخول فى الدين الحق ، كما يدل عليه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ ﴾ أى : ألا تتكبروا علىّ كما يفعل الملوك الجبابرة ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين طائعين لشريعة الله ـ وحده ـ التى توجب عليكم إخلاص العبادة له ، دون أحد سواه ، إذ هو ـ سبحانه ـ الخالق لكل شىء ، وكل معبود سواه فهو باطل .

فالكتاب ـ مع إيجازه ـ متضمن لفنون البلاغة ، ولمظاهر القوة الحكيمة العادلة ، التى اتبعها سليمان فى رسالته إلى ملكة سبأ وقومها .

وبعد أن بلغت حاشيتها بمصدر الكتاب ومضمونه ، استأنفت حديثها فقالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ والفتوى : الجواب على المستفتى فيما سأل عنه ، والمراد بها هنا : المشورة وإبداء الرأى .

أى : قالت يأيها الأشراف والقادة من قومى ، أشيروا علىّ ماذا سأفعل فى أمر هذا الكتاب الذى جاءنى من سليمان والذى يطلب منا فيه ما سمعتم؟ .

ثم أضافت إلى ذلك قولها : ﴿ ما كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ أى : أنتم تعلمون أنى لا أقطع أمرا يتعلق بشئون المملكة إلا بعد استشارتكم ، وأخذ رأيكم .

وفى قولها هذا دليل على حسن سياستها ، ورجاحة عقلها ، حيث جمعت رءوس مملكتها ، واستشارتهم فى أمرها ، وأعلمتهم أن هذه عادة مطردة عندها ، وبذلك طابت نفوسهم ، وزادت ثقتهم فيها .

فقد قالوا لها : ﴿ نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ ﴾ أى : أصحاب قوة فى الأجساد ، ﴿ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أى : وأصحاب بلاء شديد فى القتال .

﴿ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ فتأملى وتفكرى فيما تأمريننا به بالنسبة لهذا الكتاب ، فنحن سنطيعك فى كل ما تطلبينه منا .

وهنا يحكى لنا القرآن الكريم ما كانت عليه تلك المرأة من دهاء وكياسة ، وإيثار للسلم على الحرب ، واللين على الشدة ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ ﴾ من شأنهم أنهم ﴿ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً ﴾ من القرى أو مدينة من المدن ، بعد تغلبهم على أهلها عن طريق الحرب والقتال ﴿ أَفْسَدُوهَا ﴾ ، أى : أشاعوا فيها الفساد والخراب والدمار .

وفوق كل ذلك : ﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ أى : أهانوا أشرافها ورؤساءها ، وجعلوهم أذلة بعد أن كانوا أعزة ، ليكونوا عبرة لغيرهم .

﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ أى : وهذه هى عادتهم التى يفعلونها عند دخولهم قرية من القرى ، عن طريق القهر والقسر والقتال .

والمقصود من قولها هذا : التلويح لقومها بأن السلم أجدى من الحرب ، وأن الملاينة مع سليمان ـ عليه السلام ـ أفضل من المجابهة والمواجهة بالقوة .

ثم صرحت لهم بما ستفعله معه فقالت : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ مُرْسِلَةٌ ﴾ معطوف على ﴿ فَنَاظِرَةٌ ﴾ وهو من الانتظار بمعنى الترقب .

أى : وإنى قد قررت أن أرسل إلى سليمان وجنوده هدية ثمينة تليق بالملوك أصحاب الجاه والقوة والسلطان ، وإنى لمنتظرة ماذا سيقول سليمان لرسلى عندما يرى تلك الهدية ، وماذا سيفعل معهم .

قال ابن عباس : قالت لقومها إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبى فاتبعوه .

وقال قتادة : رحمها الله ورضى عنها ما كان أعقلها فى إسلامها وفى شركها!! لقد علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس [1] .

١٦ - ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما كان من سليمان عندما رأى الهدية ، فقال - تعالى - :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾

وفى الكلام حذف يفهم من السياق ، وتقتضيه بلاغة القرآن الكريم ، والتقدير : وهيأت ملكة سبأ الهدية الثمينة لسليمان - عليه السلام - وأرسلتها مع من اختارتهم من قومها لهذه المهمة ، فلما جاء سليمان ، أى : فلما وصل الرسل إلى سليمان ومعهم هدية ملكتهم إليه .

فلما رآها قال - على سبيل الإنكار والاستخفاف بتلك الهدية - ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ .

أى : أتقدمون إلىّ هذا المال الزائل والمتمثل فى تلك الهدية لأكف عن دعوتكم إلى إتيانى وأنتم مخلصون العبادة لله - تعالى - وحده ، وتاركون لعبادة غيره؟ .

كلا لن ألتفت إلى هديتكم ﴿ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ ﴾ من النبوة والملك الواسع ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم ﴾ من أموال من جملتها تلك الهدية .

فالجملة الكريمة تعليل لإنكاره لهديتهم ، ولاستخفافه بها ، وسخريته منها .

وقوله - سبحانه - : ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ إضراب عما ذكره من إنكاره لتلك الهدية وتعليله لهذا الإنكار ، إلى بيان ما هم عليه من ضيق فى التفكير ، حيث توهموا أن هذه الهدية ، قد تفيد فى صرف سليمان عن دعوتهم إلى وحدانية الله - تعالى - وقد تحمله على تركهم وشأنهم .

أى : افهموا - أيها الرسل - وقولوا لمن أرسلكم بتلك الهدية : إن سليمان ماآتاه الله من خير ، أفضل مما آتاكم وإنه يقول لكم جميعا : انتفعوا أنتم بهديتكم وافرحوا بها ، لأنكم لا تفكرون إلا فى متع الحياة الدنيا ، أما أنا ففى غنى عن هداياكم ولايهمنى إلا إيمانكم .

ثم أتبع - سليمان - عليه السلام - هذا الاستنكار بالتهديد فقال : - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٢٠٠ .

أى : قال سليمان لمن أرسلته بلقيس بالهدية : عد من حيث أتيت ومعك هديتك .

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ أى : فوالله لنأتينهم بجنود لاقدرة لهم على مقاومتهم ، ولا طاقة لهم على قتالهم .

﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أى : ووالله لنخرجن هذه الملكة وقومها من بلاد سبأ ، حالة كونهم أذلة ، وحالة كونهم مهزومين مقهورين ، بعد أن كانوا فى عزة وقوة .

وعاد الرسل بهديتهم إلى الملكة دون أن يهتم القرآن بما جرى لهم بعد ذلك ، لأن القرآن لايهتم إلا بالجوهر واللباب فيما يقصه من أحداث .

١٧ ـ ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما طلبه سليمان ـ عليه السلام ـ من جنوده فيقول :

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

قال ابن كثير ما ملخصه : فلما رجعت الرسل إلى ملكة سبأ بما قاله سليمان ، قالت : قد ـ والله ـ عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وبعثت إليه : إنى قادمة إليك بملوك قومى ، لأنظر فى أمرك وما تدعونا إليه من دينك ، ثم شخصت إليه فى اثنى عشر ألف رجل من أشراف قومها ، بعد أن أقفلت الأبواب حتى إذا دنت جمع من عنده من الإنس والجن ممن تحت يده فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

أى : قال سليمان لجنوده : أى واحد منكم يستطيع أن يحضر لى عرش هذه الملكة قبل أن تحضر إلىّ هى وقومها مسلمين ، أى : منقادين طائعين مستسلمين لما أمرتهم به .

ولعل سليمان ـ عليه السلام ـ قد طلب إحضار عرشها ، من بلاد اليمن إلى بيت المقدس حيث مقر مملكته ، ليطلعها على عظيم قدرة الله ـ تعالى ـ وعلى ما أعطاه

ـ سبحانه ـ له من ملك عريض ، ومن نعم جليلة ، ومن قوة خارقة ، حيث سخر له من يحضر له عرشها من مكان بعيد فى زمن يسير ، ولعل كل ذلك يقودها هى وقومها إلى الإيمان بالله رب العالمين .

وبعد أن قال سليمان لجنده : أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ، رد عليه عفريت من الجن بقوله : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ .

والعفريت : هو المارد القوى من الشياطين ، الذين سخرهم الله ـ تعالى ـ لخدمة سليمان ، وللقيام بأداء ما يكلفهم به ، ويقال له : عفريت ، وعفريتة ـ بكسر العين وسكون الفاء ـ .

أى : قال عفريت من الجن لسليمان : أنا آتيك بعرش هذه الملكة ، قبل أن تقوم من مقامك ، أى : قبل أن تقوم من مجلسك هذا الذى تجلس فيه للقضاء بين الناس ، أو قبل أن تقف من جلوسك .

﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ أى : وإنى على حمله وإحضاره من تلك الأماكن البعيدة إليك ، لقوى على ذلك بحيث لايثقل علىّ حمله ، ولأمين على إحضاره دون أن يضيع منه شيء .

وكأن سليمان قد استبطأ إحضاره عرش تلك الملكة ، فى هذه الفترة التى حددها ذلك العفريت القوى ، فنهض جندى آخر من جنوده ، ذكره القرآن بقوله : ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ قالوا : والمراد بهذا الذى عنده علم من الكتاب : آصف بن برخيا ، وهو رجل من صلحاء بنى إسرائيل آتاه الله ـ تعالى ـ من لدنه علما ، وكان وزيرا لسليمان .

قالوا : وكان يعلم اسم الله الأعظم ، الذى إذا دعا به الداعى أجاب الله له دعاؤه .

وقيل : المراد به سليمان نفسه ، ويكون الخطاب على هذا للعفريت ، فكأنه استبطأ ما قاله العفريت فقال له : ـ على سبيل التحقير ـ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك .

وقيل : المراد به جبريل ، والأول هو المشهور عند المفسرين .

أى : قال الرجل الذى عنده علم من كتاب الله ـ تعالى ـ يا سليمان أنا آتيك بعرش بلقيس ، قبل أن تغمض عينك وتفتحها ، وهو كناية عن السرعة الفائقة فى إحضاره .

وفى ذلك مافيه من الدلالة على شرف العلم وفضله وشرف حامليه وفضلهم وأن هذه الكرامة التى وهبها الله ـ تعالى ـ لهذا الرجل ، كانت بسبب ما آتاه ـ سبحانه ـ من علم .

وجاء عرش الملكة لسليمان من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ، بتلك السرعة الفائقة ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾ أى : فلما رأى سليمان العرش المذكور حاضرا لديه ، وكائنا بين يديه ، لم يغتر ولم يتكبر ، ولم يأخذه الزهو والغرور ، بل قال ـ كما حكى القرآن عنه ـ : ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ .

أى : قال سليمان : هذا الذى أراه من إحضار العرش بتلك السرعة من فضل ربى وعطائه ، لكى يمتحننى أأشكره على نعمه أم أجحد هذه النعم .

﴿ وَمَن شَكَرَ ﴾ الله ـ تعالى ـ على نعمه ﴿ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ حيث يزيده سبحانه ـ منها .

﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ نعم الله ـ تعالى ـ وجحدها ﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ عن خلقه ﴿ كَرِيمٌ ﴾ فى معاملته لهم ، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل يعفو عن كثير من ذنوبهم .

١٨ ـ ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه القصة البديعة ، ببيان ما فعله سليمان بالعرش ، وبما قاله لملكة سبأ بعد أن قدمت إليه ، وبما انتهى إليه أمرها ، فقال ـ تعالى ـ :

قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

وقوله : ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ من التنكير الذى هو ضد التعريف ، وهو جعل الشىء على هيئة تخالف هيئته السابقة حتى لا يعرف .

أى : قال سليمان لجنوده ، بعد أن استقر عنده عرش بلقيس : غيروا لهذه الملكة عرشها ، كأن تجعلوا مؤخرته فى مقدمته ، وأعلاه فى أسفله .

وافعلوا ذلك لكى ﴿ نَنظُرْ ﴾ ونعرف ﴿ أَتَهْتَدِي ﴾ إليه بعد هذا التغيير ، أو إلى الجواب اللائق بالمقام عندما تسأل ﴿ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ ﴾ إلى معرفة الشىء بعد تغيير معالمه المميزة له ، أو إلى الجواب الصحيح عندما تسأل عنه .

فالمقصود بتغيير هيئة عرشها : اختبار ذكائها وفطنتها ، وحسن تصرفها ، عند مفاجأتها بإطلاعها على عرشها الذى خلفته وراءها فى بلادها ، وإيقافها على مظاهر قدرة الله - تعالى - وعلى ما وهبه لسليمان - عليه السلام - من معجزات .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ .. ﴾ شروع فى بيان ما قالته عندما عرض عليها سليمان عرشها .

أى : فلما وصلت بلقيس إلى سليمان - عليه السلام - عرض عليها عرشها بعد تغيير معالمه ، ثم قيل لها من جهته - عليه السلام - : ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ أى : أمثل هذا العرش الذى ترينه الآن ، عرشك الذى خلفتيه وراءك فى بلادك .

فالهمزة للاستفهام والهاء للتنبيه - والكاف حرف جر ، وذا اسم إشارة مجرور بها ، والجار والمجرور خبر مقدم ، وعرشك مبتدأ مؤخر .

ولم يقل لها : أهذا عرشك لئلا يكون إرشادا لها إلى الجواب ، فيفوت المقصود من اختبار ذكائها وحسن تصرفها .

ولاشك أن هذا القول يدعوها للدهشة والمفاجأة بما لم يكن فى حسبانها ، وإلا فأين هى من عرشها الذى تركته خلفها على مسافة بعيدة ، بينها وبين مملكة سليمان عشرات الآلاف من الأميال .

ولكن الملكة الأريبة العاقلة ، هداها تفكيرها إلى جواب ذكى ، فقالت - كما حكى القرآن عنها - ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ أى : هذا العرش - الذى غيرت هيئته - كأنه عرشى الذى تركته فى بلادى ، فهى لم تثبت أنه هو ، ولم تنف أنه غيره ، وإنما تركت الأمرمبنيا على الظن والتشبيه ، لكى يناسب الجواب السؤال ، وقوله - سبحانه - : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ يرى بعض المفسرين أنه من تتمة كلام بلقيس ، وكأنها عندما استشعرت مما شاهدته اختبار عقلها قالت : وأوتينا العلم من قبلها ، أى : من قبل تلك الحالة التى شاهدناها ، بصحة نبوة سليمان وكنا مسلمين طائعين لأمره .

ومنهم من يرى أنه من كلام سليمان ، وتكون الجملة معطوفة على كلام مقدر وجىء بها من قبيل التحدث بنعمة الله - تعالى - .

والمعنى : قال سليمان : لقد أصابت بلقيس فى الجواب ، وعرفت الحق ، ولكننا نحن الذين أوتينا العلم من قبلها ـ أى من قبل حضور ملكة سبأ ـ وكنا مسلمين لله ـ تعالى ـ وجوهنا .

ويبدو لنا أن كون هذه الجملة ، حكاها القرآن على أنها من تتمة كلامها أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من سياق الكلام .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ . . ﴾ بيان للأسباب التى منعتها من الدخول فى الإسلام قبل ذلك .

أى : وصدها ومنعها الذى كانت تعبده من دون الله ـ تعالى ـ وهو الشمس ـ عن عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، وعن المسارعة إلى الدخول فى الإسلام .

وجملة ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ تعليل لسببية عبادتها لغير الله ـ تعالى ـ .

أى : إن هذه المرأة كانت من قوم كافرين بالله ـ تعالى ـ جاحدين لنعمه ، عابدين لغيره ، منذ أزمان متطاولة ، فلم يكن فى مقدورها إظهار إسلامها بسرعة وهى بينهم ، فالجملة الكريمة كأنها اعتذار لها عن سبب تأخرها فى الدخول فى الإسلام .

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه القصة ببيان ما فاجأها به سليمان ، لتزداد يقينا بوحدانية الله ـ تعالى ـ وبعظم النعم التى أعطاها ـ سبحانه ـ له فقال : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا . . ﴾ .

والصرح : القصر ويطلق على كل بناء مرتفع ، ومنه قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴾ (١)

ويطلق ـ أيضا ـ على صحن الدار وساحته ، يقال : هذه صرحة الدار ، أى : ساحتها وعرصتها .

وكان سليمان ـ عليه السلام ـ قد بنى هذا الصرح ، وجعل بلاطه من زجاج نقى صاف كالبللور ، بحيث يرى الناظر ما يجرى تحته من ماء .

أى : قال سليمان لملكة سبأ بعد أن سألها : أهكذا عرشك ، وبعد أن أجابته بما سبق بيانه ، قال لها : ادخلى هذا القصر ، فلما رأت هذا الصرح وما عليه من جمال وفخامة ، حسبته لجة أى : ظنته ماء غزيرا كالبحر .

﴿ وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا . . ﴾ لئلا تبتل بالماء أذيال ثيابها .

---

(١) سورة غافر الآية ٣٦ .

وهنا قال سليمان مزيلا لما اعتراها من دهشة : ﴿إِنَّهُ﴾ أى : ما حسبته لجة ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ أى : قصر مملس من زجاج لايحجب ما وراءه .

فقوله : ﴿مُّمَرَّدٌ﴾ بمعنى مملس ، مأخوذ من قولهم : شجرة مرداء إذا كانت عارية من الورق ، وغلام أمرد ، إذا لم يكن فى وجهه شعر والتمريد فى البناء معناه : التمليس والتسوية والنعومة .

والقوارير : جمع قارورة ، وهى إناء من زجاج ، وتطلق القارورة على المرأة ، لأن الولد يقر فى رحمها ، أو تشبيها لها بآنية الزجاج من حيث ضعفها ، ومنه الحديث الشريف : «رفقا بالقوارير» والمراد بالقوارير هنا ، المعنى الأول .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته بلقيس بعد أن رأت جانبا من عجائب صنع الله فقال : ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أى : بسبب عبادتى لغيرك قبل هذا الوقت ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ طائعة مختارة ، وإسلامى إنما هو ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وليس لأحد سواه .

١٩ - وبعد ، فهذا تفسير محرر لتلك القصة ، وقد أعرضنا عن كثير من الإسرائيليات التى حشا بها بعض المفسرين تفاسيرهم ، عند حديثهم عن الآيات التى وردت فى هذه القصة ، ومن ذلك مايتعلق بسليمان - عليه السلام - وبجنوده من الطير ، وبمحاورة النملة والهدهد له ، وبالهدية التى أرسلتها ملكة سبأ إليه ، إلخ ، وقد اشتملت هذه القصة على عبر وعظات وأحكام وآداب من أهمها ما يأتى :

١ - أن الله - تعالى - قد أعطى - بفضله وإحسانه - داود وسليمان - عليهما السلام - نعما عظيمة ، على رأسها نعمة النبوة ، والملك ، والعلم النافع .

وأنهما قد قابلا هذه النعم بالشكر لله - تعالى - واستعمالها فيما خلقت له .

ونرى ذلك فى قوله - تعالى - :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

وفى قوله - تعالى - :

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ .

وفى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ .

٢ ـ أن سليمان ـ عليه السلام ـ قد أقام دولته على الإيمان بالله ـ تعالى ـ وعلى العلم النافع ، وعلى القوة العادلة .

أما الإيمان بالله ـ تعالى ـ وإخلاص العبادة له ـ سبحانه ـ فهو كائن له ـ عليه السلام ـ بمقتضى نبوته التى اختاره الله لها ، وبمقتضى دعوته غيره إلى وحدانية الله ـ عز وجل ـ فقد حكى القرآن عنه أنه قال فى رسالته إلى ملكة سبأ : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) ﴾ .

وأما العلم النافع ، فيكفى أن القصة الكريمة قد افتتحت بقوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا .. ﴾ .

واشتملت علي قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. ﴾ .

وعلى قوله ـ عز وجل ـ :

﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ﴾ .

وأماالقوة فنراها في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ .

وفى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

٣ ـ أن سليمان ـ عليه السلام ـ كانت رسالته الأولى نشر الإيمان بالله ـ تعالى ـ فى الأرض ، وتطهيرها من كل معبود سواه .

والدليل على ذلك أن الهدهد عندما أخبره بحال الملكة التى كانت هى وقومها يعبدون الشمس من دون الله ما كان من سليمان ـ عليه السلام ـ إلا أن حمله كتابا قويا بليغا يأمرهم فيه بترك التكبر ، والغرور ، وبإسلام وجوههم لله وحده : ﴿ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

٤ ـ أن سليمان ـ عليه السلام ـ كان يمثل الحاكم اليقظ المتنبه لأحوال رعيته ، حيث يعرف شئونها الصغيرة والكبيرة ، ويعرف الحاضر من أفرادها والغائب ، حتى ولو كان الغائب طيرا صغيرا ، من بين آلاف الخلائق الذين هم تحت قيادته .

ولقد صور القرآن ما كان عليه سليمان - عليه السلام - من يقظة ودراية بأفراد رعيته أبدع تصوير فقال : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ .

قال الإمام القرطبى - رحمه الله - : فى الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته ، والمحافظة عليهم ، فانظر إلى الهدهد مع صغره ، كيف لم يَخْفَ على سليمان حاله ، فكيف بعظام الملك .

ثم يقول - رحمه الله - على سبيل التفجع والشكوى عن حال الولاة فى عهده : فما ظنك بوالٍ تذهب على يديه البلدان ، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان ، ورحم الله القائل :

وهل أفسد الدين إلا الملوكُ وأحبارُ سوء ورهبانُها[1]

٥ - أن سليمان - عليه السلام - كان بجانب تعهده لشئون رعيته ، يمثل الحاكم الحازم العادل ، الذى يحاسب المهمل ، ويتوعد المقصر ، ويعاقب من يستحق العقاب ، وفى الوقت نفسه يقبل عذر المعتذر متى اعتذر عذرا مشروعا ومقنعا .

انظر إليه وهو يقول - كما حكى القرآن عنه - عندما تفقد الهدهد فلم يجده : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ .

إن الجيوش الجرارة التى تحت قيادة سليمان - عليه السلام - لايؤثر فيها غياب هدهد منها ، ولكن سليمان القائد الحازم ، كأنه يريد أن يعلم جنوده ، أن لكل جندى رسالته التى يجب عليه أن يؤديها على الوجه الأكمل سواء أكان هذا الجندى صغيرا أم كبيرا ، وأن من فرط فى الأمور الصغيرة ، لايستبعد منه أن يفرط فى الأمور الكبيرة .

٦ - أن الجندى الصغير فى الأمة التى يظلها العدل والحرية والأمان ، لايمنعه صغره من أن يرد على الحاكم الكبير ، بشجاعة وقوة .

وانظر إلى الهدهد - مع صغره - يحكى عنه القرآن ، أنه رد على نبى الله سليمان الذى آتاه الله ملكا لاينبغى لأحد من بعده بقوله : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ .

ونجد سليمان - عليه السلام - لايؤاخذه على هذا القول ، بل يضع قوله موضع التحقيق والاختبار فيقول له : ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

وهكذا الأمم العاقلة الرشيدة ، لايُهان فيها الصغير ، ولاينتقص فيها الكبير .

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٣ ص١٧٨ .

٧ ـ أن حكمة الله ـ تعالى ـ قد اقتضت أن تتألف الأمم من حاكمين ومحكومين ، وأن كل فريق له حقوق وعليه واجبات ، وأن الأمم لاتصلح بدون حاكم يحكمها ويرعى شئونها ، ويحق الحق ويبطل الباطل .

قال القرطبى عند تفسيره لقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ ، فى الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وَزَعةً ـ أى ولاة ، أو قضاة ـ يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض .

قال ابن عون : سمعت الحسن يقول وهو فى مجلس قضائه : والله مايصلح هؤلاء الناس إلا وزعة ـ أى : حكاما حازمين عادلين .(١)

ومن الأقوال الحكيمة لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : «إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن» ، أى : ليردع ويخيف بالسلطان مالا يردع ويخيف بالقرآن .

٨ ـ أن الحاكم العاقل هو الذى يستشير من هو أهل للاستشارة فى الأمور التى تهم الأمة .

فهاهى ذى ملكة سبأ عندما جاءها كتاب سليمان ـ عليه السلام ـ جمعت وجوه قومها ، وقالت لهم ـ كما حكى القرآن عنها ـ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ .

قال القرطبى : وفى هذه الآية دليل على صحة المشاورة ، وقد قال الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ وقد مدح الله الفضلاء بقوله : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ والمشاورة من الأمر القديم خاصة فى الحرب ، فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس من دون الله قالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي... ﴾ لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وربما كان فى استبدادها برأيها وهن فى طاعتها ، وكان فى مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من شوكتهم ، وشدة مدافعتهم ، ألا ترى إلى قولهم فى جوابهم : ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ (٢)

٩ ـ أن الهدية إذا لمس المُهدَى إليه من ورائها ، عدم الإخلاص فى إهدائها ، وأن المقصد منها صرفه عن حق يقيمه ، أو عن باطل يزيله ، فإن الواجب عليه أن يرد هذه الهدية لصاحبها ، وأن يمتنع عن قبولها .

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٣ ص١٦٨ .

(٢) تفسير القرطبى جـ١٣ ص١٩٤ .

ألا ترى إلى سليمان ـ عليه السلام ـ قد رد الهدية الثمينة التى أهدتها بلقيس إليه ، حين أحس أن وراء هذه الهدية شيئا ، يتنافى مع تبليغ وتنفيذ رسالة الله ـ تعالى ـ التى أمره بتبليغها وتنفيذها ، ألا وهى : الأمر بإخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ والنهى عن الإشراك به ، وبلقيس إنما كانت تقصد بهديتها ، اختبار سليمان ، أنبى هو أم ملك ، كما سبق أن أشرنا .

لذا وجدنا القرآن يحكى عن سليمان ـ عليه السلام ـ أنه رد هذه الهدية مع من جاءوا بها ، وقال : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ .

١٠ ـ أن ملكة سبأ دل تصرفها عل أنها ملكة عاقلة رشيدة ، حكيمة ، فقد استشارت خاصتها فى كتاب سليمان ـ عليه السلام ـ ولوحت لهم بقوته وبما سيترتب على حربه ، وآثرت أن تقدم له هدية على سبيل الامتحان ، واستحبت المسالمة على المحاربة ، وكان عندها الاستعداد لقبول الحق والدخول فيه ، وما أخرها عن المسارعة إليه إلا لكونها كانت من قوم كافرين .

وعندما التقت بسليمان ، وانكشفت الحقائق سارعت إلى الدخول فى الدين الحق ، وقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

هذه بعض العبر والعظات التى تؤخذ من هذه القصة البديعة الحكيمة ، التى تشهد بأن هذا القرآن من عند الله «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» .

قصة زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ

١ ـ قصة زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ وردت فى سور : آل عمران ، ومريم ، والأنبياء .

وقد تكرر اسم زكريا فى القرآن سبع مرات ، أما ابنه يحيى فقد تكرر اسمه ست مرات .

وزكريا ـ عليه السلام ـ هو ابن أزن بن بركيا ، وينتهى نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ .

وكان زكريا قريب العهد بعيسى ابن مريم ، يدل على ذلك ما أشار إليه القرآن الكريم من أن زكريا هو الذى تولى كفالة مريم أم عيسى ـ عليه السلام ـ .

قال ـ تعالى ـ :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

والمتأمل فى القرآن الكريم يراه يجمع بين زكريا وابنه يحيى خلال حديثه عن هذين النبيين الكريمين .

٢ ـ ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى وردت فى فضل هذين النبيين الكريمين ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «كان زكريا ـ عليه السلام ـ نجارا» .

أى : أنه كان يعيش من عمل يده ، ولايتطلع إلى مافى يد غيره ، وفى الحديث الشريف : «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده» .

ومنها : ما روى عن عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال : «لاينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ فإنه ما همَّ بخطيئة» .

ومنها ما روى عن الحارث الأشعرى أن النبى ﷺ قال : إن الله ـ تعالى ـ أمر يحيى ابن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن ، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن .

فجمع يحيى بنى إسرائيل فى بيت المقدس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله ـ عز وجل ـ أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن :

أولهن : أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا ، وأن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله ، فجعل يعمل ويؤدى عمله إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وآمركم بالصلاة ، فإن الله ـ تعالى ـ ينصب وجهه بوجه عبده مالم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا .

وآمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وآمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فشدوا يديه إلى عنقه ، وقربوه ليضربوا عنقه ، فقال لهم : هل لكم أن أفتدى نفسى منكم؟ فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه .

وآمركم بذكر الله كثيرا ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره ، فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله ـ تعالى ـ .

٣ ـ ومن الآيات القرآنية التى تحدثت عن زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ قوله ـ تعالى ـ فى مطلع سورة «مريم» .

ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى : المتلو عليك ذكر رحمة ربك عبده زكريا .

والمعنى : هذا الذى نذكره لك يا محمد ، هو جانب من قصة عبدنا زكريا ، وطرف من مظاهر الرحمة التى اختصصناه بها ، ومنحناه إياها .

وقوله : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ ظرف لرحمة ربك ، والمراد بالنداء : الدعاء الذى تضرع به زكريا إلى ربه ـ عز وجل ـ .

أى : هذا الذى قرأناه عليك يا محمد فى أول هذه السور ، وذكرناه لك ، هو جانب من رحمتنا لعبدنا زكريا ، وقت أن نادانا وتضرع إلينا فى خفاء وستر ، ملتمسا منا الذرية الصالحة .

وإنما أخفى زكريا دعاءه ، لأن هذا الإخفاء فيه بعد عن الرياء ، وقرب من الإخلاص ، وقد أمر الله ـ تعالى ـ به فى قوله : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

ويبدو أن هذا الدعاء قد تضرع به زكريا إلى ربه فى أوقات تردده على مريم ، واطلاعه على ما اعطاه الله ـ تعالى ـ من رزق وفير .

ويشهد لذلك قوله ـ تعالى ـ ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (١)

ثم بين ـ سبحانه ـ ما نادى به زكريا ربه فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي . . ﴾ والوهن : الضعف ، يقال : وهن الجسم يهن ـ من باب وعد ـ إذا ضعف .

وخص العظم بالذكر ، لأنه دعامة البدن ، وعماد الجسم وبه قوامه ، فإذ ضعف كان غيره من أجزاء الجسم أضعف ، وإفراد لفظ العظم لإرادة الجنس .

﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ والمراد باشتعال الرأس شيباً : انتشار بياض الشيب فيه ، والألف واللام فى لفظ ﴿ الرَّأْس ﴾ قاما مقام المضاف إليه .

والمراد : واشتعل رأسى شيبا ، وهذا يدل على تقدم السن ، كما يشهد له قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أى : ولم أكن فيما مضى من عمرى مخيب الدعاء وإنما تعودت منك يا إلهى إجابة دعائى ، ومادام الأمر كذلك فأجب دعائى فى الزمان الآتى من عمري ، كما أجبته فى الزمان الماضى منه .

فأنت ترى أن زكريا ـ عليه السلام ـ قد أظهر فى دعائه أسمى ألوان الأدب مع خالقه ، حيث توسل إليه ـ سبحانه ـ بضعف بدنه ، وبتقدم سنه ، وبما عوده إياه من إجابة دعائه فى الماضى .

---

(١) سورة آل عمران : ٣٧ ، ٣٨ .

ثم حكى - سبحانه - بعض الأسباب الأخرى لإلحاح زكريا فى الدعاء فقال :

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ .

والموالى : جمع مولى ، والمراد بهم هنا : عصبته وأبناء عمومته الذين يلون أمره بعد موته ، وكان لايثق فيهم لسوء سلوكهم .

والعاقر : العقيم الذى لايلد ، ويطلق على الرجل والمرأة ، يقال : امرأة عاقر ، ورجل عاقر .

أى : وإنى - يا إلهى - قد خفت ما يفعله أقاربى ﴿ مِن وَرَائِي ﴾ أى : من بعد موتى ، من تضييع لأمور الدين ، من عدم القيام بحقه ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ ، لاتلد قط فى شبابها ولا فى غير شبابها ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ﴾ ، أى : من عندك ﴿ وَلِيًّا ﴾ أى : ولدا من صلبى ، هذا الولد ﴿ يَرِثُنِي ﴾ فى العلم والنبوة ﴿ وَيَرِثُ ﴾ أيضا ﴿ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ابن إسحاق بن إبراهيم العلم والنبوة والصفات الحميدة ،﴿ وَاجْعَلْهُ ﴾ يارب ﴿ رَضِيًّا ﴾ أى : مرضيا عندك فى أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته .

ففى هاتين الآيتين نرى زكريا يجتهد فى الدعاء بأن يرزقه الله الولد ، لا من أجل شهوة دنيوية ، وإنما من أجل مصلحة الدين والخوف من تضييعه وتبديله والحرص على من يرثه فى علمه ، ونبوته ، ويكون مرضيا عنده - عز وجل - .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ مِن وَرَائِي ﴾ المراد به من بعد موتى ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف ينساق إليه الذهن أى : خفت فعل الموالى من ورائى أو جور الموالى ، وهم عصبة الرجل ، وكانوا على سائر الأقوال شرار بنى إسرائيل ، فخاف أن لايحسنوا خلافته فى أمته .[1] .

وفى قوله اعتراف عميق بقدرة الله - تعالى - لأن مثل هذا العطاء لايرجى إلا منه - عز وجل - بعد أن تقدمت بزكريا السن ، وبعد أن عهد من زوجه العقم وعدم الولادة .

وقد أشار - سبحانه - فى آية أخرى إلى أنه أزال عنها العقم وأصلحها للولادة فقال :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) ﴾ [2]

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٦ ص٦١ .

(٢) سورة الأنبياء : ٨٩ ، ٩٠

أى : وجعلناها صالحة للولادة بعد أن كانت عقيما من حين شبابها إلى شيبها .

والمراد بالوراثة فى قوله : ﴿ يَرِثُنِي ﴾ وراثة العلم والنبوة والصفات الحميدة .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقوله : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي ﴾ قرأ الأكثرون بنصب الياء من الموالى على أنه مفعول ، وعن الكسائى أنه سكن الياء .

ووجه خوفه أنه خشى أن يتصرفوا من بعده فى الناس تصرفا سيئا ، فسأل الله ولدا يكون نبيا من بعده ليسوسهم بنبوته ، لا أنه خشى من وراثتهم له ماله ، فإن النبى أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يشفق على ماله إلى هذا الحد ، وأن يأنف من وراثة عصبته له ، ويسأل أن يكون له ولدا ليحوز ميراثه دونهم .

وقد ثبت فى الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : «لا نورث ، ما تركنا صدقة» وفى رواية عند الترمذى بإسناد صحيح : «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» .

وعلى هذا فتعين حمل قوله : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي ﴾ على ميراث النبوة ولهذا قال : كقوله : أى : فى النبوة ، إذ لو كان فى المال لما خصه من بين إخوته بذلك ، ولما كان فى الإخبار بذلك كبير فائدة ، إذ من المعلوم المستقر فى جميع الشرائع والملل ، أن الولد يرث أباه فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها ، وكل هذا يقرره ويثبته ما صح فى الحديث ، : «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة»(١) .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : ومعنى يرثنى أى : إرث علم ونبوة ودعوة إلى الله والقيام بدينه ، لا إرث مال ، ويدل لذلك أمران :

أحدهما قوله : ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ومعلوم أن آل يعقوب انقرضوا من زمان فلايورث عنهم إلا العلم والنبوة والدين .

والأمر الثانى ما جاء من الأدلة أن الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ لا يورث عنهم المال ، وإنما يورث عنهم العلم والدين ، فمن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبي بكر الصديق أن رسول الله ﷺ قال : «لا نورث ما تركناه صدقة»(٢) .

٤ ـ ثم بين القرآن الكريم أن الله ـ تعالى ـ قد أجاب بفضله وكرمه دعاء عبده زكريا ، كما بين ماقاله زكريا عندما بشره ربه بغلام اسمه يحيى فقال ـ تعالى ـ :

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٣ ص١١١

(٢) راجع تفسير أضواء البيان جـ٤ ص٢٠٦ للشيخ الشنقيطى ـ رحمه الله .

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝١١﴾

قال القرطبى : قوله ـ تعالى ـ ﴿يَا زَكَرِيَّا﴾ فى الكلام حذف ، أى : فاستجاب الله دعاءه فقال : ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ . .﴾ فتضمنت هذه البشارة ثلاثة أشياء : أحدها : إجابة دعائه وهى كرامة ، الثانى : إعطاؤه الولد وهو قوة ، الثالث : أن يفرد بتسميته .[1]

وقد بين ـ سبحانه ـ فى آيات أخرى أن الذى بشر زكريا هو بعض الملائكة ، وأن ذلك كان وهو قائم يصلى فى المحراب ، قال ـ تعالى ـ :

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[2]

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿اسْمُهُ يَحْيَىٰ . .﴾ يدل على أن هذه التسمية قد سماها الله ـ تعالى ـ ليحيى ، ولم يكل تسميته لزكريا أو لغيره ، وهذا لون من التشريف والتكريم .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أى لم نجعل أحدا من قبل مشاركا له فى هذا الاسم ، بل هو أول من تسمى بهذا الاسم الجميل .

قال بعض العلماء : «وقول من قال : إن معناه : لم نجعل له من قبل سميا ، أى : نظيرا يساويه فى السمو والرفعة غير صواب ، لأنه ليس بأفضل من إبراهيم ونوح وموسى فالقول الأول هو الصواب ، وممن قال به : ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، وابن أسلم وغيرهم» .[3]

---

(١) تفسير القرطبى جـ١١ ص٨٢ .
(٢) سورة آل عمران الآية ٣٩ .
(٣) تفسير أضواء البيان جـ٤ ص٢١٤ للشيخ الشنقيطى ـ رحمه الله ـ .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما قاله زكريا بعد هذه البشارة السارة ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾

فالجملة الكريمة استئناف مبنى على سؤال تقديره : فماذا قال زكريا عندما بشره الله ـ تعالى ـ بيحيى؟ .

ولفظ ﴿ أَنَّىٰ ﴾ بمعنى : كيف ، أو بمعنى : من أين .

أى : قال زكريا مخاطبا ربه بعد أن بشره بابنه يحيى : يا رب كيف يكون لى غلام ، وحال امرأتى أنها كانت عاقرا فى شبابها وفى شيخوختها ، وحالى أنا أننى قد بلغت من الكبر عتيا ، أى : قد تقدمت فى السن تقدما كبيرا .

يقال : عتى الشيخ يعتو عتيا ـ بكسر العين وضمها ـ إذا بلغ النهاية فى الكبر .

قال ابن جرير : «قوله : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ يقول : وقد عتوت من الكبر فصرت نحيل العظام يابسها ، يقال منه للعود اليابس : عات وعاس ، وقد عتا يعتو عتوا وعتيا ، وكل متناه فى كبر أو فساد أو كفر فهو عات» .[1]

فإن قيل : ما المراد باستفهام زكريا ـ عليه السلام ـ مع علمه بقدرة الله ـ تعالى ـ على كل شىء؟ .

فالجواب أن استفهامه إنما هو على سبيل الاستعلام والاستخبار ، لأنه لم يكن يعلم أن الله ـ تعالى ـ سيرزقه بيحيى عن طريق زوجته العاقر ، أو عن طريق الزواج بامرأة أخرى ، فاستفهم عن الحقيقة ليعرفها .

ويصح أن يكون المقصود بالاستفهام التعجب والسرور بهذا الأمر العجيب حيث رزقه الله الولد مع تقدم سنه وسن زوجته .

ويجوز أن يكون المقصود بالاستفهام الاستبعاد لما جرت به العادة من أن يأتى الغلام مع تقدم سنه وسن زوجته ، وليس المقصود به استحالة ذلك على قدرة الله ـ تعالى ـ لأنه ـ سبحانه ـ لا يعجزه شىء .

ثم حكى سبحانه ـ ما رد به على استفهام زكريا فقال : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر كذلك .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١٦ ص٣٨ طبعة بولاق سنة ١٣٢٨هـ .

والمعنى : قال الله ـ تعالى ـ مجيبا على استفهام زكريا ، الأمر كما ذكرت يا زكريا من كون امرأتك عاقرا ، وأنت قد بلغت من الكبر عتيا ، ولكن ذلك لايحول بيننا وبين تنفيذ إرادتنا فى منحك هذا الغلام ، فإن قدرتنا لايعجزها شىء ، ولاتخضع لما جرت به العادات .

وهذا الأمر وهو إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أى : يسير سهل .

ثم ذكر له ـ سبحانه ـ ما هو أعجب مما سأل عنه فقال :

﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ .

أى : لاتعجب يا زكريا من أن يأتيك غلام وأنت وزوجك بتلك الحالة ، فإنى أنا الله الذى أوجدتك من العدم ، ومن أوجدك من العدم ، فهو قادر على أن يرزقك بهذا الغلام المذكور .

فالآية الكريمة قد ساقت بطريق منطقى برهانى ، مايدل على كمال قدرة الله ـ تعالى ـ وما يزيد فى اطمئنان قلب زكريا ـ عليه السلام ـ .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما التمسه زكريا ـ عليه السلام ـ من خالقه فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ﴾ .

أى : اجعل لى علامة أستدل بها على وقوع ما بشرتنى به ، لأزداد سرورا واطمئنانا ولأعرف الوقت الذى تحمل فيه امرأتى بهذا الغلام فأكثر من شكرك وذكرك .

فأجابه الله ـ تعالى ـ بقوله : ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ .

أى : قال الله ـ تعالى ـ لعبده زكريا : يا زكريا ، علامة وقوع ما بشرتك به ، أنك تجد نفسك عاجزا عن أن تكلم الناس بلسانك ، لمدة ثلاث ليال بأيامهن حال كونك سوى الخلق ، سليم الحواس ليس بك من خرس ، أو بكم ولكنك ممنوع من الكلام بأمرنا وقدرتنا على سبيل خرق العادة .

فقوله : ﴿ سَوِيًّا ﴾ حال من فاعل ﴿ تُكَلِّمَ ﴾ وهو زكريا أى : حال كونك يا زكريا سوى الخلق ، سليم الجوارح ، لا علة تمنعك من ذلك سوى قدرتنا .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان من زكريا بعد ذلك فقال : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ .

المحراب : المصلى ، أو الغرفة التى كان يجلس فيها فى بيت المقدس ، أو هو المسجد ، فقد كانت مساجدهم تسمى المحاريب ، لأنها الأماكن التى تحارب فيها الشياطين .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٣٩

أي : فخرج زكريا - عليه السلام - على قومه من المكان الذى كان يصلى فيه ، ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ أى : فأشار إليهم أو كتب لهم دون أن ينطق بلسانه ﴿ أَن سَبِّحُوا ﴾ الله - تعالى - وقدسوه ﴿ بُكْرَةً ﴾ أى : فى أوائل النهار ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ أى : فى أواخره .

وقد ذكر - سبحانه - فى آية أخرى ، ما يشير إلى أن هذا المحراب الذى خرج منه زكريا - عليه السلام - على قومه ، هو ذلك المكان الذى بشره الله - تعالى - فيه بيحيى .

قال - تعالى - : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ جانبا من رحمة الله - تعالى - بعبده زكريا ، ومن الدعوات التى تضرع بها إلى خالقه - عز وجل - وأن الله - تعالى - قد أجاب له دعاءه ، وبشره بيحيى ، وعرفه بالعلامة التى بها يعرف وقوع ما بشره به ، زيادة فى اطمئنانه وسروره .

٥ - ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن يحيى ، فبينت ما أمره الله - تعالى - به ، وما منحه من صفات فاضلة ، فقال - تعالى - :

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ مقول لقول محذوف ، والسر فى حذفه المسارعة إلى الإخبار بإنجاز الوعد الكريم .

والتقدير : وبعد أن ولد يحيى ، ونما وترعرع قلنا له عن طريق وحينا : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ ﴾ الذى هو التوراة ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أى : بجد واجتهاد ، وتفهم لمعناه على الوجه الصحيح ، وتطبيق ما اشتمل عليه من أحكام وآداب ، فإن بركة العلم فى العمل به .

والجار والمجرور ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ حال من فاعل خذ وهو يحيى ، والباء للملابسة أى : خذه حالة كونك ملتبسا بحفظه وتنفيذ أحكامه بشدة وثبات .

وقوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أى : وأعطيناه بقدرتنا وفضلنا ﴿ الْحُكْمَ ﴾ أى : فهم الكتاب والعمل بأحكامه وهو فى سن الصبا .

قيل : كان سنة ثلاث سنين ، وقيل : سبع سنين .

قال الآلوسى : أخرج أبونُعَيم ، وابن مردويه ، والديلمى ، عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال فى ذلك : «أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين»[1] .

وقال الجمل فى حاشيته : «فإن قلت : كيف يصح حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا؟ قلت : لأن أصل النبوة مبنى على خرق العادات ، إذا ثبت هذا ، فلا تمنع صيرورة الصبى نبيا : وقيل : أراد بالحكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير»[2] .

والذى تطمئن إليه النفس وعليه جمهور المفسرين أن المراد بالحكم هنا : العلم النافع مع العمل به ، وذلك عن طريق حفظ التوراة وفهمها وتطبيق أحكامها .

قال ابن كثير : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أى : الفهم والعلم والجد والعزم ، والإقبال على الخير ، والإكباب عليه ، والاجتهاد فيه ، وهو صغير حدث .

قال عبدالله بن المبارك : قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، فقال : ما للعب خلقنا ، قال : فلهذا أنزل الله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾[3]

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ معطوف على ﴿ الْحُكْمَ ﴾ أى : وأعطيناه الحكم صبيا ، وأعطيناه حنانا .

قال القرطبى ما ملخصه : «الحنان : الشفقة والرحمة والمحبة ، وهو فعل من أفعال النفس .

وأصله : من حنان الناقة على ولدها ، قال طرفة :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعض[4]

والمعنى : منحنا ﴿ يَحْيَىٰ ﴾ الحكم صبيا ، ومنحناه من عندنا وحدنا رحمة عظيمة عليه ، ورحمة فى قلبه جعلته يعطف على غيره ، وأعطيناه كذلك زكاة أى : طهارة فى النفس ، أبعدته عن ارتكاب ما نهى الله عنه ، وجعلته سباقا لفعل الخير ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ أى : مطيعا لنا فى كل ما نأمره به ، أو ننهاه عنه .

---

(١) تفسير الألوسى جـ١٦ ص٧٢ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ٣ ص٥٤ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ٣ ص١١٣ .

(٤) تفسير القرطبى جـ١١ ص٨٧ .

ثم أضاف - سبحانه - إلى تلك الصفات الكريمة ليحيى صفات أخرى فقال : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ ﴾ أى : وجعلناه كثير البر بوالديه ، والإحسان إليهما .

﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا ﴾ أى : مستكبرا متعاليا مغرورا ﴿ عَصِيًّا ﴾ . أى : ولم يكن ذا معصية ومخالفة لأمر ربه .

ثم ختم - سبحانه - هذه الصفات ببيان العاقبة الحسنة التى ادخرها ليحيى - عليه السلام - فقال : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ أى : وتحية وأمان له منا يوم ولادته ﴿ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ ويفارق هذه الدنيا للحساب ﴿ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ يوم القيامة .

وخص - سبحانه - هذه الأوقات الثلاثة بالذكر ، لأنها أحوج إلى الرعاية من غيرها .

قال سفيان بن عيينة : أحوج مايكون المرء فى ثلاثة مواطن : يوم يولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوما لم يكن عاينهم ، ويوم يبعث فيرى نفسه فى محشر عظيم .

٦ - وفى سورة آل عمران آيات كريمة تحدثت عن جانب من قصة زكريا ويحيى - عليهما السلام - حيث قال - تعالى - :

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

وقوله - تعالى - : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ كلام مستأنف ، وقصة مستقلة سيقت فى تضاعيف قصة مريم وأمها لما بينهما من قوة الارتباط ، وشدة الاشتباك مع مافى إيرادها من تقرير ما سيقت له قصة مريم وأمها من بيان اصطفاء آل عمران .

و«هنا» ظرف يشار به إلى المكان القريب كما فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وتدخل عليه اللام والكاف «هنالك» أو الكاف وحدها «هناك» فيكون للبعيد وقد يشار به للزمان اتساعا .

والمعنى : فى ذلك المكان الطاهر الذى كان يلتقى فيه زكريا بمريم ويرى من شأنها ما يرى من فضائل وغرائب ، تحركت فى نفس زكريا عاطفة الأبوة ، وهو الشيخ الكبير الذى وهن عظمه واشتعل رأسه شيبا ، وبلغ من الكبر عتيا ـ فدعا الله تعالى ـ بقلب سليم ، وبنفس صافية وبجوارح خاشعة ، أن يرزقه الذرية الصالحة .

ولقد حكى القرآن دعاءه بأسلوبه المؤثر فقال : ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ .

أى : قال زكريا مناجيا ربه : يا رب أنت الذى خلقتنى ، وأنت الذى لايقف أمام قدرتك شىء ، وأنت الذى جعلتنى أرى من أحوال مريم مايشهد بقدرتك النافذة وفضلك العميم فهب لى يا خالقى من عندك ذرية صالحة تقر بها عينى ، وتكون خلفا لى من بعدى ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أى إنك عليم بدعائى علم من يسمع ، قريب الإجابة لمن يدعوك ، فإن أجبت لى سؤالى فبفضلك وإن لم تجبه ، فبعدلك وحكمتك .

فأنت ترى فى هذا الدعاء الذى صدر عن زكريا ـ عليه السلام ـ أسمى ألوان الأدب والخشوع والإنابة ، فقد رفع أكف الضراعة فى مكان مقدس طاهر .

وفى التعبير بقوله : ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ إشارة إلى تسليمه لله وإلى شعوره بقدرة الله على كل شىء ، فهو الذي خلقه ورباه وتولاه برعايته فى كل أدوار حياته .

وفى قوله : ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ إشعار بأنه يريد من خالقه ـ عز وجل ـ أن يعطيه هذه الذرية بلا سبب عادى ، ولكن بإرادته وقدرته لأنه لو كان الأمر فى هذا العطاء يعود إلى الأسباب والمسببات العادية لكان الحصول على الذرية مستبعدا إذ هو قد بلغ من الكبر عتيا وزوجته قد تجاوزت السن التى يحصل فيها الإنجاب فى العادة .

أى هب لى من عندك لا من عندى ، لأن الأسباب عندى أصبحت مستبعدة ، وفى تقييد الذرية بكونها طيبة ، إشارة إلى أن زكريا لقوة إيمانه ونقاء سريرته ، وحسن صلته بربه ، لايريد ذرية فحسب وإنما يريد ذرية صالحة يرجى منها الخير فى الدنيا والآخرة .

وجملة ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ تعليلية ، أى إنى ما التجأت إليك يا إلهى إلا لأنك مجيب للدعاء غير مخيب للرجاء .

قال القرطبى ما ملخصه «دلت هذه الآية على طلب الولد وهو سنة المرسلين والصديقين ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا

وَذُرِّيَّةً ﴾ وقد ترجم البخارى على هذا «باب طلب الولد» وقال النبى ﷺ لأبى طلحة حين مات ابنه : «أعرستم الليلة» قال : نعم ، قال : «بارك الله لكما فى غابر ليلتكما» ، فقال رجل من الأنصار : فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن . والأخبار فى هذا المعنى كثيرة ، تحث على طلب الولد لما يرجوه الإنسان من نفعه فى حياته وبعد مماته ، قال ﷺ : «إذا مات أحدكم انقطع عمله إلا من ثلاث : ـ فذكر منها ـ : أو ولد صالح يدعو له» ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية .(١)

هذا هو دعاء زكريا كما حكاه الله ـ تعالى ـ فى أكثر من موضع فى كتابه الكريم فماذا كانت نتيجة هذا الدعاء الخاشع ، والتضرع الخالص؟ لقد كانت نتيجته الإجابة من الله ـ تعالى ـ لعبده زكريا ، فقد قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ .

أى : فنادت الملائكة زكريا ـ عليه السلام ـ وهو قائم يصلى فى المحراب ، يناجى ربه ، ويسبح بحمده بأن الله قد استجاب دعاءك ويبشرك بغلام اسمه يحيى ، لكى تقر به عينك ويسر به قلبك .

والتعبير بالفاء فى قوله : ﴿ فَنَادَتْهُ ﴾ يشعر بأن الله ـ تعالى ـ فضلا منه وكرما قد استجاب لزكريا دعاءه بعد فترة قليلة من هذا الدعاء الخاشع ، إذ الفاء تفيد التعقيب .

ويرى فريق من المفسرين أن الذى ناداه هو جبريل وحده ، ومن الجائز فى العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع .

قال ابن جرير : كما يقال فى الكلام : خرج فلان على بغال البريد وإنما ركب بغلا واحدا وركب السفن وإنما ركب سفينة واحدة ، وكما يقال : ممن سمعت هذا؟ فيقال : من الناس ، وإنما سمعه من رجل واحد ، وقد قيل : إن منه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ .والقائل كان فيما ذكر واحد(٢) .

ويرى فريق آخر منهم أن الذى نادى زكريا وبشره بمولوده يحيى ، جمع من الملائكة لأن الآية صريحة فى أن هذا النداء قد صدر من جمع لا من واحد ، ولأن صدوره من جمع يناسب هذه البشارة العظيمة ، فقد جرت العادة فى أمثال هذه البشارات العظيمة أن يقوم بها جمع لا واحد ، ولاشك أن حالة زكريا وحالة زوجه تستدعيان عددا من المبشرين لإدخال السرور على هذين الشخصين اللذين كادا يفقدان الأمل فى إنجاب الذرية .

---

(١) تفسير القرطبى جـ٤ ص٧٢ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ٣ ص٢٤٩ .

وقد رجح هذا الاتجاه ابن جرير فقال : «وأما الصواب من القول فى تأويله فأن يقال : إن الله ـ جل ثناؤه ـ أخبر أن الملائكة نادته ، والظاهر من ذلك أنها جماعة من الملائكة دون الواحد ، وجبريل واحد فلايجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا على الأظهر الأكثر من الكلام المستعمل فى ألسن العرب دون الأقل ما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، ولم تضطرنا حاجة إلى صرف ذلك إلى أنه بمعنى واحد فيحتاج له إلى المخرج بالخفى من الكلام والمعانى»[1] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ ﴾ جملة حالية من مفعول النداء ، و﴿ يُصَلِّي ﴾ حال من الضمير المستكن فى قائم أو حال أخرى من مفعول النداء على القول بجواز تعدد الحال ، وقوله ﴿ فِي الْمِحْرَابِ ﴾ متعلق بيصلى ، والمراد بالمحراب هنا المسجد ، أو المكان الذى يقف فيه الإمام فى مقدمة المسجد .

وقرأ جمهور القراء : ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ ﴾ بفتح همزة أن ـ على أنه فى محل جر بباء محذوفة ، أى : نادته الملائكة بأن الله يبشرك بيحيى .

وقرأ ابن عامر وحمزة : ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ ﴾ ـ بكسر الهمزة ـ على تضمين النداء معنى القول ، أى : قالت له الملائكة : إن الله يبشرك بيحيى .

وقوله : ﴿ بِيَحْيَىٰ ﴾ متعلق بيبشرك ، وفى الكلام مضاف ، أى يبشرك بولادة يحيى ، لأن الذوات ليست متعلقا للبشارة .

وفى اقتران التبشير بالتسمية بيحيى ، إشعار بأن ذلك المولود سيحيا اسمه وذكره بعد موته ، وبذلك تتحقق الإجابة لدعاء زكريا تحققا تاما ، فقد حكى القرآن عنه فى سورة مريم أنه قال : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ .

قال الجمل : و«يحيى» فيه قولان : أحدهما : وهو المشهور عند أهل التفسير أنه منقول من الفعل المضارع ، وقد سموا بالأفعال كثيرا نحو يعيش ويعمر ، وعلى هذا فهو ممنوع من الصرف للعلمية ووزن الفعل ، نحو يزيد ويشكر وتغلب .

والثاني : أنه أعجمى لا اشتقاق له ، وهذا هو الظاهر ، فامتناعه من الصرف للعلمية والعجمة .[2]

ثم وصف الله ـ تعالى ـ يحيى ـ عليه السلام ـ بأربع صفات كريمة فقال :

﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٣ ص٢٥٠ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص١٦٧ .

فالصفة الأولى : من صفات يحيى ـ عليه السلام ـ أنه كان ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ وللعلماء فى تفسير هذه الجملة الكريمة اتجاهان :

أما الاتجاه الأول فيرى أصحابه ـ وهم جمهور العلماء ـ أن المراد بكلمة الله هو عيسى ـ عليه السلام ـ لأنه كان يسمى بذلك أى أن يحيى كان مصدقا بعيسى ومؤمنا بأنه رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه .

وقد كان يحيى معاصرا لعيسى ، وكانت بينهما قرابة قوية إذ أن والدة يحيى كانت أختا لأم مريم وقيل : إن أم يحيى كانت أختا لمريم .

وأما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه أن المراد بكلمة الله كتابه ، أى أن يحيى من صفاته الطيبة أنه كان مصدقا بكتاب الله وبكلامه ، وذلك لأن الكلمة قد تطلق ويراد منها الكلام ، والعرب تقول أنشد فلان كلمة أى قصيدة ، وقال كلمة أى خطبة .

ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أقرب إلى الصواب ، لأن القرآن قد وصف عيسى بأنه كلمة الله فى أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ :﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ ، وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ولأن فى التعبير عن عيسى الذى صدقه يحيى ـ بأنه كلمة من الله ، إشعارا بأن ولادتهما متقاربة من حيث الزمن ، وإيماء إلى أن زكريا ـ عليه السلام ـ قد أوتى علما بأن المسيح عهده قريب ، وأن يحيى ـ عليه السلام ـ سيعيش حتى يدرك عيسى .

وقوله : ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ منصوب على الحال المقدرة من يحيى ، أى على الحال التى سيكون عليها فى المستقبل ، والمراد بهذا التصديق الإيمان بعيسى ـ كما سبق أن أشرنا ـ قيل : هو أول من آمن بعيسى وصدق أنه كلمة الله وروح منه .[1]

و﴿ مِّنَ ﴾ فى قوله : ﴿ مِّنَ اللَّهِ ﴾ للابتداء ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة ، أى مصدقا بكلمة كائنة من الله ـ تعالى ـ .

والصفة الثانية : من صفات يحيى عبر عنها القرآن بقوله ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ والسيد ـ كما يقول القرطبى الذى يسود قومه وينتهى إلى قوله ، وأصله سيود يقال فلان أسود من فلان على وزن أفعل من السيادة ففيه دلالة على تسمية الإنسان سيدا ، وفى الحديث أن

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ ص١٤٧ .

رسول الله ﷺ قال لبنى قريظة عندما دخل سعد بن معاذ «قوموا إلى سيدكم» وفى الصحيحين أنه قال فى الحسن «إن ابنى هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» .(١)

والمراد أن يحيى عليه السلام ـ من صفاته أنه سيكون سيدا ، أى يفوق غيره فى الشرف والتقوى وعفة النفس ، بأن يكون مالكا لزمامها ، ومسيطرا على أهوائها .

والصفة الثالثة : من صفاته عبر عنها القرآن بقوله : ﴿ وَحَصُوراً ﴾ وأصل الحصر : المنع والحبس ، يقال حصرنى الشىء وأحصرنى إذا حبسنى .

والمراد أن يحيى ـ عليه السلام ـ من صفاته أنه سيكون حابسا نفسه عن الشهوات ، حتى لقد قيل عنه إنه امتنع عن الزواج ـ وهو قادر على ذلك ـ زهادة منه واستعفافا ، وليس صحيحا ماقيل من أنه كان لايأتى النساء لعدم قدرته على ذلك .

قال ابن كثير : وقد قال القاضى عياض فى كتابه الشفاء : اعلم أن ثناء الله على يحيى بأنه كان ﴿ وَحَصُوراً ﴾ معناه أنه معصوم من الذنوب ، أى لا يأتيها كأنه حصور عنها .

وقيل : مانعا نفسه من الشهوات ، وقيل ليست له شهوة فى النساء ، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل فى كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله ـ تعالى ـ كيحيى ـ عليه السلام ـ ثم هى فى حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه : درجة عليا وهى درجة نبينا ﷺ الذى لم تشغله كثرتهن عن عبادة ربه ، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن وهدايته لهن ، والمقصود أن مدح يحيى بأنه حصور ليس معناه أنه لايأتى النساء ، بل معناه أنه معصوم من الفواحش والقاذورات ، ولايمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن ، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ كأنه قال ولدا له ذرية ونسل وعقب .(٢)

أما الوصف الرابع : من أوصاف يحيى ـ عليه السلام ـ فهو قوله : ﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ لله ـ تعالى ـ وفى هذا الوصف بشارة ثانية لزكريا بأن ابنه سيكون من الأنبياء الذين اصطفاهم الله لتبليغ دعوته إلى الناس ، وهذه البشارة أسمى وأعلى من الأولى التى أخبره الله فيها بولادة يحيى ، لأن النبوة منزلة لا تعدلها منزلة فى الشرف والفضل .

---

(١) تفسير القرطبى ـ بتصرف يسير ـ جـ٤ ص٧٧ .

(٢) تفسير ابن كثير بتصرف يسير جـ١ ص٣٦١ .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما قاله زكريا بعد أن ساقت له الملائكة تلك البشارات السارة فقال ـ تعالى ـ : ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ أى هنا بمعنى كيف ، و«عاقر» أى عقيم لاتلد لكبر سنها من العقر وهو العقم يقال عقرت المرأة فهى عاقرا إذا بلغت سن اليأس من الولادة .

أى قال زكريا على سبيل التعجب بعد أن نادته الملائكة وبشرته بما بشرته به : يا رب كيف يكون لى غلام والحال أننى قد أدركنى الكبر الكامل الذى أضعفنى وفوق ذلك فإن امرأتى عاقر أى عقيم ، لاتلد لشيخوختها وبلوغها العمر الذى ينقطع معه النسل؟

قال بعضهم : وإنما قال ذلك استفهاما عن كيفية حدوث الحمل ، أو استبعادا من حيث العادة ، أو استعظاما وتعجبا من قدرة الله ـ تعالى ـ لا استبعادا أو إنكارا فلايرد : كيف قال زكريا ذلك ولم يكن شاكا فى قدرة الله ـ تعالى ـ .[1]

والجملة الكريمة استئناف مبنى على سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال زكريا عندما بشرته الملائكة؟ فكان الجواب : قال : رب أنى يكون لى غلام .

وقد خاطب زكريا ربه مع أن النداء له صدر من الملائكة ، للإشعار بالمبالغة فى التضرع وأنه قد طرح الوسائط واتجه إلى خالقه مباشرة بشكره ويظهر التعجب من قدرته لأنه ـ سبحانه ـ أعطاه ما لم تجر العادة به .

وقوله : ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ جملة حالية من ياء المتكلم ، أى أصابنى الكبر وأدركنى ضعفنى وأفقدنى قوتى .

والكبر مصدر كبر الرجل إذا أسن ، وقد قال زكريا : ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ ولم يقل وقد بلغت الكبر للإشارة إلى أن الكبر قد تابعه ولازمه حتى أصابه بالضعف والآلام والأسقام .

وقوله : ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ جملة حالية أيضا إما من ياء ﴿لِي﴾ أو ياء ﴿بَلَغَنِي﴾ .

فأنت ترى أن زكريا ـ عليه السلام ـ قد أظهر التعجب عندما بشرته الملائكة بغلامه يحيى لأنه كان شيخا مسنا ، ولأن امرأته كانت عقيما لاتلد إما لكبر سنها ـ أيضا ـ وإما لأنها من الأصل كانت على غير استعداد للحمل والإنجاب .

قال ابن عباس : «كان زكريا يوم بشر بيحيى ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة»[2]

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٢٦٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص٤٢ .

ثم حكى القرآن أن الله ـ تعالى ـ قد رد على زكريا بما يزيل عجبه ويمنع حيرته فقال ـ تعالى ـ : ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ .

أى قال ـ سبحانه ـ : مثل ذلك الفعل العجيب والصنع البديع الذى رأيته من أن يكون لك غلام وأنت شيخ كبير وامرأتك عاقر ، مثل ذلك الفعل يفعل الله مايشاء أن يفعله ، لأنه ـ سبحانه ـ هو خالق الأسباب والمسببات ، ولايعجزه شىء فى هذا الكون ، وبقدرته أن يغير ماجرت به العادات بين الناس .

فالجملة الكريمة بجانب تضمنها إقناع زكريا وإزالة عجبه ، تتضمن أيضا تقرير قضية عامة ، وهى أن الله ـ تعالى ـ يفعل ما يشاء أن يفعله بدون تقيد بالأسباب والمسببات والعادات فهو الفعال لما يريد .

ثم حكى القرآن أن زكريا ـ لشدة لهفته على تحقيق البشارة ـ سأل ربه أن يجعل له علامة تكون دليلا على تحقيق الحمل عند زوجته فقال ـ تعالى ـ : ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ .

أى قال زكريا مناجيا ربه : يا رب إنى أسألك أن تجعل لى ﴿آيَةً﴾ أى : علامة تدلنى على حصول الحمل عند زوجتى : لأبادر إلى القيام بشكر هذه النعمة شكرا جزيلا ولأقوم بحقها حق القيام .

وقد أجابه ـ سبحانه ـ إلى طلبه فقال : ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً﴾ .

أى قال الله ـ تعالى ـ لعبده زكريا : آيتك أى علامتك ألا تقدر على كلام الناس من غير آفة فى لسانك لمدة ثلاثة أيام إلا ﴿رَمْزاً﴾ أى إلا عن طريق الإيحاء والإشارة .

وأصل الرمز الحركة ، يقال ارتمز أى تحرك ، ومنه قيل للبحر الراموز وفعله من باب نصر وضرب ، ثم أطلق الرمز على الإيماء بالشفتين أو بالحاجبين وعلى الإشارة باليدين وهو المراد هنا .

قال صاحب الكشاف : قال الله ـ تعالى ـ لزكريا : آيتك ألا تقدر على تكليم الناس ثلاثة أيام ، وإنما خص تكليم الناس ليعلمه أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله ، ولذلك قال : ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ يعنى فى أيام عجزك عن تكليم الناس وهى من الآيات الباهرة .

فإن قلت : لم حبس لسانه عن كلام الناس؟ قلت : ليخلص المدة لذكر الله لايشغل لسانه بغيره ، توفرا منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة وشكرها الذى طلب الآية من أجله ، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له : آيتك أن يحبس لسانك إلا عن الشكر ،وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال ومنتزعا منه ﴿إِلاَّ رَمْزاً﴾ أى : إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما[1] .

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٦١ .

وعلى رأى صاحب الكشاف يكون احتباس لسان زكريا عن كلام الناس اضطراريا وليس عن اختيار منه .

ويمكن أن يقال : إن المراد بقوله ـ تعالى ـ ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا ﴾ أن زكريا ـ عليه السلام ـ عندما طلب آية يعرف بها أن زوجته قد حملت بهذا الغلام الذى بشره الله به ، أخبره ـ سبحانه ـ أن العلامة على ذلك أن يوفق إلى خلوص نفسه من شواغل الدنيا حتى أنه ليجد نفسه متجها اتجاها كليا إلى ذكر الله وتمجيده وتسبيحه ، دون أن يكون عنده أى دافع إلى كلام الناس أو مخالطتهم مع قدرته على ذلك ، وعلى هذا يكون انصراف زكريا ـ عليه السلام ـ عن كلام الناس اختياريا وليس اضطراريا كما يرى صاحب الكشاف .

ثم أمره الله ـ تعالى ـ بالإكثار من ذكره وتسبيحه فقال : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ .

و﴿ بِالْعَشِيِّ ﴾ جمع عشية وقيل : هو واحد وذلك من حين تزول الشمس إلى أن تغيب ، أما ﴿ الإِبْكَارِ ﴾ فمصدر أبكر يبكر إذا خرج للأمر فى أول النهار ، ومنه الباكورة لأول الثمرة ، والمراد به هنا الوقت الذى يكون من طلوع الفجر إلى الضحى .

أى عليك أن تكثر من ذكر الله ـ تعالى ـ ومن تسبيحه فى أول النهار وفى آخره وفى كل وقت لاسيما فى تلك الأيام الثلاثة شكرا لله ـ تعالى ـ على ما أعطاك من نعم جليلة لاتحصى ، فقد وهبك الذرية بعد أن بلغت من الكبر عتيا ، وجعل هذا المولود من أنبياء الله الذين اصطفاهم لتبليغ رسالته .

وفى هذا الأمر الإلهى لزكريا حَضٌّ لكل عاقل على الإكثار من ذكر الله ومن تسبيحه وتمجيده لأن ذكر الله به تطمئن القلوب ، وتسكن النفوس ، وتغسل الخطايا والذنوب ويكفى للدلالة على فضل الذكر أن الله ـ تعالى ـ أمر به حتى فى حالة الحرب فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ساقت لنا جانبا من قصة زكريا ـ عليه السلام ـ فيها الكثير من العبر والعظات لقوم يعقلون .

٧ ـ وفى سورة الأنبياء آيات كريمة تحدثت عن الدعوات الصالحات التى تضرع بها زكريا ـ عليه السلام ـ إلى خالقه ـ تعالى ـ فقال :

وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

أى : واذكر - أيها المخاطب - حال زكريا - عليه السلام - وقت أن نادى ربه وتضرع إليه قال : يارب لاتتركنى فردا أى : وحيدا بدون ذرية ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أى : وأنت خير حى باق بعد كل الأموات .

فكانت نتيجة هذا الدعاء الخالص أن أجاب الله لزكريا دعاءه فقال : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أى دعاءه وتضرعه .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ بفضلنا وإحساننا ابنه ﴿يَحْيَىٰ﴾ - عليهما السلام - .

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ بأن جعلناها تلد بعد أن كانت عقيما تكريما له ورحمة به .

وقوله : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ تعليل لهذا العطاء الذى منحه - سبحانه - لأنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - والضمير فى ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعود للأنبياء السابقين ، وقيل : يعود إلى زكريا وزوجه ويحيى .

أى : لقد أعطيناهم ما أعطيناهم من ألوان النعم ، لأنهم كانوا يبادرون فى فعل الخيرات التى ترضينا ، ويجتهدون فى أداء كل قول أو عمل أمرناهم به .

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أى : ويجأرون إلينا بالدعاء ، راغبين فى آلائنا ونعمنا وراهبين خائفين من عذابنا ونقمنا .

فقوله : ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ مصدران بمعنى اسم الفاعل ، منصوبان على الحال ، وفعلهما من باب «طرب» ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أى : مخبتين متضرعين لامتكبرين ولامتجبرين .

وبهذه الصفات الحميدة ، استحق هؤلاء الأخيار أن ينالوا خيرنا وعطاءنا ورضانا .

٨ - هذا ، ومن العظات والدروس النافعة التى نتعلمها من قصة هذين النبيين الكريمين زكريا ويحيى - عليهما السلام - :

(ا) أن العقلاء من الناس يلجئون إلى خالقهم - عز وجل - لكى يرزقهم الذرية الصالحة والأولاد الراشدين ، الذين يخلصون عبادتهم لله - تعالى - ويبذلون أموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الحق ، ومن أجل نشر الفضائل ونبذ الرذائل .

وهذا ما نراه واضحا فى قصة زكريا - عليه السلام - فهو يدعو الله - تعالى - أن يرزقه ولدا صالحا يرثه فى نبوته وعلمه وفضله ، بعد أن رأى من عصبته وأبناء عمومته انحرافا عن الحق ، وتقصيرا فى أداء فرائض الله - تعالى - .

فهو لم يطلب الذرية الصالحة من أجل الشهوة أو التباهى والتفاخر ، وإنما طلبها من أجل خدمة الدين الحق ، والدفاع عن مكارم الأخلاق .

(ب) أن قدرة الله - تعالى - لا يعجزها شىء ، فقد وهب الله - تعالى - نبيه زكريا الذرية الصالحة ، بعد أن بلغ من الكبر عتيا ، وبعد أن اشتعل رأسه شيبا وبعد أن يئس من حمل امرأته التى كانت عاقرا لاتلد ، وعندما تعجب زكريا من حصوله على الولد ، بعد كل ذلك ، أجابه - سبحانه - بما يزيل هذا العجب ، بأن أخبره بأنه - عز وجل - قد أوجده من العدم ، ومن كان كذلك فهو قادر على أن يرزقه بهذا الغلام الذى لم يجعل له من قبل سميا .

(جـ) أن الدعاء متى صدر من قلب سليم ، ومن لسان صادق ، كان مرجو القبول .

ومن أعظم الأدلة على ذلك ما حكاه القرآن فى آيات متعددة عن زكريا - عليه السلام - فإنه رفع أكف الضراعة إلى خالقه بمشاعر نقية ، وبمقاصد شريفة ، وبنفس مطمئنة ، وبدعاء خاشع ، فكانت نتيجة هذا الدعاء ، الإجابة من الله - تعالى - لأن زكريا - عليه السلام - وزوجه كانا يسارعان فى الخيرات ، ويدعوان الخالق - عز وجل - رغبا ورهبا ، وكانا من المخبتين المتواضعين ، لا من المتكبرين المتجبرين ، ومن الشاكرين لنعمه - تعالى - لا من الجاحدين لها .

قصة أيوب ويونس وإلياس واليسع وذى الكفل -عليهم الصلاة والسلام-

١ - إن الذى يقرأ القرآن الكريم ، يراه قد فصل الحديث عن قصص بعض الأنبياء كنوح ، وإبراهيم وموسى - عليهم الصلاة والسلام - ويراه قد أوجز الحديث عن قصص بعض الأنبياء كإلياس وإدريس واليسع - عليهم الصلاة والسلام - ، ولعل الحكمة فى ذلك أن الله - تعالى - وهو أعلم بمراده - قد حكى لنا ماينفعنا مما قد حدث لكل نبى مع قومه .

ولقد أخبرنا - سبحانه - بأنه قد أرسل رسلا كثيرين منهم من أخبرنا بما حدث له مع قومه ، ومنهم من لم يخبرنا بشىء من أحواله .

٢ - ومن الرسل الكرام الذين جاء الحديث عنهم بصورة تتناسب مع مقتضى أحوالهم مع أقوامهم : أيوب - عليه السلام - .

ومن الآيات القرآنية التى تحدثت عن جانب من قصته ، قوله - تعالى - فى سورة (ص) .

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِى ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾﴾

وأيوب - عليه السلام - هو ابن أموص بن برزاح ، وينتهى نسبه إلى إسحاق بن إبراهيم - عليهما السلام - وكانت بعثته على الراجح بين موسى ويوسف - عليهما السلام - .

وكان صاحب أموال كثيرة ، وله أولاد ، فابتلى فى ماله وولده وجسده ، وصبر على كل ذلك صبرا جميلا ، فكافأه الله - تعالى - على صبره ، بأن أجاب دعاءه ، وآتاه أهله ومثلهم معهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ . . ﴾ معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ﴿ وَاذْكُرْنا عَبْدَنَا دَاود . . ﴾ .

و«النصب» - بضم فسكون - وقرأ حفص ونافع - بضم النون والصاد - : التعب والمشقة مأخوذة من قولهم : أنصبنى الأمر ، إذا شق عليه وأتعبه ، والعذاب : الآلام الشديدة التى

يحس بها الإنسان فى بدنه ، أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - حال أخيك أيوب - عليه السلام - حين دعا ربه - تعالى - فقال : يارب أنت تعلم أنى مسنى الشيطان بالهموم الشديدة ، وبالآلام المبرحة التى حلت بجسدى فجعلتنى فى نهاية التعب والمرض .

وجمع - سبحانه - فى بيان ما أصابه بين لفظى النصب والعذاب ، للإشارة إلى أنه قد أصيب بنوعين من المكروه : الغم الشديد بسبب زوال الخيرات التى كانت بين يديه ، وهو ما يشير إليه لفظ «النصب» والألم الكثير الذى حل بجسده بسبب الأمراض والأسقام ، والعلل ، وهو ما يشير إليه لفظ «العذاب» .

ونسب ما مسه من نصب وعذاب إلى الشيطان تأدبا منه مع ربه - عز وجل - حيث أبى أن ينسب الشر إليه - سبحانه - وإن كان الكل من خلق الله - تعالى - .

وفى هذا النداء من أيوب لربه ، أسمى ألوان الأدب والإجلال ، إذ اكتفى فى تضرعه بشرح حاله دون أن يزيد على ذلك ، ودون أن يقترح على خالقه - عز وجل - شيئا معينا ، أو يطلب شيئا معينا .

قال صاحب الكشاف : ألطف أيوب - عليه السلام - فى السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، ولم يصرح بالمطلوب .

ويحكى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبدالملك فقالت له : يا أمير المؤمنين مشت جرذان - أى فئران - بيتى على العصا!! فقال لها : ألطفت فى السؤال ، لا جرم لأجعلنها تثب وثب الفهود ، وملأ بيتها حَبا[1] .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الأنبياء : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

وقد ذكر بعض المفسرين هنا قصصا وأقوالا فى غاية السقوط والفساد ، حيث ذكروا أن أيوب - عليه السلام - مرض زمنا طويلا ، وأن الديدان تناثرت من جسده ، وأن لحمه قد تمزق .[2]

وهذه كلها أقوال باطلة ، لأن الله - تعالى - عصم أنبياءه من الأمراض المنفرة ، التى تؤدى إلى ابتعاد الناس عنهم ، سواء أكانت أمراضا جسدية أم عصبية أم نفسية .

والذى يجب اعتقاده أن الله - تعالى - قد ابتلى عبده أيوب ببعض الأمراض التى لاتتنافى مع منصب النبوة ، وقد صبر أيوب على ذلك حتى ضرب به المثل فى الصبر فكانت عاقبة صبره أن رفع الله - تعالى - عنه الضر والبلاء ، وأعطاه من فضله الكثير من نعمه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ حكاية لما قيل له بعد ندائه لربه ، أو مقول لقول محذوف معطوف على قوله : ﴿ نَادَىٰ ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص١٣٠ .

(٣) راجع على سبيل المثال تفسير الآلوسى جـ٢٣ ص٣٠٦ والقرطبى جـ١٥ ص٢٠٨ .

وقوله : ﴿ ارْكُضْ ﴾ بمعنى الدفع والتحريك للشىء ، يقال : ركض فلان الدابة برجله إذا دفعها وحركها بها .

والمغتسل : اسم للمكان الذى يغتسل فيه ، والمراد به هنا : الماء الذى يغتسل به .

وقوله : ﴿ هَذَا مُغْتَسَلٌ ﴾ مقول لقول محذوف .

والمعنى : لقد نادانا عبدنا أيوب بعد أن أصابه من الضر ما أصابه ، والتمس منا الرحمة والشفاء مما نزل به من مرض ، فاستجبنا له دعاءه ، وأرشدناه إلى الدواء ، بأن قلنا له : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ أى : اضرب بها الأرض ، فضربها فنبعت من تحت رجله عين الماء ، فقلنا له : هذا الماء النابع من العين إذا اغتسلت به وشربت منه ، برئت من الأمراض ، ففعل ما أمرناه به ، فبرئ بإذننا من كل داء .

ثم بين - سبحانه - أنه بفضله وكرمه لم يكتف بمنح أيوب الشفاء من مرضه ، بل أضاف إلى ذلك أن وهب له الأهل والولد فقال - تعالى - : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

والآية الكريمة معطوفة على كلام مقدر يفهم من السياق أى : استجاب أيوب لتوجيهنا ، فاغتسل وشرب من الماء ، فكشفنا عنه ما نزل به من بلاء ، وعاد أيوب معافى ، ولم نكتف بذلك بل وهبنا له أهله ، ﴿ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ أى : بأن رزقناه بعد الشفاء أولادا كعدد الأولاد الذين كانوا معه قبل شفائه من مرضه ، فصار عددهم مضاعفا .

وذلك كله ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أى من أجل رحمتنا به ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى : ومن أجل أن يتذكر ذلك أصحاب العقول السليمة ، فيصبروا على الشدائد كما صبر أيوب ، ويلجئوا إلى الله - تعالى - كما لجأ ، فينالوا منا الرحمة والعطاء الجزيل .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ ﴾ الجمهور على أنه - تعالى - أحيا له من مات من أهله ، وعافى المرضى ، وجمع له من تشتت منهم ، وقيل - وإليه أميل - : وهبه من كان حيا منهم ، وعافاه من الأسقام ، وأرغد لهم العيش فتناسلوا حتى بلغ عددهم عدد من مضى ، ومثلهم معهم ، فكان له ضعف ما كان ، والظاهر أن هذه الهبة كانت فى الدنيا[1] .

ثم بين - سبحانه - منة أخرى من المنن التى من بها على عبده أيوب فقال : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص٢٠٧ .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله قبل ذلك : ﴿ارْكُضْ﴾ أو على ﴿وَوَهَبْنَا﴾ بتقدير : وقلنا له .

والضِّغْثْ فى اللغة : القبضة من الحشيش اختلط فيها الرطب باليابس ، وقيل : هى قبضة من عيدان مختلفة يجمعها أصل واحد .

والحنث : يطلق على الإثم وعلى الخُلْفِ فى اليمين .

والآية الكريمة تفيد أن أيوب - عليه السلام - قد حلف أن يضرب شيئا وأن عدم الضرب يؤدى إلى حنثه فى يمينه ، أى : إلى عدم وفائه فيما حلف عليه ، فنهاه الله - تعالى - عن الحنث فى يمينه ، وأوجد له المخرج الذى يترتب عليه البر فى يمينه دون أن يتأذى المضروب بأى أذى يؤلمه .

وقد ذكروا فيمن وقع عليه الضرب وسبب هذا الضرب ، روايات لعل أقربها إلى الصواب ، أن أيوب أرسل امرأته فى حاجة له فأبطأت عليه ، فأقسم أنه إذا برئ من مرضه ليضربنها مائة ضربة ، وبعد شفائه ، رخص له ربه أن يأخذ حزمة صغيرة - وهى المعبر عنها بالضغث - وبها مائة عود ، ثم يضرب بها مرة واحدة ، وبذلك يكون قد جمع بين الوفاء بيمينه ، وبين الرحمة بزوجته التى كانت تحسن خدمته خلال مرضه ، وتقوم بواجبها نحوه خير قيام .

والمعنى : وهبنا له بفضلنا ورحمتنا أهله ومثلهم معهم ، وقلنا له بعد شفائه : خذ بيدك حزمة صغيرة من الحشيش فيها مائة عود ، فاضرب بها من حلفت أن تضربه مائة ضربة وبذلك تكون غير حانث فى يمينك .

هذا وقد تكلم العلماء عن هذه الرخصة ، أهى خاصة بأيوب ، أم عامة للناس؟ .

فقال بعضهم : إذا حلف الشخص أن يضرب فلانا مائة جلدة ، أو أن يضربه ضربا غير شديد ، فيكفيه مثل هذا الضرب المذكور الذى جاء فى الآية ، لأن شرع من قبلنا شرع لنا .

وقال آخرون : هذه الرخصة خاصة بأيوب - عليه السلام - ولا تنسحب إلى غيره ، لأن الخطاب إليه وحده ، لأن الله - تعالى - لم يبين لنا فى الآية كيفية اليمين ، ولا من يقع عليه الضرب[1] .

ثم بين - سبحانه - أنه جعل لعبده أيوب هذا المخرج لصبره ، وكثرة رجوعه إلى ما يرضيه فقال - تعالى - : ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ .

أى : إنا وجدنا عبدنا أيوب صابرا على ما أصبناه به من بلاء ، ونعم العبد هو ، إنه كثير الرجوع إلينا فى كل أحواله .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ١٥ ص٢١٢ . وتفسير الآلوسى جـ٢٣ ص٢٠٨ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت لنا جانبا من فضائل أيوب - عليه السلام - ومن النعم التى أنعم الله - تعالى - بها عليه جزاء صبره وطاعته لربه .

٣ - وفى سورة الأنبياء ساق - سبحانه - جانبا آخر من قصة أيوب - عليه السلام - فقال - تعالى - :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤) ﴾ .

قال ابن كثير : يذكر الله - تعالى - عن أيوب - عليه السلام - ما كان قد أصابه من البلاء فى ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شىء كثير ، وأولاد كثيرون ، ومنازل مرضية ، فابتلى فى ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلى فى جسده ،ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته ، وقد كان نبى الله أيوب غاية فى الصبر ، وبه يضرب المثل فى ذلك .(١)

وقال الآلوسى : وهو ابن أموص بن برزاح بن عيص بن إسحاق ، وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط ، وأن أباه ممن آمن بإبراهيم فعلى هذا كانت بعثته قبل موسى وهارون .

وقيل : بعد شعيب ، وقيل : بعد سليمان .(٢)

والضر - بالفتح - يطلق على كل ضرر ، وبالضم خاص بما يصيب الإنسان فى نفسه من مرض وأذى وما يشبهها .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب - عبدنا أيوب - عليه السلام - وقت أن نادى ربه ، وتضرع إليه بقوله : يا رب إنى أصابنى ما أصابنى من الضر والتعب ، وأنت أجل وأعظم رحمة من كل من يتصف بها .

فأنت ترى أن أيوب - عليه السلام - لم يزد فى تضرعه عن وصف حاله ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ووصف خالقه - تعالى - بأعظم صفات الرحمة دون أن يقترح شيئا أو يطلب شيئا ، وهذا من الأدب السامى الذى سلكه الأنبياء مع خالقهم - عز وجل - .

وبعد أن دعا أيوب ربه - تعالى - بهذه الثقة ، وبهذا الأدب والإخلاص ، كانت الإجابة المتمثلة فى قوله - تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ أى دعاءه وتضرعه ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾ أى : فأزلنا ما نزل به من بلاء فى جسده ، وجعلناه سليما معافى ، بأن أمرناه أن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٥ ص٣٥٤ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ١٧ ص٨٠ .

يضرب برجله الأرض ففعل ، فنبعت له عين فاغتسل منها ، فزال عن بدنه كل مرض أصابه بإذن الله - تعالى - .

قال - سبحانه - : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [1]

وقال - تعالى - : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ أى : لم نخيب رجاء أيوب حين دعانا ، بل استجبنا له دعاءه بفضلنا وكرمنا ، فأزلنا له المرض الذى نزل به ، ولم نكتف بهذا - أيضا - بل عوضناه عمن فقده من أولاده ، ورزقناه مثلهم معهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال : سألت النبى ﷺ عن قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ فقال : «رد الله - تعالى - امرأته إليه ، وزاد فى شبابها ، حتى ولدت له ستا وعشرين ذكرا» .

فالمعنى على هذا : آتيناه فى الدنيا مثل أهله عددا مع زيادة مثل آخر .

وعن قتادة : أن الله أحيا له أولاده الذين هلكوا فى بلائه ، وأوتى مثلهم فى الدنيا .[2]

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله - تعالى - : ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ أى : أجبنا له دعاءه ، وفعلنا معه ما فعلناه من ألوان الخيرات ، من أجل رحمتنا به ، ومن أجل أن يكون ما فعلناه معه عبرة وعظة وذكرى لغيره من العابدين حتى يقتدوا به فى صبره على البلاء ، وفى المداومة على شكرنا فى السراء والضراء .

وخص - سبحانه - العابدين بالذكرى ، لأنهم أكثر الناس بلاء وامتحانا ، ففى الحديث الشريف : «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل» .

وفى حديث آخر : «يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه» .[3]

وقد كان أيوب آية فى الصبر ، وبه يضرب المثل فى ذلك .

٤ - أما قصة يونس - عليه السلام - مع قومه ، فقد وردت فى آيات متعددة منها قوله - تعالى - فى سورة الصافات :

---

(١) سورة ص : الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ١٧ ص٨١ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ٥ ص٣٥٤ .

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

ويونس ـ عليه السلام ـ : هو ابن متى ، وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ماينبغى لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى» .

وملخص قصته أن الله ـ تعالى ـ أرسله إلى أهل نينوى بالعراق ، فى حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ فاستعصوا عليه ، فضاق بهم ذرعا ، وأخبرهم أن العذاب سيأتيهم خلال ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الثالث خرج يونس من بلدة قومه ، قبل أن يأذن الله له بالخروج ، فلما افتقده قومه ، آمنوا وتابوا ، وتضرعوا بالدعاء إلى الله قبل أن ينزل بهم العذاب .

فلما لم ير يونس نزول العذاب ، استحى أن يرجع إليهم وقال : لا أرجع إليهم كذابا أبدا ، ومضى على وجهه فأتى سفينة فركبها فلما وصلت اللجة وقفت ولم تتحرك .

فقال صاحبها : ما يمنعها أن تسير إلا أن فيكم رجلا مشئوما ، فاقترعوا ليلقوا فى البحر من وقعت عليه القرعة ، فكانت على يونس ثم أعادوها فوقعت عليه ، فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فى البحر ، فالتقمه الحوت .[1]

والمعنى : وإن يونس ـ عليه السلام ـ لمن المرسلين الذين اصطفيناهم لحمل رسالتنا وتبليغها إلى الناس .

﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أى : هرب من قومه بغير إذن من ربه ـ يقال : أبق العبد ـ كضرب ومنع ـ إذا هرب من سيده فهو آبق .

﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أى : هرب من قومه إلى الفلك المملوء بالناس والأمتعة ﴿فَسَاهَمَ﴾ أى : فقارع من فى السفينة بالسهام ، يقال : استهم القوم إذا اقترعوا ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ٢٣ ص١٤٣ .

أى : من المغلوبين حيث وقعت عليه القرعة دون سواه ، يقال : دحضت حجة فلان ، إذا بطلت وخسرت .

﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أى وبعد أن وقعت القرعة عليه ، ألقى بنفسه فى البحر ، ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ ﴾ أى : ابتلعه ، يقال : لقم فلان الطعام ـ كسمع ـ والتقمه ، إذا ابتلعه بسرعة ، وتلقمه إذا ابتلعه على مهل .

وجملة ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ حالية فى محل نصب ، أى : فالتقمه الحوت وهو مكتسب من الأفعال مايلام عليه ، حيث غادر قومه بدون إذن من ربه .

يقال : رجل مليم ، إذا أتى من الأقوال أو الأفعال مايلام عليه ، وهو اسم فاعل من ألام الرجل ، إذا أتى مايلام عليه .

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى : فلولا أن يونس ـ عليه السلام ـ كان من المسبحين لله ـ تعالى ـ المداومين على ذكره ، لولا هذا التسبيح للبث يونس فى بطن الحوت إلى يوم القيامة .

فهاتان الآيتان تدلان دلالة واضحة على أن الإكثار من ذكر الله ـ تعالى ـ وتسبيحه ، سبب فى تفريج الكروب ، وإزالة الهموم ، بإذن الله ورحمته ، وفى الحديث الشريف : «تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة» .

ورحم الله الإمام القرطبى فقد قال : «أخبر الله ـ عز وجل ـ أن يونس كان من المسبحين ، وأن تسبيحه كان سبب نجاته ، ولذا قيل : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر .

وفى الحديث الشريف : «من استطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل» ، فليجتهد العبد ، ويحرص على خصلة من صالح عمله ، يخلص فيها بينه وبين ربه ، ويدخرها ليوم فاقته وفقره ، ويسترها على خلق الله ، لكى يصل إليه نفعها وهو أحوج مايكون إليه .[1]

فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، والنبذ : الطرح ، والعراء : الخلاء .

أى : أن يونس ـ عليه السلام ـ بعد أن التقمه الحوت أخذ فى الإكثار من تسبيحنا ومن دعائنا ، فاستجبنا له دعاءه ، وأمرنا الحوت بطرحه فى الفضاء الواسع من الأرض .

وجملة ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ حالية ، أى : ألقيناه بالأرض الفضاء حالة كونه عليلا سقيما لشدة ما لحقه من تعب وهو فى بطن الحوت .

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٥ ص١٢٧ .

﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ أى : ومن مظاهر رحمتنا به ، أننا جعلنا فوقه شجرة من يقطين لكى تظلل عليه وتمنع عنه الحر .

اليقطين : يطلق على كل شجر لايقوم على ساق ، كالبطيخ والقثاء والقرع وهو مأخوذ من قطن بالمكان إذا أقام به .

وقد قالوا : إن المراد بهذه الشجرة هى شجرة القرع ، وقيل غير ذلك .

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ . فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى : وبعد أن تداركته رحمتنا ، وأخرجناه من بطن الحوت ، ورعيناه برعايتنا ، أرسلناه إلى مائة ألف من الناس أو يزيدون على ذلك فى نظر الناظر إليهم ، فآمنوا جميعا ﴿ فَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ بالحياة ﴿ إِلَىٰ حِينٍ﴾ انتهاء آجالهم .

قال الإمام ابن كثير : ولامانع من أن يكون هؤلاء هم الذين أرسل إليهم أولا ، أمر بالعودة إليهم بعد خروجه من بطن الحوت ، فصدقوه كلهم ، وآمنوا به ، وحكى البغوى أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت ، كانوا مائة ألف أو يزيدون[1] .

هذا ومن العبر التى نأخذها من هذه القصة أن رحمة الله ـ تعالى ـ قريب من المحسنين ، وأن العبد إذا تاب توبة صادقة نصوحا ، وفى الوقت الذى تقبل فيه التوبة ، قبل الله ـ تعالى ـ توبته ، وفرج عنه كربه ، وأن التسبيح يكون سببا فى رفع البلاء .

٥ ـ وفى سورة الأنبياء جانب آخر من قصة يونس ـ عليه السلام ـ حيث قال ـ تعالى ـ :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ .

والمراد بذى النون : يونس بن متى ـ عليه السلام ـ والنون : الحوت ، وجمعه نينان وأنوان ، وسمى بذلك لابتلاع الحوت له .

والمعنى : واذكر أيها المخاطب لتعتبر وتتعظ ـ عبدنا ذا النون ، وقت أن فارق قومه ، وهو غضبان عليهم ، لأنهم لم يسارعوا إلى الاستجابة له .

قال الجمل : وقوله : ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ أى غضبان على قومه ، فالمفاعلة ليست على بابها فلا مشاركة كعاقبت وسافرت ، ويحتمل أن تكون على بابها من المشاركة ، أى غاضب قومه وغاضبوه حين لم يؤمنوا فى أول الأمر .[2]

(١) تفسير ابن كثير جـ٧ ص٣٥ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ٣ ص١٤٣ .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ بيان لما ظنه يونس ـ عليه السلام ـ حين فارق قومه غاضبا عليهم بدون إذن من ربه ـ عز وجل ـ.

أى : أن يونس قد خرج غضبان على قومه لعدم استجابتهم لدعوته فظن أن لن نضيق عليه، عقابا له على مفارقته لهم من غير أمرنا، أو: فظن أننا لن نقضى عليه بعقوبة معينة فى مقابل تركه لقومه بدون إذننا.

فقوله : ﴿نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ بمعنى نضيق عليه ونعاقبه، يقال : قدر الله الرزق يقدره ـ بكسر الدال وضمها ـ إذا ضيقه، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ .[1]

وقوله : ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ..﴾ [2] أى : ضيقه عليه.

ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان يردده يونس وهو فى بطن الحوت فقال : ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

والفاء فى قوله : ﴿فَنَادَىٰ﴾ فصيحة.

والمراد بالظمات : ظلمات البحر، وبطن الحوت، والليل.

أى : خرج يونس غضبان على قومه، فحدث له ماحدث من التقام الحوت له، فلما صار فى جوفه المظلم، بداخل البحر المظلم، أخذ يتضرع إلينا بقوله : أشهد أن لا إله إلا أنت يا إلهى مستحق العبادة، ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أى : أنزهك تنزيها عظيما ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسى حين فارقت قومى بدون إذن منك، وإنى أعترف بخطئى ـ يا إلهى ـ اقبل توبتى، واغسل حوبتى.

هذا وقد ذكر ابن جرير وابن كثير وغيرهما من المفسرين هنا روايات متعددة عن المدة التى مكثها يونس فى بطن الحوت، وعن فضل الدعاء الذى تضرع به إلى الله ـ تعالى ـ ومن ذلك ما رواه ابن جرير عن سعد بن أبى وقاص ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اسم الله الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى» قال : قلت : يا رسول الله، هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال : «هى ليونس ابن متى خاصة وللمؤمنين عامة، إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله ـ تعالى ـ : ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو شرط من الله لمن دعا به» .[3]

---

(١) سورة الرعد : الآية ٢٦.

(٢) سورة الفجر : الآية ١٦.

(٣) تفسير ابن جرير جـ١٧ ص٦٥.

ثم بين ـ سبحانه أنه قد أجاب ليونس دعاءه فقال : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ أى دعاءه وتضرعه ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ أى : من الحزن الذى كان فيه حين التقمه الحوت وصار فى بطنه .

وقد بين ـ سبحانه ـ فى آية أخرى ، أن يونس ـ عليه السلام ـ لو لم يسبح الله للبث فى بطن الحوت إلى يوم البعث ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بشارة لكل مؤمن يقتدى بيونس فى إخلاصه وصدق توبته ، ودعائه لربه .

أى : ومثل هذا الإنجاء الذى فعلناه مع عبدنا يونس ، ننجى عبادنا المؤمنين من كل غم ، حتى صدقوا فى إيمانهم ، وأخلصوا فى دعائهم .

٦ ـ وفى سورة يونس : آية كريمة تحكى لنا أن قوم يونس قبل الله ـ تعالى ـ توبتهم فقال ـ تعالى ـ :

﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾

قال القرطبى ما ملخصه : «روى فى قصة يونس ـ عليه السلام ـ عن جماعة من المفسرين ، أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل ـ بالعراق ـ وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإسلام ، وترك ماهم عليه فأبوا ، فقيل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم ، فقيل له : أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث ففعل ، وقالوا : هو رجل لايكذب فارقبوه ، فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم ، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لاشك .

فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم ، فأصبحوا فلم يجدوه ، فآمنوا وتابوا ، ودعوا الله ولبسوا المسوح ، وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم وردوا المظالم .

قال الزجاج : إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب ولو رأوا العذاب لمانفعهم الإيمان» .[١]

وكلمة ﴿ لَوْلا ﴾ فى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ .. ﴾ للحث والتحضيض ، فهو بمعنى هلا .

والمقصود بالقرية أهلها وهم أقوام الأنبياء السابقين ، وهى اسم كان ، وقوله ﴿ آمَنَتْ ﴾ خبرها ، وقوله : ﴿ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ معطوف على ﴿ آمَنَتْ ﴾ .

(١) تفسير القرطبى جـ٨ ص٣٨٧ .

والمعنى : فهلا عاد المكذبون إلى رشدهم وصوابهم ، فآمنوا بالحق الذى جاءتهم به رسلهم ، فنجوا بذلك من عذاب الاستئصال الذى حل بهم فقطع دابرهم ، كما نجا منه قوم يونس - عليه السلام - فإنهم عندما رأوا أمارات العذاب الذى أنذرهم به نبيهم آمنوا وصدقوا ، فكشف الله عنهم هذا العذاب الذى كاد ينزل بهم ، ومتعهم بالحياة المقدرة لهم ، إلى حين انقضاء آجالهم فى هذه الدنيا .

قال الشيخ القاسمى ما ملخصه : وما يرويه بعض المفسرين هنا من أن العذاب نزل عليهم ، وجعل يدور على رءوسهم ، ونحو هذا ، ليس له أصل لا فى القرآن ولا فى السنة .

وفى الآية إشارة إلى أنه لم توجد قرية آمنت بأجمعها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى ، سوى قوم يونس .

والبقية دأبهم التكذيب ، كلهم أو أكثرهم ، كما قال - تعالى - :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ .

وفى الحديث الصحيح : «عرض علىّ الأنبياء ، فجعل النبى يمر ومعه الفئام من الناس - أى العدد القليل - والنبى معه الرجل ، والنبى معه الرجلان ، والنبى ليس معه أحد» .[1]

وفى الآية الكريمة - أيضا - تسلية للرسول ﷺ عما أصابه من حزن بسبب إعراض قومه عن دعوته ، وفيها كذلك تعريض بأهل مكة ، وإنذارهم من سوء عاقبة الإصرار على الكفر والجحود ، وحض لهم على أن يكونوا كقوم يونس - عليه السلام - الذين آمنوا قبل نزول العذاب فنفعهم إيمانهم .

٧ - أما قصة - إلياس - عليه السلام - فقد وردت فى سورة الصافات فى قوله - تعالى - :

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

---

(١) تفسير القاسمى جـ٦ ص٣٤٠٠ .

وإلياس - عليه السلام - هو ابن فنحاص بن العيزار بن هارون - عليه السلام - فهو ينتهى نسبه - أيضا - إلى إبراهيم وإسحاق .

ويعرف إلياس فى كتب الإسرائيليين باسم «إيليا» وقد أرسله الله - تعالى - إلى قوم كانوا يعبدون صنما يسمونه بعلا .

ويقال : إن رسالته كانت فى عهد «آخاب» أحد ملوك بنى إسرائيل فى حوالى القرن العاشر «ق .م» .

والمعنى : «وإن إلياس لمن المرسلين» الذين أرسلناهم إلى الناس ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وقوله - تعالى -: ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ شروع فى بيان ما نصح به إلياس قومه ، والظرف مفعول لفعل محذوف ، والتقدير اذكر وقت أن قال لقومه : ألا تتقون الله ، وتخشون عذابه ونقمته ، والاستفهام للحض على تقوى الله - تعالى - واجتناب ما يغضبه .

ثم أنكر عليهم عبادتهم لغيره - سبحانه - فقال : ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ والبعل : اسم للصنم الذى كان يعبده قومه ، وهو صنم قيل : سميت باسمه مدينة بعلبك بالشام ، وكان قومه يسكنون فيها ، وقيل : البعل : الرب بلغة اليمن .

أى : قال لهم على سبيل التوبيخ والزجر : أتعبدون صنما لايضر ولاينفع وتتركون عبادة أحسن من يقال له خالق ، وهو الله - عز وجل - الذى خلقكم ورزقكم .

ولفظ الجلالة فى قوله : ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ بدل من ﴿ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ .

أى : أتعبدون صنما صنعتموه بأيديكم ، وتذرون عبادة الله - تعالى - الذى هو ربكم ورب آبائكم الأولين .

وقرأ غير واحد من القراء السبعة ﴿ اللَّهُ ﴾ - بالرفع على أنه مبتدأ ، و﴿ رَبُّكُمْ ﴾ خبره .

والتعرض لذكر ربوبيته - تعالى - لآبائهم الأولين ، الغرض منه التأكيد على بطلان عبادتهم لغيره - سبحانه - فكأنه يقول لهم : إن الله - تعالى - الذى أدعوكم لعبادته وحده ليس هو ربكم وحدكم بل - أيضا - رب آبائكم الأولين ، الذين من طريقهم أتيتم إلى هذه الحياة .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ بيان لموقفهم من نبيهم ، ولما حل بهم من عذاب بسبب إعراضهم عن دعوته .

أى : دعا إلياس قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، فكذبوه وأعرضوا عن دعوته ، وسيترتب على تكذيبهم هذا ، إحضارهم إلى جهنم إحضارا فيه ذلهم وهوانهم .

﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ فإنهم ناجون من الإحضار الأليم ، لأنهم سيكونون يوم القيامة محل تكريمنا وإحساننا .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ ﴾ أى : وأبقينا على إلياس فى الأمم الأخرى ﴿ سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾ أى : أمان وتحية منا ومنهم على إلياس ومن آمن معه .

٨ ـ وأما «اليسع» فهو ابن شافاط ، قيل : استخلفه إلياس من بعده على بنى إسرائيل ، ثم منحه ـ الله ـ تعالى ـ النبوة ، وكانت وفاته حوالى سنة ٨٤٠ ق .م ودفن بالسامرة ، وقد جاء اسمه فى القرآن مرتين ، إحداهما فى سورة الأنعام فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٦]

والثانية فى قوله ـ تعالى ـ فى سورة «ص» :

﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾ [ص : ٤٨]

٩ ـ وأما ذو «الكفل» فقيل هو ابن أيوب ـ عليه السلام ـ بعثه الله ـ تعالى ـ بعد أبيه ، وكان مقيما فى الشام ، والأكثرون ، على أنه نبى لذكره معهم .

قال الآلوسى : أما ذو الكفل فالظاهر من نظمه فى سلك الأنبياء أنه واحد منهم ، وهذا ما ذهب إليه الأكثر .

واختلف فى اسمه : فقيل : بشر ، وهو ابن أيوب ، وقيل : هو زكريا والد يحيى ـ عليهما السلام ـ وسمى بذلك لكفالة مريم .

وقيل : لم يكن نبيا وإنما كان عبدا صالحا[(١)] .

وقد تكرر اسم ذى الكفل مرتين ـ أيضا ـ فى القرآن الكريم ، مرة فى قوله ـ تعالى ـ فى سورة الأنبياء : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٥]

ومرة أخرى فى سورة «ص» :

﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾ [ص : ٤٨]

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا جميعا من عباده الأخيار .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٧ ص٨٢ .

قصة عيسى ـ عليه السلام ـ وأمه مريم

١ ـ قصة المسيح ابن مريم ـ عليه السلام ـ وقصة أمه مريم ابنة عمران ، وردت فى القرآن الكريم فى سور شتى ، منها ما جاء فى السور المكية ـ أى : التى كان نزولها قبل الهجرة ـ ومنها ماجاء فى السور المدنية ـ أى : التى كان نزولها بعد الهجرة .

وقد تكرر اسم مريم ابنة عمران فى القرآن الكريم أربعا وثلاثين مرة بينما تكرر اسم ابنها عيسى ـ عليه السلام ـ خمسا وعشرين مرة .

كما تكرر لفظ المسيح ـ أى : المبارك ـ كلقب كريم لهذا النبى الذى هو واحد من أولى العزم من الرسل إحدى عشرة مرة .

وكانت ولادة عيسى ـ عليه السلام ـ فى أحد الأماكن المباركة التى تجاور بيت المقدس ، بمدينة المقدس ، من أرض فلسطين .

ومن الأحاديث النبوية التى وردت فى فضل مريم ابنة عمران ، ما جاء عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : خط رسول الله ﷺ فى الأرض أربعة خطوط ثم قال : «أتدرون ما هذا؟» قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال ﷺ : «أفضل نساء أهل الجنة أربعة : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ﷺ وآسية بنت مزاحم ـ امرأة فرعون ـ ومريم ابنة عمران» .

وأما الأحاديث الشريفة التى وردت فى فضل عيسى ـ عليه السلام ـ فكثيرة ، ومنها ماجاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان ـ أى : إلا طعنه الشيطان ـ فيستهل صارخا من نخسة الشيطان ، إلا ابن مريم وأمه» .

ثم قال أبوهريرة رضي الله عنه : اقرءوا إن شئتم قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

وفى الصحيحين ـ أيضا ـ عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : «أنا أوْلى الناس بعيسى ابن مريم فى الأولى والآخرة» .

قالوا : كيف يا رسول الله؟ قال : «الأنبياء إخوة من عَلاَّت ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد ، وليس بينى وبينه نبى» .

ولفظ «عَلاَّت» جمع عَلة وهى الضُّرة ، لأنها تعلل من ضُراتها .

وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «رأى عيسى ـ عليه السلام ـ رجلا يسرق ، فقال له : سرقتَ؟ فقال الرجل : كلا والذى لا إله إلا هو ، فقال عيسى ـ عليه السلام ـ : آمنت بالله وكذبت نفسى» .

أى : صدقت من حلف بالله - تعالى - وكذبت نفسى فيما ظهر لى ، لاحتمال أنه محق فى ذلك وهذا يدل على صفاء نفس عيسى - عليه السلام - وعلى عمق إيمانه ، وتعظيمه لخالقه - عز وجل - وللقسم به .

٢ - والذى يتدبر القرآن الكريم يراه قد فصل الحديث عن نشأة مريم ابنة عمران ، وعن فضلها وطهارتها ، واصطفائها على نساء زمانها ، وما أعده الله - تعالى - لها من ثواب عظيم .

كما تحدث القرآن - أيضا - عن ابنها عيسى - عليه السلام - حديثا واضحا حكيما عن مولده ، وعن معجزاته ، وعن دعوته ، وعن الخصائص التى أكرمه - سبحانه - بها ، وعن جهاده من أجل إعلاء كلمة الحق ، وعن صبره على الأذى ، وعن الشبهات الباطلة التى أثارها أعداؤه من حوله وعن بشارته بالنبى ﷺ وعن تكريم الخالق - عز وجل - له فى الدنيا والآخرة .

٣ - ومن الآيات القرآنية التى تحدثت عن نشأة مريم ابنة عمران قوله - تعالى - :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

والمعنى أن الله - تعالى - قد اختار واصطفى ﴿آدَمَ﴾ أبا البشر ، بأن جعله خليفة فى الأرض ، وعلمه الأسماء كلها ، وأسجد له ملائكته .

واصطفى ﴿نُوحًا﴾ لأنه ـ كما يقول ـ الآلوسى ـ آدم الأصغر ، والأب الثانى للبشرية ، وليس أحد على وجه البسيطة إلا من نسله لقوله ـ سبحانه ـ ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ .[1]

واصطفى ﴿آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى عشيرته وذوى قرباه وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما .

واصطفى ﴿آلَ عِمْرَانَ﴾ إذ جعل فيهم عيسى ـ عليه السلام ـ الذى آتاه الله البينات وأيده بروح القدس .

والمراد بعمران هذا والد مريم أم عيسى ـ عليه السلام ـ فهو عمران بن ياشم بن ميشا ابن حزقيا ، وينتهى نسبه إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

وإن فى ذلك التسلسل دليل على أن الله ـ تعالى ـ قد اقتضت حكمته أن يجعل فى الإنسانية من يهديها إلى الصراط المستقيم فقد ابتدأت الهداية بآدم أبى البشر كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ ثم جاء من بعده بقرون لايعلمها إلا الله نوح ـ عليه السلام ـ فمكث يدعو الناس إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق «ألف سنة إلا خمسين عاما» ثم جاء من بعد ذلك إبراهيم ـ عليه السلام ـ فدعا الناس إلى عبادة الله وحده فكان هو وآله صفوة الخلق وفيهم النبوة ، فمن إسماعيل بن إبراهيم كان محمد ﷺ الذى ختمت به الرسالات السماوية .

ومن إسحاق وبنيه كان عدد من الأنبياء كداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، ومن فرع إسحاق كان آل عمران وهم ذريته وأقاربه كزكريا ويحيى وعيسى الذى كان آخر نبى من هذا الفرع .

وفى التعبير بالاصطفاء تنبيه إلى أن آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران صفوة الخلق ، إذ أن الرسل والأنبياء جميعا من نسلهم .

وقوله : ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أى على عالمى زمانهم ، أى أهل زمان كل واحد منهم .

ثم صرح ـ سبحانه ـ بعد ذلك بتسلسل هذه الصفوة الكريمة بعضها من بعض فقال : ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ وأصل الذرية ـ كما يقول القرطبى ـ فعلية من الذر ، لأن الله ـ تعالى ـ أخرج الخلق من صلب آدم كالذر حين أشهدهم على أنفسهم ـ وقيل : هو مأخوذ من ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءا أى : خلقهم ، ومنه الذرية وهى نسل الثقلين .[1]

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ ص١٣١ .

والمعنى : أن أولئك المصطفين الأخيار بعضهم من نسل بعض ، فهم متصلو النسب ، فنوح من ذرية آدم ، وآل إبراهيم من ذرية نوح ، وآل عمران من ذرية آل إبراهيم ، فهم جميعا سلسلة متصلة الحلقات فى النسب ، والخصال الحميدة .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله : ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى هو ـ سبحانه ـ سميع لأقوال عباده فى شأن هؤلاء المصطفين الأخيار وفى شأن غيرهم ، عليم بأحوال خلقه علما تاما بحيث لاتخفى عليه خافية تصدر عنهم .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قالته امرأة عمران عندما أحست بعلامات الحمل فقال تعالى : ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ .

وامرأة عمران هذه هى ـ «حُنَّة» بنت فاقوذا بن قنبل وهى أم مريم وجدة عيسى ـ عليه السلام ـ وعمران هذا هو زوجها ، وهو أبو مريم .

وقوله : ﴿نَذَرْتُ﴾ من النذر وهو التزام التقرب إلى الله ـ تعالى ـ بأمر من جنس العبادات التى شرعها ـ سبحانه ـ لعباده ليتقربوا بها إليه .

وقوله : ﴿مُحَرَّرًا﴾ أى عتيقا مخلصا للعبادة متفرغا من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس ، يقال : حررت العبد إذا خلصته من الرق وحررت الكتاب إذا أصلحته ولم يبق فيه شيئا من وجوه الخطأ ، ورجل حر إذا كان خالصا لنفسه ليس لأحد عليه سلطان .

والمعنى : اذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ وقت أن لجأت امرأة عمران إلى ربها تدعوه بضراعة وخشوع فتقول : يا رب إنى نذرت لخدمة بيتك هذا الجنين الذى فى بطنى مخلصا لعبادتك متفرغا لطاعتك فتقبل منى هذا النذر الخالص ، وتلك النية الصادقة ، ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ﴾ لقولى ولأقوال خلقك ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنيتى وبنوايا سائر عبادك .

فأنت ترى فى هذا الدعاء الخاشع الذى حكاه القرآن عن امرأة عمران أسمى ألوان الأدب والإخلاص ، فقد توجهت إلى ربها بأعز ما تملك وهو الجنين الذى فى بطنها ، ملتمسة منه ـ سبحانه ـ أن يقبل نذرها الذى وهبته لخدمة بيته .

قال بعضهم : «وكان هذا النذر يلزم فى شريعتهم ، فكان المحرر عندهم إذا حرر جعل فى الكنيسة يخدمها ولايبرح مقيما فيها حتى يبلغ الحلم ، ثم يتخير فإن أحب ذهب حيث شاء ، وإن اختار الإقامة لايجوز له بعد ذلك الخروج ، ولم يكن أحد من أنبياء بنى إسرائيل وعلمائهم إلا ومن أولادهم من حرر لخدمة بيت المقدس ولم يكن يحرر إلا الغلمان ، ولاتصلح الجارية لخدمة بيت المقدس لما يصيبها من الحيض والأذى .[1]

---

(١) حاشية الجمل عى الجلالين جـ١ ص٤٦٢ .

وجملة ﴿ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ تعليلية لاستدعاء القبول ، من حيث أن علمه ـ سبحانه ـ بصحة نيتها وإخلاصها مستدع لقبول نذرها تفضلا منه وكرما .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قالته بعد أن وضعت ما فى بطنها فقال ـ تعالى ـ : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ﴾ .

قالوا : إن هذا خبر لايقصد به الإخبار ، بل المقصود منه إظهار التحسر والتحزن والاعتذار ، فقد كانت امرأة عمران تتوقع أن يكون مافى بطنها ذكرا ، لأنه هو الذى يصلح لخدمة بيت الله والانقطاع للعبادة فيه ، لكنها حين وضعت حملها ووجدته أنثى ، قالت على سبيل الاعتذار عن الوفاء بنذرها : رب إنى وضعتها أنثى ، والأنثى لا تصلح للمهمة التى نذرت مافى بطنى لها وهى خدمة بيتك المقدس ، وأنت يا إلهى القدير على كل شىء بقدرتك أن تخلق الذكر وبقدرتك أن تخلق الأنثى .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ جملة معترضة سيقت للإيماء إلى تعظيم المولود الذى وضعته وتفخيم شأنه ، وللإشعار بأن الأنثى ستصلح لما يصلح له الذكور من خدمة بيته ، أى : والله ـ تعالى ـ أعلم منها ومن غيرها بما وضعته ، لأنه هو الذى خلق هذا المولود وجعله أنثى ، وهو العليم بما يصير إليه أمر هذه الأنثى من فضل ، إذ منها سيكون عيسى ـ عليه السلام ـ وسيجعلها ـ سبحانه ـ آية ظاهرة دالة على كمال قدرته ، ونفوذ إرادته .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ يحتمل أنه من كلامه ـ سبحانه ـ وهو الظاهر ـ فتكون الجملة معترضة كسابقتها ، ويكون : وليس الذكر الذى طلبته كالأنثى التى ولدتها ، بل هذه الأنثى وإن كانت أفضل منه فى العبادة والمكانة إلا أنها لاتصلح عندهم لسدانة بيت الله ـ تعالى ـ بسبب حرمة اختلاطها بالرجال وما يعتريها من حيض وغير ذلك مما يعترى النساء .

ويحتمل أنه من كلامها الذى حكاه الله ـ تعالى ـ عنها فلاتكون الجملة معترضة ويكون المعنى : وليس الذكر الذى طلبته كالأنثى التى وضعتها ، بل هو خير منها لأنه هو الذى يصلح لسدانة بيتك وخدمته ، ومع هذا فأنا فى كلتا الحالتين راضية بقضائك مستسلمة لإرادتك .

ثم حكى ـ سبحانه ـ أيضا ـ بعض ما قالته بعد ولادتها فقال : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

قالوا : إن كلمة مريم معناها فى لغتهم : العابدة ، فأرادت بهذه التسمية التقرب إلى الله والالتماس منه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقا لاسمها .

ومعنى ﴿أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أمنعها وأجيرها بحفظك ، مأخوذ من العوذ ، وهو أن تلتجئ إلى غيرك وتتعلق به ، يقال : عاذ فلان بفلان إذا استجار به ، ومنه العوذة وهى التميمة والرقية .

والشيطان فى لغة العرب : كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شىء ، وهو مشتق من شطن إذا بعد ، فهو بعيد بطبعه عن كل خير .

والرجيم : فعيل بمعنى مفعول ، أى أنه مرجوم مطرود من رحمة الله ومن كل خير ، وقيل : رجيم بمعنى راجم لأنه يرجم الناس بالوساوس والشرر .

والمعنى : وإنى يا خالقى مع حبى لأن يكون المولود ذكرا لتتهيأ له خدمة بيتك فقد رضيت بما وهبت لى ، وإنى قد سميت هذه الأنثى التى أعطيتنى إياها مريم ، أى العابدة الخادمة لك ، وإنى أحصنها وأجيرها بكفالتك لها ولذريتها من الشيطان الرجيم الذى يزين للناس الشرور والمساوى .

قال القرطبى : وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان ، إلا ابن مريم وأمه» .

ثم قال أبوهريرة : «اقرءوا إن شئتم : وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» .

قال علماؤنا : فأفاد هذا الحديث أن الله ـ تعالى ـ استجاب دعاء أم مريم ، ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال المنخوس ، إن ذلك ظن فاسد ، فكم تعرض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء ، ومع ذلك عصمهم الله مما يرومه الشيطان ،كما قال تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (١)

تلك هى بعض الكلمات الطيبات والدعوات الخاشعات ، التى توجهت بها امرأة عمران إلى ربها عندما أحست بالحمل فى بطنها وعندما وضعت حملها ـ كما حكاها القرآن بأسلوبه البليغ المؤثر ـ فماذا كانت نتيجتها؟ .

كانت نتيجتها أن أجاب الله دعاءها وقَبِل تضرعها ، وقد حكى ـ سبحانه ـ ذلك بقوله : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ .

والفاء فى قوله : ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ تفريع على الدعاء مؤذن بسرعة الإجابة ، والضمير يعود إلى مريم ، والتقبل ـ كما يقول الراغب ـ قبول الشىء على وجه يقتضى ثوابا كالهدية ونحوها .

وإنما قال ـ سبحانه ـ : ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ﴾ ولم يقل بتقبل : للجمع بين الأمرين : التقبل الذى هو الترقى فى القبول ، والقبول الذى يقتضى الرضا والإثابة .(٢)

---

(١) تفسير القرطبى جـ٤ ص٦٨ بتلخيص .

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى جـ٢ ص٢٩ .

والمعنى : أن الله ـ تعالى ـ تقبل مريم قبولا مباركا وخرق بها عادة قومها ، فرضى أن تكون محررة للعبادة وخدمة بيته كالذكور ، مع كونها أنثى وفاء بنذر الأم التقية التى قالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ .

﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ أى رباها تربية حسنة وصانها من كل سوء ، فكان حالها كحال النبات الذى ينمو فى الأرض الصالحة حتى يؤتى ثماره الطيبة .

وهكذا قيض الله ـ تعالى ـ لمريم كل ألوان السعادة الحقيقية ، فقد قبلها لخدمة بيته مع أنها أنثى ، وأنشأها نشأة حسنة بعيدة عن كل نقص خِلْقى أو خُلُقى ، وهيأ لها وسائل العيش الطيب من حيث لاتحتسب ، فقد قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

قوله : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أى ضمها إلى زكريا لأن الكفالة فى الأصل معناها الضم ، أى ضمها الله ـ تعالى ـ إليه وجعله كافلا لها وضامنا لمصالحها .

وزكريا هو أحد أنبياء بنى إسرائيل وينتهى نسبه إلى سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ وكان متزوجا بخالة مريم ، وقيل : كان متزوجا بأختها .

وكانت كفالته لها نتيجة اقتراع بينه وبين من رغبوا فى كفالتها من سدنة بيت المقدس ، يدل على ذلك قوله ـ تعالى ـ :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

قال صاحب الكشاف : «روى أن «حنة» حين ولدت مريم ، لفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد ، ووضعتها عند الأحبار وهم فى بيت المقدس ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم .

فقال لهم زكريا : أنا أحق بها ، عندى خالتها فقالوا : لا ، نقترع عليها ، فانطلقوا إلى نهر وألقوا فيه أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم فتكفلها» .(١)

وقوله : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ بيان لكفالة الله ـ تعالى ـ لرزقها ورضاه عنها ، ورعايته لها .

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٥٧ بتلخيص يسير .

والمحراب الموضع العالى والمراد به الغرفة التى كانت تتخذها مريم مكانا لعبادتها فى المسجد ، سمى بذلك لأنه مكان محاربة الشيطان والهوى .

وهذا دليل على قدرة الله ـ سبحانه ـ على كل شىء ، وعلى رعايته لمريم ، فقد رزقها ـ سبحانه ـ من حيث لاتحتسب ، ودليل على وقوع الكرامة لأوليائه ـ تعالى ـ .

ولقد كان وجود هذا الرزق عند مريم دون أن يعرف زكريا ـ عليه السلام ـ مصدره مع أنه لايدخل عليها أحد سواه كان ذلك محل عجبه ، لذا حكى القرآن عنه : ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أى من أين لك هذا الرزق العظيم الذى لا أعرف سببه ومصدره و﴿أَنَّىٰ﴾ هنا بمعنى من أين .

والجملة الكريمة استئناف مبنى على سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال زكريا عند مشاهدة هذا الرزق؟ فكان الجواب : قال يا مريم من أين لك هذا .

ولقد كانت إجابة مريم على زكريا تدل على قوة إيمانها ، وصفاء نفسها ، فقد أجابته بقولها ـ كما حكى القرآن عنها ـ : ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أى : قالت له : إن هذا الرزق من عند الله ـ تعالى ـ هو الذى رزقنى إياه وساقه إلىّ بقدرته النافذة .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ جملة تعليلية ، أى : إن الله ـ تعالى ـ يرزق من يشاء أن يرزقه رزقا واسعا عظيما لايحده حد ، ولاتجرى عليه الأعداد التى تنتهى ، فهو ـ سبحانه ـ لايحاسبه محاسب ، ولاتنقص خزائنه من أى عطاء مهما كثر وعظم .

وهذه الجملة الكريمة يحتمل أنها من كلام الله ـ تعالى ـ فتكون مستأنفة ، ويحتمل أنها من كلامها الذى حكاه القرآن عنها ، فتكون تعليلية فى محل نصب داخلة تحت القول .

هذا وفى تلك الآيات التى حكاها القرآن عن مريم ، وأمها نرى كيف يعمل الإيمان عمله فى القلوب فينقيها ويصفيها ويحررها من رق العبودية لغير الله الواحد القهار وكيف أن الله ـ تعالى ـ يتقبل دعاء الصالحين ، وينبتهم نباتا حسنا ، ويرعاهم برعايته ، ويرزقهم من حيث لايحتسبون .

حديث القرآن عن ولادة مريم لعيسى ـ عليه السلام ـ وعن فضائله ومعجزاته :

فى القرآن الكريم آيات متعددة حدثت عن مولد عيسى ـ عليه السلام ـ وعن نشأته ، وعن فضائله وعن معجزاته ، وعن المحاورات التى دارت بين مريم وبين جبريل ـ عليه السلام ـ وكذلك عن المحاورات التى دارت بينها وبين قومها .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - فى سورة مريم :

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ﴾

والمعنى : ﴿ وَاذْكُرْ ﴾ - أيها الرسول الكريم - ﴿ فِي الْكِتَابِ ﴾ أى فى هذه السورة الكريمة ، أو فى القرآن الكريم ، خبر مريم وقصتها ﴿ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ أى : وقت أن تنحت عنهم واعتزلتهم فى مكان يلى الناحية الشرقية من بيت المقدس ، أو من بيتها الذى كانت تسكنه .

وفى التعبير بقوله - تعالى - : ﴿ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ إشارة إلى شدة عزلتها عن أهلها ، إذ النبذ معناه الطرح والرمى ، فكأنها ألقت بنفسها فى هذا المكان لتتخلى للعبادة والطاعة ، والتقرب إلى الله - تعالى - بصالح الأعمال .

قال القرطبى : واختلف الناس لم انتبذت؟ فقال السدى : انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس ، وقال غيره : لتعبد الله وهذا حسن ، وذلك أن مريم كانت وقفا على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه ، فتنحت من الناس لذلك ، ودخلت فى المسجد إلى جانب المحراب فى شرقيه لتخلو للعبادة .

فقوله : ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ أى : مكانا من جانب الشرق ، والشرق - بسكون الراء - المكان الذى تشرق فيه الشمس ، والشرق - بفتح الراء - الشمس .

وإنما خص المكان بالشرق ، لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ، حيث تطلع الأنوار .[1]

---

(١) تفسير القرطبى جـ١١ ص٩٠ .

وقوله : ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ تأكيد لانتباذها من أهلها ، واعتزالها إياهم .

أى : اذكر وقت أن اعتزلت أهلها ، فى مكان يلى شرق بيت المقدس ، فاتخذت بينها وبينهم حجابا وساترا للتفرغ لعبادة ربها .

ثم بين - سبحانه - ما أكرمها به فى حال خلوتها فقال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ .

أى : فأرسلنا إليها روحنا وهو جبريل - عليه السلام - فتشبه لها فى صورة بشر سوى معتدل الهيئة ، كامل البنية ، كأحسن مايكون الإنسان .

يقال : رجل سوى إذا كان تام الخلقة عظيم الخلق لايعيبه فى شأن من شئونه إفراط أو تفريط .

والإضافة فى قوله : ﴿ رُوحَنَا ﴾ للتشريف والتكريم ، وسمى جبريل - عليه السلام - روحا لمشابهة الروح الحقيقية فى أن كلا منهما مادة الحياة للبشر ، فجبريل من حيث مايحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب ، والروح تحيا به الأجسام .

وإنما تمثل لها جبريل - عليه السلام - فى صورة بشر سوى ، لتستأنس بكلامه ، وتتلقى منه مايلقى إليها من كلماته ، ولو بدا لها فى صورته التى خلقه الله - تعالى - عليها لنفرت منه ، ولم تستطع مكالمته .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما دار بين مريم وبين جبريل من حوار ونقاش فقال : ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ .

أى : قالت لجبريل - عليه السلام - الذى تمثل لها فى صورة بشر سوى : إنى أعوذ وألتجئ إلى الرحمن منك ، إن كنت ممن يتقى الله ويخشاه .

وخصت الرحمن بالذكر ، لتثير مشاعر التقوى فى نفسه ، إذ من شأن الإنسان التقى أن ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن ، وأن يرجع عن كل سوء يخطر بباله .

وجواب هذا الشرط محذوف ، أى إن كنت تقيا ، فابتعد عنى واتركنى فى خلوتى لأتفرغ لعبادة الله - تعالى - .

وبهذا القول الذى حكاه القرآن عن مريم ، تكون قد جمعت بين الاعتصام بربها ، وبين تخويف من تخاطبه وترهيبه من عذاب الله ، إن سولت له نفسه إرادتها بسوء ، كما أن قولها هذا ، يدل على أنها قد بلغت أسمى درجات العفة والطهر والبعد عن الريبة ، فهى تقول له هذا القول ، وهى تراه بشرا سويا ، وفى مكان بمعزل عن الناس .

وهنا يجيبها جبريل - كما حكى القرآن عنه - بقوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ .

أى : قال لها جبريل ليدخل السكون والاطمئنان على قلبها : إنما أنا يا مريم رسول ربك الذى استعذت به ، والتجأت إليه ، فلاتخافى ولاتجزعى وقد أرسلنى - سبحانه - إليك ، لأهب لك بإذنه وقدرته غلاما زكيا ، أى : ولدا طاهرا من الذنوب والمعاصى ، كثير الخير والبركات .

ونسب الهبة لنفسه ، لكنه سببا فيها ، وقرأ نافع وأبوعمرو : ﴿ لِيَهَبَ لَكِ ﴾ بالياء المفتوحة بعد اللام أى : ليهب لك ربك غلاما زكيا .

وهنا تزداد حيرة مريم ، ويشتد عجبها فتقول : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ .

أى قالت على سبيل التعجب مما سمعته : كيف يكون لى غلام ، والحال أنى لم يمسنى بشر من الرجال عن طريق الزواج الذى أحله الله - تعالى - ولم أك فى يوم من الأيام بغيا ، أى : فاجرة تبغى الرجال ، أو يبغونها للزنا بها ، يقال : بغت المرأة تبغى إذا فجرت وتجاوزت حدود الشرف والعفاف .

قال صاحب الكشاف : جعل المس عبارة عن النكاح الحلال ، لأنه كناية عنه كقوله - تعالى - : ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ والزنا ليس كذلك إنما يقال : فيه : فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك ، وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب ، والبغى : الفاجرة التى تبغى الرجال .[1]

وعلى هذا الرأى الذى ذهب إليه صاحب الكشاف ، يكون ما حكاه القرآن عن مريم ، من قولها : ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .. ﴾ المقصود به الزواج الحلال .

ويرى آخرون أن المقصود به ما يشمل الحلال والحرام ، أى : ولم يمسسنى بشر كائنا من كان لابنكاح ولابزنى ، ويكون قوله : ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ من باب التخصيص بعد التعميم ، ويؤيد هذا الرأى قوله - تعالى - : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [2]

ويؤيده أيضا أن لفظ ﴿ بَشَرٌ ﴾ نكرة فى سياق النفى فيعم كل بشر سواء أكان زوجا أم غير زوج .

قال القرطبى : قوله : ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أى زانية ، وذكرت هذا تأكيدا لأن قولها يشمل الحلال والحرام .[3]

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص١٠ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٤٧ .

(٣) تفسير القرطبى جـ١١ ص٩١ .

وقال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : وإنما تعجبت مما بشرها به جبريل لأنها عرفت بالعادة أن الولادة لاتكون إلا بعد الاتصال برجل ، فليس فى قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه ـ تعالى ـ قادر على خلق الولد ابتداء ، كيف وقد عرفت أن أبا البشر قد خلقه الله ـ تعالى ـ من غير أب أو أم .(١)

وقوله ـ تعالى ـ ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ..﴾ رد من جبريل عليها .

أى : قال الأمر كذلك أى : كما ذكرت من أن بشرا لم يمسسك ومن أنك لم تكونى فى يوم من الأيام بغيا ، أو الأمر كذلك من أنى أرسلنى ربك لأهب لك غلاما زكيا من غير أن يكون له أب .

وقوله : ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ..﴾ بيان لمظهر من مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ التى لايعجزها شىء ، أى : ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ﴾ أى : خلق ولدك من غير أب ﴿عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أى : سهل يسير لأن قدرتنا لايعجزها شىء .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ تعليل لمعلل محذوف ، أى : ولنجعل وجود الغلام منك من غير أن يمسك بشر ﴿آيَةً﴾ عظيمة وأمرا عجيبا يدل دلالة واضحة على قدرتنا ، أمام الناس جميعا ، فإن قدرتنا لايعجزها ذلك ، كما لايعجزها أن توجد بشرا من غير أب وأم كما فعلنا مع آدم ، أو من غير أم كما فعلنا مع حواء ، أو من أب وأم كما فعلنا مع سائر البشر .

وقوله : ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ معطوف على ما قبله ، أى : ولنجعل هذا الغلام الذى وهبنا لك من غير أب رحمة عظيمة منا لمن آمن به ، واتبع دعوته ، ﴿وَكَانَ﴾ وجود هذا الغلام منك على هذه الكيفية ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أى : مقدرا فى الأزل مسطورا فى اللوح المحفوظ ، ولابد من وقوعه بدون تغيير أو تبديل .

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة ، قد حكت لنا جانبا من حالة مريم ومن الحوار الذى جرى بينها وبين جبريل ـ عليه السلام ـ الذى تمثل لها فى صورة بشر سوى .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد تلك القصة العجيبة ، حكت فيها حالتها عند حملها بعيسى ، وعندما جاءها المخاض فقال ـ تعالى ـ :

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٣ ص٥٦ .

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

قال ابن كثير - رحمه الله - : يقول - تعالى - مخبرا عن مريم ، أنها لما قال لها جبريل عن الله - تعالى - ما قال : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أنها استسلمت لقضائه - تعالى - فذكر غير واحد من علماء السلف ، أن الملك وهو جبريل - عليه السلام - عند ذلك نفخ فى جيب درعها ، فنزلت النفخة حتى ولجت فى الفرج ، فحملت بالولد بإذن الله - تعالى - .

والمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر ، قال عكرمة : ثمانية أشهر .

وعن ابن عباس أنه قال : لم يكن إلا أن حملت فوضعت ، وهذا غريب ، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله - تعالى - : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ فالفاء وإن كانت للتعقيب لكن تعقيب كل شىء بحسبه .

فالمشهور الظاهر - والله على كل شىء قدير - أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن .(1)

الفاء فى قوله - تعالى - : ﴿ فَحَمَلَتْهُ .. ﴾ هى الفصيحة ، أى : وبعد أن قال جبريل لمريم : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ، نفخ فيها فحملته ، أى : عيسى ، فانتبذت به ، أى : فتنحت به وهو فى بطنها ﴿ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ أى : إلى مكان بعيد عن المكان الذى يسكنه أهلها .

(1) تفسير ابن كثير جـ3 ص116 .

يقال : قصى فلان عن فلان قَصْوًا وقُصُوّاً ، إذا بعد عنه ، ويقال : فلان بمكان قصى ، أى : بعيد .

وجمهور العلماء على أن هذا المكان القصى ، كان بيت لحم بفلسطين .

قال ابن عباس : أقصى الوادى ، وهو وادى بيت لحم ، فرارا من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج .[1]

ثم حكى - سبحانه - ما اعتراها من حزن عندما أحست بقرب الولادة فقال : ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ .

وقوله : ﴿ فَأَجَاءَهَا ﴾ أى : فألجأها ، يقال : أجأته إلى كذا ، بمعنى : ألجأته إليه ، ويقال جاء فلان ، وأجاءه غيره ، إذا حمله على المجىء ، ومنه قول الشاعر :

وجارٍ سارَ معتمدا علينا   أجاءته المخافة والرجاء

قال صاحب الكشاف : «أجاء : منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء ، ألا تراك تقول : جئت المكان وأجاءنيه زيد ، كما تقول : بلغته وأبلغنيه» .[2]

والمخاض : وجع الولادة ، يقال : مخضت المرأة - بكسر الخاء - تمخض - بفتحها - إذا دنا وقت ولادتها مأخوذ من المخض ، وهو الحركة الشديدة ، وسمى بذلك لشدة تحرك الجنين فى بطن الأم عند قرب خروجه .

وجذع النخلة : ساقها الذى تقوم عليه .

أى : وبعد أن حملت مريم بعيسى ، وابتعدت به - وهو محمول فى بطنها - عن قومها ، وحان وقت ولادتها ، ألجأها المخاض إلى جذع النخلة لتتكئ عليه عند الولادة .

فاعتراها فى تلك الساعة ما اعتراها من هم وحزن وقالت : ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ الحمل والمخاض الذى حل بى ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أى : وكنت شيئا منسيا متروكا لايهتم به أحد ، وكل شىء نُسى وترك ولم يطلب فهو نَسْىٌ ونسِىٌّ .

قال القرطبى : و«النِّسْىُ فى كلام العرب : الشىء الحقير الذى من شأنه أن ينسى ولايتألم لفقده كالوتد ، والحبل للمسافر ، وقرئ : ﴿ نَسْيًا ﴾ بكسر النون وهما لغتان مثل : الوِتر والوَتر»[3]

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٣ ص٥٧ .

(٢) تفسير الكشاف جـ٣ ص١١ .

(٣) تفسير القرطبى جـ١١ ص٩٢ .

قال الآلوسى ما ملخصه : وإنما قالت ذلك مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل من الوعد الكريم ، استحياء من الناس ، وخوفا من لائمتهم ، أو حذرا من وقوع الناس فى المعصية بسبب كلامهم فى شأنها .

وتمنى الموت لمثل ذلك لا كراهة فيه ـ لأنه يتعلق بأمر دينى ـ نعم يكره أن يتمنى المرء الموت لأمر دنيوى كمرض أو فقر ، ففى صحيح مسلم ، قال رسول الله ﷺ : «لايتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لابد متمنيا فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى» .

ومن ظن أن تمنى مريم الموت كان لشدة الوجع فقد أساء الظن .[1]

ثم ذكر ـ سبحانه ـ جانبا من إكرامه لمريم فى تلك الساعات العصيبة من حياتها فقال : ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا . وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا . . ﴾ .

والذى ناداها يرى بعضهم أنه جبريل ـ عليه السلام ـ وقوله ﴿ مِن تَحْتِهَا ﴾ فيه قراءتان سبعيتان : إحداهما : بكسر الميم فى لفظ ﴿ مِن ﴾ على أنه حرف جر ، وخفض تاء ﴿ تَحْتِهَا ﴾ على أنه مجرور بحرف الجر والفاعل محذوف أى فناداها جبريل من مكان تحتها أى أسفل منها .

والثانية : بفتح الميم فى لفظ ﴿ مِن ﴾ على أنه اسم موصول ، فاعل نادى وبفتح التاء فى ﴿ تَحْتَهَا ﴾على الظرفية ، أى : فناداها الذى هو تحتها ، وهو جبريل ـ عليه السلام ـ .

قال القرطبى : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾ .

قال ابن عباس : المراد بمن تحتها جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ، ففى هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة ، التى لله ـ تعالى ـ فيها مراد عظيم .[2]

ويرى بعض المفسرين أن المنادى هو عيسى ـ عليه السلام ـ فيكون المعنى : فناداها ابنها عيسى الذى كان عندما وضعته موجودا تحتها .

وقد رجح الإمام ابن جرير هذا الرأى فقال : وأولى القولين فى ذلك عندنا قول من قال : الذى ناداها ابنها عيسى ، وذلك أنه من كناية ـ أى ضمير ـ ذكره أقرب منه من

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٦ ص٨٢ .

(٢) تفسير القرطبى جـ١١ ص٩٢ .

ذكر جبريل ، فرده على الذى هو أقرب إليه أولى من رده على الذى هو أبعد منه ، ألا ترى أنه فى سياق قوله - تعالى - ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ ثم قيل : فناداها نسقا على ذلك ، ولعلة أخرى وهى قوله : ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ..﴾ ولم تشر إليه - إن شاء الله - إلا وقد علمت أنه ناطق فى حاله تلك .(١)

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير من كون الذى نادى مريم هو ابنها عيسي ، أقرب إلى الصواب ، لأن هذا النداء منه لها فى تلك الساعة ، فيه مافيه من إدخال الطمأنينة والسكينة على قلبها .

أى : فناداها ابنها عيسى الذى كان أسفل منها عندما وضعته ، مطمئنا إياها بعد أن قالت : يا ليتنى مت قبل هذا الذى حدث لى . . ناداها بقوله : ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي﴾ يا أماه ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أى : جدولا صغيرا من الماء ، لتأخذى منه ما أنت فى حاجة إليه ، وسمى النهر الصغير من الماء سريا ، لأن الماء يسرى فيه .

وقيل : المراد بالسرى عيسى - عليه السلام - مأخوذ من السرو بمعنى الرفعة والشرف .

يقال : سرو الرجل يسرو - كشرف يشرف - فهو سرى ، إذا علا قدره وعظم أمره ومنه قول الشاعر :

لايصلح الناس فوضى لاسراة لهم ... ولا سـراة إذا جهالهم سادوا

أى : قد جعل ربك تحتك يامريم إنسانا رفيع القدر ، وهو ابنك عيسى .

والجملة الكريمة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى بقوله : ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي﴾ .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وأظهر القولين عندى أن السرى فى الآية النهر الصغير لأمرين :

أحدهما : القرينة من القرآن ، لأن قوله بعد ذلك ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾ قرينة على أن ذلك المأكول والمشروب هو ما تقدم الامتنان به فى قوله ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ :

الثانى : ماجاء عن ابن عمر من أنه سمع النبى ﷺ يقول : «إن السرى الذى قال الله لمريم : ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ نهر أخرجه الله لها لتشرب منه» .

فهذا الحديث - وإن كانت طرقه لايخلو شىء منها من ضعف - أقرب إلى الصواب من دعوى أن السرى عيسى بغير دليل يجب الرجوع إليه .(٢)

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١٦ ص٥٢ .

(٢) تفسير أضواء البيان للشيخ الشنقيطى - رحمه الله تعالى - جـ٤ ص ٢٤٨ .

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ معطوف على ما قاله عيسى لأمه مريم ، والباء فى قوله ﴿ بِجِذْعِ ﴾ مزيدة للتوكيد ، لأن فعل الهز يتعدى بنفسه .

أى : وحركى نحوك أو جهة اليمين أو الشمال جذع النخلة ﴿ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا ﴾ وهو ما نضج واستوى من التمر ﴿ جَنِيًّا ﴾ أى : صالحا للأخذ والاجتناء ﴿ فَكُلِي ﴾ من ذلك الرطب ﴿ وَاشْرَبِي ﴾ من ذلك السرى ، ﴿ وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ أى : طيبى نفسا بوجودى تحتك ، واطردى عنك الأحزان .

يقال : قرت عين فلان ، إذا رأت ما كانت متشوقة إلى رؤيته ، مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار والسكون ، لأن العين إذا رأت ما تحبه سكنت إليه ، ولم تنظر إلى غيره .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، أن مباشرة الأسباب فى طلب الرزق أمر واجب وأن ذلك لاينافى التوكل على الله ، لأن المؤمن يتعاطى الأسباب امتثالا لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لايقع فى ملكه ـ سبحانه ـ إلا ما يشاؤه ويريده .

وهنا قد أمر الله ـ تعالى ـ مريم ـ على لسان مولودها ـ بأن تهز النخلة ليتساقط لها الرطب ، مع قدرته ـ سبحانه ـ على إنزال الرطب إليها من غير هز أو تحريك ، ورحم الله القائل :

ألم تـر أن الله قـال لمـريم ... وهزى إليك الجـذع يسـاقط الرطب

ولو شـاء أن تجنيه من غيـر هزه ... جنتـه ، ولكن كل شىء لـه سبب

كما أخذوا منها أن خير ما تأكله المرأة بعد ولادتها الرطب ، قالوا : لأنه لو كان شىء أحسن للنفساء من الرطب لأطعمه الله ـ تعالى ـ لمريم .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾حكاية منه ـ تعالى ـ لبقية كلام عيسى لأمه .

والمعنى : أن عيسى ـ عليه السلام ـ قال لأمه : لاتحزنى يا أماه بسبب وجودى بدون أب ، وقرى عينا ، وطيبى نفسا لذلك ، إما ترين من البشر أحدا كائنا من كان فسألك عن أمرى وشأنى فقولى له : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ أى : صمتا عن الكلام ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ لا فى شأن هذا المولود ولا فى شأن غيره ، وإنما سأترك الكلام لابنى ليشرح لكم حقيقة أمره .

وقالوا : إنما منعت من الكلام لأمرين : أحدهما : أن يكون عيسى هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها فى إزالة التهمة عنها ، فى هذا دلالة على تفويض الكلام إلى الأفضل .

والثانى : كراهة مجادلة السفهاء ، وفيه أن السكوت عن السفيه واجب ، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها .[1]

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ الحكيم ما فعلته مريم عندما شعرت بالحمل وما قالته عندما أحست بقرب الولادة ، وما قاله لها مولودها عيسى من كلام جميل طيب ، لإدخال الطمأنينة على قلبها .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد تلك القصة العجيبة ، مشهد مريم عندما جاءت بوليدها إلى قومها وما قالوه لها ، وما قاله وليدها لهم .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك فيقول :

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ .. ﴾ معطوف على كلام محذوف يفهم من سياق القصة .

والتقدير : وبعد أن استمعت مريم إلى ما قاله لها ابنها عيسى ـ عليه السلام ـ اطمأنت نفسها ، وقرت عينها ، فأتت به أى بمولودها عيسى إلى قومها ، وهى تحمله معها من المكان القصى الذى اعتزلت فيه قومها .

قال الآلوسى : أى : جاءتهم مع ولدها حاملة إياه ، على أن الباء للمصاحبة ، وجملة ﴿ تَحْمِلُهُ ﴾ فى موضع الحال من ضمير ، وكان هذا المجيء على ما أخرج سعيد بن منصور ، وابن عساكر عن ابن عباس بعد أربعين يوما حين طهرت من نفاسها .

وظاهر الآية والأخبار «أنها جاءتهم به من غير طلب منهم»[2] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٥ ص٥٣٥

(٢) تفسير الآلوسى جـ١٦ ص٨٧

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله قومها عندما رأوها ومعها وليدها فقال : ﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ .

أى : قالوا لها على سبيل الإنكار : يا مريم لقد جئت أى فعلت شيئا منكرا عجيبا فى بابه ، حيث أتيت بولد من غير زوج نعرفه لك .

والفرى : مأخوذ من فريت الجلد إذا قطعته ، أى : شيئا قاطعا وخارقا للعادة ، ومرادهم : أنها أتت بولدها عن طريق غير شرعى ، كما قال ـ تعالى ـ فى آية أخرى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ . [النساء : ١٥٦]

ويدل على أن مرادهم هذا ، قولهم بعد ذلك : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ﴾ .

أى : ما كان أبوك رجلا زانيا أو معروفا بالفحش ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ ، أى : تتعاطى الزنا ، يقال : بغت المرأة ، إذا فجرت وابتعدت عن طريق الطهر والعفاف .

وليس المراد بهارون : نبى الله أخا موسى ـ عليهما السلام ـ وإنما المراد به رجل من قومها معروف بالصلاح والتقوى ، فشبهت به ، أى : يا أخت هارون فى الصلاح والتقوى .

أو المراد به أخ لها كان يسمى بهذا الاسم .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ استئناف لتجديد التعبير ، وتأكيد التوبيخ ، وليس المراد بهارون أخا موسى بن عمران ـ عليهما السلام ـ لما أخرج أحمد ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، والطبرانى ، وابن حبان ، وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا : أرأيت ما تقرءون : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم» .

وعن قتادة قال : «هو رجل صالح فى بنى إسرائيل ، والأخت على هذا بمعنى المشابهة ، وشبهوها به تهكما ، أو لما رأوا قبل من صلاحها»[1]

وعلى أية حال فإن مرادهم بقولهم هذا ، هو اتهام مريم بما هى بريئة منه ، والتعجب من حالها ، حيث انحدرت من أصول صالحة طاهرة ، ومع ذلك لم تنهج نهجهم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٦ ص٨٨ .

وهنا نجد مريم تبدأ فى الدفاع عن نفسها ، عن طريق وليدها ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ .

أى : فأشارت إلى ابنها عيسى ، ولسان حالها يقول لهم : وجهوا كلامكم عليه فإنه سيخبركم بحقيقة الأمر .

ولكنهم لم يقنعوا بإشارتها بل قالوا لها : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ .

والمهد : اسم للمضطجع الذى يهيأ للصبى فى رضاعه ، وهو فى الأصل مصدر مهده يمهده إذا بسطه وسواه .

أى : كيف نكلم طفلا صغيرا مازال فى مهده وفى حال رضاعه .

والفعل الماضى وهو ﴿ كَانَ ﴾ ههنا بمعنى الفعل المضارع المقترن بالحال ، كما يدل عليه سياق القصة .

ولكن عيسى ـ عليه السلام ـ أنطقه الله ـ تعالى ـ بما يدل على صدق مريم وطهارتها فقال : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ أى : قال عيسى فى رده على المنكرين على أمه إتيانها به : إنى عبدالله ، خلقنى بقدرته ، فأنا عبده وأنتم ـ أيضا ـ عبيده ، وهذا الخالق العظيم ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ أى : سبق فى قضائه إتيانى الكتاب أى : الإنجيل أو التوراة أو مجموعهما .

وعبر فى هذه الجملة وفيما بعدها بالفعل الماضى عما سيقع فى المستقبل تنزيلا لتحقيق الوقوع منزلة الوقوع الفعلى .

وهذا التعبير له نظائر كثيرة فى القرآن الكريم ، منها قوله ـ تعالى ـ ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ . [النحل : ١]

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ (١)

وقوله : ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ أدعو الناس إلى عبادته وحده ﴿ وَجَعَلَنِي ﴾ أيضا بجانب نبوتى ﴿ مُبَارَكًا ﴾ أى : كثير الخير والبركة ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ أى : حينما حللت جعلنى مباركا ، فأينما شرطية وجوابها محذوف لدلالة ما قبله عليه .

﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ أى : بالمحافظة على أدائهما ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ فى هذه الدنيا .

(١) سورة الزمر الآية ٦٨ .

وقوله : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ أى : وجعلنى كذلك مطيعا لوالدتى ، وبارا بها ، ومحسنا إليها ، ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي ﴾ - سبحانه - فضلا منه وكرما ﴿ جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أى : ولم يجعلنى مغرورا متكبرا مرتكبا للمعاصى والموبقات .

﴿ وَالسَّلامُ ﴾ والأمان منه - تعالى - ﴿ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ مفارقا هذه الدنيا ﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ للحساب والجزاء يوم القيامة .

فأنت ترى أن عيسى - عليه السلام - قد وصف نفسه بمجموعة من الصفات الفاضلة ، افتتحها بصفة العبودية لله رب العالمين ، لإرشاد الناس إلى تلك الحقيقة التى لا حق سواها ، ولتحذير أعدائه من وصفه بأنه هو الله ، أو هو ابن الله ، أو هو مشارك له فى العبادة .

واختتمها برجاء الأمان له من الله - تعالى - فى كل أطوار حياته .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان وجه الحق فيها ، وأنذر الذين وصفوا عيسى وأمه بما هما بريئان منه بسوء المصير ، فقال - تعالى - :

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾

واسم الإشارة ﴿ ذَلِكَ ﴾ فى قوله : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ إشارة إلى ما ذكره الله - تعالى - قبل ذلك لعيسى من صفات حميدة ، ومن أخبار صادقة وهو مبتدأ وعيسى خبره وابن مريم صفته .

ولفظ : ﴿ قَوْلَ ﴾ فيه قراءتان سبعيتان إحداهما قراءة الجمهور بضم اللام ، والثانية قراءة ابن عامر وعاصم بفتحها .

وعلى القراءة بالرفع يكون ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، فيكون المعنى : ذلك الذى أخبرناك عنه بشأن عيسى وأمه هو قول الحق - عز وجل - وهو قول لايحوم حوله باطل ، ولايخالطه ريب أو شك ، فلفظ ﴿ الْحَقِّ ﴾ يصح أن يراد به الله - سبحانه - لأنه من أسمائه ، ويصح أن يراد به ما هو ضد الباطل ، وهو الصدق والثبوت .

وعلى قراءة النصب يكون لفظ ﴿ قَوْلَ ﴾ مصدرا مؤكدا لمضمون الجملة ، أى : ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - من شأن عيسى ابن مريم ، هو القول الثابت الصادق ، الذى أقول فيه قول الحق .

والإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته أى : القول الحق ، كقوله - تعالى - ﴿ وَعْدَ الصِدْقِ ﴾ أى : الوعد الصدق .

وقوله : ﴿ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ بيان لموقف الكافرين من هذا القول الحق الذى ذكره الله - تعالى - عن عيسى وأمه ، و ﴿ الَّذِي ﴾ صفة للقول ، أو للحق ، و ﴿ يَمْتَرُونَ ﴾ يشكون من المرية بمعنى الشك والجدل .

أى : ذلك الذى ذكرناه لك من خبر عيسى هو القول الحق ، الذى شك فى صدقه الكافرون ، وتنازع فيه الضالون ، فلا تلتفت إلى شكهم وكفرهم بل ذرهم فى طغيانهم يعمهون .

ثم نزه - سبحانه - ذاته عن أن يكون له ولد فقال : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ .. ﴾ أى : مايصح ومايستقيم وما يتصور فى حقه - تعالى - أن يتخذ ولدا ، لأنه منزه عن ذلك ، لأن الولد إنما يتخذه الفانون للامتداد ، ويتخذه الضعفاء للنصرة ، والله - تعالى - هو الباقى بقاء أبديا ، وهو القوى القادر الذى لايعجزه شىء .

و﴿ مِن ﴾ فى قوله : ﴿ مِن وَلَدٍ ﴾ لتأكيد هذا النفى وتعميمه .

وفى معنى هذه الآيات جاءت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - فى هذه السورة :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ .

ثم بين ـ سبحانه ـ مايدل على غناه عن الولد والوالد والصاحب والشريك فقال : ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أى : لايتصور فى حقه ـ سبحانه ـ اتخاذ الولد ، لأنه إذا أراد قضاء أمر ، فإنما يقول له : كن ، فيكون فى الحال ، بدون تأخير أو تردد .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ . . ﴾ قرأه ابن عامر والكوفيون بكسر همزة ﴿ وَإِنَّ ﴾ على الاستئناف ، أى : وإن عيسى ـ عليه السلام ـ قد قال لقومه ـ أيضا ـ : وإن الله ـ تعالى ـ هو ربى وهو ربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة ، وهذا الذى أمرتكم به هو الصراط المستقيم الذى لايضل سالكه .

وقرأ الباقون بفتح همزة ﴿ وَإِنَّ ﴾ بتقدير حذف حرف الجر أى : وقال عيسى لقومه : ولأن ربى وربكم فاعبدوه ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ أى : ولأن المساجد لله .

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف أهل الكتاب من عيسى ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

والأحزاب جمع حزب والمراد بهم فرق اليهود والنصارى الذين اختلفوا فى شأنه ـ عليه السلام ـ فمنهم من اتهم أمه بما هى بريئة منه ، وهم اليهود كما فى قوله : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ .

ومنهم من قال : هو ابن الله ، أو هو الله ، أو إله مع الله ، أو هو ثالث ثلاثة ، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة التى حكاها القرآن عن الضالين وهم النصارى .

ولفظ ﴿ وَيْلٌ ﴾ مصدر لا فعل له من لفظه ، وهو كلمة عذاب ووعيد .

و﴿ مَّشْهَدِ ﴾ يصح أن يكون مصدرا ميميا بمعنى الشهود والحضور .

والمعنى : هكذا قال عيسى ـ عليه السلام ـ لقومه :﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ ولكن الفرق الضالة من اليهود والنصارى اختلفوا فيما بينهم فى شأنه اختلافا كبيرا ، وضلوا ضلالا بعيدا ، حيث وصفوه بما هو برىء منه ، فويل لهؤلاء الكافرين من شهود ذلك اليوم

العظيم وهو يوم القيامة ، حيث يلقون عذابا شديدا من الله بسبب ما نطقوا به من زور وبهتان .

وعبر عنهم بالموصول فى قوله : ﴿ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إيذانا بكفرهم جميعا ، وإشعارا بعلة الحكم .

قال أبوحيان : ومعنى : ﴿ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أن الاختلاف لم يخرج عنهم ، بل كانوا هم المختلفين دون غيرهم .(١)

وجاء التعبير فى قوله ﴿ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ بالتنكير ، للتهويل من شأن هذا المشهد ، ومن شأن هذا اليوم وهو يوم القيامة ، الذى يشهده الثقلان وغيرهما من مخلوقات الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا .. ﴾ تهكم بهم ، وتوعد لهم بالعذاب الشديد ، فهو تأكيد لما قبله .

و﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ صيغتا تعجب ، لفظهما لفظ الأمر ، ومعناهما التعجيب ، أى حمل المخاطب على التعجيب ، وفاعلهما الضمير المجرور بالباء ، وهى زائدة فيهما لزوما ، والمعنى : ما أسمع هؤلاء الكافرين وما أبصرهم فى ذلك اليوم ، لما يخلع قلوبهم ويسود وجوههم ، مع أنهم كانوا فى الدنيا صما وعميانا عن الحق الذى جاءتهم به رسلهم .

فالمراد باليوم فى قوله : ﴿ لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ هو ما كانوا فيه فى الدنيا من ضلال وغفلة عن الحق .

أى : أن هؤلاء القوم ما أعجب حالهم إنهم لايسمعون ولايبصرون فى الدنيا حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة ، وهم أسمع ما يكن السمع وأبصر مايكون البصر ، عندما يكون السمع والبصر وسيلة للخزى والعذاب فى الآخرة .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه محمدا ﷺ بأن يخوف المشركين من أهوال يوم القيامة ، فقال : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

والإنذار : الإعلام بالمخوف منه على وجه الترهيب والتحذير ، وأشد مايخوف به يوم القيامة .

والحسرة : أشد الندم على الأمر الذى فات وانقضى ولايمكن تداركه .

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ٦ ص١٩١ .

أى : وأنذر ـ أيها الرسول الكريم ـ المشركين ، وخوفهم من أهوال يوم القيامة ، يوم يتحسر الظالمون على تفريطهم فى طاعة الله ، ولكن هذا التحسر لن ينفعهم لأن حكم الله قد نفذ فيهم وقضى الأمر بنجاة المؤمنين ، وبعذاب الفاسقين ، وذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار .

وقوله : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ حال من الضمير المنصوب فى ﴿ أَنذِرْهُمْ ﴾ .

أى : أنذرهم لأنهم فى حالة يحتاجون فيها إلى الإنذار وهى الغفلة وعدم الإيمان .

هذا ، وقد جاء فى الحديث الصحيح ما يدل على أن المراد بقوله ـ تعالى ـ ﴿ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ ﴾ . أى : ذبح الموت ، فقد روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد : يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت وكلهم قد رآه ، ثم ينادى : يا أهل النار ، فيشرئبون ، وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت وكلهم قد رآه ، فيذبح ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت ، ثم قرأ ﷺ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ » .(١)

ثم ساق ـ سبحانه ـ مايدل على كمال قدرته ، وشمول ملكه فقال : أى : إنا نحن وحدنا الذين نميت جميع الخلائق الساكنين بالأرض ، فلايبقى لأحد غيرنا من سلطان عليهم أو عليها ، وهؤلاء الخلائق جميعا ﴿ وَإِلَيْنَا ﴾ وحدنا ﴿ يُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة ، فنحاسبهم على أعمالهم .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة التى ذكرناها قد حدثتنا عن جانب من قصة مريم وعيسى ـ عليهما السلام ـ حديثا يهدى إلى الرشد ، ويزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، ويقذف بحقه على باطل المبطلين فيدمغه فإذا هو زاهق .

٨ ـ هذا ، وفى سورة «آل عمران» آيات كريمة ، حدثتنا عن الفضائل التى منحها الله ـ تعالى ـ لمريم أم عيسى ـ عليهما السلام ـ ، وعن البشارات التى بشرتها بها الملائكة ، وعن المناقب الحميدة ، والمعجزات الباهرة ، التى اختص الله ـ تعالى ـ بها رسوله عيسى ـ عليه السلام ـ وهذه الآيات هى قوله ـ تعالى ـ :

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٣ ص١٢٢ .

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

المعنى ، واذكر يا محمد للناس وقت أن قالت الملائكة لمريم ـ التى تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا ـ : يا مريم ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أى اختارك واجتباك لطاعته ، وقبلك لخدمة بيته ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الأدناس والأقذار ، ومن كل ما يتنافى مع الخلق الحميد ، والطبع السليم ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ بأن وهب لك عيسى من غير أب دون أن يمسسك بشر ، وجعلك أنت وهو آية للعالمين .

فأنت ترى أن الله ـ تعالى ـ قد مدح مريم مدحا عظيما بأن شهد لها بالاصطفاء والطهر والمحبة ، وأكد هذا الخبر للاعتناء بشأنه والتنويه بقدره .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : والاصطفاء الأول إشارة إلى ما اتفق لها من الأمور الحسنة فى أول عمرها بأن قبل الله ـ تعالى ـ تحريرها ، أى خدمتها لبيته ، مع أنها أنثى ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث ، وبأن فرغها لعبادته وخصها فى هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة ، وبأن كفاها أمر معيشتها فكان يأتيها رزقها من عند الله .

وأما الاصطفاء الثانى فالمراد به أنه ـ تعالى ـ وهب لها عيسى ـ عليه السلام ـ من غير أب ، وجعلها وابنها آية للعالمين .[1]

ولاشك أن ولادتها لعيسى من غير أب ودون أن يمسها بشر ، هو أمر اختصت به مريم ولم تشاركها فيه امرأة قط فى أى زمان أو مكان ، فهى أفضل النساء فى هذه الحيثية .

أما من حيث قوة الإيمان وصلاح الأعمال فيجوز أن يحمل اصطفاؤها على نساء العالمين على معنى تفضيلها على عالمى زمانها من النساء وبعضهم يرى أفضليتها على جميع النساء فى سائر الأعصار .

هذا وقد أورد ابن كثير عددا من الأحاديث التى وردت فى فضل مريم وفى فضل غيرها من النساء ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن على بن أبى طالب أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» ، وروى الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون» ، وأخرج البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» .[2]

وقول الملائكة لمريم : إن الله اصطفاك وطهرك . . إلخ : الراجح أنهم قالوه لها مشافهة ، لأن هذا مايدل عليه ظاهر الآية ، وإليه ذهب صاحب الكشاف فقد قال : روى أنهم كلموها شفاها معجزة لزكريا ، أو إرهاصا لنبوة عيسى ـ عليه السلام ـ .[3]

وقال الجمل قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ ﴾ أى مشافهة لها بالكلام ، وهذا من باب التربية الروحية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها بعد التربية الجسمانية اللائقة بحال صغرها .[4]

وقيل : كان خطابهم لها بالإلهام أو بالرؤيا الصادقة فى النوم .

والأول أولى لأنه هو الظاهر من الآية ، ولأنه الموافق لأقوال جمهور المفسرين ، ولأنه جاء صريحا فى آيات أخرى أن الملك قد تمثل لها بشرا سويا وكلمها ، وذلك فى قوله ـ تعالى ـ فى سورة مريم :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَاتَّخَذَتْ مِن

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص٤٦ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣٦٣ .

(٣) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٦١ .

(٤) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٢٦٩ .

دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴾ .

قال الآلوسى : «واستدل بهذه الآية من ذهب إلى نبوة مريم : لأن تكليم الملائكة يقتضيها ، ومنعها اللقانى وغيره من العلماء ، لأن الملائكة قد كلموا من ليس بنبى إجماعا ، فقد جاء فى الحديث الشريف أنهم كلموا رجلا خرج لزيارة أخ له فى الله ، وأخبروه بأن الله يحبه كما أحب هو أخاه ، ولم يقل أحد بنبوته ـ فكلام الملائكة لمريم لايقتضى نبوتها وهو الصحيح» .(١)

ثم حكى القرآن أن الملائكة أمرت مريم بأن تكثر من عبادة الله ـ تعالى ـ ومن المداومة على طاعته شكرا له فقال ـ تعالى ـ :

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ .

القنوت : لزوم الطاعة والاستمرار عليها ، مع استشعار الخشوع والخضوع لله رب العالمين .

أى : قالت الملائكة أيضا لمريم : يا مريم أخلصى العبادة لله وحده وداومى عليها ، وأكثرى من السجود لله ومن الركوع مع الراكعين ، فإن ملازمة الطاعات والصلوات من شأنها أن تحفظ النعم وأن تزيد الإنسان قربا وحبا من خالقه ـ عز وجل ـ .

فالآية الكريمة دعوة قوية من الله ـ تعالى ـ لمريم ولعباده جميعا بالمحافظة على العبادات ولاسيما الصلاة فى جماعة .

قال صاحب الكشاف : أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونهما من هيئة الصلاة وأركانها ثم قيل لها : ﴿ وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ بمعنى ولتكون صلاتك مع المصلين أى فى الجماعة ، أو انظمى نفسك فى جملة المصلين وكونى معهم فى عدادهم ولاتكونى فى عداد غيرهم .(٢)

فأنت ترى فى هاتين الآيتين أسمى ألوان المدح والتكريم والتهذيب لمريم البتول ، فلقد أخبر ـ سبحانه ـ باصطفائها صغيرة وكبيرة ، وبطهرها من كل سوء ، والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى ، وذلك لما لابس مولد عيسى ـ عليه السلام ـ من خوارق ، هذه الخوارق جعلت اليهود يفترون الكذب على مريم ، ويتهمونها زورا وبهتانا بما هى بريئة منه ، ثم بعد ذلك يأمرها ـ سبحانه ـ بمداومة الطاعة والعبادة والخضوع لله رب العالمين .

---

(١) تفسير الآلوسى بتصرف يسير ـ جـ ٣ ص١٥٤ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٣٦٢ .

وبذلك يتبين لكل ذى عقل سليم أن الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ هو الدين الحق ، لأنه قد قال القول الحق فى شأن مريم وابنها عيسى ـ عليه السلام ـ أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد اختلفوا فى شأنهما اختلافا عظيما أدى بهم إلى الضلال والخسران .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن ما جاء به القرآن فى شأن مريم ـ بل وفى كل شأن من الشئون ـ هو الحق الذى لايحوم حوله باطل ، وهو من أنباء الغيب التى لايعلمها أحد سواه فقال ـ تعالى ـ : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ .

واسم الإشارة ﴿ ذَلِكَ ﴾ يعود إلى ما تقدم الحديث عنه من قصة امرأة عمران وقصة زكريا وغير ذلك من الأخبار البديعة .

والأنباء : جمع نبأ وهو الخبر العظيم الشأن .

والغيب مصدر غاب ، وهو الأمر المغيب المستور الذى لايعلم إلا من قبل الله ـ تعالى ـ .

ونوحيه : من الإيحاء وهو إلقاء المعنى إلى الغير على وجه خفى ، ويكون بمعنى إرسال الملك إلى الأنبياء وبمعنى الإلهام .

أى : ذلك القصص الحكيم الذى قصصناه عليك يا محمد ، فيما يتعلق بما قالته امرأة عمران وما قاله زكريا ، وما قالته الملائكة لمريم وفيما يتعلق بغير ذلك من شئون ذلك القصص الحكيم هو من أنباء الغيب التى لايعلمها أحد سوى الله ـ عز وجل ـ وقد أخبرناك بها لتكون دليلا على صدقك فيما تبلغه عن ربك ولتكون عبرة وذكرى لقوم يعقلون .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ مبتدأ وخبره قوله ـ تعالى ـ ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ والجملة مستأنفة لامحل لها من الإعراب ، وقوله : ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ جملة مستقلة مبينة للأولى ، والضمير فى ﴿ نُوحِيهِ ﴾ يعود إلى الغيب أى الأمر والشأن أنا نوحى إليك الغيب ونعلمك به ، ونظهرك على قصص من تقدمك مع عدم مدارستك لأهل العلم والأخبار .

ولذا قال ـ تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ والأقلام جمع قلم وهى التى كانوا يكتبون بها التوراة وقيل : المراد بها السهام .

أى وما كنت ـ يا محمد ـ لديهم أى عندهم معاينا لفعلهم وما جرى من أمرهم فى شأن مريم ، ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ ﴾ التى جعلوا عليها علامات يعرف بها من يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون فيما بينهم بسببها تنافسا فى كفالتها .

وقد سبق أن ذكرنا ما قاله صاحب الكشاف من أن مريم بعد أن ولدتها أمها خرجت بها إلى بيت المقدس فوضعتها عند الأحبار وقالت لهم : دونكم هذه النذيرة!! فقالوا : هذه ابنة إمامنا عمران ـ وكان فى حياته يؤمهم فى الصلاة ، فقال لهم زكريا : ادفعوها إلىّ فأنا أحق بها منكم فإن خالتها عندى ـ فقالوا : لا حتى نقترع عليها فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم ، فتولى كفالتها زكريا ـ عليه السلام ـ[1] .

فالضمير فى قوله ﴿ لَدَيْهِمْ ﴾ يعود على المتنازعين فى كفالة مريم لأن السياق قد دل عليهم .

والمقصود من هذه الجملة الكريمة ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ ﴾ إلخ تحقيق كون الإخبار بما ذكر إنما هو عن وحى من الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ لأن الرسول ﷺ لم يكن معاصرا لهؤلاء الذين تحدث القرآن عنهم ، ولم يقرأ أخبارهم فى كتاب من الكتب ، مع ذلك فقد أخبر النبى ﷺ أهل الكتاب وغيرهم بالحق الذى لايستطيعون تكذيبه إلا على سبيل الحسد والجحود فثبت أن القرآن من عند الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قالته الملائكة لمريم على سبيل تبشيرها بعيسى ـ عليه السلام ـ فقال ـ تعالى ـ : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ .

أى : اذكر وقت أن قالت الملائكة لمريم ، يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه ، أى : يبشرك بمولود يحصل بكلمة منه ـ سبحانه ـ ، وسمى هذا المولود كلمة لأنه وجد بكلمة كن فهو من باب إطلاق السبب على المسبب .

والمراد أنه وجد من غير واسطة أب ، لأن غيره ـ وإن وجد بتلك الكلمة ـ لكنه بواسطة أب ، أى أنه ـ سبحانه ـ إذا كان قد خلق الناس بطريق التناسل من ذكر وأنثى وأخرج الأولاد من أصلاب الآباء ، فإن عيسى ـ عليه السلام ـ لم يكن كذلك ، بل خلقه الله ـ تعالى ـ خلقا آخر ، خلقه ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ وهى «كن» فكان كما أراده الله و«من» فى قوله «منه» لابتداء الغاية والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة أى : لكلمة كائنة منه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٥٧ بتصرف يسير .

فالمراد بقوله «كلمة» أى يبشر بولد حى يسرى عليه حكم الأحياء اسمه المسيح عيسى ابن مريم وعلى هذا التأويل سار كثير من المفسرين .

ورجح ابن جرير أن معنى ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ ببشرى منه ـ سبحانه ـ فقد قال : وقوله يعنى برسالة من الله وخير من عنده وهو من قول القائل : ألقى إلى فلان كلمة سرنى بها بمعنى خبرا فرحت به ، فتأويل الكلام : وما كنت يا محمد عند القوم إذ قالت الملائكة لمريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده ، هى ولدك اسمه المسيح عيسى ابن مريم» .[1]

وعلى كلا التأويلين ففى التعبير عن عيسى ـ عليه السلام ـ بأنه كلمة من الله تكريم له وتشريف ، وقوله ﴿ اسْمُهُ الْمَسِيحُ ﴾ مبتدأ وخبر ، والجملة نعت ، والضمير فى قوله ﴿ اسْمُهُ ﴾ يعود إلى كلمة ، وجاء مذكرا رعاية للمعنى لأننا سبق أن بينا أن المراد بها عند كثير من المفسرين الولد .

والمسيح : لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق ، وأصله مشيحا بالعبرانية ومعناه المبارك، وقد حكى الله ـ تعالى ـ أنه قال عن نفسه ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ وقيل : المسيح فعيل بمعنى فاعل ، للمبالغة فى مسحه الأرض بالسياحة للعبادة : أو مسحه ذا العاهة ليبرأ ، أو بمعنى مفعول أى ممسوح لأن الله مسحه بالطهر من الذنوب .

وعيسى : اسم لهذا الاسم الكريم ، وهو اسم ينبئ عن البياض والصفاء والنقاء .

قال الراغب : عيسى اسم علم ، وإذا جعل عربيا أمكن أن يكون من قولهم بعيرا عيسى وناقة عيساء وجمعها عيس وهى إبل بيض يعترى بياضها بعض الظلمة .[2]

أى فيها اغبرار قليل يعطى بياضها صفاء ونقاء وجمالا .

وابن مريم : هو كنيته ، وهى للإشارة إلى أن نسبه ثابت لأمه لا لأحد سواها وليس ابنا لله ـ تعالى ـ كما قال الضالون .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قيل عيسى ابن مريم والخطاب لمريم؟ قلت : لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات ، فأعلمت بنسبه إليها أنه يولد من غير أب فلاينسب إلا إلى أمه ، وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين : فإن قلت لم ذكر ضمير الكلمة ، قلت لأن المسمى بها مذكر ، فإن قلت : لم قيل اسمه المسيح عيسى ابن

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٣ ص ٢٦٩ .

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ٣٥٣ .

مريم وهذه ثلاثة أشياء : الاسم منها عيسى وأما المسيح والابن فلقب وصفة؟ قلت : الاسم المسمى علامة يعرف بها ويتميز من غيره ، فكأنه قيل : الذى يعرف به ويتميز ممن سواه مجموع هذه الثلاثة» .[1]

والمعنى الإجمالى للجملة الكريمة : اذكر يا محمد وقت أن قالت الملائكة لمريم : يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه أى بمولود يحصل بكلمة منه بلا واسطة أب ، هذا المولود العجيب اسمه الذى يميزه لقبا المسيح ويميزه علما عيسى ويميزه كنية ابن مريم .

فأنت ترى أنه ـ سبحانه ـ قد عرف هذا المولود العظيم بتعريف واحد جمع ثلاثة أمور كل واحد منها يشير إلى معنى كريم قد تحقق فى هذا النبى العظيم ومجموع هذه الأمور لايشاركه فيها أحد من البشر .

ثم بعد ذلك وصفه ـ سبحانه ـ بأربعة أوصاف تدل على فضله وعلو منزلته فقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

أما الصفة الأولى فهى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ أى ذا جاه وشرف ومنزلة عالية ، يقال وجه الرجل يوجه ـ من باب ظرف ـ وجاهة فهو وجيه إذا صارت له منزلة رفعية عند الناس ، واشتقاقه من الوجه لأنه أشرف الأعضاء ولأنه هو الذى يواجه الإنسان به غيره .

وعيسى ـ عليه السلام ـ شهد الله ـ تعالى ـ له ـ وكفى بالله شهيدا ـ شهد له بالوجاهة وسمو المنزلة فى الدنيا والآخرة لما له من آثار عظيمة فى هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ودعوتهم إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق ، وإقامة التوراة بعد أن اختلفوا فيها .

والصفة الثانية من صفاته أنه ﴿ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أى أنه من المقربين عند الله ـ تعالى ـ ويا لها من صفة عظيمة هى منتهى ما تتطلع إليه النفوس وتهفو القلوب .

وأما الصفة الثالثة من صفات عيسى ـ عليه السلام ـ فهى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ وهذه الجملة معطوفة على قوله ﴿ وَجِيهًا ﴾ وعطف الفعل على الاسم لتأويله به جائز والتقدير : وجيها ومكلما ، والمهد اسم لمضجع الطفل ، أى المكان الذى يهيأ له وهو فى الرضاعة ، والكهل : هو الشخص الذى اجتمعت قوته وكمل شبابه ، وهو مأخوذ من قول العرب : اكتهل النبات إذا قوى وتم .

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٣٦٣ .

والمراد أن عيسى ـ عليه السلام ـ يكلم الناس فى حال كونه صغيرا قبل أوان الكلام ، كما يكلمهم فى حال كهولته ، واكتمال شبابه ، فهو ـ عليه السلام ـ يكلمهم بكلام الأنبياء من غير تفاوت بين حالتى الطفولة والكهولة ، وذلك إحدى معجزاته ـ عليه السلام ـ وقد حكى القرآن فى سورة مريم ما تكلم به عيسى ـ عليه السلام ـ وهو طفل صغير فقال ـ تعالى :

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ .

أما الصفة الرابعة من صفاته ـ عليه السلام ـ فهى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى من عباد الله الصالحين لحمل رسالته وتبليغها للناس ، أو من الذين يصلحون ولايفسدون ويطيعون الله ـ تعالى ـ ولايعصونه ، قالوا : ولا رتبة أعظم من كون المرء صالحا لأنه لايكون كذلك إلا إذا كان فى جميع الأفعال ، والتروك مواظبا على المنهج الأصلح وذلك يتناول جميع المقامات فى الدين والدنيا ، فى أفعال القلوب وفى أفعال الجوارح ، ولذا قال سليمان ـ عليه السلام ـ بعد النبوة ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ فلما عدد ـ سبحانه ـ صفات عيسى أردفها بهذا الوصف الدال على أرفع الدرجات» .[(١)]

تلك هى البشارات التى بشرت بها الملائكة مريم ، وتلك هى بعض صفات مولودها فماذا كان موقفها من ذلك؟ .

لقد حكى القرآن أن موقفها كان يدل على بالغ عجبها ، وشدة تأثرها فقال ـ تعالى ـ ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ .

أى : قالت مريم على سبيل التعجب والاستغراب : يارب كيف يكون لى ولد والحال أنى لم يمسسنى بشر ، أى لست بذات زوج ، ولم يحصل منى قط مايكون بين الرجل والمرأة مما يسبب عنه وجود الولد .

والجملة الكريمة مستأنفة استئنافا بيانيا كأنه قيل : فماذا كان منها بعد أن قالت لها الملائكة ذلك؟ فكان الجواب : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ ﴾ . . . إلخ .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص ٢٧٢ .

وصدرت إجابتها بالنداء لله - تعالى - للإشعار بكمال تسليمها للقدرة الإلهية وأن استغرابها وتعجبها إنما هو من الكيفية لا إنكارا لقدرة الله - تعالى - وجملة ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ حالية محققة لما مر ومقوية له .

والمسيس يحتمل أن يكون كناية عن المباشرة التى تقع بين الرجل والمرأة والتى يترتب عليها وجود النسل إذا شاء الله ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد به حقيقته وهو أنها لم يلمسها رجل ، لأنها كانت معتكفة فى بيت الله ومنصرفة لعبادته ، ولم يلمس جسمها رجل من غير محارمها قط ، وبذلك ينتفى بالأولى ماهو أبلغ من مجرد اللمس ، فموضع عجبها واستنكارها إنما هو وجود ولد منها مع أنها لم يمسسها بشر .

وهنا يحكى القرآن أن الله - تعالى - قد أزال عجبها واستنكارها بقوله :

﴿ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ .

أى قال الله - تعالى - لها بلا واسطة أو بواسطة ملائكته : كهذا الخلق الذى تجدينه ، بأن يكون لك ولد من غير أن يمسسك بشر وهو إبداع ، يخلق الله - تعالى - ويبدع مايشاء ويريد إبداعه لاراد لمشيئته ولامعقب لحكمه .

وبعضهم يجعل الوقوف على ﴿ كَذَلِكِ ﴾ فتكون خبرا لمبتدأ محذوف أى : قال - سبحانه - فى إجابته على مريم : الأمر كذلك أى يأتى الولد منك على الحالة التى أنت عليها لأن الله - تعالى - يخلق مايشاء أن يخلقه بدون احتياج إلى وجود الأسباب والمسببات لأنه هو خالقه وخالق كل شىء ولايعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وصرح ههنا بقوله : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ ولم يقل «يفعل» كما فى قصة زكريا ، لما أن ولادة العذراء من غير أن يمسسها بشر أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ كبير ، فكان الخلق المنبئ عن الاختراع أنسب بهذا المقام عن مطلق الفعل .

ثم أكد - سبحانه - عظيم قدرته ونفاذ إرادته بقوله : ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

وقضى هنا بمعنى أراد ، أى : إذا أراد - سبحانه - شيئا ، فإنما يقول لهذا الشىء : كن فيكون من غير تأخر ومن غير وجود أسباب ، فهو كقوله - تعالى - ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ أى : إنما نأمره مرة واحدة لاتثنية فيها فيكون ذلك الشىء سريعا كلمح البصر .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حكت لنا بعض البشارات التى بشرت بها الملائكة مريم وبعض الصفات التى وصف الله - تعالى - بها عيسى ، وبينت جانبا من مظاهر قدرة الله - تعالى - ونفاذ إرادته ، وفى ذلك مافيه من العظات والعبر لأولى الألباب .

ثم واصل القرآن حديثه عن صفات عيسى - عليه السلام - وعن معجزاته فقال - تعالى - :

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

فأنت ترى فى هذه الآيات الكريمة بيانا حكيما عن طبيعة رسالة عيسى - عليه السلام - وعن معجزاته التى أكرمه الله - تعالى - بها .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾ معطوف على ﴿ يُبَشِّرُكِ ﴾ أى : يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه ، وإن الله يعلم ذلك المولود - المعبر عنه بالكلمة - ﴿ الْكِتَابَ ﴾ ، وقرأ بعضهم ونعلمه الكتاب ، وعلى هذه القراءة تكون هذه الجملة معمولة لقول محذوف من كلام الملائكة ، أى : ويقول - الله تعالى - ونعلمه ، وتكون فى المعنى معطوفة على الحال وهى قوله «وجيها» فكأنه قال وجيها ومعلما .

وعلى كلتا القراءتين يجوز أن تكون الجملة مستأنفة سيقت تطييبا لقلب مريم ، وإراحة لما أهمها من خوف الملامة حين علمت أنها تلد من غير أن يمسها بشر .

ولقد حكى القرآن الكريم عنها في سورة مريم قولها بتحسر وألم عندما جاءها المخاض ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ .

والمراد بالكتاب الكتابة والخط ، فإن عيسى - عليه السلام - قد بعثه الله - تعالى - فى أمة ارتفعت فيها ألوان العلم والمعرفة فأكرمه الله بأن جعله يفوق غيره فى هذه النواحى ، وقيل المراد بالكتاب جنس الكتب الإلهية .

قال الفخر الرازى : «والأقرب عندى أن يقال : المراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة ، ثم المراد بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق ، لأن كمال الإنسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ومجموعها هو المسمى بالحكمة ، ثم بعد أن صار عالما بالخط والكتابة ومحيطا بالعلوم العقلية والشرعية يعلمه التوراة ، وإنما أخر تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة ، لأن التوراة كتاب إلهى فيه أسرار الكتب الإلهية ، ثم قال فى المرتبة الرابعة والإنجيل ، وإنما أُخر ذكر الإنجيل عن التوراة لأن من تعلم الخط ، ثم تعلم علوم الحق ، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذى نزل على من قبله من الأنبياء فقد عظمت درجته فى العلم فإذا أنزل الله عليه بعد ذلك كتابا آخر وأوقفه على أسراره فذلك هو العناية القصوى والمرتبة العليا فى العلم والفهم والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية ، والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية»[1] .

وبعد أن أشار - سبحانه - إلى علم الرسالة التى هيأ لها عيسى - عليه السلام - عقب ذلك ببيان القوم الذين أرسل إليهم فقال - تعالى - : أى أن الله - تعالى - سيجعل عيسى - عليه السلام - رسولا إلى بنى إسرائيل لكى يهديهم إلى الصراط المستقيم ، ولكى يبشرهم برسول يأتى من بعده هو خاتم الأنبياء والمرسلين ألا وهو محمد ﷺ .

وخص بنى إسرائيل بالذكر مع أن رسالة عيسى كانت إليهم وإلى من علمها من الرومان : لأن بنى إسرائيل خرج عيسى من بينهم فهو منهم ، ولأنهم هم الذين كانوا يدعون أنهم أولى الناس بعلم الرسائل الإلهية ، وكانت دعوته بينهم وانبعثت منهم إلى غيرهم ، فكان تخصيصهم بالذكر فيه إشارة إلى حقيقة واقعة وفيه توبيخ لهم ، لأنهم أوتوا العلم برسالات الأنبياء ومع ذلك فقد كفر كثير منهم بعيسى وبغيره من رسل الله ، بل لم يكتفوا بالكفر وإنما آذوا أولئك الرسل الكرام وقتلوا فريقا منهم .

وقوله : ﴿ وَرَسُولاً ﴾ منصوب بمضمر يقود إليه المعنى ، معطوف على ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ﴾ أى يعلمه ويجعله رسولا إلى بنى إسرائيل .

---
(١) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص ٥٧ .

وقوله : ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ معمول لقوله ﴿ وَرَسُولاً ﴾ بما فيه من معنى النطق ، كأنه قيل : ورسولا ناطقا بأنى قد جئتكم يا بنى إسرائيل بآية من ربكم .

والباء للملابسة وهى مع مدخولها فى محل الحال وقوله ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ متعلق بمحذوف صفة لآية ، والمراد بالآية هنا المعجزات التى أكرمه الله بها .

أى : أن الله ـ تعالى ـ قد علم عيسى ـ عليه السلام ـ الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعله رسولا إلى بنى إسرائيل مخبرا إياهم بأنى رسول الله إليكم حال كونى ملتبسا مجيئى بالمعجزات الدالة على صدقى ، وهذه المعجزات ليست من عندى وإنما هى من عند ربكم .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ خمسة أنواع من معجزات عيسى ـ عليه السلام ـ أما المعجزة الأولى فعبر عنها بقوله : ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

والمعنى أن عيسى ـ عليه السلام ـ قد حكى الله عنه أنه قال لبنى إسرائيل : لقد أرسلنى الله إليكم لأبلغكم دعوته ، ولآمركم بإخلاص العبادة له ، وقد أعطانى ـ سبحانه ـ من المعجزات ما يقنعكم بصدقى فيما أبلغه عن ربى ، ومن بين هذه المعجزات أنى أقدر على أن أصور لكم من الطين شيئا صورته مثل صورة الطير ، فأنفخ فى ذلك الشىء المماثل لهيئة الطير فيكون طيرا حقيقيا ذا حياة بإذن الله أى بأمره وإرادته .

فأنت ترى أن الجملة الكريمة قد اشتملت على ثلاثة أعمال : ثنتان منهما لعيسى وهما تصوير الطين كهيئة الطير ثم النفخ فيه ، أما الثالث فهو من صنع الله ـ تعالى ـ وحده ألا وهو خلق الحياة فى هذه الصورة التى صورها عيسى ونفخ فيها ، ولذا حكى الله ـ تعالى ـ عنه قال : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

أى : أنى ما فعلت الذى فعلته إلا بإذن الله وأمره وإرادته وتيسيره ، واللام فى قوله ﴿ لَكُم ﴾ للتعليل أى : أصور لأجل هدايتكم وتصديقكم بى .

والكاف فى قوله : ﴿ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ بمعنى مثل وهى نعت لمفعول محذوف أى أخلق شيئا مثل هيئة الطير ، والهيئة هى الصورة والكيفية .

والضمير فى قوله : ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ ﴾ يعود إلى هذا المفعول المحذوف .

وقوله : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ متعلق بيكون وجىء به لإظهار العبودية ، ونفى توهم أن يكون عيسى أو غيره شريكا لله فى خلق الكائنات .

وأما النوع الثانى والثالث والرابع من المعجزات فقد حكاه القرآن فى قوله - تعالى - ﴿ وأُبْرِئُ﴾ أى : أشفى يقال : برأ المريض يبرأ أو يبرؤ برءا وبروءا إذا شفى من مرضه .

﴿ الأَكْمَهَ﴾ : هو الذى يولد أعمى ، يقال كمه كمها إذا ولد أعمى ، فهو أكمه وامرأة كمهاء .

﴿ وَالأَبْرَصَ﴾ : هو الذى يكون فى جلده بياض مشوب بحمرة وهو مرض من الأمراض المنفرة التى عجز الأطباء عن شفائها .

والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قال لقومه : والمعجزات التى تدل على صدقى أن أشفى وأعيد الإبصار إلى من ولد أعمى ، وأعيد الشفاء إلى من أصيب بمرض البرص ، وأعيد الحياة إلى من مات ، ولا أفعل كل ذلك بقدرتى وعلمى وإنما أفعله بإذن الله وبإرادته وأمره .

وخص إبراء الأكمه والأبرص بالذكر لأنهما مرضان عضالان لم يصل الطب إلى الآن إلى طريق للشفاء منهما فإذا أجرى الله - تعالى - على يد عيسى الشفاء منهما كان ذلك دليلا على أن من وراء الأسباب والمسببات خالقا مختارا لا يعجزه شىء وعلى أن الأسباب ليست مؤثرة بذاتها فى الإيجاد أو الإعدام وإنما المؤثر هو الله - تعالى - .

وقوله : ﴿ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ من الصعب إلى الأصعب ، لأن مما لاشك فيه أن إحياء الموتى حادث عظيم ، يدل دلالة قاطعة على أن الأسباب العادية ليست هى المؤثرة وإنما الخالق المكون هو المؤثر وأن الأشياء لم تخلق بالعلية - كما يقول الماديون - وإنما خلقت بالإرادة المختارة والقدرة المبدعة المنشئة المكونة ، وهى إرادة خالق الكون وقدرته سبحانه .

وقيد مايقوم به من إبراء وإحياء بأنه بإذن الله : للتنبيه على أن ما يفعله من خوارق إنما هو بأمر الله وتيسيره وإرادته .

وقد ذكر المفسرون أن إبراء عيسى للأكمه والأبرص وإحياءه للموتى كان عن طريق الدعاء ، وكان دعاؤه يا حى ياقيوم ، وذكروا من بين من أحياهم سام ابن نوح .[1]

قال ابن كثير : بعث الله كل نبى بمعجزة تناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام ، وأما عيسى فبعث فى زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات ، بما لاسبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدا من الذى شرع الشريعة فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه والأبرص؟ وكذلك محمد ﷺ بعث فى زمان الفصحاء والبلغاء وتجاويد الشعراء

---

(١) تفسير الألوسى جـ٣ ص ١٦٩ .

فأتاهم بكتاب من الله لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله ما استطاعوا أبدا وما ذاك إلا أن كلام الرب لايشبه كلام الخلق.[1]

أما المعجزة الخامسة فقد حكاها القرآن فى قوله - تعالى - :

﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَأُنَبِّئُكُم ﴾ من الإنباء وهو الإخبار بالخبر العظيم الشأن .

وقوله : ﴿ تَدَّخِرُونَ ﴾ من الادخار وهو إعداد الشىء لوقت الحاجة إليه ، يقال : دخرته وادخرته ، إذا أعددته للعقبى ، وأصله «تذتخرون» بالذال المعجمة ، من اذتخر الشىء - بوزن افتعل - فأبدلت التاء ذالا ثم أبدلت الذال دالا وأدغمتا .

والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قد قال لقومه بنى إسرائيل : وإن من معجزاتى التى تدل على صدقى فيما أبلغه عن ربى أنى أخبركم بالشىء الذى تأكلونه وبالشىء الذى تخبئونه فى بيوتكم لوقت حاجتكم إليه .

قال القرطبى : وذلك أنه لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى ، وقالوا : أخبرنا بما نأكل فى بيوتنا وما ندخر للغد ، فأخبرهم فقال : يافلان أنت أكلت كذا وكذا ، وأنت أكلت كذا وكذا ، وادخرت كذا وكذا فذلك قوله : ﴿ وَأُنَبِّئُكُم ﴾[2] .

و«ما» فى الموضعين موصولة ، أو نكرة موصوفة والعائد محذوف أى بما تأكلونه وتدخرونه .

ولاشك أن إخبار عيسى - عليه السلام - لقومه بالشىء الذى يأكلونه وبالشىء الذى يدخرونه يدل على صدقه ، لأن هذا الإخبار الغيبى بما لم يعاينه دليل على أن الله - تعالى - قد أعطاه علم ما أخبر به .

ثم ختم الله - تعالى - هذه الآية بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

أى : إن فى ذلك المذكور من المعجزات التى أجراها الله - تعالى - على يد عيسى - عليه السلام - لدلالة واضحة وعلامة بينة تشهد بصدقه فيما يبلغه عن ربه ، إن كنتم يا بنى إسرائيل ممن يصدق بآيات الله ويذعن لها .

فاسم الإشارة ﴿ ذَلِكَ ﴾ يعود إلى ما سبق ذكره من معجزات عيسى - عليه السلام - وجواب الشرط محذوف والتقدير : إن كنتم مؤمنين انتفعتم بهذه الآيات وأذعنتم للحق الذى جئتكم به من عند الله .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٦٥ بتلخيص يسير .

(٢) تفسير القرطبى جـ٤ ص ٩٥ .

وبعد أن حكى القرآن المعجزات الباهرة التى أيد الله بها عيسى - عليه السلام - عقب ذلك بالإشارة إلى طبيعة رسالته فقال - تعالى - ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ عطف على المضمر الذى تعلق به قوله تعالى ﴿ بِآيَةٍ ﴾ أى قد جئتكم محتجا أو ملتبسا بآية من ربكم ، ومصدقا لما بين يدى ، وجوز أن يكون منصوبا بفعل دل عليه «قد جئتكم» أى وجئتكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومعنى تصديقه - عليه السلام - للتوراة الإيمان بأن جميع ما فيها حكمة وصواب ، وأن كتابه يدعو إلى الإيمان بها .

والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قال لبنى إسرائيل : إن الله - تعالى - قد أرسلنى إليكم لهدايتكم وقد جئتكم بالمعجزات التى تثبت صدقى ، وجئتكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ، أى مقررا لها ومؤمنا بها .

ومعنى مابين يدى ماتقدم قبلى : لأن المتقدم السابق يمشى بين يدى الجائى فهو هنا تمثيل لحالة السبق ، وإن كان بين عيسى - عليه السلام - وبين نزول التوراة أزمنة طويلة لأنها لما اتصل العمل بها إلى مجيئه فكأنها لم تسبقه بزمن طويل ويستعمل بين يدى كذا فى معنى الحاضر المشاهد كما فى قوله - تعالى - ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ معمول لمقدر بعد الواو ، أى : وجئتكم لأحل لكم بعض الأشياء التى كانت محرمة عليكم فى شريعة موسى - عليه السلام - فهو من عطف الجملة على الجملة .

أى أن شريعة عيسى جاءت متممة لشريعة موسى وناسخة لبعض أحكامها ، فلقد حرم الله - تعالى - على بنى إسرائيل بعض الطيبات بسبب ظلمهم وبغيهم كما جاء فى قوله - تعالى - ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ .. ﴾ فجاءت شريعة عيسى - عليه السلام - لتحل لهم بعض ما حرمه الله عليهم بسبب ظلمهم وفجورهم .

قال ابن كثير : فيه دلالة على أن عيسى - عليه السلام - نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين ، ومن العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئا ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطئوا فكشف لهم عن خطئهم كما قال فى الآية ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ [1]

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣٦٥ .

قالوا : ومن الأطعمة التى أحلها عيسى لبنى إسرائيل بعد أن كانت محرمة عليهم فى شريعة موسى : لحوم الإبل والشحوم وبعض الأسماك والطيور .[1]

وقوله : ﴿ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ تحريض لهم على الاستجابة لما يدعوهم إليه .

قال الفخر الرازى «وإنما أعاد قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ لأن إخراج الإنسان عن المألوف المعتاد من قديم الزمان عسر ، فأعاد ذكر المعجزات ليكون كلامه ناجعا فى قلوبهم ومؤثرا فى طباعهم ، ثم خوفهم فقال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ لأن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله فبين أنه إذا لزمكم أن تتقوا الله لزمكم أن تطيعونى فيما آمركم عن ربى .[2]

ثم حكى القرآن أن عيسى ـ عليه السلام ـ قد قرر أن هذه المعجزات الباهرة لن تخرجه عن أن يكون عبدا لله مخلوقا له ، وأن من الواجب على الناس أن يعبدوا الله وحده ولايشركوا به شيئا فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أى : قال عيسى ـ عليه السلام ـ داعيا قومه إلى عبادة الله ـ تعالى ـ هو الذى خلقنى وخلقكم وهو الذى ربانى ورباكم ، ومادام الأمر كذلك فأخلصوا له العبادة فإن عبادته ـ سبحانه ـ وطاعته هى الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ولا التباس .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت لنا بعض المعجزات التى أكرم الله بها عيسى ـ عليه السلام ـ كما حكت لنا بعض التوجيهات القويمة ، والإرشادات الحكيمة التى نصح بها قومه لكى يسعدوا فى دنياهم وآخرتهم .

وفى سورة «المائدة» آية تحدثت عن جانب من الفضائل والمعجزات التى أيد الله ـ تعالى ـ بها عبده ورسوله عيسى ـ عليه السلام ـ وهذه الآية هى قوله ـ تعالى ـ :

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٣ ص١٧١ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص٦٣ .

﴿الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

والمعنى : اذكر أيها المخاطب لتعتبر وتتعظ قوله ـ سبحانه ـ لعيسى ابن مريم : تذكر يا عيسى نعمى المتعددة عليك وعلى والدتك .

وعبر بالماضى فى قوله : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ مع أن هذا القول سيكون فى الآخرة ، للدلالة على تحقيق الوقوع ، وأن هذا القول سيحصل بلا أدنى ريب يوم القيامة .

والمراد بالنعمة فى قوله : ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي﴾ النعم المتعددة التى أنعم بها ـ سبحانه ـ على عيسى وعلى والدته مريم حيث طهرها من كل ريبة ، واصطفاها على نساء العالمين .

وفى ندائه ـ سبحانه ـ لعيسى بقوله ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ إشارة إلى أنه ابن لها وليس لأحد سواها ، فقد ولد من غير أب ، ومن كان شأنه كذلك لايصلح أن يكون إلها ، لأن الإله الحق لايمكن أن يكون مولودا أو محدثا .

وقوله : ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ تعديد للنعم التى أنعم الله ـ تعالى ـ بها على عيسى .

وقوله : ﴿أَيَّدتُّكَ﴾ أى قويتك من التأييد بمعنى التقوية .

والمراد بروح القدس : جبريل ـ عليه السلام ـ فإن من وظيفته أن يؤيد الله به رسله بالتعليم الإلهى ، وبالتثبيت فى المواطن التى من شأن البشر أن يضعفوا فيها .

وقيل : ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ المراد روح عيسى حيث أيده ـ سبحانه ـ بطبيعة روحانية مطهرة فى وقت سادت فيه المادية وسيطرت .

أى : أيدتك بروح الطهارة والنزاهة والكمال ، فكنت متسما بهذه الروح الطاهرة من كل سوء .

والمهد : سن الطفولة والصبا ـ والكهولة : السن التى يكون فى أعقاب سن الشباب .

والمعنى : اذكر يا عيسى نعمى عليك وعلى والدتك ، وقت أن قويتك بروح القدس الذى تقوم به حجتك ، ووقت أن جعلتك تكلم الناس فى طفولتك بكلام حكيم لايختلف عن كلامك معهم فى حال كهولتك واكتمال رجولتك .

وذكر ـ سبحانه ـ كلامه فى حال الكهولة ـ مع أن الكلام فى هذه الحالة معهود فى الناس ـ للإيذان بأن كلامه فى هاتين الحالتين ـ المهد والكهولة ـ كان على نسق واحد بديع صادر عن كمال العقل والتدبير ، دون أن يكون هناك فرق بين حالة الضعف وحالة القوة .

قال الرازى : وهذه خاصية شريفة كانت حاصلة له ، وما حصلت لأحد من الأنبياء قبله ولا بعده .

وقال ابن كثير : قوله : ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾ أى فى خلقى إياك من أم بلا ذكر ، وجعلى إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتى ﴿ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴾ حيث جعلتك لها برهانا على براءتها مما نسبه الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة و ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ وهو جبريل ، وجعلتك نبيا داعيا إلى الله فى صغرك وكبرك ، فأنطقتك فى المهد صغيرا : فشهدت ببراءة أمك من كل عيب ، واعترفت لى بالعبودية ، وأخبرت عن رسالتى إياك ودعوتك إلى عبادتى ولهذا قال : ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ أى : تدعو إلى الله الناس فى صغرك وكبرك ، وضمن ﴿ تُكَلِّمُ ﴾ معنى تدعو ، لأن كلامه الناس فى كهولته ليس بأمر عجيب .[1]

وقوله : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ بيان لنعمة أخرى من النعم التى أنعم بها ـ سبحانه ـ على عيسى .

والمراد بالكتاب : الكتابة ، أى أن عيسى ـ عليه السلام ـ لم يكن أميا بل كان قارئا وكاتبا ، وقيل المراد به ما سبقه من كتب النبيين كزبور داود ، وصحف إبراهيم ، وأخبار الأنبياء الذين جاءوا من قبله .

والمراد بالحكمة : الفهم العميق للعلوم مع العمل بما فهمه وإرشاد الغير إليه .

أى واذكر وقت أن علمتك الكتابة حتى تستطيع أن تتحدى من يعرفونها من قومك ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١١٥ .

ووقت أن علمتك ﴿ الْحِكْمَةَ ﴾ بحيث تفهم أسرار العلوم فهما سليما تفوق به غيرك ، كما علمتك أحكام الكتاب الذى أنزلته على أخيك موسى وهو التوراة وأحكام الكتاب الذى أنزلته عليك وهو الإنجيل .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ بعض معجزات عيسى ، بعد أن بين بعض ما منحه من علم ومعرفة ، فقال : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ أى : واذكر وقت أن وفقتك لأن تخلق أى تصور من الطين صورة مماثلة لهيئة الطير ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا ﴾ أى فى تلك الهيئة المصورة ﴿ فَتَكُونُ ﴾ أى : فتصير تلك الهيئة المصورة ﴿ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ أى : تصير كذلك بقدرتى وإرادتى وأمرى .

ثم قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ ﴾ وهو الذى يولد أعمى ، وتبرئ كذلك ﴿ وَالأَبْرَصَ ﴾ وهو المريض بهذا المرض العضال ﴿ بِإِذْنِي ﴾ .

وقوله : ﴿ وَتُبْرِئُ ﴾ معطوف على ﴿ تَخْلُقُ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ ﴾ معطوف على قوله :﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ ﴾ .

أى : واذكر وقت أن جعلت من معجزاتك أن تخرج الموتى من القبور أحياء ينطقون ويتحركون ، وكل ذلك بإذنى ومشيئتى وإرادتى .

وقد ذكر المفسرون أن إبراء عيسى للأكمه والأبرص وإحياء الموتى كان عن طريق الدعاء ، وكان دعاؤه يا حى ياقيوم ، وذكروا من بين من أحياهم سام بن نوح .[(١)]

وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ بعض المعجزات التى أعطاها لعيسى لكى ينفع بها الناس ، أتبعها بذكر ما دفعه عنه من مضار فقال : ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ .

أى : واذكر نعمتى عليك وقت أن صرفت عنك اليهود الذين أرادوا بك السوء ، وسعوا فى قتلك وصلبك مع أنك قد بشرتهم وأنذرتهم وجئتهم بالمعجزات الواضحات التى تشهد بصدقك فى نبوتك .

وقوله : ﴿ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ تذييل قصد به ذمهم وتسجيل الحقد والجحود عليهم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢ ص١٦٩ .

أى : لقد أعطيناك يا عيسي ما أعطيناك من النعم والمعجزات لتكون دليلا ناطقا بصدقك ، وشاهدا يحمل الناس على الإيمان بنبوتك ، ولكن الكافرين من بنى إسرائيل الذين أرسلت إليهم لم يصدقوا ما جئتهم به من معجزات واضحات ، بل سارعوا إلى تكذيبك قائلين : ما هذا الذى جئتنا به يا عيسى إلا سحر ظاهر ، وتخييل بين .

وهكذا نرى أن الكافرين من بنى إسرائيل ، لم تزدهم البينات التى جاء بها عيسى إلا جحودا وعنادا ، وأن الله ـ تعالى ـ قد أكرم نبيه عيسى ابن مريم بكثير من الفضائل والمعجزات التى تدل على أنه صادق فيما يبلغه عن ربه ـ عز وجل ـ .

وقد كانت هذه المعجزات مناسبة تامة للعصر الذى ظهر فيه عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ فقد كان الطب فى هذا العصر قد وصل إلى درجة عظيمة من الرقى والتقدم ، فكان من المناسب أن تكون معجزة عيسى ـ عليه السلام ـ تتعلق بالطب عن طريق إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ـ بإذن الله ـ .

كما أن معجزة موسى ـ عليه السلام ـ كانت مناسبة لعصره ، فقد كان السحر هو أشهر حرفة فى زمانه ، لدرجة أن موسى ـ عليه السلام ـ عندما ألقى السحرة عصيهم خيل إليه من قوة سحرهم أنها تسعى ، فكانت معجزته أن ألقى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون .

أما معجزة خاتم الرسل محمد ﷺ فكانت القرآن الذى أعجز الفصحاء والبلغاء عن أن يأتوا بسورة من مثله ، مع أنهم كانوا هم أساتذة الشعر والبيان .

وهكذا نرى أن حكمة الله قد اقتضت أن تكون معجزة كل نبى من جنس ما برع فيه قومه لتكون دليلا واضحا على أنه صادق فيما يبلغه عن ربه ـ عز وجل ـ .

القول الحق فى شأن عيسى ـ عليه السلام ـ وتبرؤه مما قاله الضالون فى شأنه

تحدث القرآن فى آيات متعددة عن عيسى ـ عليه السلام ـ من حيث إنه نبى من أنبياء الله الذين أرسلهم ـ سبحانه ـ لدعوة بنى إسرائيل إلى إخلاص العبادة لخالقهم ـ عز وجل ـ وإلى التحلى بمكارم الأخلاق ، ومن حيث إنه عبد من عباد الله الصالحين ، كما قال ـ سبحانه ـ فى شأنه : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ .

ومن الآيات القرآنية التى أكدت هذه الحقيقة وهى أن عيسى ـ عليه السلام ـ رسول من رب العالمين ، وعبد من عباده الصالحين ، قوله ـ تعالى ـ :

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ اسم الإشارة فيه وهو «ذلك» مشار به إلى المذكور من قصة آل عمران وقصة مريم وأمها ، وقصة زكريا وندائه لربه ، وقصة عيسى وما أجراه الله ـ تعالى ـ على يديه من معجزات وما خصه به من كرامات .

أى ذلك القصص الحكيم الذى قصصناه عليك يا محمد ﴿ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ ﴾ أى : نقصه عليك متتابعا بعضه تلو بعض من غير أن يكون لك اطلاع سابق عليه ، فأنت لم تكن معاصرا لهؤلاء الذين ذكرنا لك قصصهم وأحوالهم وهذا من أكبر الأدلة على صدقك فيما تبلغه عن ربك .

والمراد بالآيات الحجج الدالة على صدق النبى ﷺ وقوله : ﴿ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ أى والقرآن المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والمشتمل على الحكم التى من شأنها أن تهدى الناس إلى ما يسعدهم متى اتبعوها وقيل المراد بالذكر الحكيم اللوح المحفوظ الذى نقلت منه جميع الكتب المنزلة على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

ثم بين - سبحانه - أن خلق عيسى من غير أب ليس مستبعدا على الله - تعالى - فقد خلق آدم كذلك فقال : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

والمثل هنا : بمعنى الصفة والحال العجيبة الشأن ، ومحل التمثيل كون كليهما قد خلق بدون أب ، والشىء قد يشبه بالشىء متى اجتمعا ولو فى وصف واحد .

والمعنى : إن شأن عيسى وحاله الغريبة ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ أى : فى تقديره وحكمه ﴿ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ أى كصفته وحاله العجيبة فى أن كليهما قد خلقه الله - تعالى - من غير أب ، ويزيد آدم على عيسى أنه خلق بدون أم - أيضا - .

فالآية الكريمة ترد ردا منطقيا حكيما يهدم زعم كل من قال بألوهية المسيح أو اعتبره ابن الله .

وكأن الآية الكريمة تقول لمن ادعى ألوهية عيسى لأنه خلق من غير أب : أنه إذا كان وجود عيسى بدون أب يسوغ لكم أن تجعلوه إلها أو ابن إله فأولى بذلك ثم أولى آدم لأنه خلق من غير أب ولا أم ، ومادام لم يَدَّعِ أحد من الناس ألوهية آدم لهذا السبب فبطل حينئذ القول بألوهية عيسى لانهيار الأساس الذى قام عليه وهو خلقه من غير أب .

ولأنه إذا كان الله - تعالى - قادرا على أن يخلق إنسانا بدون أب ولا أم فأولى ثم أولى أن يكون قادرا على خلق إنسان من غير أب فقط ، ومن أم هى مريم التى تولاها - سبحانه - برعايته وصيانته لها من كل سوء وجعلها وعاء لهذا النبى الكريم عيسى - عليه السلام - .

قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾ جملة مفسرة لما له شبه عيسى بآدم - أى للأمر الذى لأجله كان ذلك التشبيه - أى خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا

أم وكذلك حال عيسى ، فإن قلت : كيف شبه به وقد وجد هو من غير أب ووجد آدم من غير أب وأم؟ قلت : هو مثيله فى أحد الطرفين ، فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لأن المماثلة مشاركة فى بعض الأوصاف ، ولأنه شبه به لأنه وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة وهما فى ذلك نظيران ، ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب ، فشبه الغريب بالأغرب ، ليكون أقطع للخصم ، وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيم هو أغرب مما استغربه .(١)

وقوله : ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ تصوير لخلق الله ـ تعالى ـ آدم من تراب أى أراد ـ سبحانه ـ أن يوجد آدم فصوره من طين ثم قال له حين صوره : كن بشرا فصار بشرا كاملا روحا وجسدا كما أمر ـ سبحانه ـ .

فالجملة الكريمة تصور نفاذ قدرة الله ، تصويرا بديعا يدل على أنه ـ سبحانه ـ لايعجزه شىء فى هذا الكون .

وعبر بصيغة المضارع المقترن بالفاء فى «يكون» دون الماضى بأن يقول «فكان» لأن التعبير بالمضارع فيه تصوير وإحضار للصورة الواقعة كما وقعت ، ومن وجهة أخرى فإن صيغة المضارع فى هذا المقام تنبئ عما كان ، وتومئ إلى ما يكون بالنسبة لخلق الله ـ تعالى ـ المستمر فى المستقبل كما كان فى الماضى .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن ما أخبر به عباده فى شأن عيسى وغيره هو الحق الذى لايحوم حوله باطل فقال ـ تعالى ـ ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ .

والامتراء هو الشك الذى يدفع الإنسان إلى المجادلة المبنية على الأوهام لا على الحقائق .

وهو ـ كما يقول الرازى ـ مأخوذ من قول العرب مريت الناقة والشاة إذا أردت حلبها فكأن الشاك يجتذب بشكه مراء كاللبن الذى يجتذب عند الحلب ، يقال : قد مارى فلان فلانا إذا جادله كأنه يستخرج غضبه .(٢)

والمعنى : هذا الذى أخبرناك عنه يامحمد من شأن عيسى ومن شأن غيره هو الحق الثابت اليقينى الذى لامجال للشك فيه ، ومادام الأمر كذلك فاثبت على ما أنت عليه من حق ، ولاتكونن من الشاكين فى أى شىء مما أخبرناك به .

وقد أكد ـ سبحانه ـ أن ما أوحاه إلى نبيه ﷺ هو الحق بثلاثة تأكيدات :

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٦٧ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص٨٠ .

أولها : بالتعريف فى كلمة ﴿الْحَقُّ﴾ أى ما أخبرناك به هو الحق الثابت الذى لا يخالطه باطل .

ثانيها : بكونه من عنده ـ سبحانه ـ وكل شىء من عنده فهو صدق لاريب فيه .

ثالثها : بالنهى عن الامتراء والشك فى ذلك الحق ، لأن من شأن الأمور الثابتة أن يتقبلها العقلاء بإذعان وتسليم وبدون جدل ، أو امتراء .

ثم لقن الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ الجواب الذى يقطع لسان المجادلين بالباطل فى شأن عيسى ـ عليه السلام ـ فقال تعالى : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ..﴾ ... إلخ .

والمعنى : فمن جادلك وخاصمك «يامحمد» من أهل الكتاب «فيه» أى : فى شأن عيسى ـ عليه السلام ـ بأن زعموا أنه إله أو ابن أو ثالث ثلاثة ، أو غير ذلك من الأقاويل الكاذبة فى شأنه .

وقوله : ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ..﴾ أى فمن جادلك فى شأن عيسى من بعد الذى أنزلناه إليك وقصصناه عليك فى أمره ، فلاتبادله المجادلة ، فإنه معاند لايقنعه الدليل مهما كان واضحا ، ولكن قل له ولأمثاله من الضالين : ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ .

وقوله : ﴿تَعَالَوْا﴾ اسم فعل أمر لطلب القدوم ، وهو فى الأصل أمر من تعالى يتعالى «كترامى يترامى» إذا قصد العلو ، فكأنهم أرادوا به فى الأصل أمرا بالصعود إلى مكان عالٍ تشريفا للمدعو ، ثم شاع حتى صار لمطلق الأمر بالقدوم أو الحضور .

وقوله : ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أى نتباهل ونتلاعن ، فالافتعال هنا بمعنى المفاعلة أى بأن نقول : بهلة الله على الكاذب منا ومنكم ، والبهلة بفتح الباء وضمها : اللعنة ، يقال بهله الله يبهله بهلا لعنه الله وأبعده من رحمته ثم شاعت فى كل دعاء مجتهد فيه وإن لم يكن التعانا .

والمعنى : فإن جادلك أهل الكتاب فى شأن عيسى من بعد أن أخبرك ربك بما هو الحق من أمره فقل لهم : ﴿تَعَالَوْا﴾ أى أقبلوا أيها المجادلون إلى أمر يعرف فيه الحق من الباطل ، وهو أن ندعو نحن وأنتم الأبناء والنساء ثم نجتمع جميعا فى مكان واحد ، ثم نتضرع إلى الله ونبتهل إليه بأن يجعل لعنته على الكاذبين فى دعواهم المنحرفين عن الحق فى اعتقادهم .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد لقنت النبى ﷺ الجواب الحاسم الذى يخرس ألسنة المجادلين فى عيسى ، ويتحداهم - إن كانوا صادقين - أن يقبلوا هذه المباهلة ، ولكنهم نكصوا على أعقابهم ، فثبت كذبهم وضلالهم .

وهذه الآية الكريمة تسمى بآية المباهلة ، وقد ذكر العلماء أنها نزلت للرد على نصارى نجران الذين جادلوا النبى ﷺ فى شأن عيسى - عليه السلام - .

قال ابن كثير ما ملخصه : وكان نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا فى وفد نصارى نجران حين قدموا المدينة فجعلوا يحاجون فى عيسى ويزعمون فيه مايزعمون من النبوة والألوهية فأنزل صدر هذه السورة ردا عليهم ، وكانوا ستين راكبا منهم ثلاثة إليهم يئول أمرهم وهم : العاقب أميرهم واسمه عبدالمسيح ، والسيد صاحب رحلهم واسمه الأيهم ، وأبو حارث بن علقمة أسقفهم وحبرهم ، وفى القصة أن النبى ﷺ لما أتاه الخبر من الله - تعالى - ، والفصل من القضاء بينه وبينهم وأمر بما أمر به من ملاعنتهم ، دعاهم إلى المباهلة فقالوا : يا أبا القاسم دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم خلوا بالعاقب فقالوا : ياعبدالمسيح ماذا ترى؟ فقال : والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدا لنبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيا قط ، فبقى كبيرهم ولانبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فأتوا النبى ﷺ وأقرهم على خراج يؤدونه إليه .

وروى الحافظ ابن مردويه عن جابر قال : قدم على النبى ﷺ العاقب والطيب فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على أن يلاعناه الغداة ، فقال : فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد على وفاطمة والحسن والحسين ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا وأقرا له بالخراج .

قال : قال رسول الله ﷺ : «والذى بعثنى بالحق لو لاعنا لأمطر عليهم الوادى نارا» .

ثم قال : وروى البخارى عن حذيفة قال : جاء العاقب والسيد صاحب نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه قال : فقال أحدهما لصاحبه : لاتفعل ، فوالله لئن كان نبيا فلاعناه لانفلح نحن ولاعقبنا من بعدنا ، ثم قالا للنبى ﷺ : إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلا أمينا ، فقال : «لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين» ، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح ، فلما قام قال ﷺ : «هذا أمين هذه الأمة» .(١)

وقال صاحب الكشاف : إن قلت ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه ، وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه فما معنى ضم الأبناء والنساء؟ .

قلت : ذلك آكد فى الدلالة على ثقته بحاله ، واستيقانه بصدقه حيث استجرأ على

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣٦٨ .

تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك ، ولم يقتصر على تعريض نفسه له وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة ، وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب ، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل ، ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن فى الحروب لتمنعهم من الهرب ، وفى الآية دليل واضح على صحة نبوة النبى ﷺ لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك .[1]

ثم أكد ـ سبحانه ـ صدق ما أخبر به عن عيسى وغيره فقال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

أى : إن الذى قصصناه عليك وأخبرناك به يا محمد من شأن عيسى ومن كل شأن من الشئون لهو القصص الثابت الذى لامجال فيه لإنكار منكر ، ولا لتشكيك متشكك .

وقد أكد ـ سبحانه ـ صدق هذا القصص بحرف إن وباللام فى قوله ﴿ لَهُوَ ﴾ وبضمير الفصل «هو» وبالقصر الذى تضمنه تعريف الطرفين وفى كل ما قصه على نبيه ﷺ .

وقوله : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ نفى قاطع لأن يكون هناك إله سوى الله ـ تعالى ـ وإثبات بأن الألوهية الحقة إنما هى لله رب العالمين .

وقد أكد ـ سبحانه ـ نفى الألوهية عن غيره بكلمة ﴿ مِنْ ﴾ المفيدة لاستغراق النفى استغراقا مستمرا ثابتا مؤكدا .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تذييل قصد به تأكيد قصر الألوهية على الله ـ تعالى ـ وحده ، أى وإن الله ـ تعالى ـ لهو المنفرد بالألوهية وحده ، لأنه هو الغالب الذى يَقهر ولايُقهر ، الحكيم فى كل ما يخلقه ويدبره .

ثم ختم ـ سبحانه ـ تلك المحاجة بقوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ .

أى : فإن أعرضوا عن اتباعك وتصديقك بعد هذه الآيات البينات والحجج الواضحات التى أخبرناك بها وقصصناها عليك ، فأنذرهم بسوء العاقبة ، وأخبرهم أن الله ـ تعالى ـ عليم بهم ، وبما يقولونه ويفعلونه من فساد فى الأرض ، وسيعاقبهم على ذلك العقاب الأليم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٢٦٩ .

فقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ قائم مقام جواب الشرط ، أى : فإن تولوا فأخبرهم بأنهم مفسدون وأن لهم سوء العقبى لأن الله عليم بإفسادهم ولن يتركهم بدون عقوبة .

وهذه الجملة الكريمة تتضمن فى ذاتها تهديدا شديدا لهؤلاء المجادلين بالباطل فى شأن عيسى - عليه السلام - ولكل من أعرض عن الحق الذى جاء به النبى ﷺ لأن الله - تعالى - ليس غافلا عن إفساد المفسدين وإنما يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد بينت بأسلوب معجز حكيم :

أن عيسى عبد الله ورسوله ، وأن هذا هو الحق ، وقد تحدى الرسول ﷺ كل من نازعه فى ذلك بالمباهلة ولكن المجادلين نكصوا على أعقابهم ، فثبت صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه .

وبذلك يكون القرآن قد بين الحق فى شأن عيسى - عليه السلام - بيانا يهدى القلوب ويقنع العقول ويحمل النفوس على الاعتبار ، وإخلاص العبادة لله رب العالمين .

وفى سورة المائدة آيات كريمة ، قصت علينا ماسيقوله الله - تعالى - لعيسى يوم القيامة ، ومايرد به عيسى على خالقه - عز وجل - لكى تزداد حسرة الذين وصفوا المسيح وأمه بما هما بريئان منه .

وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ معطوف على قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ .

والخطاب للنبى ﷺ وهذا القول إنما يكون فى الآخرة ـ على الصحيح ـ .

والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم وليذكر معك كل مكلف وقت أن يسأل الله ـ تعالى ـ عبده ورسوله عيسى فيقول له : يا عيسى : أأنت قلت للناس ﴿ اتَّخِذُونِي ﴾ أى : اجعلونى ﴿ وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى من غير الله .

وكان النداء بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ أى : بغير ذكر النبوة ، للإشارة إلى الولادة الطبيعية التى تنفى أن يكون إلها أو ابن إله أو فيه عنصر الألوهية بأى وضع من الأوضاع لأن الألوهية والبشرية نقيضان لايجتمعان فلايمكن أن يكون البشر فيه ألوهية ، ولا إله فيه بشرية .

والتعبير بقوله : ﴿ اتَّخِذُونِي ﴾ يدل على أنه ليس له حقيقة ، بل هو فى ذاته اتخاذ بما لا أصل له .

والمقصود بالاستفهام فى قوله : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾ توبيخ للكفرة من قومه وتبكيت كل من نسب إلى عيسى وأمه ما ليس من حقهما ، وفضيحتهم على رءوس الأشهاد فى ذلك اليوم العصيب لأن عيسى سينفى عن نفسه أمامهم أنه قال ذلك : وإنما هو أمرهم بعبادة الله وحده ، ولاشك أن النفى بعد السؤال أبلغ فى التكذيب وأشد فى التوبيخ والتقريع وأدعى لقيام الحجة على من وصفوه بما هو برىء منه .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ بيان لما أجاب به عيسى على خالقه ـ عز وجل ـ .

أى : قال عيسى مجيبا ربه بكل أدب وإذعان : تنزيها لك ـ يا إلهى ـ عن أن أقول هذا القول ، فإنه ليس من حقى ولا من حق أحد أن ينطق به .فأنت ترى أن سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ قد صدر كلامه بالتنزيه المطلق لله ـ عز وجل ـ ثم عقب ذلك بتأكيد هذا التنزيه ، بأن أعلن بأنه ليس من حقه أن يقول هذا القول ، لأنه عبد له ـ تعالى ـ ومخلوق بقدرته ، ومرسل منه لهداية الناس فكيف يليق بمن كان شأنه كذلك أن يقول لمن أرسل إليهم ﴿ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ .

ثم أضاف إلى كل ذلك الاستشهاد بالله - تعالى - على براءته ، وإظهار ضعفه المطلق أمام علم خالقه وقدرته فقال - كما حكى القرآن عنه - ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ .

أى : إن كنت قلت هذا القول وهو ﴿ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ فأنت تعلمه ولايخفى عليك منه شىء - لأنك أنت - يا إلهى - تعلم مافى ﴿ نَفْسِي ﴾ أى : ما فى ذاتى ، ولا أعلم ما فى ذاتك .

والمراد : تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم ، وتعلم مافى غيبى ولا أعلم مافى غيبك ، وتعلم ما أقول وأفعل ولا أعلم ماتقول وتفعل إنك أنت - إلهى - علام الغيوب .

فهذه الجملة الكريمة بجانب تأكيدها لنفى ما سئل عنه عيسى - عليه السلام - تدل بأبلغ تعبير على إثبات شمول علم الله - تعالى - بكل شىء ، وقد أكد عيسى ذلك ، بإن المؤكدة وبالضمير أنت ، وبصيغة المبالغة «علام» وبصيغة الجمع للفظ «الغيوب» فهو لم يقل : إنك أنت عالم الغيب وإنما قال - كما حكى القرآن عنه - ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ بكل أنواعها ، وبكل ما يتعلق بالكائنات كلها .

وبعد هذا التنزيه من عيسى - عليه السلام - لله عز وجل - وبعد هذا النفى المؤكد لما سئل عنه بعد كل ذلك يحكى القرآن ما قاله عيسى لقومه فيقول : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ .

أى : ما قلت لهم - يا إلهى - ﴿ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ وإنما القول الذى قلته لهم هو الذى أمرتنى أن أبلغهم إياه وهو عبادتك وحدك لاشريك لك ، فأنت ربى وربهم ، وأنت الذى خلقتنى وخلقتهم ، فيجب أن ندين لك جميعا بالعبادة ، والخضوع والطاعة ، وأنت تعلم يا إلهى أننى لم أقصر فى ذلك ، وأننى كنت رقيبا وشهيدا على قومى ، وداعيا لهم إلى إخلاص العبادات لك والعمل بموجب أمرك مدة بقائى فيهم .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ بيان لانتهاء مهمته بعد فراقه لقومه .

أى : أنت تعلم يا إلهى بأنى ما أمرتهم إلا بعبادتك ، وبأنى ما قصرت فى حملهم على طاعتك مدة وجودى معهم ، ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ يا إلهى : أى : قبضتنى بالرفع إلى السماء حيا ، كنت أنت الرقيب عليهم ، أى : كنت وحدك الحفيظ عليهم المراقب لأحوالهم ،

العليم بتصرفاتهم ،الخبير بمن أحسن منهم وبمن أساء وأنت ـ يا إلهى ـ على كل شىء شهيد ، لاتخفى عليك خافية من أمور خلقك .

وبعد أن أجاب عيسى على سؤال ربه تلك الإجابة الموفقة ، فوض الأمر إليه ـ سبحانه ـ فى شأن قومه ، فقال ـ كما حكى القرآن عنه ـ ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

أى : إن تعذب ـ يا إلهى ـ قومى ، فإنك تعذب عبادك الذين خلقتهم بقدرتك ، والذين تملكهم ملكا تاما ، ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بمملوكه ، وإن تغفر لهم ، وتستر سيئاتهم وتصفح عنهم فذلك إليك وحدك ، لأن صفحك عمن تشاء من عبادك هو صفح القوى القاهر الغالب الذى لايعجزه شىء ، والذى يضع الأمور فى مواضعها بمقتضى حكمته السامية .

وقد قال بعض المفسرين هنا : كيف جاز لعيسى أن يقول : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ والله ـ تعالى ـ لايغفر أن يشرك به؟

وقد أجاب عن ذلك الإمام القرطبى بقوله : قول عيسى ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ قاله على وجه الاستعطاف لهم ، والرأفة بهم ، كما يستعطف السيد لعبده ، ولهذا لم يقل : فإنهم عصوك ، وقيل : قاله على وجه التسليم لأمره ، والاستجارة من عذابه ، وهو يعلم أنه لايغفر لكافر وقيل ، الهاء والميم فى ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ ﴾ لمن مات منهم على الكفر ، والهاء والميم فى قوله : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ لمن تاب منهم قبل الموت وهذا وجه حسن .(١)

أقول : هذا الوجه الثالث الذى ذكره القرطبى قد اكتفى به بعض المفسرين فقال : قوله : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ ﴾ أى : من أقام على الكفر منهم ﴿ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ وأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ أى : لمن آمن منهم ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى صنعه .(٢)

ومع وجاهة هذا الوجه فإننا نرى أن الآية الكريمة حكاية للتفويض المطلق الذى فوضه عيسى إلى ربه ـ سبحانه ـ فى شأن قومه ولهذا قال ابن كثير :

هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله ـ تعالى ـ فإنه الفعال لما يشاء الذى لايسأل عما يفعل وهم يسألون ، ويتضمن التبرى من النصارى الذين كذبوا على الله وكذبوا على رسوله ، وجعلوا لله ندا وصاحبة وولدا .

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٣٧٨

(٢) تفسير الجلالين ـ ومعه حاشية الجمل ـ جـ١ ص٥٤٦ .

وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب ، وقد ورد فى الحديث أن النبى ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها .

فقد روى الإمام أحمد عن أبى ذر قال : صلى النبى ﷺ ذات ليلة : فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية ، فلما أصبح قلت : يا رسول الله ألم تزل تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال : إنى سألت ربى - عز وجل - الشفاعة لأمتى فأعطانيها - وهى نائلة - إن شاء الله - لمن لايشرك بالله شيئا .(١)

وبعد أن حكى القرآن الكريم ما رد به عيسى - عليه السلام - على قول ربه وخالقه - سبحانه - ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وقد تضمن هذا الرد - كما سبق أن بينا - التنزيه المطلق لله - تعالى - والنفى التام لأن يكون عيسى قد قال هذا القول ، بعد كل ذلك ختم - سبحانه - تلك المحاوبة ببيان حسن عاقبة الصادقين يوم القيامة فقال :

﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)﴾ .

والمراد باليوم فى قوله : ﴿هَٰذَا يَوْمُ﴾ يوم القيامة الذى تجازى فيه كل نفس بما كسبت :

أى قال الله - تعالى - : إن هذا اليوم هو اليوم الذى ينتفع الصادقون فيه بصدقم فى إيمانهم وأعمالهم ، لأنه يوم الجزاء والعطاء على ما قدموا من خيرات فى دنياهم .

أى أن صدقهم فى الدنيا ينفعهم يوم القيامة ، بخلاف صدق الكفار يوم القيامة فإنه لاينفعهم ، لأنهم لم يكونوا مؤمنين فى دنياهم .

وقوله : ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ .

أى : أن هؤلاء الصادقين فى دنياهم قد نالوا فى آخرتهم جنات تجرى من تحت أشجارها ومساكنها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أى : مقيمين فيها إقامة دائمة لايعتريها انقطاع وقوله : ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أى : رضى الله عنهم فأعطاهم بسبب

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٢١ .

إيمانهم الصادق ، وعملهم الصالح عطاء هو نهاية الآمال والأمانى ، ورضوا عنه بسبب هذا العطاء الجزيل الذى لاتحيط العبارة بوصفه .

واسم الاشارة فى قوله : ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ يعود إلى ما انتفع به الصادقون من جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن رضا الله عنهم ، أى : إلى النعيم الجثمانى المتمثل فى الجنات وما يتبعها من عيشة هنيئة ، وإلى النعيم الروحانى المتمثل فى رضا الله عنهم .

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بهذه الآية الدالة على شمول ملكه لكل شىء فى هذا الكون فقال : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

أى : لله ـ تعالى ـ وحده دون أحد سواه الملك الكامل للسموات وللأرض ، ولما فيهن من كل كائن وهو ـ سبحانه ـ على كل شىء قدير لايعجزه أمر أراده ، ومن زعم أن له شريكا ـ سواء أكان هذا الشريك عيسى أم أمه أم غيرهما ـ فقد أعظم الفرية وتسربل بالجهل ، وكان مستحقا لخزى الدنيا ، وعذاب الآخرة .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ فغلب غير العقلاء ، للإشارة إلى أن كل المخلوقات مسخرة فى قبضة قهره وقدرته وقضائه وقدره وهم فى ذلك التسخير كالجمادات التى لاقدرة لها ، إذ أن قدرة سائر المخلوقات بالنسبة لقدرة الله كلا قدرة .

وأن هذه الآية الكريم ، لمتسقة كل الاتساق مع الآية التى قبلها ، لأنه ـ سبحانه ـ بعد أن بين جزاء الصادقين فى دنياهم عقبه ببيان سعة ملكه ، وشمول قدرته الدالين على أن هذا الجزاء لايقدر عليه أحد سواه ـ سبحانه ـ .

وإن هذه الآية الكريمة ـ أيضا ـ لمتسقة كل الاتساق لأن تكون خاتمة لهذه السورة التى ساقت ما ساقت من تشريعات وأحكام وآداب وهدايات ومن حجج حكيمة ، وأدلة ساطعة دحضت بها الأقوال الباطلة التى افتراها بعض أهل الكتاب على عيسى وأمه مريم ، وبرهنت على أن عيسى وأمه ما هما إلا عبدان من عباد الله ، يدينان له بالعبادة والطاعة والخضوع ، ويأمران غيرهما بأن ينهج نهجهما فى ذلك .

موقف الحواريين من دعوة عيسى ـ عليه السلام ـ

تحدث القرآن الكريم فى مواطن عدة عن موقف الحواريين من دعوة عيسى ـ عليه السلام ـ .

ومن هذه الآيات قوله ـ تعالى ـ فى سورة آل عمران :

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ شروع فى بيان مآل أحواله ـ عليه السلام ـ وفى بيان موقف قومه منه بعد أن بين ـ قبل ذلك ـ بعض صفاته ومعجزاته وخصائص رسالته .

وأحس : بمعنى علم ووجد وعرف ، والإحساس : الإدراك ببعض الحواس الخمس ذلك وهى التذوق والشم واللمس والسمع والبصر ، يقال أحس الشىء علمه بالحس ، وأحس بالشىء شعر به بحاسته ، والمراد أن عيسى ـ عليه السلام ـ علم من بنى إسرائيل الكفر علما لاشبهة فيه .

والأنصار جمع نصير مثل شريف وأشراف .

والمعنى أن عيسى ـ عليه السلام ـ قد جاء لقومه بالمعجزات الباهرات التى تشهد بصدقه فى دعوته ولكنه لم يجد منهم أذنا واعية ، فلما رأى تصميمهم على باطلهم ، وأحس منهم الكفر أى علمه يقينا وتحققه تحقق مايدرك بالحواس ، قال على سبيل التبليغ وطلب النصرة : من أنصارى إلى الله؟ أى من أعوانى فى الدعوة إلى الله والتبشير بدينه حتى أبلغ ما كلفنى بتبليغه .

قال ابن كثير : وذلك كما كان النبى ﷺ يقول فى مواسم الحج قبل أن يهاجر : «هل من رجل يؤوينى وينصرنى حتى أبلغ كلام ربى فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى» فقيض الله له الأنصار فآووه ونصروه ومنعوه من الأسود والأحمر .(١)

والفاء فى قوله : ﴿ فَلَمَّا ﴾ تؤذن بالتعقيب على الآيات الباهرة ، أى أنهم بعد أن رأوا ما رأوا من معجزات عيسى لم يمتثلوا له ولم يتدبروا عاقبة أمرهم بل كذبوه على الفور ، وحاولوا قتله تخلصا منه واستمروا على كفرهم .

والتعبير بأحس ـ كما أشرنا من قبل ـ يشعر بأنه علم منهم الكفر علما لاشبهة فيه كعلم مايدرك بالحواس .

والمقول لهم ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ هم الحواريون كما يشير إليه قوله ـ تعالى ـ فى سورة الصف : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ وقيل المقول لهم جميع أفراد قومه .

وفى قوله : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ حض لهم على المسارعة إلى نصرة الحق لأنهم لاينصرونه من أجل متعة زائلة ، وإنما هم ينصرونه لأنه يدافع عن دين الله ويبشر به ، ومن نصر دين الله ، نصره الله ـ تعالى ـ .

والآية الكريمة تشير إلى أن الكافرين كانوا هم الكثرة الكاثرة من بنى إسرائيل ، بدليل أنه ـ سبحانه نسب الكفر إليهم فى قوله : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ وذلك لايكون إلا إذا كان الكافرون هم الكثرة الظاهرة ، والمؤمنون هم القلة غير الظاهرة حتى لكأن عيسى بقوله : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ يبحث عنهم من بين تلك الجموع الكثيرة من الكافرين .

وهنا يحكى القرآن أن المؤمنين الصادقين ـ مع قلتهم ـ لم يتقاعسوا عن تلبية نداء عيسى ـ عليه السلام ـ بدليل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ والحواريون جمع حوارى وهم أنصار عيسى الذين آمنوا به وصدقوه ، وأخلصوا له ولازموه وكانوا عونا له فى الدعوة إلى الحق .

يقال فلان حوارى فلان أى خاصته من أصحابه ومنه قول النبى ﷺ فى الزبير بن العوام : «لكل نبى حوارى وحواريى الزبير» .

وأصل مادة «حور» هى شدة البياض ، أو الخالص من البياض ، ولذلك قالوا فى خالص لباب الدقيق الحوارى ، وقالوا فى النساء البيض الحواريون والحوريات .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣٦٥ .

وقد سمى ـ تعالى ـ أصفياء عيسى وأنصاره بالحواريين لأنهم أخلصوا لله ـ تعالى ـ نياتهم ، وطهرت سرائرهم من النفاق والغش فصاروا فى نقائهم وصفائهم كالشىء الأبيض الخالص البياض .

والمعنى : أن عيسى ـ عليه السلام ـ لما أحس الكفر من بنى إسرائيل قال لهم من أنصارى إلى الله؟ فأجابه الحواريون الذين آمنوا به وصدقوه وباعوا نفوسهم لله ـ تعالى ـ : نحن أنصار الله الذين تبحث عنهم ، ونحن الذين سنقف إلى جانبك لنصرة الحق ، فقد آمنا بالله إيمانا عميقا ، ونريد أن تشهد على إيماننا هذا ، وأن تشهد لنا يا عيسى بأنا مسلمون حين تشهد الرسل لأقوامهم وعليهم .

فأنت ترى أن الحواريين لقوة إيمانهم وصفاء نفوسهم قد لبوا دعوة عيسى ـ عليه السلام ـ فى طلب النصرة دون أن يخشوا أحدا إلا الله .

وقولهم ـ كما حكى القرآن عنهم ـ ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ إشعار بأنهم ما وقفوا بجانب عيسى إلا نصرة لدين الله ودفاعا عن الحق الذى أنزله على رسوله عيسى .

وقولهم ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ جملة فى معنى العلة للنصرة أى نحن أنصار الله يا عيسى لأننا آمنا بأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وأنه هو الخالق لكل شىء والقادر على كل شىء .

وقولهم : ﴿ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ معطوف على آمنا والشهادة هنا بمعنى العلم المنبعث من المعاينة والمشاهدة فهم يطلبون من عيسى ـ عليه السلام ـ أن يكون شاهدا لهم يوم القيامة بأنهم أسلموا وجوههم لله وأخلصوا له العبادة .

وأقوالهم هذه التى حكاها القران عنهم تدل على أنهم كانوا فى الدرجة العليا من قوة الإيمان وصدق اليقين ، ونقاء السريرة .

ثم حكى القرآن عنهم أنهم قالوا ـ أيضا ـ ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ ﴾ على أنبيائك من كتب ﴿ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ أى امتثلنا ما أتى به منك إلينا ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أى : اكتبنا بفضلك ورحمتك مع الشاهدين بوحدانيتك العاملين بشريعتك المستحقين لرضاك ورحمتك .

فهم قد صدروا ضراعتهم إلى الله ـ تعالى ـ بالاعتراف الكامل بربوبيته ثم أعلنوا إيمانهم به وبما أنزل على أنبيائه ثم أقروا باتباعهم لرسوله والأخذ بسنته ، ثم التمسوا منه ـ سبحانه ـ بعد ذلك أن يجعلهم من عباده الذين رضى عنهم وأرضاهم .

وهذا يدل على أنهم كانوا فى نهاية الأدب مع الله - تعالى - وعلى أنهم فى أسمى مراتب الإيمان .

قال بعض العلماء : وكان عدد هؤلاء الحواريين اثنى عشر رجلا آمنوا بعيسى وصدقوه ولازموه فى دعوته إلى الحق .

ثم حكى - سبحانه - ما كان من بنى إسرائيل فقال : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ والمكر : التدبير المحكم ، أو صرف غيرك عما يريده بحيلة ، وهو مذموم إن تحرى به الفاعل الشر والقبيح كما فعل اليهود مع عيسى - عليه السلام - ومحمود إن تحرى به الفاعل الخير والجميل .

والمعنى : أن أولئك اليهود الذين أحس عيسى منهم الكفر دبروا له القتل غيلة واتخذوا كل الوسائل لتنفيذ مآربهم الذميمة ، فأحبط الله - تعالى - مكرهم ، وأبطل تدبيرهم بأن نجى نبيه عيسى - عليه السلام - من شرورهم ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ أى أقواهم مكرا وأنفذهم كيدا ، وأقدرهم على العقاب من حيث لايشعر المعاقب .

وفى سورة المائدة آيات كريمة قصت علينا ما قاله الحواريون لعيسى ، وما طلبوه منه ، مما يدل على إكرام الله - تعالى - لهذا النبى الكريم ، وهذه الآيات هى قوله - سبحانه - :

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾

قال ابن كثير ما ملخصه : وقوله : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ هذا أيضا من الامتنان على عيسى ، بأن جعل الله له أصحابا وأنصارا ـ وهم الحواريون ـ والمراد بهذا الوحى الإلهام كما فى قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ وكما فى قوله : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ وقال بعض السلف فى هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ أى : ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا .[1]

فأنت ترى أن الإمام ابن كثير يرى أن المراد بالوحى هنا الإلهام ، وعلى ذلك كثير من المفسرين ، ومنهم من يرى أن المراد بقوله : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ أى : أمرتهم فى الإنجيل على لسانك أو أمرتهم على ألسنة رسلى .

قال الآلوسى معززا هذا الرأى : وقد جاء استعمال الوحى بمعنى الأمر فى كلام العرب ، كما قال الزجاج وأنشد :

الحمد لله الذى استقلت بإذنه السماء واطمأنت

أوحى لها القرار فاستقرت

أى : أمرها أن تقر فامتثلت[2] .

والمعنى : اذكر نعمتى عليك ـ يا عيسى ـ حين ﴿ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ بطريق الإلهام أو بطريق الأمر على لسانك ، وقلت لهم : ﴿ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ أى : آمنوا وصدقوا بأنى أنا الواحد الأحد المستحق للعبادة والخضوع وآمنوا برسولى عيسى بأنه مرسل من جهتى لهدايتكم وسعادتكم .

وفى ذكر كلمة ﴿ بِرَسُولِي ﴾ إشارة إلى مقامه من الله ـ عز وجل ـ وانفصال شخصه عن ذات الله ـ سبحانه ـ وأن عيسى ماهو إلا رسول من رب العالمين وأن من زعموا أنه غير ذلك جاهلون وضالون .

وقوله : ﴿ قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ حكاية لما نطق به الحواريون من إيمان وطاعة .

أى : أن الحواريين عندما دعوا إلى الدين الحق ﴿ قَالُوا آمَنَّا ﴾ بأن الله هو الواحد الأحد المستحق للعبادة وأنه لا والد له ولا ولد ، ثم أكدوا إيمانهم هذا ، بأن قالوا ﴿ وَاشْهَدْ ﴾ علينا يا إلهنا واشهد لنا يا عيسى يوم القيامة ﴿ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ أى : منقادون لكل ما

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١١٤ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ٧ ص٥٨ .

جئتنا به وما تدعونا إليه .

وقدموا ذكر الإيمان لأنه صفة القلب ، وأخروا ذكر الإسلام لأنه عبارة عن الانقياد الظاهر فكأنهم قالوا : لقد استقر الإيمان فى قلوبنا استقرارا مكينا ، كان من ثماره أن انقادت ظواهرنا لكل ما يأمرنا الله به على لسانك يا عيسى .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : فإن قيل : إنه - تعالى - قال فى أول الآية : ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴾ ثم إن جميع ما ذكره - تعالى من النعم مختص بعيسى ، وليس لأمه تعلق بشىء منها ، قلنا : كل ما حصل للولد من النعم الجليلة والدرجات العالية فهو حاصل على سبيل التضمن والتبع للأم ولذلك قال - تعالى - ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ﴾ فجعلهما معا آية واحدة لشدة اتصال كل واحدة منهما بالآخر .

وإنما ذكر - سبحانه - قوله - ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ ﴾ فى معرض تعديد النعم لأن صيرورة الإنسان مقبول القول عند الناس محبوبا فى قلوبهم ، من أعظم نعم الله على الإنسان .

وقد عدد عليه من النعم سبعا : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ ﴾ ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ﴾ ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ ﴾ ﴿ وَإِذْ تُبْرِئُ ﴾ ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ﴾ ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ ﴾ ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ ﴾ (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعض ما دار بين عيسى وبين الحواريين فقال : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ .

و«المائدة» : الخوان إذا كان عليه الطعام من ماد يميد ، إذ تحرك ، فكأن المائدة تتحرك بما عليها ، ويرى بعضهم أن المائدة هى الطعام فى ذاته .

و﴿ إِذْ ﴾ فى قوله : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : اذكر وقت قول الحواريين يا عيسى ابن مريم .

وقد ذكروه باسمه ونسبوه إلى أمه - كما حكى القرآن عنهم - لئلا يتوهم أنهم اعتقدوا ألوهيته أو ولديته .

وقوله : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ فيه قراءتان سبعيتان :

الأولى : ﴿ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ بالياء - على أنه فعل وفاعل ، وقوله : ﴿ أَن يُنَزِّلَ ﴾ المفعول والاستفهام على هذه القراءة محمول على المجاز ، لأن الحواريين كانوا مؤمنين ، ولا يعقل من مؤمن أن يشك فى قدرة الله .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص١٢٨ .

ومن تخريجاتهم فى معنى هذه القراءة أن قوله : ﴿ يَسْتَطِيعُ ﴾ بمعنى «يطيع» والسين زائدة ، كاستجاب وأجاب .

أى : أن معنى الجملة الكريمة : هل يطيعك ـ ربك ـ يا عيسى إن سألته أن ينزل علينا مائدة من السماء .

وسنفصل القول فى تخريج هذه القراءة ، وفى اختلاف المفسرين فى إيمان الحواريين بعد انتهائنا من تفسير هذه الآيات الكريمة .

أما القراءة الثانية : فهى «هل تستطيع ربك» بالتاء وبفتح الباء فى «ربَّك» .

والمعنى : هل تستطيع يا عيسى أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء .

فقوله «ربك» منصوب على التعظيم بفعل محذوف يقدر على حسب المقام وهذه القراءة لا إشكال فيها ، لأن الاستطاعة فيها متجهة إلى عيسى ، أى : أتستطيع يا عيسى سؤال ربك إنزال المائدة أم لا تستطيع؟

قال القرطبى : قراءة الكسائى وعلى وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد «هل تستطيع» بالتاء «ربك» بالنصب وقرأ الباقون بالياء «هل يستطيع» «ربك» بالرفع .

والمعنى على قراءة الكسائى ـ بالتاء : هل تستطيع أن تسأل ربك .

قالت عائشة : كان القوم أعلم بالله ـ تعالى ـ من أن يقولوا ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ وقال معاذ : أقرأنا النبى ﷺ : هل تستطيع ربك قال معاذ : «وسمعت النبى ﷺ مرارا يقرأ بالتاء» .[1]

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ حكاية لما رد به عيسى على الحواريين فيما طلبوه من إنزال المائدة :

أى قال لهم عيسى : اتقوا الله وقفوا عند حدوده ، واملئوا قلوبكم هيبة وخشية منه ، ولا تطلبوا أمثال هذه المطالب إن كنتم مؤمنين حق الإيمان ، فإن المؤمن الصادق فى إيمانه يبتعد عن أمثال هذه المطالب التى قد تؤدى إلى فتنته .

ثم حكى القرآن ما رد به الحواريون على عيسى فقال : ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

أى : قال الحواريون لعيسى إننا نريد نزول هذه المائدة علينا من السماء لأسباب :

أولها : أننا نرغب فى الأكل منها لننال البركة ، ولأننا فى حاجة إلى الطعام بعد أن ضيق علينا أعداؤك وأعداؤنا الذين لم يؤمنوا برسالتك .

---

(١) تفسيرالقرطبى جـ٦ ص ٣٦٤ . بتصرف وتلخيص .

وثانيها : أننا نرغب فى نزولها لكى تزداد قلوبنا اطمئنانا إلى أنك صادق فيما تبلغه عن ربك ، فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلالى ، مما يؤدى إلى رسوخ الإيمان وقوة اليقين .

وثالثها : أننا نرغب فى نزولها لكى نعلم أن قد صدقتنا فى دعوى النبوة ، وفى جميع ما تخبرنا به من مأمورات ومنهيات ، لأن نزولها من السماء يجعلها تخالف ما جئتنا به من معجزات أرضية ، وفى ذلك مافيه من الدلالة على صدقك فى نبوتك .

ورابع هذه الأسباب : أننا نرغب فى نزولها لكى نكون من الشاهدين على هذه المعجزة عند الذين لم يحضروها من بنى إسرائيل ، ليزداد الذين آمنوا منهم إيمانا ويؤمن الذى عنده استعداد للإيمان .

وبذلك نرى أن الحواريين قد بينوا لعيسى ـ كما حكى القرآن عنهم ـ أنهم لايريدون نزول المائدة من السماء لأنهم يشكون فى قدرة الله ، أو فى نبوة عيسى التى يبغون من ورائها الأكل وزيادة الإيمان واليقين والشهادة أمام الذين لم يحضروا نزولها بكمال قدرة الله وصدق عيسى فى نبوته .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما تضرع به عيسى بعد أن سمع من الحواريين ما قالوه فى سبب طلبهم لنزول المائدة من السماء فقال ـ تعالى ـ : ﴿ **قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ .

وقوله : ﴿ **اللَّهُمَّ** ﴾ أى : يا الله ، فالميم المشددة عوض عن حرف النداء ، ولذلك لايجتمعان ، وهذا التعويض خاص بنداء الله ذى الجلال والإكرام .

وقوله : ﴿ **عِيداً** ﴾ أى سرورا وفرحا لنا ، لأن كلمة العيد تستعمل بمعنى الفرح والسرور .

قال القرطبى : والعيد واحد الأعياد ، وأصله من عاد يعود أى : رجع وقيل ليوم الفطر والأضحى عيد ، لأنهما يعودان كل سنة ، وقال الخليل : العيد كل يوم يجمع الناس فيه كأنهم عادوا إليه ، وقال ابن الانبارى : «سمى عيدا للعود إلى المرح والفرح فهو يوم سرور» .[1]

والمعنى : قال عيسى بضراعة وخشوع ـ بعد أن سمع من الحواريين حجتهم ـ ﴿ **اللَّهُمَّ رَبَّنَا** ﴾ أى : يا الله يا ربنا ومالك أمرنا ، ومجيب سؤالنا ، أتوسل إليك أن تنزل علينا ﴿ **مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ** ﴾ أى : أطعمة كائنة من السماء ، هذه الأطعمة ﴿ **تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا** ﴾ أى : يكون يوم نزولها عيدا نعظمه ونكثر من التقرب إليك فيه نحن الذين شاهدناها ، ويكون ـ أيضا ـ يوم نزولها عيدا وسرورا وبهجة لمن يأتى بعدنا ممن لم يشاهدها .

---

(١) تفسير القرطبى جـ٦ ص٣٦٧ .

قال ابن كثير : قال السدى : أى : نتخذ ذلك اليوم الذى نزلت فيه عيدا نعظمه نحن ومن بعدنا ، وقال سفيان الثورى : يعنى يوما نصلى فيه ، وقال قتادة : أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم ، وقال سلمان الفارسى : تكون عظة لنا ولمن بعدنا .[1]

وقوله : ﴿ وَآيَةً مِّنكَ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ عِيدًا ﴾ .

أى : تكون هذه المائدة النازلة من السماء عيدا لأولنا وآخرنا ، وتكون - أيضا - دليلا وعلامة منك - سبحانك - على صحة نبوتى ورسالتى ، فيصدقوننى فيما أبلغه عنك ، ويزداد يقينهم بكمال قدرتك .

وقوله : ﴿ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ تذييل بمثابة التعليل لما قبله ، أى : أنزلها علينا يا ربنا وارزقنا من عندك هنيئا رغدا ، فإنك أنت خير الرازقين ، وخير المعطين ، وكل عطاء من سواك لايغنى ولايشبع .

وقد جمع عيسى فى دعائه بين لفظى «اللهم وربنا» إظهار لنهاية التضرع وشدة الخضوع ، حتى يكون تضرعه أهلا للقبول والإجابة .

وعبر عن مجىء المائدة بالإنزال من السماء للإشارة إلى أنها هبة رفيعة ، ونعمة شريفة ، آتية من مكان عال مرتفع فى الحس والمعنى ، فيجب أن تقابل بالشكر لواهبها - عز وجل - وبتمام الخضوع والإخلاص له .

قال الفخر الرازى : تأمل فى هذا الترتيب ، فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا فى طلبها أغراضا فقدموا ذكر الأكل فقالوا : ﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ وأخروا الأغراض الدينية الروحانية .

فأما عيسى فإنه لما ذكر المائدة وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية وأخر غرض الأكل حيث قال : ﴿ وَارْزُقْنَا ﴾ وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح فى كون بعضها روحية ، وبعضها جسمانية .

ثم إن عيسى لشدة صفاء دينه لما ذكر الرزق انتقل إلى الرازق بقوله : ﴿ وَارْزُقْنَا ﴾ لم يقف عليه : بل انتقل من الرزق إلى الرازق فقال : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ فقوله : ﴿ رَبَّنَا ﴾ ابتداء منه بذكر الحق ، وقوله : ﴿ أَنزِلْ عَلَيْنَا ﴾ انتقال من الذات إلى الصفات .

وقوله : ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث أنها نعمة ، بل من حيث أنها صادرة من المنعم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١١٦ .

وقوله : ﴿ وَآيَةً مِّنكَ ﴾ إشارة إلى كون هذه المائدة دليلا لأصحاب النظر والاستدلال .

وقوله : ﴿ وَارْزُقْنَا ﴾ إشارة إلى حصة النفس .

ثم قال الإمام الرازى : فانظر كيف ابتدأ بالأشرف فالأشرف نازلا إلى الأدون فالأدون .

ثم قال : ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق ، ومن غير الله إلى الله ، وعند ذلك تلوح لك سمة من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية إلى الكمالات الإلهية ونزولها[1] .

ثم ختم - سبحانه - حديثه عن هذه المائدة وما جرى بشأنها بين عيسى والحواريين من أقوال فقال - تعالى - : ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ مُنَزِّلُهَا ﴾ ورد فيه قراءتان متواتران .

إحداهما : منزلها - بتشديد الزاى - من التنزيل وهى تفيد التكثير أو التدريج كما تنبىء عن ذلك صيغة التفعيل ، وبهذه القراءة قرأ ابن عامر وعاصم ونافع .

وقرأ الباقون ﴿ مُنزِلُهَا ﴾ بكسر الزاى - من الإنزال المفيد لنزولها دفعة واحدة .

والمعنى : قال الله - تعالى - إنى منزل عليكم المائدة من السماء إجابة لدعاء رسولى عيسى - عليه السلام - ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ ﴾ أى فمن يكفر بعد نزولها منكم أيها الطالبون لها ﴿ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : فإن الله - تعالى - يعذب هذا الكافر بآياته عذابا لايعذب مثله أحدا من عالمى زمانه أو من العالمين جميعا .

وقد أكد - سبحانه - عذابه للكافر بآيات الله بعد ظهورها وقيام الأدلة على صحتها بمؤكدات منها : حرف إن فى قوله ﴿ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ ﴾ ومنها : المصدر فى قوله : ﴿ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا ﴾ إذ المفعول المطلق هنا لتأكيد وقوع الفعل وهو العذاب ، ومنها : وصف هذا العذاب بأنه لايعذب مثله لأحد من العالمين .

وهذه المؤكدات لوقوع العذاب على الكافر بآيات الله بعد وضوحها من أسبابه : أن الكفر بعد إجابة ما طلبوه ، وبعد رؤيته ومشاهدته ، وبعد قيام الأدلة على وحدانية الله ، وكمال قدرته ، وبعد ظهور البراهين الدالة على صدق رسوله .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢ ص١٣١ .

أقول : الكفر بعد كل ذلك يكون سببه الجحود والعناد والحسد ، والجاحد والمعاند والحاسد يستحقون أشد العذاب وأعظم العقاب .

هذا ، وهنا مسألتان تتعلقان بهذه الآيات الكريمة ، نرى من الخير أن نتحدث عنهما بشيء من التفصيل .

المسألة الأولى : آراء العلماء فى إيمان الحواريين وعدم إيمانهم .

المسألة الثانية : آراء العلماء فى نزول المائدة وعدم نزولها .

وللإجابة على المسألة الأولى نقول : لعل منشأ الخلاف فى إيمان الحواريين وعدم إيمانهم مرجعه إلى قولهم لعيسى ـ كما حكى القرآن عنهم ـ ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ فإن هذا القول يشعر بشكهم فى قدرة الله على إنزال هذه المائدة .

وقد ذهب فريق من العلماء ـ وعلى رأسهم الزمخشرى ـ إلى عدم إيمانهم ، وجعلوا الظرف فى قوله : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ متعلقا بقوله قبل ذلك ﴿ قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ .

أى : أنهم قالوا لعيسى آمنا واشهد بأننا مسلمون ، فى الوقت الذى قالوا له فيه ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ فكأنهم ادعوا الإيمان والإسلام ادعاء بدون إيقان وإذعان ، وإلا فلو كانوا صادقين فى دعواهم لما قالوا لعيسى بأسلوب الاستفهام : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قالوا ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ بعد إيمانهم وإخلاصهم؟ قلت : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص ، وإنما حكى ادعاءهم لهما ، ثم أتبعه بقوله : ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ فإذن دعواهم كانت باطلة ، وأنهم كانوا شاكين ، وقوله : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ كلام لايرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم ، وكذلك قول عيسى لهم معناه : اتقوا الله ولاتشكوا فى اقتداره واستطاعته ، ولاتقترحوا عليه ولا تحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة .[1]

وذهب جمهور العلماء إلى أن الحواريين عندما قالوا لعيسى ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ كانوا مؤمنين واستدلوا على ذلك بأدلة منها :

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٦٩٣ .

١ ـ أن الظرف فى قوله : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ ليس متعلقا بقوله : ﴿ قَالُوا آمَنَّا ﴾ وإنما هو منصوب بفعل مضمر تقديره اذكر ، وهذا ما رجحه العلامة أبو السعود فى تفسيره فقد قال : قوله : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان بعض ما جرى بينه ـ عليه السلام ـ وبين قومه منقطع عما قبله ، كماينبئ عنه الإظهار فى موضع الإضمار وإذ منصوب بمضمر ، وقيل : هو ظرف لقالوا أريد به التنبيه على أن ادعاء الإيمان والإخلاص لم يكن عن تحقيق وإيقان ولايساعده النظم الكريم .[١]

٢ ـ أن قول الحواريين لعيسى ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ لايسحب عنهم الإيمان ، وقد خرج العلماء قولهم هذا بتخريجات منها .

(أ) أن قولهم لم يكن من باب الشك فى قدرة الله ، وإنما هو من باب زيادة الاطمئنان عن طريق ضم علم المشاهدة إلى العلم النظرى بدليل أنهم قالوا بعد ذلك ﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ .

وشبيه بهذا قول إبراهيم ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ .

قال القرطبى ما ملخصه : «الحواريون خلصان الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم ، وقد كانوا عالمين باستطاعة الله لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر فأرادوا علم معاينة كذلك ، كما قال إبراهيم : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ وقد كان إبراهيم علم ذلك علم خبر ونظر ، ولكن أراد المعاينة التى لايدخلها ريب ولاشبهة ، لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات ، وعلم المعاينة لايدخله شىء من ذلك ، ولذلك قال الحواريون : ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ كما قال إبراهيم ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[٢]

(ب) أن السؤال إنما هو عن الفعل لا عن القدرة عليه ، وقد بسط الآلوسى هذا المعنى فقال : إن معنى ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ هل يفعل ربك كما تقول للقادر على القيام : هل تستطيع أن تقوم معى مبالغة فى التقاضى .

والتعبير عن الفعل بالاستطاعة من باب التعبير عن المسبب بالسبب ، إذ هى ـ أى الاستطاعة ـ من أسباب الإيجاد .[٣]

---

(١) تفسير أبى السعود جـ٢ ص٧٢ .
(٢) تفسير القرطبى جـ٦ ص٣٦٥ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ٧ ص٥٩ .

(جـ) أن الاستطاعة هنا بمعنى الإطاعة ـ كما سبق أن أشرنا ـ ويشهد لذلك قول الفخر الرازى : قال السدى ، قوله : ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أى : هل يطيعك ربك إن سألته ، وهذا تفريع على أن استطاع بمعنى أطاع والسين زائدة .[1]

والذى نراه أن رأى الجمهور أرجح للأدلة التى ذكرناها ، ولأن الله ـ تعالى ـ قد ذكر قبل هذه الآية أنه قد امتن عليهم بإلهامهم الإيمان فقال :

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ ولأنهم لو كانوا غير مؤمنين لكشف الله عن حقيقتهم ، فقد جرت سنته ـ سبحانه ـ مع أنبيائه أن يظهر لهم نفاق المنافقين حتى يحذروهم ، ولأنهم لو كانوا غير مؤمنين ، لما أمر الله أتباع النبى ﷺ بالتأسى بهم فى إخلاصهم ورسوخ يقينهم قال ـ تعالى ـ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ .[2]

وقال ـ تعالى ـ : ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [3]

فهاتان الآيتان صريحتان فى مدح الحواريين وفى أنهم قوم التفوا حول عيسى ـ عليه السلام ـ وناصروه مناصرة صادقة ، وآمنوا به إيمانا سليما من الشك والتردد .

وأما المسألة الثانية : وهى آراء العلماء فى نزول المائدة : فالجمهور على أنها نزلت .

وقد رجح ذلك ابن جرير فقال ما ملخصه : والصواب من القول عندنا فى ذلك أن يقال «إن الله أنزل المائدة» ، لأن الله لايخلف وعده ، ولايقع فى خبره الخلف ، وقد قال ـ تعالى ـ مخبرا فى كتابه عن إجابة نبيه عيسى حين سأله ما سأله من ذلك ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ وغير جائز أن يقول الله إنى منزلها عليكم ثم لاينزلها ، لأن ذلك منه ـ تعالى ـ خبر ، ولايكون منه خلاف مايخبر[4] .

وقد علق ابن كثير على ما رجحه ابن جرير فقال : وهذا القول هو ـ والله أعلم ـ الصواب ، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ ص١٢٩ .
(٢) الآية الأخيرة من سورة الصف .
(٣) سورة آل عمران : الآية ٥٢ .
(٤) تفسير ابن جرير جـ٧ ص١٣٥ .

ومن الآثار ما أخرجه الترمذى عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما ، وأمروا ألا يخونوا ولا يدخروا لغد : فخانوا وادخروا ورفعوا لغد فمسخهم قردة وخنازير .

قال الترمذى : وقد روى عن عمار من طريق موقوفا وهو أصح .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب عن ابن عباس ، أن عيسى ابن مريم قالوا له : ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء ، قال : فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها ، عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم .[1]

والذى يراجع بعض كتب التفسير يرى كلاما كثيرا عما كان على المائدة من أصناف الطعام ، وعن كيفية نزولها ومكانه ، وعن كيفية استقبالها وكشف غطائها ، والأكل منها والباقى عليها بعد الأكل ، وهذا الكلام الكثير رأينا من الخير أن نضرب عنه صفحا ، لضعف أسانيده ، ولأنه لايخلو عن غرابة ونكارة ـ كما قال ابن كثير ـ فقد ذكر ـ رحمه الله ـ أثرا طويلا فى هذا المعنى ثم قال فى نهايته : هذا أثر غريب جدا قطعه ابن حاتم فى مواضع من هذه القصة ، وقد جمعته أنا ليكون سياقه أتم .[2]

ويعجبنى فى هذا المقام قول ابن جرير : وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة ، فأن يقال : كان عليها مأكول ، وجائز أن يكون هذا المأكول سمكا وخبزا ، وجائز أن يكون من ثمر الجنة ، وغير نافع العلم به ، ولاضار الجهل به ، إذا أقر تالى الآية بظاهر ما احتمله التنزيل .[3]

ويرى الحسن ومجاهد أن المائدة لم تنزل ، فقد روى ابن جرير ـ بسنده ـ عن قتادة قال : كان الحسن يقول : لما قيل لهم : ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ قالوا : لاحاجة لنا فيها فلم تنزل .

وروى منصور بن زادان عن الحسن أيضا أنه قال فى المائدة : إنها لم تنزل .

وروى ابن أبى حاتم وابن جرير عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد قال : هو مثل ضربه الله ولم ينزل شىء .

أى : مثل ضربه للناس نهيا لهم عن مسألة الآيات لأنبيائه .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١١٦ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١١٩ .
(٣) تفسير ابن جرير جـ٧ ص١٣٥ .

قال الحافظ ابن كثير : هذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لاتعرفه النصارى ، وليس فى كتابهم ، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعى على نقله ، وكان يكون موجودا فى كتابهم متواترا ولا أقل من الآحاد .(١)

وقد علق بعض العلماء على كلام ابن كثير هذا فقال : ولنا أن نقول : إن هذا الاستدلال إن كان يعنى عدم نزولها فقط ، فقد يكون له شىء من الوجاهة وإن كان يعنى أنها لم تنزل ولم يسأل ، فهو محل نظر كبير ، لأن السؤال مالم ينته بإجابة كونية فعلية تبرز بها المائدة للناس ويرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم فلايعد بذلك مما تتوافر الدواعى على نقله ، لاسيما وعيسى في بيئة محصورة : جماعة سألوا وأجيبوا ، وانتهى الأمر برجوعهم عما سألوا فعدم تواتر سؤالها فى كتب النصارى أو عدم وجوده فيها لايستغرب كما يستغرب الأمر فيما لو نزلت المائدة فعلا ورآها الناس فعلا وأكلوا منها ، وتذوقوا طعامها ، ولم يذكر عن ذلك شىء .

وقد ذكر القرآن هذه الحقيقة ابتداء وانفرد بها عن سائر الكتب ، ولايلزم أن يكون كل ما قصه الله ـ تعالى ـ فى القرآن قد قصه فى غيره من الكتب المتقدمة ، ولا أن أصحاب الأناجيل علموا بكل شىء حتى بمثل هذه المحاولة الخاصة التى لم تنته بحادث كونى حتى يكون عدم ذكرهم إياها فى أناجيلهم ـ التى وضعوها ـ دليلا على عدم سؤالها ، فقصة السؤال إذن لم ترد فيما عند النصارى ولكنها وردت فيما عند المسلمين .

ومن الجائز أن تكون مما ورد فى الأناجيل ، وأن تكون مما أخفاه أهل الكتاب ، أو ضاع منهم علمه بسبب ما ، والقرآن قد وصف نفسه بأنه مهيمن على كتبهم التى وصفها بأنهم حرفوها وأنهم كانوا يخفون كثيرا منها ، وأنه يبين لهم كثيرا مما كانوا يخفون .(٢)

هذا ومما سبق يتبين لنا أن العلماء متفقون على أن الحواريين قد سألوا عيسى أن يدعو ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء ، وأن عيسى قد دعا ربه فعلا أن ينزلها ، كما جاء فى الآية الكريمة .

ومحل الخلاف بينهم أنزلت أم لا؟ فالجمهور يرون أنها نزلت لأن الله وعد بذلك فى قوله : ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ والحسن ومجاهد يريان أنها لم تنزل ، لأن الوعد بنزولها مقيد بما رتب عليه من وقوع العذاب بهم إذا لم يؤمنوا بعد نزولها ، وأن القوم بعد أن سمعوا هذا الشرط قالوا : لاحاجة لنا فيها ، فلم تنزل .

ويبدو لنا أن رأى الجمهور أقرب إلى الصواب ، لأن ظاهر الآيات يؤيده ، وكذلك الآثار التى وردت فى ذلك .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١١٩ .

(١) تفسير القرآن الكريم ص٢٨١ ، لفضيلة الإمام الأكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت .

هذا وفى ختام سورة الصف آية كريمة مدحت الحواريين ، ودعت المؤمنين إلى التشبه بهم ، وهذه الآية هى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ .

والمعنى : يامن آمنتم بالله ـ تعالى ـ حق الإيمان داوموا على أن تكونوا أنصارا لدين الله فى كل حال ، كما كان الحواريون كذلك ، عندما دعاهم عيسى ـ عليه السلام ـ إلى نصرته والوقوف إلى جانبه .

فالكلام محمول على المعنى ، والمقصود منه حض المؤمنين على طاعة الرسول ﷺ وعلى الاستجابة التامة لما يدعوهم إليه ، كما فعل الحواريون مع عيسى ، حيث ثبتوا على دينهم ، وصدقوا مع نبيهم ، دون أن تنال منهم الفتن أو المصائب .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما وجه صحة التشبيه ـ وظاهره تشبيه كونهم أنصارا بقول عيسى لهم : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ .

قلت : التشبيه محمول على المعنى ، وعليه يصح ، والمراد كونوا أنصار الله ، كما كان الحواريون أنصار عيسى كذلك حين قال لهم : من أنصارى إلى الله .

فإن قلت : فما معنى قوله : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ؟ قلت : يجب أن يكون معناه مطابقا لجواب الحواريين : والذى يطابقه أن يكون المعنى : من جندى متوجها إلى نصرة دين الله .[1]

والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ للحض على نصرته والوقوف إلى جانبه .

وأضافهم ـ عليه السلام ـ إليه ، باعتبارهم أنصار دعوته ودينه .

وقوله : ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ متعلق بأنصارى ، ومعنى «إلى» الانتهاء المجازى .

أى : قال عيسى للحواريين على سبيل الامتحان لقوة إيمانهم : من الجند المخلصون الذين أعتمد عليهم بعد الله ـ تعالى ـ فى نصرة دينه ، وفى التوجه إليه بالعبادة والطاعة وتبليغ رسالته؟

---

(١) تفسير الكشاف جـ٤ ص٥٢٨ .

فأجابوه بقولهم : نحن أنصار دين الله ـ تعالى ـ ونحن الذين على استعداد أن نبذل نفوسنا وأموالنا فى سبيل تبليغ دعوته ـ عز وجل ـ ومن أجل إعلاء كلمته .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾ مفرع على ماقبله ، لبيان موقف قومه منه .

أى : قال الحواريون لعيسى عندما دعاهم إلى اتباع الحق : نحن أنصار دين الله ، ونحن الذين سنثبت على العهد ، أما بقية بنى إسرائيل فقد افترقوا إلى فرقتين : فرقة آمنت بعيسى وبما جاء به من عند الله ـ تعالى ـ وفرقة أخرى كفرت به وبرسالته .

وقوله : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ بيان للنتائج التى تحققت لكل طائفة من الطائفتين : المؤمنين والكافرين .

وقوله : ﴿ ظَاهِرِينَ ﴾ من الظهور بمعنى الغلبة ، يقال : ظهر فلان على فلان ، إذا تغلب عليه وقهره .

أى : كان من قوم عيسى من آمن به ، ومنهم من كفر به ، فأيدنا وقوينا ونصرنا الذين آمنوا به ، على الذين كفروا به ، فصار المؤمنون ظاهرين ومنتصرين على أعدائهم بفضله ـ تعالى ـ ومشيئته .

والمقصود من هذا الخبر حض المؤمنين فى كل زمان ومكان ، على الإيمان والعمل الصالح ، لأن سنة الله ـ تعالى ـ قد اقتضت أن يجعل العاقبة لهم ، كما جعلها لأتباع عيسى المؤمنين على أعدائهم الكافرين .

ومن كل ماسبق يتبين لنا أن موقف الحواريين من دعوة عيسى ـ عليه السلام ـ كان موقفا كريما ، يدل على صدق إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، وطهارة قلوبهم .

كُفْر الذين نسبوا الألوهية أو البنوة إلى عيسى ـ عليه السلام ـ

المتدبر للقرآن الكريم يرى أن كل رسول أرسله الله ـ تعالى ـ إلى الناس ، كانت الكلمة الأولى التى يأمر بها قومه ، أن يخلصوا العبادة والطاعة لخالقهم ـ عز وجل ـ قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥]

كما يرى أن الإشراك مع الله ـ تعالى ـ فى العبادة آلهة أخرى ، جريمة لاتقبل المغفرة .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [النساء : ١١٦]

وقد نزه الخالق ـ عز وجل ـ ذاته عن أن يكون له شريك أو ولد ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

ولقد توعد الله ـ تعالى ـ فى آيات متعددة ، أولئك الذين نسبوا الألوهية إلى المسيح ، عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ وأنذرهم بسوء المصير ، ووصفهم بالكفر وانطماس البصيرة ، ومن هذه الآيات قوله ـ تعالى ـ فى سورة المائدة :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) ﴾ .

واللام فى قوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ﴾ واقعة جوابا لقسم مقدر .

والمراد بالكفر : ستر الحق وإنكاره ، والانغماس فى الباطل والضلال .

والمعنى : أقسم لقد كفر أولئك الذين قالوا كذبا وزورا : إن الله المستحق للعبادة والخضوع هو المسيح عيسى ابن مريم .

وقد أمر الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ أن يرد على أولئك الذين قالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ بما يكشف عن جهلهم وضلالهم فقال ـ تعالى ـ :

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ .

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الذين قالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ قل لهم على سبيل الإنكار والتوبيخ والتجهيل : من ذا الذى يملك من أمر الله وإرادته شيئا يدفع به الهلاك عن المسيح وعن أمه وعن سائر أهل الأرض ، إن أراد الله ـ سبحانه ـ أن يهلكهم ويبيدهم؟ لاشك أن أحدا لن يستطيع أن يمنع إرادته ـ سبحانه ـ لأنه هو المالك لأمر الوجود كله ، ولايملك أحد من أمره شيئا يستطيع به أن يصرفه عن عمل يريده ، أو يحمله على أمر لايريده ، أو يستقل بعمل دونه ، ومادام الأمر كذلك فدعوى أن الله هو المسيح ابن مريم ظاهرة البطلان ، لأن المسيح وأمه من مخلوقات الله التى هى قابلة لطروء الهلاك والفناء عليها ، وحاشا للمخلوق الفانى أن يكون إلها وإنما الألوهية لله الخالق الباقى : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وفى توجيه الأمر إلى الرسول ﷺ للرد عليهم تثبيت له وتقوية لحجته حتى يبطل قولهم الفاسد إبطالا يزداد معه المؤمنون إيمانا بالحق الذى آمنوا به .

وتخصيص الأم بالذكر مع اندراجها فى عموم المعطوف ، لزيادة تأكيد عجز المسيح ، وأنه هو وأمه عبدان من عباد الله لايقدران على دفع الهلاك عنهما .

وعطف عليهما قوله : ﴿ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ من باب عطف العام على الخاص ، ليكونا قد ذكرا مرتين ، مرة بالنص عليهما ، ومرة بالاندراج فى العام ، وذلك على سبيل التوكيد والمبالغة فى تعليق نفاذ الإرادة فيهما .

وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ تأكيد لاختصاص الألوهية به ـ تعالى ـ إثر بيان انتفائها عما سواه .

أى : ولله ـ تعالى ـ وحده دون أن ينازعه منازع ، أو يشاركه مشارك ، ملك جميع الموجودات ، والتصرف المطلق فيها ، ايجادا وإعداما ، وإحياء وإماتة ، فهو المالك للسموات ومافيها وللأرض ، وما عليها ولما بينهما من فضاء تجرى فيه السحب بأمره ، ويطير فيه الطير بإذنه وقدرته ، وما المسيح وأمه إلا من جملة مافى الأرض ، فهما عبدان من عباد الله يدينان له ـ سبحانه ـ بالعبادة والطاعة والخضوع .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ولم يقل وما بينهن مع أن السموات بلفظ الجمع ، لأن المراد بالسموات والأرض النوعان أو الصنفان .

أى : ولله - تعالى - وحده ملك السموات والأرض وما بين هذين النوعين من مخلوقات خاضعة لمشيئة الله وقدرته .

وقوله : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحكام الملك والألوهية على وجه يزعج ما اعترى النصارى من شبه فى أمر المسيح لولادته من غير أب ، وإحيائه الموتى ، وإبرائه الأكمه والأبرص ، كل ذلك بإذن الله .

أى : أنه - سبحانه - يخلق ما يشاء أن يخلقه من أنواع الخلق بالكيفية التى يريدها تبعا لمشيئته وإرادته .

فتارة يخلق الإنسان من ذكر وأنثى كما هو المعتاد بين الناس ، وتارة يخلقه بدون أب أو أم كما هو الشأن فى خلق آدم ، وتارة يخلقه بدون أب كما هو الشأن فى خلق عيسى ، إلى غير ذلك من مخلوقاته التى ليست مقصورة على نوع واحد بل هى شاملة لهذا الكون بما فيه من إنسان وحيوان وجماد ، فكل ماتعلقت إرادته بإيجاده أوجده ، وكل ما تعلقت إرادته بإعدامه أعدمه ، لا راد لمشيئته ولامعقب لحكمه ولاحائل دون نفاذ قدرته .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تذييل مقرر لمضمون ماقبله .

أى : والله - تعالى - قدير على كل شىء ومالك لكل شىء ومهيمن على كل شىء لايغلبه شىء طلبه ، ولايعجزه أمر أراده وما عيسى وأمه إلا من مخلوقاته وعبيده ، وحاشا للمخلوق العاجز أن يكون إلها من دون الله - عز وجل - .

فهذه الآية الكريمة تحكى الأقوال الباطلة فى شأن عيسى - عليه السلام - وترد على قائليها بما يزهق باطلهم ، ويثبت أن عيسى إنما هو عبد من عباد الله وأن العبادة إنما تكون لله الواحد القهار .

كذلك من الآيات التى توعدت الذين نسبوا الألوهية إلى عيسى - عليه السلام - بأشد أنواع العذاب ، قوله - تعالى - فى صورة المائدة - أيضا :

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا

مِّنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

أى : أقسم لقد كفر أولئك الذين قالوا كذبا وزورا : إن الله المستحق للعبادة والخضوع هو المسيح ابن مريم .

وقد أكد - سبحانه - كفرهم بالقسم المقدر ، لأنهم غالوا فى إطراء عيسى وفى وضعه فى غير موضعه ، كما غالت اليهود فى الكفر به وفى وصفه بالأوصاف التى هو برىء منها .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى فى الرد على من جعلوه إلها فقال : ﴿ وَقَالَ ـسيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ .

ى : وقال المسيح مكذبا لمن وصفه بالألوهية : يا بنى إسرائيل اعبدوا الله وحده ولاتشركوا به شيئا فهو ربى الذى خلقنى وتعهدنى بالتربية والرعاية ، وهو ربكم - أيضا - الذى أنشأكم وأوجدكم ورزقكم من الطيبات .

والواو فى قوله : ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ ﴾ للحال ، والجملة حالية من الواو التى هى فاعل أى : قالوا ما قالوا ، والحال أن عيسى قد تبرأ مما قالوه ، وقال لبنى إسرائيل حين إرساله إليهم : اعبدوا لله ربى وربكم .

وقوله : ﴿ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ تنبيه إلى ماهو الحجة القاطعة على فساد قولهم المذكور ، لأن عيسى لم يفرق بينه وبين غيره فى العبودية لله - تعالى - سبحانه - هو الخالق له ولهم ولكل شىء .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى محذرا من الإشراك فقال : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ .

وهذه الجملة تعليل للأمر بعبادة الله وحده ، والضمير المقترن بإن ضمير الشأن والمراد بتحريم الجنة على المشرك : منعه من دخولها لإشراكه مع الله آلهة أخرى .

والمأوى : المكان الذى يأوى إليه الإنسان ، أى يرجع إليه ويستقر فيه .

أى : وقال المسيح لبنى إسرائيل : اعبدوا الله ربى وربكم ، لأنه أى الحال والشأن ﴿ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ شيئا فى عبادته - سبحانه - ﴿ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ أى : منعه من دخولها ، بسبب شركه وكفره ، وجعل﴿ مَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أى : جعل مستقره ومكانه النار بدل الجنة ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ ينصرونهم بأن ينقذوهم مما هم فيه من بلاء وشقاء مقيم .

فالجملة الكريمة تحذير شديد من الإشراك بالله ، وبيان لما سيئول إليه حال المشركين من تعاسة وشقاء .

وجمع - سبحانه - بين العقوبة السلبية للمشركين وهى حرمانهم من الجنة وبين العقوبة الإيجابية وهى استقرارهم فى النار ، للإشارة إلى عظيم جرمهم حيث أشركوا بالله ، وتقولوا عليه الأقاويل الباطلة التى تدل على جهلهم وسفاهتهم .

والمراد بالظالمين : المشركون الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم فتكون «ال» للعهد .

ويجوز أن يراد بهم كل ظالم بسبب إشراكه وكفره ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوليا فتكون «ال» للجنس .

وقال - سبحانه - : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ بصيغة الجمع لكلمة «أنصار» وبالتأكيد بمن المفيدة للاستغراق ، للإيذان بأنه إذا كان الظالمون لن يستطيع الأنصار مجتمعين أن ينصروهم فمن باب أولى لن يستطيع واحد أن ينصرهم .

أى : مالهم من أحد كائنا من كان أن ينقذهم من عقاب الله بأى طريقة من الطرق .

وهذه الجملة الكريمة يحتمل أن تكون من كلام عيسى الذى حكاه الله عنه - كما سبق أن ذكرنا - ويحتمل أن تكون من كلام الله - تعالى - وقد ساقها سبحانه - لتأكيد ما قاله المسيح من أمره لقومه بعبادة الله وحده - ولتقرير مضمونه المفيد للتحذير من الإشراك .

وقوله - تعالى - : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ بيان لما قالته طائفة أخرى من الطوائف الضالة .

ومعنى ثالث ثلاثة : واحد من ثلاثة ، أى : أحد هذه الأعداد مطلقا وليس الوصف بالثالث .

وقوله : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ بيان للاعتقاد الحق بعد ذكر الاعتقاد الباطل .

وقد جاءت هذه الجملة بأقوى أساليب القصر وهو اشتمالها على «ما» و«إلا» مع تأكيد النفى بمن المفيدة لاستغراق النفى .

والمعنى : لقد كفر الذين قالوا كذبا وزورا : إن الله واحد من آلهة ثلاثة ، والحق أنه ليس فى هذا الوجود إله مستحق للعبادة والخضوع سوى إله واحد وهو الله رب العالمين ، الذى خلق الخلق بقدرته ، ورباهم بنعمته ، وإليه وحده مرجعهم وإيابهم .

ثم بين ـ سبحانه ـ سوء عاقبة هؤلاء الضالين الذين قالوا ماقالوا من ضلال وكذب فقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وهذه الجملة الكريمة معطوفة على قوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ﴾ والمراد بانتهائهم : رجوعهم عما هم عليه من ضلال وكفر .

والمراد بقوله : ﴿ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ أى : عما يعتقدون وينطقون به من زور وبهتان .

أى : لقد كفر أولئك الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة كفرا شديدا بينا والحق أنه ليس فى الوجود سوى إله واحد مستحق للعبادة ، وإن لم يرجع هؤلاء الذين قالوا بالتثليث عن عقائدهم الزائفة وأقوالهم الفاسدة ، ويعتصموا بعروة التوحيد ﴿ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : ليصيبن الذين استمروا على الكفر منهم عذاب أليم .

فالجملة الكريمة تحذير من الله ـ تعالى ـ لهم عن الاستمرار فى هذا القول الكاذب ، والاعتقاد الفاسد الذى يتنافى مع العقول السليمة ، والأفكار القويمة .

وقوله : ﴿ لَيَمَسَّنَّ ﴾ جواب لقسم محذوف ، وهو ساد مسد جواب الشرط المحذوف فى قوله : ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا ﴾ والتقدير : والله إن لم ينتهوا ليمسن .

وأكد ـ سبحانه ـ وعيدهم بلام القسم فى قوله : ﴿ لَيَمَسَّنَّ ﴾ ردا على اعتقادهم أنهم لاتمسهم النار ، لأن صلب عيسى ـ فى زعمهم ـ كان كفارة عن خطايا البشر .

وعبر بالمس للإشارة إلى شدة مايصيبهم من آلام : لأن المراد أن هذا العذاب الأليم يصيب جلدهم وهو موضع الإحساس فيهم إصابة مستمرة ، كما قال ـ تعالى ـ فى آية أخرى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ . (١)

---

(١) سورة النساء الآية ٥٦ .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالتعبير بالظاهر دون الضمير للإشارة إلى سبب العذاب وهو كفرهم ، لأن التعبير بالموصول يشير إلى أن الصلة هى سبب الحكم .

ومن فى قوله : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ يصح أن تكون تبعيضية : أى : ليمسن الذين استمروا على الكفر من هؤلاء النصارى عذاب أليم ، لأن كثيرا منهم لم يستمروا على الكفر بل رجعوا عنه ودخلوا فى دين الإسلام .

ويصح أن تكون بيانية ، وقد وضح ذلك صاحب الكشاف بقوله : ومن فى قوله : ﴿ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ﴾ للبيان كالتى فى قوله : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ .

والمعنى : ليمسن الذين كفروا من النصارى خاصة ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : نوع شديد الألم من العذاب ، كما تقول : اعطنى عشرين من الثياب ، تريد من الثياب خاصة لا من غيرها من الأجناس التى يجوز أن يتناولها عشرون .(١)

وبعد الترهيب الشديد للكافرين من العذاب الأليم ، فتح لهم ـ سبحانه ـ باب رحمته ، حيث رغبهم فى الإيمان ، وأنكر عليهم تقاعسهم عنه بعد أن ثبت بطلان ماهم عليه من عقائد فقال ـ تعالى ـ : ﴿ أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

والاستفهام هنا يتضمن حضهم على التوبة والرجوع إلى الحق وتوبيخهم على ما كان منهم من ضلال والتعجيب من استمرارهم على كفرهم وعقائدهم الفاسدة التى لايقبلها عقل سليم ولاتصور قويم .

والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام ، أى : أيسمعون مايسمعون من الحق الذى يزهق باطلهم ومن النذر التى ترقق القلوب فلايحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى الله وطلب مغفرته ، والحال أنه ـ سبحانه ـ عظيم المغفرة واسع الرحمة لمن آمن وعمل صالحا .

إن إصرارهم على كفرهم بعد تفنيده وإبطاله ، وبعد تحذيرهم من سوء عاقبة الكافرين ليدل على أنهم قوم ضالون خاسرون يستحقون أن يكونوا محل عجب الناس وإهمالهم .

قال أبوالسعود : وقوله ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ جملة حالية من فاعل ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ﴾ مؤكدة للإنكار والتعجيب من إصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم إلى الاستغفار .

أى : والحال أن الله ـ تعالى ـ مبالغ فى المغفرة ، فيغفر لهم عند استغفارهم ويمنحهم من فضله .(٢)

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٦٦٤ .
(٢) تفسير أبى السعود جـ٧ ص٥٠

وقال ابن كثير : هذا من كرمه - تعالى - وجوده ولطفه ورحمته بخلقه ، مع هذا الذنب العظيم ، وهذا الافتراء والكذب ، والإفك ، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ، فكل من تاب إليه تاب عليه ، كما قال : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فيغفر لهؤلاء إن تابوا ولغيرهم .(١)

ثم بين - سبحانه - حقيقة عيسى - عليه السلام - وحقيقة أمه مريم حتى يزيل عن ساحتهما ما افتراه عليهما المفترون فقال - تعالى - : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ .

وقوله : ﴿ صِدِّيقَةٌ ﴾ صيغة مبالغة فى التمسك بفضيلة الصدق مثل شريب ومسيك مبالغة فى الشرب والمسك .

قال الراغب : والصديق من كثر منه الصدق ، وقيل : بل يقال لمن لم يكذب قط ، وقيل : بل لمن لا يأتى منه الكذب لتعوده الصدق ، وقيل : لمن صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله ، قال - تعالى - : ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم . . ﴾ فالصديقون هم قوم دون الأنبياء فى الفضيلة .(٢)

والمعنى : إن الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، قد قالوا منكرا وزورا ، إذ ليست الألوهية إلا لله وحده وليس المسيح عيسى ابن مريم سوى بشر من البشر ورسول مثل الرسل الذين سبقوه كنوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الرسل الذين مضوا دون أن يدعى واحد منهم الألوهية ، وأما أم عيسى مريم فما هى إلا أمة من إماء الله كسائر النساء ديدنها الصدق مع خالقها - عز وجل - أو التصديق له فى سائر أمورها ، وهما - أى عيسى وأمه مريم - عبدان من عباد الله كانا يأكلان الطعام ، ويشربان الشراب ويتصرفان كما يتصرف سائر البشر فكيف ساغ لكم - يا معشر النصارى - أن تصفوهما بأنهما إلهين مع أن طبيعتهما الظاهرة أمامكم تتنافى تنافيا تاما مع صفات الألوهية . إن وصفكم لهما بالألوهية لدليل واضح على فساد عقولكم وضلال تفكيركم ، وعظيم جهلكم .

وقوله : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ ﴾ جملة مشتملة على قصر موصوف على صفة ، وهو قصر إضافى ، أى : أن المسيح مقصور على صفة الرسالة لا يتجاوزها إلى غيرها وهى الألوهية فالقصر قصر قلب لرد الاعتقاد فى عيسى أنه الله ، أو أنه جزء من الله أو أنه أحد آلهة ثلاثة ، وقوله : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ صفة للرسول وهو عيسى أريد

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٨١ .
(٢) المفردات فى غريب القرآن الكريم ص٢٧٧ .

بها بيان أنه مساو للرسل الكرام الذين سبقوه فى تبليغ رسالة الله إلى الناس ، وأنه ليس بدعا فى هذا الوصف وإذن فلا شبهة للذين زعموا أنه إله ، لأنه لم يجئ بشىء زائد على ما جاء به الرسل .

وقوله : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ ﴾ والقصد من وصف مريم بذلك مدحها والثناء عليها ، ونفى أن يكون لها وصف أعلى من ذلك ، فهى ليست إلها ، كما أنها ليست رسولا .

ولذا قال ابن كثير : دلت الآية على أن مريم ليست بنبية - كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم عيسى ونبوة أم موسى - استدلالا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم وبقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ والذى عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيا إلا من الرجال - قال تعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ .. ﴾

وقوله : ﴿ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ جملة مستأنفة لبيان خواصهما الآدمية بعد بيان منزلتهما السامية عند الله - تعالى - .

وقد اختيرت هذه الصفة لهما من بين صفات كثيرة كالمشرب والملبس ، لأنها صفة واضحة ظاهرة للناس ، ودالة على احتياجهما لغيرهما فى مطلب حياتهما ، ومن يحتاج إلى غيره لايكون إلها .

قال صاحب الكشاف : لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفض ، لم يكن إلا جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة ، وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف كغيره من الأجسام وحاشا للإله أن يكون كذلك .[١]

ففى هذه الجملة الكريمة رد على ما زعمه الضالون فى شأن عيسى وأمه بأبلغ وجه وأحكمه ، ولذا عجب الله - تعالى - رسوله وكل من يصلح للخطاب من جهلهم وبعدهم عن الحق مع وضوحه وظهوره فقال : ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أى : يصرفون ، يقال أفكه يأفكه إذا صرفه عن الشىء .

أى : انظر - يامحمد - كيف نبين لهم الأدلة المنوعة على حقيقة عيسى وأمه بيانا واضحا ظاهرا ، ثم انظر بعد ذلك كيف ينصرفون عن الإصاخة إليها والتأمل فيها لسوء تفكيرهم ، واستيلاء الجهل والوهم والعناد على عقولهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٦٦٥ .

فالجملتان الكريمتان تعجيب لكل عاقل من أحوالهم الغريبة وجىء بثم المفيدة للتراخى فى قوله : ﴿ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ لإظهار مابين وضوح الآيات وانصرافهم عنها من تفاوت شديد ، أى : أن بياننا للآيات أمر بديع فى بابه بحيث يجعل كل عاقل يستجيب لها ، ويخضع لما تدعو إليه من هدايات وخيرات ، وانصراف هؤلاء الضالين عنها - مع وضوحها وتعاضد مايوجب قبولهم - أمر يدعو إلى العجب الشديد من جهلهم وضلالهم وسوء تفكيرهم .

هذا وفى سورة التوبة آيات كريمة ، حكت أقوال الضالين ، الذين قال بعضهم بأن «عزيرا» ابن الله ، وقال آخرون بأن «المسيح ابن الله» وردت على أقوالهم هذه بما يبطلها ، وبما يعجب العقلاء من سفههم وجهلهم .

وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ، ونعمان ابن أوفى ، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف فقالوا : كيف نتبعك ـ يامحمد ـ وقد تركت قبلتنا ، وأنت لاتزعم أن عزيرا ابن الله ، فأنزل الله فى ذلك الآية : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ . . ﴾ (١)

و«عزير» كاهن يهودى سكن بابل سنة ٤٥٧ ق .م تقريبا ، ومن أعماله أنه جمع أسفار التوراة ، وأدخل الأحرف الكلدانية عوضا عن العبرانية القديمة ، وألف أسفار : الأيام ، وعزرا ، ونحميا .

وقد قدسه اليهود من أجل نشره لكثير من علوم الشريعة ، وأطلقوا عليه لقب «ابن الله» .

وقد نسب ـ سبحانه ـ القول إلى جميع اليهود مع أن القائل بعضهم ، لأن الذين لم يقولوا ذلك لم ينكروا على غيرهم قولهم ، فكانوا مشاركين لهم فى الإثم والضلال ، وفيما يترتب على ذلك من عقاب .

وأما قول النصارى «المسيح ابن الله» فهو شائع مشهور ، ومن أسبابه أن الله ـ تعالى ـ قد خلق عيسى بدون أب على خلاف ما جرت به سنته فى التوالد والتناسل ، فقالوا عنه : «ابن الله» .

وقد حاجهم ـ سبحانه ـ فى سورة آل عمران بأن آدم قد خلقه الله من غير أب أو أم ، فكان أولى بنسبة البنوة إليه ، لكنهم لم ينسبوا إليه ذلك ، فينبغى أن يكون عيسى كآدم .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ذم لهم على ما نطقوا به من سوء يمجه العقل السليم ، والفكر القويم .

أى : ذلك الذى قالوه فى شأن «عزير والمسيح» قول تلوكه ألسنتهم فى أفواههم بدون تعقل ، ولامستند لهم فيما زعموه سوى افترائهم واختلاقهم ، فهو من الألفاظ الساقطة التى لاوزن لها ولاقيمة ، فقد قامت الأدلة السمعية والعقلية على استحالة أن يكون لله ولد أو والد أو صاحبة أو شريك .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١٠ ص١١٠ .

قال - تعالى - :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ .(١)

ولقد أنذر - سبحانه - الذين نسبوا إليه الولد بالعقاب الشديد فقال : ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ .(٢)

وأسند - سبحانه - القول إلى الأفواه مع أنه لايكون إلا بها ، لاستحضار الصورة الحسية الواقعية ، حتى لكأنها مسموعة مرئية ولبيان أن هذا القول لاوجود له فى عالم الحقيقة والواقع ، وإنما هو قول لغو ساقط وليد الخيالات والأوهام ، ولزيادة التأكيد فى نسبة هذا القول إليهم ، أى : أنه قول صادر منهم وليس محكيا عنهم .

والمراد بالذين كفروا من قبل : جميع الأمم التى ضلت وانحرفت عن الحق ، وأشركت مع الله فى العبادة آلهة أخرى .

والمعنى : أن هؤلاء الضالين الذين قال بعضهم «عزير ابن الله» وقال البعض الآخر : «المسيح ابن الله» ليس لهم على قولهم الباطل هذا دليل ولا برهان ، ولكنهم يشابهون ويتابعون فيه قول الذين كفروا من قبلهم من الأمم ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ .(٣)

وقوله : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ تعجيب من شناعة قولهم ، ودعاء عليهم بالهلاك فإن من قاتله الله لابد أن يقتل ، ومن غالبه لابد أن يغلب .

وعن ابن عباس ، أن معنى ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ لعنهم الله ، وكل شىء فى القران قتل فهم لعن .(٤)

وقوله : ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ تعجيب آخر من انصرافهم الشديد عن الحق الواضح إلى الباطل المظلم المعقد .

---

(١) سورة مريم الآيات : ٨٨ - ٩٥ .
(٢) سورة الكهف الآيتان ٤ ، ٥ .
(٣) سورة الصافات : الآية ٧٠ .
(٤) تفسير ابن جرير جـ١٠ ص١١٣ .

و﴿ أَنَّىٰ ﴾ بمعنى كـيف ، و﴿ يُؤْفَكُونَ ﴾ من الإفك بمعنى الانصـراف عن الشىء والابتعاد عنه ، يقال : أفكه عن الشىء يأفكه أفكا ، أى : صرفه عنه وقلبه ، ويقال : أفكت الأرض أفكا ، أى : صرف عنها المطر .

والمعنى : قاتل الله هؤلاء الذين قالوا : ﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ والذين قالوا : ﴿ وَالْمَسِيحَ ابْنُ اللَّهِ ﴾ لأنهم بقولهم هذا محل مقت العقلاء وعجبهم ، إذ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل ، بعد وضوح الدليل على استحالة أن يكون له - تعالى - ولد أو والد أو صاحبة أو شريك؟!

إن ما قالوه ظاهر البطلان وهو محل عجب العقلاء واستنكارهم وغضبهم .

وقوله - سبحانه - : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ بيان للون آخر من ألوان انحراف اليهود والنصارى عن الحق إلى الباطل ، وتقرير لما سبقت حكايته عنهم من أقوال فاسدة ، وأفعال ذميمة .

والضمير فى قوله : ﴿ اتَّخَذُوا ﴾ يعود إلى الفريقين اللذين حكت الآية السابقة ما قالوه من باطل وبهتان .

والأحبار : علماء اليهود جمع حبر - بكسر الحاء وفتحها - وهو الذى يحسن القول ويتقنه ، مأخوذ من التحبير بمعنى التحسين والتزيين ، ومنه ثوب محبر أى جمع الزينة والحسن .

والرهبان : علماء النصارى جمع راهب وهو الزاهد فى متع الدنيا ، المنعزل عن الناس مأخوذ من الرهبة بمعنى الخشية والخوف من الله - تعالى - .

والمراد باتخاذهم لأحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، أنهم أطاعوهم فيما أحلوه لهم ، وفيما حرموه عليهم ، ولو كان هذا التحليل والتحريم مخالفا لشرع الله .

وهذا التفسير مأثور عن رسول الله ﷺ فقد روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام : وكان قد تنصر فى الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومها ، ثم مَنَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها حريتها فرجعت إلى أخيها ، فرغبته فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدى المدينة ، وكان رئيسا فى قومه طيئ وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفى عنق عدى صليب من فضة ، وكان الرسول يقرأ هذه الآية ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ .

قال عُدَى : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ، فقال : بلى إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم .

قال ابن كثير : وهكذا قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهما فى تفسير هذه الآية : إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .[1]

وقوله : ﴿ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أَحْبَارَهُمْ ﴾ والمفعول الثانى بالنسبة إليه محذوف أى : اتخذوه ربا وإلها .

وقوله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ جملة حالية أى : اتخذ هؤلاء المفترون على الله الكذب أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، بأن أطاعوهم فيما يحلونه لهم وفيما يحرمونه عليهم ولو كان ذلك مخالفا لشرع الله ، وكذلك اتخذ النصارى المسيح ابن مريم ربا وإلها .

والحال أنهم جميعا ما أمروا على ألسنة رسلهم إلا بعبادة الله وحده ، فهو المعبود الذي لاتعنو الوجوه إلا له ، ولايكون الاعتماد إلا عليه ، وكل ما سواه فهو مخلوق له .

وقوله : ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ صفة ثانية لقوله : ﴿ إِلَهًا ﴾ أو هو استئناف بيانى لتعليل الأمر بعبادة الله وحده ، وأنه ـ سبحانه ـ هو المستحق لذلك شرعا وعقلا .

وقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزيه له عن الشرك والشركاء إثر الأمر بإخلاص العبادة له .

أى : تنزه الله ـ عز وجل ـ وتقدس عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد ، فهو رب العالمين وخالق الخلائق أجمعين .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك مايهدف إليه أهل الكتاب من وراء أقاويلهم الكاذبة ، ودعاواهم الباطلة فقال : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ .

والمعنى : يريد هؤلاء الكافرون بالحق من أهل الكتاب أن يقضوا على دين الإسلام ، وأن يطمسوا تعاليمه السامية التى جاء بها نبيه ﷺ عن طريق أقاويلهم الباطلة الصادرة عن أفواههم من غير أن يكون لها مصداق من الواقع تنطبق عليه ، أو أصل تستند إليه ، وإنما هى أقوال من قبيل اللغو الساقط المهمل الذى لاوزن له ولاقيمة .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٣٤٨ .

وقوله : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ بشارة منه ـ سبحانه ـ للمؤمنين ، وتقرير لسنته التى لاتتغير ولاتتبدل فى جعل العاقبة للحق وأتباعه .

والمعنى : يريد أعداء الله أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والحال أن الله ـ تعالى ـ لا يريد إلا إتمام هذا النور ، ولو كره الكافرون هذا الإتمام لأتمه ـ سبحانه ـ دون أن يقيم لكراهتهم وزنا .

فالآية الكريمة وعد من الله ـ تعالى ـ للمؤمنين بإظهار دينهم وإعلاء كلمتهم لكى يمضوا قدما إلى تنفيذ ما كلفهم الله به بدون إبطاء أو تثاقل ، وهى فى الوقت نفسه تتضمن فى ثناياها الوعيد لهؤلاء الضالين وأمثالهم .

ثم أكد ـ سبحانه ـ وعده بإتمام نوره ، وبين كيفية هذا الإتمام فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ .

والمعنى : هو الله ـ سبحانه ـ الذى أرسل رسوله محمدا ﷺ بالقرآن الهادى للتى هى أقوم ، وبالدين الحق الثابت الذى لاينسخه دين آخر ، وكان هذا الإرسال لإظهار هذا الدين الحق على سائر الأديان بالحجة والغلبة ، ولإظهار رسوله ﷺ على أهل الأديان كلها ، بما أوحى إليه ـ سبحانه ـ من هدايات وعبادات ، وتشريعات ، وآداب ، فى اتباعها سعادة الدنيا والآخرة .

وختم ـ سبحانه ـ هذه الآية بقوله : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ وختم التى قبلها بقوله : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ للإشعار بأن هؤلاء الذين قالوا : «عزيز ابن الله والمسيح ابن الله» قد جمعوا بسبب قولهم الباطل هذا ، بين رذيلتى الكفر والشرك ، وأنه ـ سبحانه ـ سيظهر أهل دينه على جميع الأديان الأخرى .

هذا ، ومن كل ما سبق يتبين لنا أن القرآن الكريم قد ذم الذين نسبوا الألوهية أو البُنُوَّةَ إلى عيسى ـ عليه السلام ـ ذما شديدا ، وتوعدهم بسوء المصير ، وبالعذاب الشديد ، جزاء إصرارهم على كفرهم ، وضلالهم وجهلهم .

حديث القرآن عن أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ

أرسل الله ـ تعالى ـ رسوله عيسى ابن مريم إلى قومه ، ليدعوهم إلى إخلاص العبادة لخالقهم ، ولينهاهم عن عبادة غيره ، وليأمرهم بالتحلى بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، فمنهم من آمن به وصدقه ، وقال له : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

ومنهم من آمن به وصدقه ، ولكنه انحرف عن هديه وأحدث فى الدين الذى جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ ماليس منه ، ومنهم من استمر على إيمانه وصدقه وإخلاصه العبادة لله الواحد القهار ، فلما جاء محمد ﷺ بالدين الذى ارتضاه الخالق ـ عز وجل ـ للناس ختام الأديان ، آمن بالرسول ﷺ وبجميع الرسل السابقين دون أن يفرق بين أحد منهم .

وفى سورة «الحديد» آيات كريمة تحدثت عن طائفة من أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ ابتدعوا فى الدين ماليس منه ، وطائفة أخرى من أتباعه استمروا على الإيمان الحق ، الخالى من البدع والأهواء ، وطائفة ثالثة انحرفت عن الحق الذى جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ انحرافا شديدا وهذه الآيات هى قوله ـ تعالى ـ :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ . . ﴾ معطوف على جملة : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ عطف الخاص على العام .

أى : لقد أرسلنا رسلا كثيرين ، وبالله لقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ، وجعلنا فى ذريتهما عددا من الأنبياء ، وأوحينا إليهم كتبنا ، التى تهدى أقوامهم إلى طريق الحق ، كالتوراة التى أنزلناها على موسى ، وكالزبور الذى أنزلناه على داود .

وخص ـ سبحانه ـ نوحا وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ بالذكر لشهرتهما ولأن جميع الأنبياء من نسلهما .

والضمير فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أى : فمن ذريتهم من اهتدى إلى الدين الحق ، وآمن به ، وقام بأداء تكاليفه ، وكثير من أفراد هذه الذرية فاسقون ، أى : خارجون عن الاهتداء إلى الحق ، منغمسون فى الكفر والضلال .

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ والتقفية اتباع الرسول برسول آخر يقال : قفا فلان أثر فلان ، إذا اتبعه ، وقفى على أثره بفلان ، إذا أتبعه إياه ، وأصله من القفا وهو مؤخر العنق ، فكأن الذى يتبع أثر غيره قد أتاه من جهة قفاه .

وضمير الجمع فى قوله : ﴿ آثَارِهِم ﴾ يعود إلى نوح وإبراهيم وذريتهما الذين كانت فيهم النبوة والكتاب .

أى : ثم أرسلنا بعدهم رسولا بعد رسول ، حتى انتهينا إلى عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ﴾ أى : أوحيناه إليه ليكون هداية لقومه .

قالوا : والإنجيل كلمة يونانية من النجل وهو فى الأصل ، يقال : رحم الله نجليه ، أى : والديه ، وقيل : الإنجيل مأخوذ من نجلت الشىء إذا استخرجته وأظهرته ، ويقال للماء الذى يخرج من البئر : نجل ، وقيل هو من النجل الذى هو سعة العين ، ومنه قولهم : طعنة نجلاء ، أى : واسعة .

وسمى الإنجيل بهذا الاسم ، لأنه سعة ونور وضياء ، أنزله الله ـ تعالى ـ على نبيه عيسى ، ليكون بشارة وهداية لقومه .[1]

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٧ ص١٧١ .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض السمات التى كانت واضحة فى أتباع عيسى فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ .

والرأفة : اللين وخفض الجناح ، والرحمة ، العطف والشفقة .

قالوا : وعطف الرحمة على الرأفة من باب عطف العام على الخاص ، لأن الرأفة ، رحمة خاصة ، تتعلق بدفع الأذى والضر ، أما الرحمة فهى أشمل وأعم ، لأنها عطف وشفقة على كل من كان فى حاجة إليها .

و«الرهبانية» معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان ، وهم النصارى المبالغون فى الرهبة والخوف من الله ـ تعالى ـ والزهد فى متاع الحياة الدنيا .

والمعنى : ثم أتبعنا كل رسول من ذرية نوح وإبراهيم برسول آخر ، حتى انتهينا إلى عيسى ـ عليه السلام ـ فأرسلناه إلى بنى إسرائيل وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه وآمنوا به ﴿ رَأْفَةً ﴾ أى : لينا وخفض جناح ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أى : شفقة وعطفا ، وحب رهبانية مبتدعة منهم ، أى : هم الذين ابتدعوها واخترعوها واختاروها لأنفسهم ، زهدا فى متاع الحياة الدنيا .

ونحن ما كتبنا عليهم هذه الرهبانية ، وإنما هم الذين ابتدعوها من أجل أن يرضى الله عنهم ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أى : ولكنهم بمرور الأيام ، لم يحافظ كثير منهم على ما تقتضيه هذه الرهبانية من زهد وتقى وعفاف ، بل صارت طقوسا خالية من العبادة الصحيحة ، ولم يصبر على تكاليفها إلا عدد قليل منهم .

ولذا ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

أى : أما الذين استمروا على اتباعهم لعيسى ـ عليه السلام ـ وعلى الإيمان بالحق إيمانا صحيحا خاليا ممايفسده ، فقد أعطيناهم أجورهم الطيبة كاملة غير منقوصة .

وأما الذين بدلوا ما جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ حيث كفروا به وقالوا : الله ثالث ثلاثة ، أو قالوا : المسيح ابن الله فسيلقون ما يستحقونه من عقاب .

وقوله : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ يدل على أن الذين خرجوا عن الدين الحق الذى جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ وفسقوا عن أمر ربهم ، أكثر من الذين آمنوا به إيمانا صحيحا .

فالآية الكريمة تثنى على الذين أحسنوا اتباع عيسى ـ عليه السلام ـ فطهروا أرواحهم من كل دنس ، وزهدوا فى متع الحياة الدنيا ، وتذم الذين بدلوا ماجاء به عيسى ـ عليه السلام ـ وقالوا الأقوال الباطلة فى شأنه ، وفعلوا الأفعال القبيحة التى تغضب الله ـ تعالى ـ :

وفى سورة «المائدة» آيات كريمة ، مدحت قوما من أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ استمروا على إخلاصهم العبادة لله الواحد القهار ، فلما أدركوا دعوة الإسلام التى جاء بها محمد ﷺ اتبعوه وصدقوه وآمنوا به وبجميع الرسل الذين سبقوه وهذه الآيات هى قوله ـ تعالى ـ :

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : بعث النجاشى وفدا إلى رسول الله ﷺ فأسلموا ، قال : فأنزل الله فيهم : ﴿ لَتجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذينَ آمَنُوا الْيَهُودَ ﴾ إلى آخر الآية ، قال : فرجعوا إلى النجاشى فأخبروه فأسلم النجاشى فلم يزل مسلما حتى مات ، فقال رسول الله ﷺ : إن أخاكم النجاشى قد مات فصلوا عليه فصلى عليه رسول الله ﷺ بالمدينة والنجاشى بالحبشة .

ثم قال ابن جرير بعد أن ساق روايات أخرى فى سبب نزول هذه الآيات : والصواب فى ذلك من القول عندى ، أن الله ـ تعالى ـ وصف صفة قوم قالوا : إنا نصارى ، وأن نبى

الله ﷺ يجدهم أقرب الناس مودة لأهل الإيمان بالله ورسوله ، ولم يسم لنا أسماءهم وقد يجوز أن يكون أريد بذلك أصحاب النجاشى ويجوز أن يكون أريد به قوم كانوا على شريعة عيسى فأدركهم الإسلام فأسلموا ، لما سمعوا القرآن ، وعرفوا أنه الحق ، ولم يستكبروا عنه .[1]

فقوله ـ تعالى ـ : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ جملة مستأنفة لتقرير ماقبلها من آيات سجلت على اليهود كثيرا من الصفات القبيحة والمسالك الخبيثة .

والمعنى : أقسم لك يامحمد بأنك عند مخالطتك للناس ودعوتهم إلى الدين الحق ، ستجد أشدهم عداوة لك ولأتباعك فريقين منهم : وهما اليهود والذين أشركوا ، لأن عداوتهم منشؤها الحقد والحسد والعناد والغرور ، وهذه الرذائل متى تمكنت فى النفس حالت بينها وبين الهداية والإيمان بالحق .

وقوله : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾ معطوف على ماقبله لزيادة التوضيح والبيان .

أى : لتجدن يامحمد أشد الناس عداوة لك ولأتباعك ـ اليهود ـ والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة ومحبة لك ولأتباعك الذين قالوا إنا نصارى .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ تعليل لقرب مودة النصارى للمؤمنين .

والقسيسين : جمع قسيس ، وأصله من قس إذا تتبع الشىء فطلبه ، وهم علماء النصارى والمرشدون لهم .

والرهبان : جمع راهب كركبان جمع راكب وتطلق كلمة رهبان على المفرد كما تطلق على الجمع ، والراهب هو الرجل العابد الزاهد المنصرف عن الدنيا ، مأخوذ من الرهبة بمعنى الخوف ، يقال : رهب فلان ربه يرهبه ، أى : خافه .

والمعنى : ولتجدن يامحمد أقرب الناس مودة لك ولأتباعك الذين قالوا إنا نصارى ، وذلك لأن منهم القسيسين الذين يرغبون فى طلب العلم ، ويرشدون غيرهم إليه ، ومنهم الرهبان الذين تفرغوا لعبادة الله وانصرفوا عن ملاذ الدنيا وشهواتهم وأيضا فلأن هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى من صفاتهم أنهم لايستكبرون عن اتباع الحق ، والانقياد له إذا فهموه أو أنهم متواضعون وليسوا مغرورين أو متكبرين .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٧ ص٣ .

قال الآلوسى : وفى الآية دليل على أن صفات التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات محمودة أينما كانت .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما كان منهم عند سماعهم لما أنزل الله ـ تعالى ـ على رسوله من هدايات فقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ والمراد بالرسول : محمد ﷺ وبما أنزل إليه : القرآن الكريم .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ والضمير فى قوله ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا ﴾ يعود على الذين قالوا : إنا نصارى بعد أن عرفوا الحق وآمنوا به .

أى : أن من صفات هؤلاء الذين قالوا : إنا نصارى زيادة على ما تقدم ، أنهم إذا سمعوا ما أنزل على رسول الله ﷺ من قرآن تأثرت قلوبهم ، وخشعت نفوسهم وسالت الدموع من أعينهم بغزارة وكثرة من أجل ما عرفوه من الحق الذى بينه لهم القرآن الكريم بعد أن كانوا غافلين عنه .

وفى التعبير عنهم بقوله : ﴿ تَرَىٰ ﴾ الدالة على الرؤية البصرية والتى هى أقوى أسباب العلم الحسى ، مبالغة فى مدحهم ، حيث يراهم الرائى وهم على تلك الصورة من رقة القلب وشدة التأثر عند سماع الحق ، لأنهم عندما سمعوه أشرقت له نفوسهم ودخلوا فى نوره وهدايته وأعينهم تتدفق بالدموع من شدة تأثرهم به وحبهم له .

وقوله : ﴿ تَفِيضُ ﴾ من الفيض وهو انصباب عن امتلاء : يقال فاض الإناء إذا امتلأ حين سال من جوانبه .

وقد أجاد صاحب الكشاف فى تصوير هذا المعنى فقال : فإن قلت : مامعنى قوله : ﴿ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ قلت : معناه تمتلئ من الدمع حتى تفيض ، لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع مافيه من جوانبه ، فوضع الفيض الذى هو من الامتلاء موضع الامتلاء وهو من إقامة المسبب مقام السبب ، أو قصدت المبالغة فى وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها ، أى : تسيل من الدمع من أجل البكاء من قولك : دمعت عينه دمعا .

فإن قلت : أى فرق بين مِنْ ومِنْ فى قوله : ﴿ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ قلت : الأولى لابتداء الغاية على أن فيض الدمع ابتدأ ونشأ من معرفة الحق ، وكان من أجله وبسببه ، والثانية لتبيين الموصول الذى هو ما عرفوا وتحتمل معنى التبعيض على أن عرفوا بعض الحق ، فأبكاهم وبلغ منهم فكيف إذا عرفوه كله وقرءوا القرآن وأحاطوا بالسنة؟[1]

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٦٧٠ .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه بعد سماعهم للحق فقال : ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

أى : يقولون بعد أن سمعوا الحق : يا ربنا إننا آمنا بما سمعنا إيمانا صادقا فاكتبنا مع أمة محمد ﷺ التى آمنت به وشهدت بصدق رسولك محمد ﷺ وبصدق كل رسول أرسلته إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك عنهم ما علمه منهم من إصرارهم على الدخول فى الدين الحق ، فقال : ﴿ وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ .

فالآية الكريمة من تتمة قولهم .

والاستفهام هنا لإنكار انتفاء الإيمان منهم مع قيام موجباته ، وظهور أماراته ووضوح أدلته وشواهده .

والمعنى : وأى مانع يمنعنا من الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد ، وبما جاءنا على لسان رسوله محمد ﷺ من قرآن يهدى إلى الرشد ومن توجيهات توصل إلى السعادة ونحن نطمع أن يدخلنا ربنا - بسبب إيماننا - مع القوم الذين صلحت أنفسهم بالعقيدة السليمة ، وبالعبادات الصحيحة وبالأخلاق الفاضلة وهم أتباع هذا النبى الأمى محمد ﷺ فأنت تراهم بعد أن استمعوا إلى القرآن تأثرت نفوسهم به تأثرا شديدا ، فاضت معه أعينهم بالدمع ، ثم بعد ذلك التمسوا من الله - تعالى - أن يكتبهم مع الأمة الإسلامية التى تشهد على غيرها يوم القيامة ، ثم بعد ذلك استنكروا واستبعدوا أن يعوقهم معوق عن الإيمان الصحيح مع قيام موجباته ، وهذا كله يدل على صفاء نفوسهم وطهارة قلوبهم ومسارعتهم إلى قبول الحق عند ظهوره بدون تردد أو تقاعس .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ﴿ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا ﴾ يدل على قوة إيمانهم ، وصدق يقينهم ، لأنهم مع هذا الإقبال الشديد ، على الدين الحق والمسارعة إلى العمل الصالح ، لم يجزموا بحسن عاقبتهم ، بل التمسوا من الله - تعالى - الطمع فى مغفرته وفى أن يجعلهم مع القوم الصالحين من أمة محمد ﷺ .

وهكذا المؤمن الصادق يستصغر عمله بجانب فضل الله ونعمه ، ويقف من جزائه وثوابه - سبحانه - موقف الخوف والرجاء .

ولقد كان ما أعده الله - تعالى - لهؤلاء الأصفياء من ثواب شيئا عظيما ، عبر عنه - سبحانه - بقوله : ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

أى : فكافأهم الله - تعالى - بسبب أقوالهم الطيبة الدالة على إيمانهم وإخلاصهم ، جنات تجرى من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : باقين فى تلك الجنات بقاء لاموت معه ، ﴿ وَذَلِكَ ﴾ العطاء الجزيل الذى منحه الله لهم ﴿ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى : المؤمنين المخلصين فى أقوالهم وأعمالهم .

والمراد بقوله : ﴿ بِمَا قَالُوا ﴾ ماسبق أن حكاه عنهم - سبحانه - من قولهم : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ورتب الثواب المذكور على القول : لأنه قد سبق وصفهم بما يدل على إخلاصهم ، وعلى صدق يقينهم ، والقول إذا اقترن بذلك فهو الإيمان .

وقد بينت هذه الآية الكريمة أنه - سبحانه - قد أجابهم إلى ما طلبوا ، بل أكبر مما طلبوا ، فقد كانوا يطمعون فى أن يكونوا مع القوم الصالحين ، وأن يكتبهم مع الشاهدين ، فأعطاهم - سبحانه - جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وسماهم محسنين ، والإحسان أعلى درجات الإيمان ، وأكرم أوصاف المتقين .

هذا جزاء الذين سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﷺ فآمنوا به ، وقالوا ما قالوا مما يشهد بصفاء نفوسهم ، أما الذين سمعوا فأعرضوا وجحدوا فقد بين - سبحانه - مصيرهم السيئ بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ .

أى : والذين كفروا وجحدوا الحق الذى جاءهم ، وكذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق رسلنا فأولئك أصحاب الجحيم ، أى : النار الشديدة الاتقاد ، يقال : جحم فلان النار إذا شدد إيقادها .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت أولئك الذين قالوا إنا نصارى ، لأنهم تأثروا بالقرآن عند سماعه فدخلوا فى الدين الحق بسرعة ورغبة ، فأكرمهم الله غاية الإكرام ، وهذا ينطبق على كل نصرانى ينهج نهجهم ، ويسلك مسلكهم ، فيدخل فى الدين الحق كمادخل هؤلاء المحسنون .

أما الذين كفروا وكذبوا بآيات الله وحججه فأولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير .

موقف مشركى قريش من عيسى

ـ عليه السلام ـ

مدح النبى ﷺ إخوانه من الرسل السابقين مدحا عظيما ، وأثنى على أخيه عيسى ابن مريم ثناء مستطابا ، وقال فى شأنه «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم فى الأولى والآخرة ، وليس بينى وبينه نبى» .

ولكن مشركى قريش كانوا يقابلون مايقوله الرسول ﷺ بالجحود والعناد .

ومن الآيات التى حكت موقفهم السيىء من عيسى ـ عليه السلام ـ قوله ـ تعالى ـ :

وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً . . ﴾ روايات منها أنه لما نزل قوله ـ تعالى ـ :﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا . . ﴾ تعلق المشركون بأمر عيسى وقالوا : مايريد محمد ﷺ إلا أن نتخذه إلها ، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم فأنزل الله ـ تعالى ـ ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً . . ﴾ .

وقال الواحدى : أكثر المفسرين على أن هذه الآية ، نزلت فى مجادلة ابن الزبعرى ـ قبل أن يسلم ـ مع النبى ﷺ فإنه لما نزل قوله ـ تعالى ـ ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ . . ﴾ .

قال ابن الزبعرى خصمتك ـ يا محمد ـ ورب الكعبة ـ أليست النصارى يعبدون المسيح ، واليهود يعبدون عزيرا ، وبنو مليح يعبدون الملائكة؟ فإن كان هؤلاء فى النار ، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا فى النار؟

فقال له النبى ﷺ : «ما أجهلك بلغة قومك؟ أما فهمت أن ﴿ ما ﴾ لما لايعقل»؟

وفى رواية أنه ﷺ قال له : «إنهم يعبدون الشيطان» وأنزل الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . . ﴾ [1] وكلمة ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ قرأها الجمهور بكسر الصاد ، وقرأها ابن عامر والكسائى بضم الصاد ، وهما بمعنى واحد ، ومعناهما : يضجون ويصيحون فرحا ، يقال : صد يصد ـ بكسر الصاد وضمها ـ بمعنى ضج ـ كعكف ـ بضم الكاف وكسرها .

ويرى بعضهم أن ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ ـ بكسر الصاد ـ بمعنى : يضجون ويصيحون ويضحكون ، وأن ـ ﴿ يَصُدُّونَ ﴾ بضم الصاد ـ بمعنى يعرضون ، من الصد بمعنى الإعراض عن الحق .

والمعنى : وحين ضرب ابن الزبعرى ، عيسى ابن مريم مثلا ، وحاجك بعبادة النصارى له ، فاجأك قومك ـ كفار قريش ـ بسبب هذه المحاجة ، بالصياح والضجيج والضحك ، فرحا منهم بما قاله ابن الزبعرى ، وظنا منهم أنه قد انتصر عليك فى الخصومة والمجادلة .

والمراد بالمثل هنا : الحجة والبرهان .

ثم بين ـ سبحانه ـ أقوالهم التى بنوا عليها باطلهم فقال : ﴿ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ . . ﴾ ؟ والضمير ﴿ هُوَ ﴾ يعود إلى عيسى ـ عليه السلام ـ .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٧ ص٢٢٠ ، والشوكانى جـ٤ ص٥٦١ ، والآلوسى جـ٢٥ ص٩٤ .

ومرادهم بالاستفهام تفضيل عيسى ـ عليه السلام ـ على آلهتهم ، مجاراة للنبى ﷺ .

فكأنهم يقولون : لقد أخبرتنا بأن عيسى بن مريم رسول من رسل الله ـ تعالى ـ وأنه خير من آلهتنا ، فإن كان فى النار يوم القيامة لأن الله ـ تعالى ـ يقول : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ . . ﴾ فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا فى النار .

وقد أبطل الله زعمهم هذا بقوله : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ .

أى : لاتهتم ـ أيها الرسول الكريم ـ بما قالوه ، فإنهم ما ضربوا لك هذا المثال بعيسى إلا من أجل مجادلتك بالباطل ، وليس من أجل الوصول إلى الحق .

وقوله : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ مؤكد لما قبله من كونهم قالوا ذلك لأجل الجدل بالباطل ، لا لطلب الحق ، وإضراب عن مزاعمهم وعن مجاراتهم فى خصومتهم .

أى : ذرهم ـ أيها الرسول الكريم ـ فى باطلهم يعمهون ، فإنهم قوم مجبولون على الخصومة ، وعلى اللجاج فى الباطل .

فقوله : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ جمع خصم ـ بفتح فكسر ـ وهو الإنسان المبالغ فى الجدل والخصومة ، دون أن يكون هدفه الوصول إلى الحق .

وجاء التعبير فى قوله : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ بصيغة الجمع ، مع أن ضارب المثل واحد ، وهو ابن الزبعرى ، لأن إسناد فعل الواحد إلى الجماعة ، من الأساليب المعروفة فى اللغة العربية ، ومنه قول الشاعر :

فسَيْفُ بنى عبس وقد ضربوا به ... نبا بيدى ورقاء عن رأس خالد

فإنه قد نسب الضرب إلى جميع بنى عبس ، مع تصريحه بأن الضارب واحد ، وهو ورقاء ، ولأنهم لما أيدوا ابن الزبعرى فى قوله ، فكأنهم جميعا قد قالوه .

ثم بين ـ سبحانه ـ حقيقة عيسي ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ .

أى : ليس هو أى : عيسى ـ عليه السلام ـ إلا عبد من عبادنا الذين أنعمنا عليهم بنعمة النبوة ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً ﴾ أى : أمرا عجيبا ، جديرا بأن يسير ذكره كالأمثال ﴿ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الذين أرسلناه إليهم ، حيث خلقناه من غير أب ، وأعطيناه المعجزات الباهرات التى منها : إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وهذا كله دليل على وحدانيتنا ، وكمال قدرتنا ونفاذ إرادتنا .

فالآية الكريمة ترفع من شأن عيسى ـ عليه السلام ـ وتحدد منزلته ، وتنفى عنه غلو المغالين فى شأنه ، وإنقاص المنقصين من قدره .

ثم أكد ـ سبحانه ـ كمال قدرته فقال : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ .

و«من» فى قوله ـ تعالى ـ ﴿ مِنكُم ﴾ يصح أن تكون للبدلية ، فيكون المعنى : ولو نشاء إهلاككم أيها الكافرون لفعلنا وجعلنا بدلا منكم ملائكة يخلفونكم بعد موتكم ، ولكنا لم نشأ ذلك لحكم نحن نعلمها .

ويصح أن تكون للتبعيض فيكون المعنى : ولو نشاء لجعلنا منكم يا رجال قريش ملائكة ، بطريق التوليد منكم ، من غير واسطة نساء ، فهذا أمر سهل علينا ، مع أنه أعجب من حال عيسى الذى تستغربونه ، لأنه جاء من غير أب ، مع أن الأم من طبيعتها الولادة .

فالمقصود بالآية الكريمة بيان أن قدرة الله ـ تعالى ـ لايعجزها شىء ، وأن ما تعجبوا منه ، الله ـ تعالى ـ قادر على أن يأتى بما هو أعجب منه .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا ﴾ لقدرتنا على خلق عجائب الأمور وبدائع الفطر ، ﴿ لَجَعَلْنَا مِنكُم ﴾ أى : لولدنا منكم يا رجال ﴿ مَّلائِكَةً ﴾ يخلفونكم فى الأرض ، كما يخلفكم أولادكم ، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل ، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ، ولتعلموا أن الملائكة أجسام ، وذات الله ـ تعالى ـ متعالية عن ذلك .[1]

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض مايتعلق بعيسى ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ .

فالضمير فى ﴿ إِنَّهُ ﴾ يعود إلى عيسى لأن السياق فى شأنه ، وقيل يعود إلى القرآن أو إلى الرسول ﷺ وضعف ذلك لأن الكلام فى شأن عيسى .

والمراد بالعلْم : العلامة ، واللام فى قوله : ﴿ لِّلسَّاعَةِ ﴾ بمعنى على ، والكلام على حذف مضاف .

والمعنى : وإن عيسى ـ عليه السلام ـ عند نزوله من السماء فى آخر الزمان حيا ، ليكونن علامة على قرب قيام الساعة ، ودليلا على أن نهاية الدنيا توشك أن تقع .

قال الآلوسى : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى : عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ أى : بنزوله شرط من أشراطها .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٤ ص٢٦١ .

وقد نطقت الأخبار بنزوله ـ عليه السلام ـ فقد أخرج البخارى ومسلم والترمذى وأبوداود وابن ماجة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لينزلن ابن مريم ، حكما عدلا فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد .[1]

وقال ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ الصحيح أن الضمير يعود على عيسى فإن السياق فى ذكره ، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة كما قال ـ تعالى ـ ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ .. ﴾ أى : قبل موت عيسى .

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ : «أنه أخبر بنزول عيسى قبل يوم القيامة ، إماما عادلا ، وحكما مقسطا» .[2]

وقوله : ﴿ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ أى : فلاتشكن فى وقوعها فى الوقت الذى يشاؤه الله ـ تعالى ـ فقوله : ﴿ تَمْتَرُنَّ ﴾ من المرية بمعنى الشك والريب .

وقوله : ﴿ وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أى : واتبعوا ـ أيها الناس ـ ما جئتكم به من عند ربى ، فإن هذا الذى جئتكم به ، هو الطريق المستقيم الذى يوصلكم إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أى : ولايمنعكم الشيطان بسبب وسوسته لكم ، عن طاعتى واتباعى ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أى : إن الشيطان عداوته لكم ظاهرة ، وكيده لكم واضح ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قاله عيسى ـ عليه السلام ـ لقومه ، عندما بعثه الله إليهم فقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ ﴾ .

والبينات : جمع بينة وهى صفة لموصوف محذوف ، والمراد بها : المعجزات التى أيد الله ـ تعالى ـ بها عيسى ـ عليه السلام ـ .

والمراد بالحكمة : التشريعات ، والتكاليف والمواعظ التى أرشدهم إليها ، عن طريق الكتاب الذى أنزله الله ـ تعالى ـ إليه ، وهو الإنجيل .

---

(١) تفسير الألوسى جـ٢٥ ص٩٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ٧ ص٢٢٣ .

أى : وحين جاء عيسى ـ عليه السلام ـ إلى قومه ، قال لهم على سبيل النصح والإرشاد : ياقوم لقد جئتكم بالمعجزات البينات الواضحات التى تشهد بصدقى وجئتكم بالإنجيل المشتمل على ما تقتضيه الحكمة الإلهية من آداب وتشريعات ومواعظ .

وقوله : ﴿ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ متعلق بمحذوف والتقدير :

قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها ، وجئتكم ـ أيضا ـ لأبين لكم لأصحح لكم بعض الأمور التى تختلفون فيها .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ ولم يقل كل الذى تختلفون فيه ، للإشعار بالرحمة بهم ، وبالستر عليهم ، حيث بين البعض وترك البعض الآخر لأنه لا ضرورة تدعو إلى بيانه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا بين لهم كل الذى يختلفون فيه؟ قلت : كانوا يختلفون فى الديانات ، ومايتعلق بالتكليف ، وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته والسؤال عنه ، وإنما بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعنيهم من أمر دينهم .(١)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم ، فاتقوا الله ـ تعالى ـ بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه ، وبأن تطيعونى فى كل ما آمركم به أو أنهاكم عنه .

وإن الله ـ تعالى ـ هو ربى وربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة ، وهذا الذى آمركم به أو أنهاكم عنه ، هو الطريق القويم ، الذى يوصلكم إلى السعادة الدنيوية والأخروية

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف أهل الكتاب من دعوة عيسى ـ عليه السلام ـ فقال : ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ . . ﴾ .

والأحزاب : جمع حزب ، والمراد بهم الفرق التى تحزبت وتجمعت على الباطل من بعد عيسى .

وضمير الجمع فى قوله : ﴿ مِن بَيْنِهِمْ ﴾ يعود إلى من بعث إليهم عيسى ـ عليه السلام ـ من اليهود والنصارى .

وقيل : يعود إلى النصار خاصة ، لأنهم هم الذين اختلفوا فى شأنه ، فمنهم من قال : هو الله ، ومنهم من قال : هو ابن الله ، ومنهم من قال : ثالث ثلاثة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٤ ص١٦٢ .

قال الآلوسى : ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ ﴾ أى : الفرق المتحزبة ﴿ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ .

أى : من بين من بعث إليهم ، وخاطبهم بما خاطبهم من اليهود والنصارى وهم أمة دعوته ـ عليه السلام ـ .

وقيل : المراد النصارى ، وهم أمة إجابته ، وقد اختلفوا فرقا : ملكانية ، ومسطورية ، ويعقوبية .(١)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ بيان للعقاب الشديد الذى أعده الله ـ تعالى ـ لهم ، بسبب اختلافهم وبغيهم ، ونسبتهم إلى عيسى ماهو برىء منه .

أى : فهلاك وعذاب شديد للذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وبافترائهم على عيسى ـ عليه السلام ـ وما أشد حسرتهم فى هذا اليوم العصيب .

والاستفهام فى قوله : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ للنفى .

وينظرون بمعنى : ينتظرون ، والخطاب لكفار مكة الذين أعرضوا عن دعوة الحق .

أى : ما ينتظر هؤلاء المشركون إلا قيام الساعة ، وهذا القيام سيأتيهم فجأة ، وبدون شعور منهم بها ، وحينئذ يندمون ولن ينفعهم الندم ، ولو كانوا عقلاء لاتبعوا الحق الذى جاءهم به رسولنا ﷺ قبل فوات الأوان .

فالآية الكريمة دعوة لهؤلاء المشركين إلى الاستجابة للرسول ﷺ إذا دعاهم لما يصلحهم ، من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلال .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد وبخت المشركين على جدالهم بالباطل وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم ، وبينت الحق فى شأن عيسى ـ عليه السلام ـ وتوعدت المختلفين فى أمره ـ اختلافا يتنافى مع ماجاءهم به ـ بالعذاب الشديد .

---

(١) تفسير الالوسى جـ٢٥ ص٩٧ .

بشارة عيسى ـ عليه السلام ـ
برسالة محمد ﷺ

فى سورة «الصف» آية كريمة واضحة كل الوضوح فى أن عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ قد بشر قومه الذين بعث فيهم ، بأن رسولا من بعده سيأتى للناس بالهدى ودين الحق ، وهذا الرسول هو سيدنا محمد ﷺ وهذه الآية هى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ﴾ .

أى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ وذكر الناس ليعتبروا ويتعظوا وقت أن قال عيسى ابن مريم ، مخاطبا من أرسله الله إليهم بقوله : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم ﴾ لكى أخرجكم من ظلمات الكفر والشرك ، إلى نور الإيمان والتوحيد .

ولم يقل لهم ياقوم ـ كما قال لهم ـ موسى ـ عليه السلام ـ بل قال : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ لأنه لا أب له فيهم ، وإن كانت أمه منهم ، والأنساب إنما تكون من جهة الآباء ، لا من جهة الأمهات .

وفى قوله : ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم ﴾ إخبار صريح منه لهم ، بأنه ليس إلها وليس ابن إله ـ كما زعموا وإنما هو عبدالله ورسوله .

وقوله : ﴿ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ جملة حالية لإثبات حقيقة رسالته ، وحض لهم على تأييده وتصديقه والإيمان به .

أى : إنى رسول الله ـ تعالى ـ إليكم بالكتاب الذى أنزله الله علىَّ وهو الإنجيل ، حال كونى مصدقا للكتاب الذى أنزله الله ـ تعالى ـ على نبيه موسى ـ عليه السلام ـ وهذا الكتاب هو التوراة ، ومادام الأمر كذلك فمن حقى عليكم ، أن تؤمنوا به ، وأن تتبعونى

لأنى لم آتكم بشىء يخالف التوراة ، بل هى مشتملة على مايدل على صدقى فكيف تعرضون عن دعوتى .

وقوله : ﴿ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ ﴾ فيه نوع مجاز ، لأن مابين يدى الإنسان هو ما أمامه ، فسمى ما مضى كذلك لغاية ظهوره واشتهاره .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ معطوف على ما قبله .

والتبشير : الإخبار بما يسر النفس ويبهجها ، بحيث يظهر أثر ذلك على بشرة الإنسان ، وكان إخبارهم بأن نبيا سيأتى من بعده اسمه أحمد تبشيرا ، لأنه سيأتيهم بما يسعدهم ، ويرفع الأغلال عنهم ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

ولفظ ﴿ أَحْمَدُ ﴾ اسم من أسماء نبينا ﷺ وهو علم منقول من الصفة ، وهذه الصفة يصح أن تكون مبالغة من الفاعل ، فيكون معناها : أنه ﷺ أكثر حمدا لله ـ تعالى ـ من غيره .

ويصح أن تكون من المفعول ، فيكون معناها أنه يحمده الناس لأجل مافيه من خصال الخير ، أكثر مما يحمدون غيره .

قال الآلوسى : وهذا الاسم الجليل ، علم لنبينا محمد ﷺ وصح من رواية مالك ، والبخارى ، ومسلم ، عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لى أسماء ، أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا العاقب» .(١)

وبشارة عيسى ـ عليه السلام ـ بنبينا محمد ﷺ ثابتة ثبوتا قطعيا بهذه الآية الكريمة ، وإذا كانت بعض الأناجيل قد خلت من هذه البشارة ، فبسبب ما اعتراها من تحريف وتبديل على أيدى علماء أهل الكتاب .

ومع ذلك فقد وجدت هذه البشارة فى بعض الأناجيل ، كإنجيل يوحنا فى الباب الرابع عشر .

قال الإمام الرازى : فى الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا : وأنا أطلب لكم إلى أبى ، حتى يمنحكم ويعطيكم الفارقليط حتى يكون معكم إلى الأبد .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢٨ ص٨٦ .

والفارقليط هو روح الحق واليقين .[1]

ومنهم من يرى أن لفظ فارقليط معناه باليونانية : أحمد أو محمد .[2]

ومن أصرح الأدلة على أن صفات الرسول ﷺ موجودة فى التوراة والإنجيل ، قوله - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ﴾ .[3]

وقوله - سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ بيان لموقف بنى إسرائيل الجحودى من أنبياء الله - تعالى - .

والضمير فى قوله : ﴿ جَاءَهُم ﴾ يرى بعضهم أنه يعود لعيسى ، ويرى آخرون أنه يعود لمحمد ﷺ أى : فلما جاء عيسى - عليه السلام - أو محمد ﷺ إلى بنى إسرائيل بالايات البينات الدالة على صدقه ، قالوا على سبيل العناد والجحود : هذا سحر واضح فى بابه ، لايخفى على أى ناظر أو متأمل .

ومن المعروف أن بنى إسرائيل قد كذبوا عيسى - عليه السلام - وكفروا به ونسبوا إلى أمه الطاهرة ، ماهى بريئة منه ، ومنزهة عنه .

كما كذبوا محمدا ﷺ وكفروا به ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . [البقرة : ٨٩]

ووصفوا ما جاء به بأنه سحر مبين ، على سبيل المبالغة فكأنهم يقولون إن ما جاء به هو السحر بعينه ، مع أنهم يعرفون أن ماجاء به هو الحق كما يعرفون أبناءهم ، ولكن ماجبلوا عليه من جحود وعناد ، حال بينهم وبين النطق بكلمة الحق .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ٨ ص١٣٩ .

(٢) راجع تفسير القاسمى جـ١٦ ص٥٧٨٨ .

(٣) راجع تفسيرنا لسورة الأعراف الآية ١٥٧ ص٣٩٠ .

رفع الله ـ تعالى ـ لرسوله عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ

حديث القرآن الكريم عن رفع الله ـ تعالى ـ لعبده ورسوله عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ ورد فى آيات متعددة منها قوله ـ تعالى ـ فى سورة آل عمران :

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧)﴾

وللعلماء فى تفسير قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أقوال كثيرة أشهرها قولان :

أما القول الأول : وهو قول جمهور العلماء ـ فيرى أصحابه أن معنى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أى : قابضك من الأرض ورافعك إلى السماء بجسدك وروحك لتستوفى حظك من الحياة هناك .

وأصحاب هذا الرأى لايفسرون التوفى بالموت وإنما يقولون : إن التوفى فى اللغة معناه أخذ الشىء تاما وافيا ، فمعنى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ آخذك وافيا بروحك وجسدك ومعنى ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ورافعك إلى محل كرامتى فى السماء فالعطف للتفسير ، يقال : وفيت فلانا حقه أى : أعطيته إياه وافيا فاستوفاه وتوفاه أى أخذه وافيا كاملا .

قال القرطبى : «قال الحسن وابن جريج : معنى متوفيك قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت ، مثل توفيت مالى من فلان أى قبضته» .(١)

أما القول الثانى : وهو قول قلة من العلماء ـ فيرى أصحابه أن معنى ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ أى مميتك ورافع منزلتك وروحك إلى محل كرامتى ومقر ملائكتى كما ترفع أرواح الأنبياء إليه ـ سبحانه ـ .

فأنت ترى أن أصحاب هذا الرأى يفسرون التوفى بالإماتة ، ويقولون إن هذا التفسير هو الظاهر من معنى التوفى ويفسرون ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ بمعنى رفع الروح إلى السماء .

أى : أن الله ـ تعالى ـ قد توفى عيسى كما يتوفى الأنفس كلها ، ورفع روحه إليه كما يرفع أرواح النبيين .

والذى تسكن إليه النفس هو القول الأول لأمور :

أولها : أن قوله ـ تعالى ـ فى سورة النساء ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ . (٢)

يفيد أن الرفع كان بجسم عيسى وروحه لأن الإضراب مقابل للقتل والصلب الذى أرادوه وزعموا حصوله ، ولايصح مقابلا لهما رفعه بالروح لأن الرفع بالروح يجوز أن يجتمع معهما وما دام الرفع بالروح لايصح مقابلا لهما إذن يكون المتعين أن المقابل لهما هو الرفع بالجسد والروح .

ثانيها : أن هناك أحاديث متعددة ، بلغت فى قوتها مبلغ التواتر المعنوى ـ كما يقول ابن كثير ـ قد وردت فى شأن نزول عيسى إلى الأرض فى آخر الزمان ليملأها عدلا كما ملئت جورا ، وليكون حاكما بشريعة محمد ﷺ ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الشيخان عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا ، يقتل الدجال ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية ، ويفيض المال ، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين .(٣)

وظاهر هذا الحديث وما يشابهه من الأحاديث الصحيحة فى شأن نزول عيسى ، يفيد أن نزوله يكون بروحه وجسده كما رفعه الله إليه بروحه وجسده .

ثالثا : أن هذا القول هو قول جمهور العلماء ، وهو القول الذى يتناسب مع ما أكرم الله ـ تعالى ـ به عيسى ـ عليه السلام ـ من كرامات ومعجزات .

---

(١) تفسير القرطبى جـ٤ ص١٠٠ .

(٢) الآيتان ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥٧٨ .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وجمهور العلماء على أن عيسى رفع حيا من غير موت ولا غفوة بجسده وروحه إلى السماء ، والخصوصية له ـ عليه السلام ـ هى فى رفعه بجسده ، وبقاؤه فيها إلى الأمد المقدر له ولايصح أن يحمل التوفى على الإماتة لأن إماتة عيسى فى وقت حصار أعدائه ليس فيها مايسوغ الامتنان بها ورفعه إلى السماء جثة هامدة سخف من القول ، وقد نزه الله السماء أن تكون قبورا لجثث الموتى ، وإن كان الرفع بالروح فقط فأى ميزة لعيسى فى ذلك على سائر الأنبياء ، والسماء مستقر أرواحهم الطاهرة ، فالحق أنه ـ عليه السلام ـ رفع إلى السماء حيا بجسده ، وكما كان ـ عليه السلام ـ فى مبدأ خلقه آية للناس ومعجزة ظاهرة ، وكان فى نهاية أمره آية ومعجزة باهرة والمعجزات بأسرها فوق قدرة البشر ومدارك العقول ، وهى من متعلقات القدرة الإلهية ومن الأدلة على صدق الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ .(١)

هذا ، وقد ذكر بعض المفسرين أقوالا أخرى للعلماء فى معنى هذه الآية الكريمة نرى من الخير عدم ذكرها لضعفها وخوف الإطالة .(٢)

ومعنى الآية الكريمة : واذكر أيها المخاطب لتعتبر وتتعظ وقت أن قال الله ـ تعالى ـ لنبيه عيسى : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ أى آخذك وليا بروحك وجسدك من الأرض ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ أى : ورافعك إلى محل كرامتى فى السماء لتستوفى حظك من الحياة هناك إلى أن آذن لك بالنزول إلى الأرض .

﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بإبعادك عنهم ، وبإنجائك مما بيتوه لك من مكر سيئ وبتبرئتك مما أشاعوه عنك وعن أمك من أكاذيب وأباطيل .

﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ ﴾ وهم المسلمون الذين آمنوا بك وصدقوك ، وصدقوا بكل نبى بعثه الله ـ تعالى ـ بدون تفرقة بين أنبيائه ورسوله .

﴿ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أى : جاعل هؤلاء المؤمنين فوق الذين كفروا بك وبغيرك من الرسل إلى يوم القيامة .

أى : فوقهم بحجتهم ، وبسلامة اعتقادهم ، وبقوتهم المادية والروحية إلى يوم القيامة .

فالمراد بأتباع عيسى هم الذين أخلصوا لله ـ تعالى ـ عبادتهم ، وأقروا بوحدانيته ـ سبحانه ـ ونزهوا عيسى عن أن يكون ابن الله أو ثالث ثلاثة أو غير ذلك من الأقاويل الباطلة .

---

(١) صفوة البيان لمعانى القرآن جـ١٠٩ ص٢١٣ لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف .

(٢) راجع تفسير الألوسى جـ٤ ص١٧٩ ، وتفسير الفخر الرازى جـ٨ ص٧١ .

والمراد بالفوقية ما يتناول الناحيتين الروحية والمادية ، أى هم فوقهم بقوة إيمانهم ، وحسن إدراكهم ، وسلامة عقولهم ، وهم فوقهم كذلك بشجاعتهم وحسن أخذهم للأسباب التى شرعها الله - تعالى - كوسائل للنصر والفوز .

ولذا قال صاحب الكشاف قوله : ﴿ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أى : يعلونهم بالحجة وفى أكثر الأحوال بها وبالسيف ومتبعوه هم المسلمون لأنهم متبعوه فى أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع ، دون الذين كذبوه والذين كذبوا عليه من اليهود والنصارى .(١)

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

أى : ثم إلى الله مرجعكم ومصيركم أيها الناس فيتولى - سبحانه - الحكم العادل بينكم فيما كنتم تختلفون فيه فى دنياكم من شئون دينية أو دنيوية .

ثم فصل - سبحانه - هذا الحكم الذى سيحكم به على عباده يوم القيامة فقال :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بى وبما يجب الإيمان به ﴿ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ .

أى : فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا بإيقاع العداوة والبغضاء والحروب بينهم وبما يشبه ذلك من هزائم وأمراض وشقاء نفس لايعلم مقدار ألمه إلا الله - تعالى - وأما فى الآخرة فيساقون إلى عذاب النار وبئس القرار .

وقد أكد - سبحانه - شدة هذا العذاب بعدة تأكيدات منها نسبة العذاب إليه - سبحانه - وهو القوى القهار الغالب على كل شيء ، ومنها التأكيد بالمصدر ، ومنها الوصف بالشدة ، ومنها الإخبار بأنه لاناصر لهم ينصرهم ، من هذا العذاب الشديد فى قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ أى : ليس لهم من ناصر أيا كان هذا الناصر ، وأيا كانت نصرته ولو كانت نصرة ضئيلة لاوزن لها ولاقيمة .

هذا هو جزاء الكافرين وأما جزاء المؤمنين فقد بينه - سبحانه - بقوله : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ .

أى : فسيعطيهم - سبحانه - بفضله وإحسانه بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ، أجورهم كاملة غير منقوصة ، من ثواب جزيل ، جنات تجرى من تحتها الأنهار وأزواج مطهرة ورضوان من الله أكبر من كل ذلك .

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٣٦٧ .

ففى هذه الجملة الكريمة بشارة عظمى للمؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على طريقه .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أى : أنه ـ سبحانه ـ عادل فى أحكامه ، ويكره الظلم والظالمين الذين لايضعون الأمور فى مواضعها .

ومن أفحش أنواع الظلم مايقوله أهل الكتاب على عيسى ـ عليه السلام ـ فقد زعم بعضهم أنه ابن الله ، وزعم فريق اخر أنه ثالث ثلاثة وافترى عليه اليهود وعلى أمه مريم البتول المفتريات التى برأهما الله ـ تعالى ـ منها .

أما الذين آمنوا فقد قالوا فى عيسى وأمه قولا كريما ، ولذلك كافأهم الله ـ تعالى ـ بما يستحقون من ثواب .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبا من فضائل عيسى ـ عليه السلام ـ وبينت للناس جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين حتى يثوبوا إلى رشدهم ويسلكوا الطريق القويم .

وفى سورة «النساء» آيات كريمة تحدثت عن جانب من الرذائل التى وصف الله ـ تعالى ـ بها الظالمين ، من بنى إسرائيل ، ومن بينها كذبهم على مريم أم عيسى ـ عليه السلام ـ وزعمهم أنهم قد قتلوا هذا النبى الكريم .

وهذه الآيات منها قوله ـ تعالى ـ :

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله ـ تعالى ـ : ﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ . . إلخ

ذكروا روايات منها : ما أخرجه ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : جاء أناس من اليهود إلى رسول ﷺ فقالوا : يامحمد ، إن موسى جاء بالألواح من عند الله ، فأتنا أنت بالألواح من عند الله حتى نصدقك ، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآيات .

والمراد بالكفر فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ كفرهم بعيسى

ـ عليه السلام ـ وهو غير الكفر المذكور قبل ذلك فى قوله : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ لأن المراد به هنا مطلق الجحود الذى لايجعل الشخص يستقر على شىء ، فهو إنكار مطلق للحق .

والبهتان : هو الكذب الشديد الذى لاتقبله العقول ، بل يحيرها ويدهشها لغرابته وبعده عن الحقيقة ، يقال : بهت فلان فلانا ، إذا قال فيه قولا يدهشه ويحيره لغرابته وشناعته فى الكذب والافتراء .

والمعنى : إن من أسباب لعن اليهود وضرب الذلة والمسكنة عليهم ، كفرهم بعيسى ـ عليه السلام ـ وهو الرسول المبعوث إليهم ليهديهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم .

وافتراؤهم الكذب على مريم أم عيسى ، ورميهم لها بما هى بريئة منه ، وغافلة عنه ، فقد اتهموها بالفاحشة لولادتها لعيسى من غير أب ، وقد برأها الله ـ تعالى ـ ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ (١)

ثم سجل عليهم ـ سبحانه ـ بعد ذلك رذيلة أخرى ورد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ويفضحهم على رؤوس الأشهاد فى كل زمان ومكان فقال : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ والمسيح : لقب تشريف وتكريم لعيسى ـ عليه السلام ـ قيل : لقب بذلك لأنه ممسوح من كل خلق ذميم ، وقيل : لأنه مسح بالبركة كما فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ وقيل لأن الله مسح عنه الذنوب .

أى : وبسبب قولهم على سبيل التبجح والتفاخر إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، لعنهم الله وغضب عليهم ، كما لعنهم وغضب عليهم ـ أيضا ـ بسبب جرائمهم السابقة .

وهذا القول الذى صدر عنهم هو فى ذاته جريمة ، لأنهم قالوه على سبيل التبجح والتفاخر لقتلهم ـ فى زعمهم ـ نبيا من أنبياء الله ، ورسولا من أولى العزم من الرسل .

وقولهم هذا وإن كان يخالف الحقيقة والواقع ، إلا أنه يدل على أنهم أرادوا قتله فعلا ، وسلكوا كل السبل لبلوغ غايتهم الدنيئة ، فدسوا عليه عند الرومان ، ووصفوه بالدجل والشعوذة ، وحاولوا أن يسلموه لأعدائه ليصلبوه ، وحال بينهم أنهم أسلموه فعلا لهم ، ولكن الله ـ تعالى ـ خيب سعيهم ، وأبطل مكرهم ، وحال بينهم وبين ما يشتهون ، حيث

(١) سورة التحريم الآية ١٢ .

نجى عيسى ـ عليه السلام ـ من شرورهم ورفعه إليه دون أن يمسه سوء منهم .

ولاشك أن ما صدر عن اليهود فى حق عيسى ـ عليه السلام ـ من محاولة قتله ، واتخاذ كل وسيلة لتنفيذ غايتهم ، ثم تفاخرهم بأنهم قتلوه وصلبوه ، لاشك أن كل ذلك يعتبر من أكبر الجرائم لأنه من المقرر فى الشرائع والقوانين أن من شرع فى ارتكاب جريمة من الجرائم واتخذ كل الوسائل لتنفيذها ، ولكنها لم تتم لأمر خارج عن إرادته ، فإنه يعد من المجرمين الذين يستحقون العقاب الشديد .

واليهود قد اتخذوا جميع الطرق لقتل عيسى ـ عليه السلام ـ كما بينا ـ وحيل بينهم وبين مايشتهون لأسباب خارجة عن طاقتهم ، ومعنى هذا أنه لو بقيت لهم أية وسيلة لإتمام جريمتهم النكراء لما تقاعسوا عنها ، ولأسرعوا فى تنفيذها فهم يستحقون عقوبة المجرم فى تفكيره ، وفى نيته ، وفى شروعه الأثيم ، لارتكاب ما نهى الله عنه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كانوا كافرين بعيسى ـ عليه السلام ـ أعداء له ، عامدين لقتله ، يسمونه الساحر ابن الساحرة ، والفاعل ابن الفاعلة ، فكيف قالوا : ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ ؟

قلت : قالوه على وجه الاستهزاء ، كقول فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم ، رفعا لعيسى عما كانوا يذكرونه به ، وتعظيما لما أرادوا بمثله كقوله : ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً﴾ (١)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ رد على مزاعمهم الكاذبة ، وأقاويلهم الباطلة التى تفاخروا بها بأنهم قتلوا عيسى ـ عليه السلام ـ أى : إن ما قاله اليهود متفاخرين به ، وهو زعمهم أنهم قتلوا عيسى ـ عليه السلام ـ هو من باب أكاذيبهم المعروفة عنهم ، فإنهم ما قتلوه ، وما صلبوه ولكن الحق أنهم قتلوا رجلا آخر يشبه عيسى ـ عليه السلام ـ فى الخلقة فظنوه إياه وقتلوه وصلبوه ، ثم قالوا إنا قتلنا المسيح ابن مريم رسول الله .

قال فضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف قوله : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ زعم أكثر اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه ، فأكذبهم الله ـ تعالى ـ فى ذلك وقال : ﴿وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أى : شبه لهم المقتول بأن ألقى عليه شبه المسيح فلما دخلوا عليه ليقتلوه ـ أى

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٨٧ .

ليقتلوا المسيح ـ وجدوا الشبيه فقتلوه وصلبوه ، يظنونه المسيح وما هو فى الواقع ، إذ قد رفع الله عيسى إلى السماء ، ونجاه من شر الأعداء .

وقيل المعنى : ولكن التبس عليهم الأمر حيث ظنوا المقتول عيسى كما أوهمهم بذلك أحبارهم .[1]

هذا ، وللمفسرين فى بيان كيفية التشبيه لهم وجوه من أهمها اثنان :

الأول : أن الله ـ تعالى ـ ألقى شبه عيسى ـ عليه السلام ـ على أحد الذين خانوه ودبروا قتله وهو «يهوذا الإسخربوطى» الذى كان عينا وجاسوسا على المسيح ، والذى أرشد الجند الذين أرادوا قتله إلى مكانه ، وقال لهم : من أقبله أمامكم يكون هو المسيح ، فاقبضوا عليه لتقتلوه فدخل بيت عيسى ليدلهم عليه ليقتلوه فرفع الله عيسى ، وألقى شبهه على المنافق ، فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى .

وهذا الوجه قد جاء مفصلا فى بعض الأناجيل وأشار إليه الآلوسى بقوله : كان رجل من الحواريين ينافس عيسى ـ عليه السلام ـ فلما أرادوا قتله قال : أنا أدلكم عليه ، وأخذ على ذلك ثلاثين درهما ، فدخل بيت عيسى ـ عليه السلام ـ فرفع الله عيسى ، وألقى شبهه على المنافق ، فدخلوا عليه فقتلوه ، وهم يظنون أنه عيسى .[2]

الثانى : أن الله ـ تعالى ـ ألقى شبه المسيح على أحد تلاميذه المخلصين حينما أجمعت اليهود على قتله ، فأخبره الله بأنه سيرفعه إليه ، فقال لأصحابه أيكم يرضي أن يلقى عليه شبهى فيقتل ويصلب ويدخل الجنة؟ فقال رجل منهم أنا ، فألقي الله صورة عيسى عليه ، فقتل ذلك الرجل وصلب .

وقد أطال الإمام ابن كثير فى ذكر الروايات التى تؤيد هذا الوجه ، ومنه قوله : عن ابن عباس قال : لما أراد الله ـ تعالى ـ أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين فقال لهم إن منكم من يكفر بعدى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى .

قال : ثم قال أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ، ويكون معى فى درجتى؟

فقام شاب من أحدثهم سنا ، فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم ، فقام ذلك الشاب .

فقال له : اجلس ، ثم أعاد عليهم ، فقام ذلك الشاب ، فقال : أنا فقال له عيسى ، هو أنت ذاك ، فألقى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء .

قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتى

(١) تفسير صفوة البيان ص١٧٨ لفضيلة الاستاذ الشيخ حسنين مخلوف .
(٢) تفسير الآلوسى جـ٦ ص١٠ .

عشرة مرة بعد أن آمن ، قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح عن ابن عباس ، ورواه النسائى عن أبي كريب عن أبى معاوية ، وقال غير واحد من السلف : أنه قال لهم : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى وهو رفيقى فى الجنة؟[١]

والذى يجب اعتقاده بنص القرآن الكريم أن عيسى - عليه السلام - لم يقتل ولم يصلب ، وإنما رفعه الله إليه ، ونجاه من مكر أعدائه ، أما الذى قتل وصلب فهو شخص سواه .

ثم قال - تعالى - : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ أى : وإن الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب لفى شك من حقيقة أمره ، أى : فى حيرة وتردد ، ليس عندهم علم ثابت قطعى فى شأنه ، أو فى شأن قتله ، ولكنهم لايتبعون فيما يقولونه عنه إلا الظن الذى لاتثبت به حجة ، ولايقوم عليه برهان .

ولقد اختلف أهل الكتاب فى شأن عيسى اختلافا كبيرا ، فمنهم من زعم أنه ابن الله ، وادعى أن فى عيسى عنصرا إلهيا مع العنصر الإنسانى وأن الذى ولدته مريم هو العنصر الإنسانى ، ثم أفاض عليه بعد ذلك العنصر الإلهى .

ومنهم من قال : إن مريم ولدت العنصرين معا .

ولقد اختلفوا فى أمر قتله ، فقال بعض اليهود : إنه كان كاذبا فقتلناه قتلا حقيقيا ، وتردد آخرون فقالوا : إن كان المقتول عيسى فأين صاحبنا ، وإن كان المقتول صاحبنا فأين عيسى؟

وقال آخرون : الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا .

إلى غير ذلك من خلافاتهم التى لاتنتهى حول حقيقة عيسى وحول مسألة قتله وصلبه .[٢]

وقوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ تأكيد لنجاة عيسى مما يزعمونه من قتلهم له ، وبيان لما أكرمه الله به من رعاية وتشريف .

واليقين : هو العلم الجازم الذى لايحتمل الشك والضمير فى قوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ﴾ لعيسى

وقوله : ﴿ يَقِينًا ﴾ ذكر النحاة فى إعرابه وجوها من أشهرها : أنه نعت لمصدر محذوف

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص .

(٢) إذا أردت المزيد من معرفة المسألة فراجع تفسير القاسمى جـ٥ ص١٦٢٩ إلى ص١٧١٦ ، وتفسير المنار جـ٦ من ص٢٣ إلى ٥٩ .

مأخوذ من لفظ قتلوه : أى : ما قتلوه قتلا يقينا ، أى متيقنين معه من أن المقتول عيسى ـ عليه السلام ـ وهذا فيه ترشيح للاختلاف والشك الذى اعتراهم .

أو هو حال مؤكدة لنفى القتل ، أى انتفى قتلهم إياه انتفاء يقينا ، فاليقين منصب على النفى ، أى : أن نفى كونه قد قتل أمر متيقن مؤكد مجزوم به ، وليس ظنا كظنكم أو وهما كوهمكم يا معشر أهل الكتاب .

وقد أشار صاحب الكشاف إلى ذلك بقوله : قوله : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أى : وما قتلوه قتلا يقينا ، أو ما قتلوه متيقنين كما ادعوا ذلك فى قولهم :﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ﴾ أو يجعل ﴿يَقِينًا﴾ تأكيدا لقوله : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ كقولك : ما قتلوه حقا ، أى حق انتفاء قتله حقا .

والمعنى : أن اليهود قد زعموا أنهم قتلوا عيسى ـ عليه السلام ـ وزعمهم هذا أبعد مايكون عن الحق والصواب ، لأن الحق المتيقن فى هذه المسألة أنهم لم يقتلوه ، فقد نجاه الله من مكرهم ، ورفع عيسى إليه ، وكان الله ﴿عَزِيزًا﴾ أى منيع الجناب ، لايلجأ إليه أحد إلا أعزه وحماه ، ﴿حَكِيمًا﴾ فى جميع مايقدره ويقضيه من الأمور .

هذا ، وجمهور العلماء على أن الله ـ تعالى ـ رفع عيسى إليه بجسده وروحه لابروحه فقط .

و﴿إِن﴾ فى قوله ـ سبحانه ـ ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ نافية بمعنى ما النافية ، والخبر عنه محذوف قامت صفته مقامه ، أى : وما أحد من أهل الكتاب ، وحذف أحد لأنه ملحوظ فى كل نفى يدخله الاستثناء ، نحو : ما قام إلا زيد ، أى ما قام أحد إلا زيد .

وللمفسرين فى تفسير هذه الآية اتجاهات :

الأول : أن الضمير فى قوله : ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعود إلى عيسى ـ عليه السلام ـ وعليه يكون المعنى : وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى ـ عند نزوله فى آخر الزمان ـ حق الإيمان ، ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أى : قبل موت عيسى ، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ﴾ عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أى : على أهل الكتاب ﴿شَهِيدًا﴾ فيشهد عليهم بأنه قد أمرهم بعبادة الله وحده ، وأنه قد نهاهم عن الإشراك معه آلهة أخرى .

وقد انتصر لهذا الاتجاه كثير من المفسرين وعلى رأسهم شيخهم ابن جرير ، فقد قال ـ

بعد سرد الأقوال فى الآية ـ : وأولى الأقوال بالصحة والصواب قول من قال ، تأويل ذلك : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى .[(١)]

وقد علق ابن كثير على ما رجحه ابن جرير بقوله : ولاشك أن الذى قاله ابن جرير هو الصحيح ، لأن المقصود من سياق الآيات ، بطلان ما زعمته اليهود من قتل عيسى وصلبه ، وبطلان تسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك ، فقد أخبر الله ـ تعالى ـ أن الأمر لم يكن كذلك ، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لايتبينون ذلك ، ثم إن الله ـ تعالى ـ رفع إليه عيسى ـ وإنه باق حى ، وإنه سينزل قبل يوم القيامة .

ثم عقد ابن كثير فصلا عنونه بقوله : ذكر الأحاديث الواردة فى نزول عيسى بن مريم إلى الأرض من السماء فى آخر الزمان قبل يوم القيامة وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لاشريك له .

ثم ساق ابن كثير من الأحاديث فى هذا المعنى منها ما رواه الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لايقبله أحد ، وحتى تكون السجدة خيرا له من الدنيا ومافيها» .

ثم يقول أبوهريرة : اقرؤا إن شئتم : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ .[(٢)]

أما **الاتجاه الثانى** : فيرى أصحابه أن الضمير فى قوله : ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ يعود إلى الكتابى المدلول عليه بقوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ وعليه يكون المعنى .

وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موته أى قبل موت هذا الكتابى ، لأنه عند ساعة الاحتضار يتجلى له الحق ، ويتبين له صحة ما كان ينكره ويجحده فيؤمن بعيسى ـ عليه السلام ـ ويشهد بأنه عبدالله ورسوله ، وأن الله واحد لاشريك له ، ولكن هذا الإيمان لاينفعه ، لأنه جاء فى وقت الغرغرة ، وهو وقت لاينفع فيه الإيمان ، لانقطاع التكليف فيه .

والذى نراه أنه لاتعارض بين التأويلين ، فإن كلا منهما حق فى ذاته .

إذ كل كتابىٍّ عندما تحضره الوفاة يعلم أن عيسى كان صادقا فى نبوته ، وأنه عبدالله ورسوله ، وأنه قد دعا الناس إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده .

وكذلك كل كتابى يشهد نزول عيسى فى آخر الزمان سيؤمن به ويتبعه ، ويشهد بأنه صادق فيما بلغه عن ربه .

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٢ ص٢٣ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥٧٧ ـ بتصرف يسير ـ .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد سمت بمنزلة عيسى - عليه السلام - وبينت أن الله - تعالى - قد رفعه إليه علي سبيل التشريف والتكريم له - عليه السلام - .

وبعد : فهذه قصة مريم وابنها عيسى - عليه السلام - كما وردت فى القرآن الكريم - وهى قصة زاخرة بالدروس النافعة والعظات البليغة من أهمها :

(أ) أن مريم ابنة عمران قد شرفها خالقها - عز وجل - تشريفا عظيما ، وكرمها تكريما كبيرا ، حيث اختارها لخدمة بيته ، وأنبتها نباتا حسنا ، ويكفيها فخرا وشرفا قوله - تعالى - فى شأنها : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ .

أى : واذكر بالتشريف والتكريم - أيها العاقل - مريم ابنة عمران - التى اعتصمت بالعفاف والطهر طول مدة حياتها ، فقد أمرنا أمين وحينا جبريل أن ينفخ فى جزء من جسدها الطاهر ، فامتثل لأمرنا ، فحملت بعبدنا ونبينا عيسى - عليه السلام - وكان من صفاتها أنها آمنت إيمانا عميقا بشريعة خالقها وبدينه وبكتبه التى أنزلها على أنبيائه ، وكانت من نسل الرجال القانتين الذين بذلوا أقصى جهدهم فى طاعة الله وإخلاص العبادة له .

(ب) أن عيسى بن مريم - عليه السلام - هو عبد من عباد الله الصالحين الذين أنعم الله - تعالى - عليهم ، وشرفهم بالرسالة والنبوة ، وجعله من أولى العزم من الرسل ، فبلغ رسالة ربه ، حيث أمر بإخلاص العبادة والطاعة لله الواحد القهار ، وأنه هو وأمه مريم كانا من أعظم الأدلة على قدرة الله التى لايعجزها شىء ، كما قال - سبحانه - ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ .

أى : وجعلنا نبينا عيسى - عليه السلام - كما جعلنا أمه مريم ، آية واضحة ، وحجة عظيمة فى الدلالة على قدرتنا النافذة التى لايعجزها شىء ، ومن مظاهر تكريمنا ورعايتنا لهما ، أننا آويناهما وأسكناهما فى جهة مرتفعة من الأرض ، وهذه الجهة ذات استقرار وصلاحية للسكن فيها لوجود الزروع والثمار بها ، وذات مياه تنساب فيها بقدرتنا ورحمتنا .

قالوا : والمراد بهذه الربوة بيت المقدس بفلسطين .

(جـ) أن عيسى - عليه السلام - وأمه مريم ، بريئان كل البراءة مما نسبه الضالون والجاحدون إليهما من كل مالايليق ، وأنهما عبدان من عباد الله - تعالى - الصالحين ، الذين شرفهم تشريفا عظيما .

وما زعمه الجاهلون فى شأن عيسى - عليه السلام - من أنه ابن الله ، أو هو الله ، هو زعم كاذب لا أساس له من النقل الصحيح أو العقل السليم وصدق الله إذ يقول : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ . . ﴾ [المائدة : ٧٥] .

(د) أن الذين أرسل الله - تعالى - إليهم نبيه عيسى - عليه السلام - كان منهم المؤمنون الصادقون ، الذين ثبتوا على إخلاص العبادة والطاعة لخالقهم - عز وجل - .

وكان منهم الذين آمنوا بعيسى - عليه السلام - ولكنهم ابتدعوا فى الدين أشياء ما أنزل الله بها من سلطان .

وكان منهم الفاسقون الذين انحرفوا عن طريق الحق ، واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله .

قال - تعالى -

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : ٢٧]

نسأل الله - عز وجل - أن يهدينا جميعا إلى صراطه المستقيم .

من قصص القرآن الكريم

كما اشتمل القرآن الكريم على قصص الأنبياء الكرام مع من أرسلوا إليهم ، اشتمل - أيضا - على قصص أخرى لغيرهم .

وفى هذه القصص جميعها مافيها من العبر والعظات لقوم يعقلون ، وصدق الله - تعالي - إذ يقول :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١]

ومن القصص التى تحدث عنها القرآن الكريم - سوى قصص الأنبياء : قصة أصحاب الكهف ، وقصة أصحاب الأخدود ، وقصة أصحاب الجنة ، وقصة أصحاب القرية ، وقصة أصحاب الفيل ، وقصة صاحب الجنتين ، وقصة ذى القرنين ، وقصة سيل العرم . .

وغير ذلك من القصص القرآنى ، الذى يدل على أن هذا القرآن من عند الله ،﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ وهاك الحديث المفصل عن كل قصة كما وردت فى القرآن الكريم .

١ ـ قصة أصحاب الكهف

١ ـ وردت قصة أهل الكهف فى قوله ـ تعالى ـ فى سورة «الكهف» :

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾

قال الإمام الرازى : «اعلم أن القوم من قريش تعجبوا من قصة أصحاب الكهف، وسألوا عنها الرسول ﷺ على سبيل الامتحان ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ؟ لاتحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب فإن من كان قادرا على خلق السموات والأرض ، وعلى تزيين الأرض بما عليها من نبات وحيوان ومعادن ، ثم يجعلها بعد ذلك صعيدا جرزا خالية من الكل ، كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة من الناس مدة ثلاثمائة سنة وأكثر فى النوم» .[(١)]

وعلى ذلك يكون المقصود بهذه الآيات الكريمة ، بيان أن قصة أصحاب الكهف ليست شيئا عجبا بالنسبة لقدرة الله ـ تعالى ـ .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول قصة أصحاب الكهف روايات ملخصها : أن قريشا بعثت النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط ، إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ﷺ وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم من العلم ماليس عندنا من علم الأنبياء .

فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢١ ص٨٢ .

ﷺ فقالوا لهما سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن ، فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول .

سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماذا كان من خبرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب .

وسلوه عن رجل طواف طاف المشارق والمغارب ماذا كان من خبره؟ وسلوه عن الروح ، ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا : يامعشر قريش ، قد جئناكم بفصل مابينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور .

ثم جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد أخبرنا ، ثم سألوه عما قالته لهم يهود .

فقال لهم رسول الله ﷺ سأجيبكم غدا بما سألتم عنه ولم يستثن - أى : ولم يقل إن شاء الله - فانصرفوا عنه .

ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة ، لايحدث الله إليه فى ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل - عليه السلام - حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدا ، واليوم خمسة عشر قد أصبحنا فيها ، لايخبرنا بشىء عما سألناه عنه ، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مُكث الوحى عنه وشق عليه ما تكلم به أهل مكة ثم جاءه جبريل من عندالله بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف ، وقول الله - تعالى - :﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ . (١)

والخطاب فى قوله - تعالى - : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ للرسول ﷺ ويدخل فيه غيره من المكلفين .

والكهف : هو النقب المتسع فى الجبل ، فإن لم يكن فيه سعة فهو غار ، وجمعه كهوف .

والمراد به هنا : ذلك الكهف الذى اتخذه هؤلاء الفتية مستقرا لهم .

وأما الرقيم فقد ذكروا فى المراد به أقوالا متعددة منها : أنه اسم كلبهم ، ومنها أنه اسم الجبل أو الوادى الذى كان فيه الكهف ، ومنها أنه اسم القرية التى خرج منها هؤلاء الفتية .

ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن المراد به اللوح الذى كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقصتهم ، فيكون الرقيم بمعنى المرقوم - فهو فعيل بمعنى مفعول - ومأخوذ من رقمت الكتاب إذا كتبته .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٥ ص١٣٢ .

ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ. كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾(١) أى مكتوب .

قال بعض العلماء : «والظاهر أن اصحاب الكهف والرقيم : طائفة واحدة أضيفت إلى شيئين : أحدهما : معطوف على الآخر ، خلافا لمن قال إن أصحاب الكهف طائفة ، وأصحاب الرقيم طائفة أخرى ، وأن الله قص على نبيه فى هذه السورة الكريمة قصة أصحاب الكهف ولم يذكر شيئا عن أصحاب الرقيم ، وخلافا لمن زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم صخرة فسدت عليهم باب الكهف فدعوا الله بصالح أعمالهم فانفرجت ، وهم البار بوالديه ، والعفيف ، والمستأجر ، وقصتهم مشهورة ثابتة فى الصحيح ، إلا أن تفسير الآية بأنهم هم المراد بعيد كما ترى» .(٢)

والمعنى : أظننت ـ أيها الرسول الكريم ـ أن ما قصصناه عليك من شأن هؤلاء الفتية ، كان من بين آياتنا الدالة على قدرتنا شيئا عجبا؟ لا ، لاتظن ذلك فإن قدرتنا لايعجزها شىء .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قالوه عندما حطوا رحالهم فى الكهف ، فقال :﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

و﴿ إِذْ ﴾ هنا ظرف منصوب بفعل تقديره : اذكر

و ﴿ أَوَى ﴾ فعل ماض ـ من باب ضرب ـ تقول : أوى فلان إلى مسكنه يأوى ، إذا نزله بنفسه ، واستقر فيه .

و﴿ الْفِتْيَةُ ﴾ : جمع قلة لفتى ، وهو وصف للإنسان عندما يكون فى مطلع شبابه .

وقوله : ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ من التهيئة بمعنى : تيسير الأمر وتقريبه وتسهيله حتى لايخالطه عسر أو مشقة .

والمراد بالأمر هنا : ما كانوا عليه من تركهم لأهليهم ومساكنهم ، ومن مفارقتهم لما كان عليه أعداؤهم من عقائد فاسدة .

والرشد : الاهتداء إلى الطريق المستقيم مع البقاء عليه ، وهو ضد الغى ، يقال : رشد فلان يرشد رشدا ورشادا ، إذا أصاب الحق .

أى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ للناس ليعتبروا وقت أن خرج هؤلاء الفتية من مساكنهم ، تاركين كل شىء خلفهم من أجل سلامة عقيدتهم فالتجأوا إلى الكهف ، واتخذوه مأوى لهم ، وتضرعوا إلى خالقهم قائلين : يا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، تهدى

(١) سورة المطففين الآيات ١٨ ـ ٢٠ .

(٢) تفسير أضواء البيان جـ٤ ص٢٠ .

بها قلوبنا ، وتصلح بها شأننا ، وتردُّ بها الفتن عنا ، كما نسألك يا ربنا أن تهيىء لنا من أمرنا الذى نحن عليه ـ وهو : فرارنا بديننا ، وثباتنا على إيماننا ـ ما يزيدنا سدادا وتوفيقا لطاعتك .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ ﴾ بالإظهار ـ مع أنه قد سبق الحديث عنهم بأنهم أصحاب الكهف لتحقيق ما كانوا عليه من فتوة وللتنصيص على وصفهم الدال على قلتهم ، وعلى أنهم شباب فى مقتبل أعمارهم ، ومع ذلك ضحوا بكل شىء فى سبيل عقيدتهم .

والتعبير بالفعل ﴿ أَوَى ﴾ يشعر بأنهم بمجرد عثورهم على الكهف ، ألقوا رحالهم فيه واستقروا به استقرار من عثر على ضالته ، وآثروه على مساكنهم المريحة ، لأنه واراهم عن أعين القوم الظالمين .

والتعبير بالفاء فى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً .. ﴾ يدل على أنهم بمجرد استقرارهم فى الكهف ابتهلوا إلى الله ـ تعالى ـ بهذا الدعاء الجامع لكل خير .

والتنوين فى قوله : ﴿ رَحْمَةً ﴾ للتهويل والتنويع ، أى : آتنا يا ربنا من عندك وحدك لا من غيرك ، رحمة عظيمة شاملة لجميع أحوالنا وشئوننا ، فهى تشمل الأمان فى المنزل ، والسعة فى الرزق ، والمغفرة للذنب .

قال القرطبى ما ملخصه : هذه الآية صريحة فى الفرار بالدين وهجرة الأهل والأوطان ، خوف الفتنة ، ورجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين .[1]

ثم بين ـ سبحانه ـ ما حدث لهؤلاء الفتية بعد أن لجأوا إلى الكهف ، وبعد أن دعوا الله بهذا الدعاء الشامل لكل خير ، فقال : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ .

وأصل الضرب فى كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم ، بظاهر جسم آخر بشدة .

يقال : ضرب فلان بيده الأرض إذا ألصقها بها بشدة ، وتفرعت عن هذا المعنى معان أخرى ترجع إلى شدة اللصوق .

والمراد بالضرب هنا النوم الطويل الذى غشاهم الله ـ تعالى ـ به فصاروا لايحسون شيئا مما حولهم ، ومفعول ضربنا محذوف .

والمعنى : بعد أن استقر هؤلاء الفتية فى الكهف ، وتضرعوا إلينا بهذا الدعاء العظيم ، ضربنا على آذانهم وهم فى الكهف حجابا ثقيلا مانعا من السماع ، فصاروا لايسمعون

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ١٠ ص٣٦٠ .

شيئا يوقظهم ، واستمروا فى نومهم العميق هذا ﴿ سِنِينَ ﴾ ذات عدد كثير ، بينها - سبحانه - بعد ذلك فى قوله : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ .

وخص - سبحانه - الآذان بالضرب ، مع أن مشاعرهم كلها كانت محجوبة عن اليقظة ، لأن الآذان هى الطريق الأول للتيقظ ، ولأنه لايثقل النوم إلا عندما تتعطل وظيفة السمع .

وقد ورد أن النبى ﷺ عندما علم أن رجلا لايستيقظ مبكرا أن قال فى شأنه : «ذلك رجل قد بال الشيطان فى أذنه» ، أى : فمنعها من التبكير واليقظة قبل طلوع الشمس .

والتعبير بالضرب - كما سبق أن أشرنا - للدلالة على قوة المباشرة ، وشدة اللصوق واللزوم ، ومنه قوله تعالى - أى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ ﴾ التصقتا بهم التصاقا لافكاك لهم منه ، ولامهرب لهم عنه .

ثم بين - سبحانه - ماحدث لهم بعد هذا النوم الطويل فقال : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ .

وأصل البعث فى اللغة : إثارة الشىء من محله وتحريكه بعد سكون ، ومنه قولهم : بعث فلان الناقة - إذا أثارها من مبركها للسير ، ويستعمل بمعنى الإيقاظ وهو المقصود هنا من قوله : ﴿ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أى : أيقظناهم بعد رقادهم الطويل .

وقوله : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ ﴾ بيان للحكمة التى من أجلها أيقظهم الله من نومهم .

وكثير من المفسرين على أن الحزبين أحدهما : أصحاب الكهف والثانى : أهل المدينة الذين أيقظ الله أهل الكهف من رقادهم فى عهدهم ، وكان عندهم معرفة بشأنهم .

قيل : هما حزبان من أهل المدينة الذين بعث هؤلاء الفتية فى زمانهم إلا أن أهل هذه المدينة كان منهم حزب مؤمن وآخر كافر ، وقيل : هما حزبان من المؤمنين كانوا موجودين فى زمن بعث هؤلاء الفتية ، وهذان الحزبان اختلفوا فيما بينهم فى المدة التى مكثها هؤلاء الفتية رقودا .

والذى تطمئن إليه النفس أن الحزبين كليهما من أصحاب الكهف ، لأن الله - تعالى - قد قال بعد ذلك ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ - أى الفتية : ﴿ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ . . ﴾

قال الآلوسى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أى : أيقظناهم وأثرناهم من نومهم ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ ﴾ أى : منهم ، وهم القائلون : ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ . والقائلون : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾

وقيل : أحد الحزبين الفتية الذين ظنوا قلة زمان لبثهم ، والثانى أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم وكان عندهم تاريخ غيبتهم ، والظاهر الأول لأن اللام للعهد ، ولا عهد لغير من سمعت .[1]

والمراد بالعلم فى قوله : ﴿ لِنَعْلَمَ . . ﴾ إظهار المعلوم ، أى : ثم بعثناهم لنعلم ذلك علما يظهر الحقيقة التى لاحقيقة سواها للناس .

ويجوز أن يكون العلم هنا بمعنى التمييز ، أى : ثم بعثناهم لنميز أى الحزبين أحصى لما لبثوا أبدا .

فهو من باب ذكر السبب وإرادة المسبب ، إذ العلم سبب للتمييز .

ولفظ ﴿ أَحْصَىٰ ﴾ يرى صاحب الكشاف ومن تابعه أنه فعل ماض ، ولفظ ﴿ أَمَدًا ﴾ مفعوله ، و«ما» فى قوله : ﴿ لِمَا لَبِثُوا ﴾ مصدرية فيكون المعنى ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أضبط أمدا ـ أى مدة ـ للبثهم فى الكهف .

قال صاحب الكشاف : و﴿ أَحْصَىٰ ﴾ فعل ماض ، أى : أيهم أضبط ﴿ أَمَدًا ﴾ لأوقات لبثهم .

فإن قلت : فما تقول فيمن جعله من أفعل التفضيل؟ قلت : ليس بالوجه السديد ، وذلك أن بناءه من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس ، والقياس على الشاذ فى غير القرآن ممتنع فكيف به .[2]

وبعضهم يرى أن لفظ ﴿ أَحْصَىٰ ﴾ صيغة تفضيل ، وأن قوله ﴿ أَمَدًا ﴾ منصوب على أنه تمييز ، وفى إظهار هذه الحقيقة للناس ، وهى أن الله ـ تعالى ـ قد ضرب النوم على آذان هؤلاء الفتية ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، ثم بعثهم بعد ذلك دون أن يتغير حالهم ، أقول : فى إظهار هذه الحقيقة دليل واضح على قدرة الله ـ تعالى ـ وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، وعلى أن البعث بعد الموت حق لاريب فيه .

وبذلك تكون هذه الآيات قد ساقت لنا قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار .

٢ ـ ثم جاءت آيات بعد ذلك لتحكى لنا قصتهم على سبيل التفصيل والبسط ، وهذه الآيات هى قوله ـ تعالى ـ :

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٥ ص٢١٢ .

(٢) راجع الكشاف جـ٢ ص٤٧٤ .

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

أى : ﴿نَحْنُ﴾ وحدنا يا محمد ، نقص عليك وعلى أمتك خبر هؤلاء الفتية قصصا لحمته وسداه الحق والصدق ، لأنه قصص من ربك الذى لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وقوله : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ كلام مستأنف جواب عن سؤال تقديره ما قصتهم وما شأنهم بالتفصيل؟

أى : أنهم فتية أخلصوا العبادة لخالقهم ، وأسلموا وجوههم لبارئهم ، وآمنوا بربوبيته ـ سبحانه ـ إيمانا عميقا ثابتا ، فزادهم الله ببركة هذا الإخلاص والثبات على الحق ، هداية على هدايتهم ،وإيمانا على إيمانهم .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ إيماء إلى أن قصة هؤلاء الفتية كانت معروفة لبعض الناس ، إلا أن معرفتهم بها كانت مشوبة بالخرافات والأباطيل .

قال ابن كثير : ما ملخصه : ذكر الله ـ تعالى ـ أنهم كانوا فتية ـ أى شبابا ـ وهم أقبل للحق من الشيوخ ، الذين عتوا فى دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله شبابا ، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل .

واستدل غير واحد من الأئمة كالبخارى وغيره بقوله : ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ إلى أن الإيمان يزيد وينقص .[1]

(١) تفسير ابن كثير جـ٥ ص١٣٩ .

ثم حكى ـ سبحانه ـ جانبا من مظاهر هدايته لهم فقال : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا ﴾ .

وأصل الربط : الشد ، يقال : ربطت الدابة ، أى : شددتها برباط ، والمراد به هنا : ما غرسه الله فى قلوبهم من قوة ، وثبات على الحق ، وصبر على فراق أهليهم ، ومنه قولهم : فلان رابط الجأش ، إذا كان لايفزع عند الشدائد والكروب .

والمراد بقيامهم : عقدهم العزم على مفارقة ما عليه قومهم من باطل ، وتصميمهم على ذلك تصميما لاتزحزحه الخطوب مهما كانت جسيمة .

ويصح أن يكون المراد بقيامهم : وقوفهم فى وجه ملكهم الجبار بثبات وقوة ، دون أن يبالوا به عندما أمرهم بعبادة مايعبده قومهم ، وإعلانهم دين التوحيد ، ونبذهم لكل ما سواه من شرك وضلال .

قال القرطبى ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ ﴿ إِذْ قَامُوا ﴾ يحتمل ثلاثة معان ، أحدها : أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدى الملك الكافر ، وهو مقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه ، ورفضوا ما دعاهم إليه .

والمعنى الثانى فيما قيل : إنهم أولاد عظماء تلك المدينة فخرجوا واجتمعوا وراءها من غير ميعاد ، وتعاهدوا على عبادة الله وحده .

والمعنى الثالث : أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله ـ تعالى ـ ومنابذة الناس ، كما تقول : قام فلان إلى أمر كذا ، إذا عزم عليه بغاية الجد .(١)

وعلى أية حال فالجملة الكريمة تفيد أن هؤلاء الفتية كانت قلوبهم ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحق الذى اهتدت إليه ، معتزة بالإيمان الذى أشربته ، مستبشرة بالإخاء الذى جمع بينها على غير ميعاد ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما قالوه بعد أن استقر الإيمان فى نفوسهم فقال : ﴿ فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا .. ﴾ .

أى : أعلنوا براءتهم من كل خضوع لغير الله ـ عز وجل ـ حين قاموا فى وجه أعدائهم ، وقالوا بكل شجاعة وجرأة ربنا ـ سبحانه ـ هو رب السموات والأرض ، وهو خالقهما وخالق كل شىء ، ولن نعبد سواه أى معبود آخر .

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٠ ص٣٦٥ .

ونفوا عبادتهم لغيره - سبحانه - بحرف «لن» للإشعار بتصميمهم على ذلك فى كل زمان ومكان ، إذ النفى بلن أبلغ من النفى بغيرها .

قال الآلوسى : وقد يقال : إنهم أشاروا بالجملة الأولى - وهى : ربنا رب السموات والأرض - إلى توحيد الربوبية ، وأشاروا بالجملة الثانية - لن ندعو من دونه إلها - إلى توحيد الألوهية ، وهما أمران متغايران ، وعبدة الأوثان لايقولون بهذا ، ويقولون بالأول : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ وحكى - سبحانه - عنهم أنهم يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ وصح أنهم كانوا يقولون ، لبيك لاشريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك .[1]

وقوله - سبحانه - : ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ تأكيد لبراءتهم من كل عبادة لغير الله - تعالى - .

والشطط : مصدر معناه مجاوزة الحد فى كل شىء ، ومنه : أشط فلان فى السوم إذا جاوز الحد ، وأشط فى الحكم إذا جاوز حدود العدل : وهو صفة لموصوف محذوف ، وفى الكلام قسم مقدر ، واللام فى «لقد» واقعة فى جوابه و«إذا» حرف جواب وجزاء فتدل على شرط مقدر .

أى : ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه إلها ، ولو فرض أننا دعونا وعبدنا من دونه إلها آخر ، والله لنكونن فى هذه الحالة قد قلنا إذا قولا شططا ، أى : بعيدا بعدا واضحا عن دائرة الحق والصواب .

والآية الكريمة تدل على قوة إيمان هؤلاء الفتية ، وعلى أن من كان كذلك ثبت الله - تعالى - قلبه ، وقواه على تحمل الشدائد ، كما تدل على أن من أشرك مع الله - تعالى - إلها آخر يكون بسبب هذا الإشراك قد جاء بأمر شطط بعيد كل البعد عن الحق والصواب وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ .[2]

ثم حكى - سبحانه - عن هؤلاء الفتية أنهم لم يكتفوا بإعلان إيمانهم الصادق ، بل أضافوا إلى ذلك استنكارهم لما عليه قومهم من شرك فقال : ﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ . . ﴾ .

و﴿ هَٰؤُلَاءِ ﴾ مبتدأ ، و ﴿ قَوْمُنَا ﴾ عطف بيان وجملة ﴿ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ هى الخبر .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٥ ص٢١٩ .

(١) سورة الحج الآية ٣١ .

و﴿ لَّوْلا ﴾ للتحضيض ، وهو الطلب بشدة والمقصود بالتحضيض هنا : الإنكار والتعجيز ، إذ من المعلوم أن قومهم لن يستطيعوا أن يقيموا الدليل على صحة ماهم عليه من شرك .

والمراد بالسلطان البين : الحجة الواضحة .

أى : أن أولئك الفتية بعد أن اجتمعوا ، وتعاقدوا على عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، ونبذ الشرك والشركاء قالوا على سبيل الإنكار ، والاحتقار لما عليه قومهم : هؤلاء قومنا بلغ بهم السفه والجهل ، أنهم اتخذوا مع الله ـ تعالى ـ أصناما يشركونها معه فى العبادة ، هلا أتى هؤلاء السفهاء بحجة ظاهرة تؤيد دعواهم بأن هذه الأصنام تصلح آلهة ، لاشك أنهم لن يستطيعوا ذلك .

قال صاحب الكشاف وقوله : ﴿ لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ .. ﴾ تبكيت لأن الإتيان بالسلطان على صحة عبادة الأوثان محال ، وهو دليل على فساد التقليد ، وأنه لابد فى الدين من حجة حتى يصح ويثبت .(١)

وشبيه بهذه الآية فى تعجيز المشركين وتجهيلهم قوله ـ تعالى ـ : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ (٢) .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣)

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بما يدل على تكذيبهم لقومهم ، ووصفهم إياهم بالظلم فقال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ .

أى : لا أحد أشد ظلما من قوم افتروا على الله ـ تعالى ـ الكذب ، حيث زعموا أن له شريكا فى العبادة والطاعة ، مع أنه ـ جل وعلا ـ منزه عن الشريك والشركاء : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما تناجوا به فيما بينهم ، بعد أن وضح موقفهم وضوحا صريحا حاسما ، وبعد أن أعلنوا كلمة التوحيد بصدق وقوة ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٤٧٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .

(٣) سورة الأحقاف الآية ٤ .

و﴿ إِذِ ﴾ يبدو أنها للتعليل ، والاعتزال : تجنب الشيء سواء أكان هذا التجنب بالبدن أم بالقلب ، و﴿ مَا ﴾ فى قوله : ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ اسم موصول فى محل نصب معطوف على الضمير فى قوله : ﴿ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ وقوله : ﴿ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ استثناء متصل ، بناء على أن القوم كانوا يعبدون الله ـ تعالى ـ ويشركون معه فى العبادة الأصنام ، و«من» قالوا إنها بمعنى البدلية .

وقوله : ﴿ مِّرْفَقًا ﴾ من الارتفاق : بمعنى الانتفاع ، وقرأ نافع وابن عامر مرفقا ـ بفتح الميم وكسر الفاء .

والمعنى : أن هؤلاء الفتية بعد أن أعلنوا كلمة التوحيد ، وعقدوا العزم على مفارقة قومهم المشركين تناجوا فيما بينهم وقالوا : ولأجل ما أنتم مقدمون عليه من اعتزالكم لقومكم الكفار ، واعتزالكم الذى يعبدونه من دون الله ، لأجل ذلك فالجأوا إلى الكهف ، واتخذوه مأوى ومستقرا لكم ، ينشر لكم ربكم الكثير من الخير بفضله ورحمته ، ويهيىء لكم بدلا من أمركم الصعب ، أمرا آخر فيه اليسر والنفع .

وفى التعبير بقولهم ـ كما حكى القرآن عنهم ـ ﴿ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ .. ﴾ دلالة واضحة على صدق إيمانهم وحسن ظنهم الذى لاحدود له ، بربهم ـ عز وجل ـ فهم عندما فارقوا أهليهم وأموالهم وزينة الحياة ، وقرروا اللجوء إلى الكهف الضيق الخشن المظلم ، لم ييأسوا من رحمة الله ، بل أيقنوا أن الله ـ تعالى ـ سيرزقهم فيه الخير الوفير ، وييسر لهم ما ينتفعون به ، ببركة إخلاصهم وصدق إيمانهم .

وهكذا الإيمان الصادق ، يجعل صاحبه يفضل المكان الخالى من زينة الحياة ، من أجل سلامة عقيدته ، علي المكان المليء باللين والرخاء الذى يحس فيه بالخوف على عقيدته .

فالاية الكريمة تدل على أن اعتزال الكفر والكافرين من أجل حماية الدين ، يؤدى إلى الظفر برحمة الله وفضله وعطائه العميم وصدق الله إذ يقول فى شأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا . فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ .(١)

٣ ـ ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال هؤلاء الفتية بعد أن استقروا فى الكهف ، وبعد أن ألقى الله ـ تعالى ـ عليهم بالنوم الطويل فتقول :

---

(١) سورة مريم من ٤٨ : ٥٠

وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

قال الآلوسى : قوله : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ.. ﴾ بيان لحالهم بعدما أووا إلى الكهف ، والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد ممن يصح ، وهو للمبالغة فى الظهور ، وليس المراد الإخبار بوقوع الرؤية ، بل المراد الإخبار بكون الكهف لو رأيته ترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين .(١)

وقوله : ﴿ تَّزَاوَرُ ﴾ من الزور بمعنى الميل ، ومنه قولهم : زار فلان صديقه ، أى : مال إليه ومنه شهادة الزور ، لأنها ميل عن الحق إلى الباطل ، ويقال : فلان أزور ، إذا كان مائل الصدر ، ويقال : تزاور فلان عن الشىء إذا انحرف عنه .

ومعنى : ﴿ تَّقْرِضُهُمْ ﴾ تقطعهم وتتجاوزهم وتتركهم ، من القرض بمعنى القطع والصرم ، يقال : قرض المكان ، أى : عدل عنه وتركه .

والمعنى : إنك ـ أيها المخاطب ـ لو رأيت أهل الكهف ، لرأيتهم على هذه الصورة ، وهى أن الشمس إذا طلعت من مشرقها ، مالت عن كهفهم جهة اليمين ، وإذا غربت ، تراها عند غروبها ، تميل عنهم كذلك فهى فى الحالتين لاتصل إليهم ، حماية من الله ـ تعالى ـ لهم ، حتى لاتؤذيهم بحرها ، بأن تغير ألوانهم ، وتبلى ثيابهم .

وقوله : ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ جملة حالية ، أى : والحال أنهم فى مكان متسع من الكهف وهو وسطه ، والفجوة : هى المكان المتسع ، مأخوذة من الفجا ، وهو تباعد مابين الفخذين ومنه قولهم : رجل أفجى ، وامرأة فجواء .

وللمفسرين فى تأويل هذه الآية اتجاهان لخصهما الإمام الرازى فقال : للمفسرين هنا قولان : أولهما : أن باب ذلك : الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال ، فإذا طلعت

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٥ ص٢٢ ـ بتصريف يسير .

الشمس كانت على يمين الكهف ، وإذا غربت كانت على شماله ، فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف ، وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل .

والثانى : يرى أصحابه أنه ليس المراد ذلك ، وإنما المراد أن الشمس إذا طلعت منع الله ـ تعالى ـ ضوءها من الوقوع عليهم ، وكذا القول فى حال غروبها ، وكان ذلك فعلا خارقا للعادة ، وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف .(1)

ومن هذين الرأيين يتبين لنا أن أصحاب الرأى الأول ، يرجعون عدم وصول حر الشمس إلى هؤلاء الفتية إلى أسباب طبيعية حماهم الله ـ تعالى ـ بها ومن بينها أن الكهف كان مفتوحا إلى جهة الشمال .

أما أصحاب الرأى الثانى فيردون عدم وصول أشعة الشمس إليهم إلى أسباب غير طبيعية ، بمعنى أن الفتية كانوا فى متسع من الكهف ، أى : فى مكان تصيبه الشمس ، إلا أن الله ـ تعالى ـ بقدرته التى لايعجزها شىء ، منع ضوء الشمس وحرها من الوصول إليهم خرقا للعادة على سبيل التكريم لهم .

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أن النفس أميل إلى الرأى الثانى ، لأن قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ يشير إلى أنهم مع اتساع المكان الذى ينامون فيه ـ وهو الفجوة ـ لاتصيبهم الشمس لاعند الطلوع ولاعند الغروب ، وهذا أمر خارق للعادة ، ويدل على عجيب حالهم ، كما أن قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ يشعر بأن أمر هؤلاء الفتية فيه غرابة ، وليس أمرا عاديا مألوفا .

قال الآلوسى : وأكثر المفسرين على أنهم لم تصبهم الشمس أصلا ، وإن اختلفوا فى منشأ ذلك واختار جمع منهم أنه لمحض حجب الله ـ تعالى ـ الشمس على خلاف ما جرت به العادة ، والإشارة تؤيد ذلك أتم تأييد ، والاستبعاد مما لايلتفت إليه ، لاسيما فيما نحن فيه ، فإن شأن أصحاب الكهف كله على خلاف العادة .(2)

وعلى هذا الرأى الثانى يكون اسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ إلى ما فعله الله ـ تعالى ـ معهم ، من حجب ضوء الشمس عنهم مع أنهم فى متسع من الكهف .

أى : ذلك الذى فعلناه معهم من آياتنا الدالة على قدرتنا الباهرة ، وإرادتنا التى لايعجزها شىء .

وأما على الرأى الأول فيكون اسم الإشارة مرجعه إلى ما سبق من الحديث عنهم ،

---

(1) تفسير الفخر الرازى جـ21 ص99 .

(2) تفسير الآلوسى جـ15 ص223 .

كهدايتهم إلى التوحيد ، وإخراجهم من بين عبدة الأوثان ، ولجوئهم إلى الكهف ، وجعل باب الكهف على تلك الكيفية ، إلى غير ذلك مما ذكر ـ سبحانه ـ عنهم .

أى : ذلك الذى ذكرناه لك عنهم ـ أيها الرسول الكريم ـ هو من آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ .

أى : من يهده الله إلى طريق الحق ، ويوفقه إلى الصواب ، فهو المهتد ، أى : فهو الفائز بالحظ الأوفر فى الدارين ، ومن يضلله الله ـ تعالى ـ عن الطريق المستقيم ، فلن تجد له ـ يا محمد ـ نصيرا ينصره ، ومرشدا يرشده إلى طريق الحق .

كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ . (١)

وكما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ . . ﴾ . (٢)

ثم صور ـ سبحانه ـ بعد ذلك مشهدا عجيبا من أحوال هؤلاء الفتية فقال : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾

والحسبان بمعنى الظن ، والأيقاظ جمع يقظ وهو ضد النائم ، والرقود : جم راقد والمراد به هنا : النائم .

أى : وتظنهم ـ أيها المخاطب لو قدر لك أن تراهم ـ أيقاظا منتبهين ، والحال أنهم رقود أى : نيام .

قالوا : وسبب هذا الظن والحسبان ، أن عيونهم كانت مفتوحة ، وأنهم كانوا يتقلبون من جهة إلى جهة ، كما قال ـ تعالى ـ بعد ذلك : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ .

أى : ونحركهم وهم رقود إلى الجهة التى تلى أيمانهم وإلى الجهة التى تلى شمائلهم ، رعاية منا لأجسامهم حتى لاتأكل الأرض شيئا منها بسبب طول رقادهم عليها .

وعدد مرات هذا التقليب لايعلمه إلا الله ـ تعالى ـ وما أورده المفسرون فى ذلك لم يثبت عن طريق النقل الصحيح ، لذا ضربنا صفحا عنه .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٨ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٩٧ .

ثم بين ـ سبحانه ـ حالة كلبهم فقال : ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ .

والمراد بالوصيد ـ على الصحيح فناء الكهف قريبا من الباب ، أو هو الباب نفسه ، ومنه قول الشاعر : بأرض فضاء لايسد وصيدها ، أى : لايسد بابها .

أى : وكلبهم الذى كان معهم فى رحلتهم ماد ذراعيه بباب الكهف حتى لكأنه يحرسهم ويمنع من الوصول إليهم .

وما ذكره بعض المفسرين هنا عن اسم الكلب وصفاته ، لم نهتم بذكره لعدم فائدته .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله : ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ .

أى : لو عاينتهم وشاهدتهم ـ أيها المخاطب ـ لأعرضت بوجهك عنهم من هول ما رأيت ، ولملئ قلبك خوفا ورعبا من منظرهم .

وقد أخذ العلماء من هذه الاية أحكاما منها : أن صحبة الأخيار لها من الفوائد ما لها .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم ، وكان جلوسه خارج الباب ، لأن الملائكة لاتدخل بيتا فيه كلب ـ كما ورد فى الصحيح ـ . . وشملت كلبهم بركتهم ، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، وهذا فائدة صحبة الأخيار ، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن .[1]

وقال القرطبى ـ رحمه الله ـ ما ملخصه : قال ابن عطية : وحدثنى أبى قال : سمعت أبا الفضل الجوهرى فى جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائه : إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم ، كلب أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله فى محكم تنزيله .

قلت ـ أى القرطبى ـ إذا كان بعض الكلاب نال هذه الدرجة العليا بصحبة ومخالطة الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله بذلك فى كتابه ، فماظنك بالمؤمنين المخالطين المحبين للأولياء ، والصالحين! بل فى هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال : المحبين للنبى ﷺ وآله خير آل .

روى فى الصحيح عن أنس قال : بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد ، فلقينا رجل عند سدة المسجد ، فقال : يا رسول الله متى الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ : «ما أعددت لها؟» قال : فكأن الرجل استكان ، ثم قال : يا رسول الله ، ما أعددت لها كثير

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٥ ص١٤١ .

صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكنى أحببت الله ورسوله : قال ﷺ : «فأنت مع من أحببت» ، وفى رواية قال أنس : فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشد من قول النبى ﷺ «فأنت مع من أحببت» .

قال أنس : فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن أكون معهم ، وإن لم أعمل بأعمالهم .

قلت : وهذا الذى تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذى نفس ، فلذلك تعلقت أطماعنا بذلك ، وإن كنا مقصرين ، ورجونا رحمة الرحمن ، وإن كنا غير مستأهلين .(١)

٤ ـ ثم حكى ـ سبحانه ـ حال هؤلاء الفتية بعد أن أعاد إليهم الحياة ، فذكر بعض أقوالهم فيما بينهم فقال ـ تعالى ـ :

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

وقوله ـ سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ بيان للعلة التى من أجلها بعث أصحاب الكهف من نومهم الطويل .

أى : وكما أنمناهم تلك المدة الطويلة بعثناهم من نومهم بعدها ، ليسأل بعضهم بعضا ، وكأنهم قد أحسوا بأن نومهم قد طال .

والاقتصار على التساؤل الذى حصل الإيقاظ من أجله ، لاينفى أن يكون هناك أسباب أخرى غيره حصل من أجلها إيقاظهم ، وإنما أفرده ـ سبحانه ـ بالذكر لاستتباعه لسائر الآثار الأخرى .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعض تساؤلهم فقال : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ أى : كم مكثتم مستغرقين فى النوم فى هذا الكهف .

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٠ ص٣٧٢ .

فأجابه بعضهم بقوله : ﴿ لَبِثْنَا يَوْمًا ﴾ لظنهمْ أن الشمس قد غربت ، فلما رأوها لم تغرب بعد قالوا : ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾أى : مكثنا نائمين بعض ساعات اليوم .

ويصح أن تكون أو للشك ، أى : قال بعضهم فى الرد على سؤال السائل كم لبثتم : لبثنا فى النوم يوما أو بعض يوم ، لأننا لاندرى على الحقيقة كم مكثنا نائمين .

ثم حكى القرآن أن بعضهم رد علم مقدار مدة نومهم على جهة اليقين إلى الله ـ تعالى ـ ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ ﴾ . (١)

وقال بعضهم : وقد استدل ابن عباس على أن عدد الفتية سبعة بهذه الآية ، لأنه قد قال فى الآية : قال قائل منهم ، وهذا واحد وقالوا فى جوابه : لبثنا يوما ، أو بعض يوم وهو جمع وأقله ثلاثة ، ثم قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة .(٢)

ثم بين ـ سبحانه ـ ما قالوه بعد أن تركوا الحديث فى مسألة الزمن الذي قضوه نائمين فى الكهف فقال ـ تعالى ـ : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ .

أى : كفوا عن الحديث فى مسألة المدة التى نمتموها ، فعلمها عند الله ، وابعثوا أحدكم ﴿ بِوَرِقِكُمْ ﴾ ، أى : بدراهمكم المضروبة من الفضة ﴿ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ التى يوجد بها الطعام الذى نحن فى حاجة إليه ، والتى هى أقرب مكان إلى الكهف .

قالوا والمراد بها مدينتهم التى كانوا يسكنونها قبل أن يلجأوا إلى الكهف فرارا بدينهم .

﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾ أى : ومتى وصل المدينة ، فليتفقد أسواقها ، وليختر أى أطعمتها أحل وأطهر وأجود وأكثر بركة .

﴿ فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أى : فليأتكم بما يسد جوعكم من ذلك الأزكى طعاما ، فيكون الضمير فى «منه» للطعام الأزكى .

ويصح أن يكون للدراهم المضروبة المعبر عنها أى : فليأتكم بدلا منها بطعام تأكلونه ، وليتلطف ، أى : وليتكلف اللطف فى الاستخفاء ، والدقة فى استعمال الحيل حال دخوله وخروجه من المدينة ، حتى لايعرفه أحد من أهلها .

(١) تفسير الآلوسي جـ١٥ ص٢٢٩ .

(٢) تفسير فتح البيان جـ٥ ص٥٣٤ .

﴿ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أى : ولا يفعلن فعلا يؤدى إلى معرفة أحد من أهل المدينة بنا .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ تعليل للأمر والنهى السابقين .

أى : قولوا لمن تختارونه لشراء طعامكم من المدينة : عليه أن يتخير أزكى الطعام ، وعليه كذلك ألا يخبر أحدا بأمركم من أهل المدينة ، لأنهم ﴿ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أى : يطلعوا عليكم ، أو يظفروا بكم .

وأصل معنى ظهر ، أى : صار على ظهر الأرض ، ولما كان ما عليها مشاهدا متمكنا منه ، استعمل تارة فى الاطلاع ، وتارة فى الظفر والغلبة ، وعدى بعلى .

﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ أى : إن يعرفوا مكانكم يرجموكم بالحجارة حتى تموتوا ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ الباطلة التى نجاكم الله ـ تعالى ـ منها .

﴿ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ أى : وإن عدتم إليها بعد إذ نجاكم الله ـ تعالى ـ منها وعصمكم من اتباعها ، فلن تفلحوا إذا أبدا ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وهكذا نجد هاتين الآيتين تصوران لنا بأسلوب مؤثر بليغ حال الفتية وهم يتناجون فيما بينهم ، بعد أن استيقظوا من رقادهم الطويل .

ونراهم فى تناجيهم ـ بعد أن تركوا الحديث عن المدة التى لبثوها فى نومهم ـ نراهم حذرين خائفين ، ولا يدرون أن الأعوام قد كرت ، وأن عجلة الزمن قد دارت ، وأن أجيالا قد تعاقبت ، وأن مدينتهم التى يعرفونها قد تغيرت معالمها ، وأن أعداءهم الكافرين قد زالت دولتهم .

٥ ـ ثم تمضى السورة الكريمة لتحدثنا عن مشهد آخر من أحوال هؤلاء الفتية ، مشهد تتجلى فيه قدرة الله ـ تعالى ـ على أبلغ وجه ، كما تتجلى فيه حكمته ووحدانيته ، استمع إلى القرآن الكريم وهو يحدثنا عن ذلك فيقول :

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) ﴾

فقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا ﴾ بيان للحكمة التى من أجلها أطلع الله ـ تعالى ـ الناس على هؤلاء الفتية .

قال الآلوسى ما ملخصه : وأصل العثور السقوط للوجه ، يقال : عثُر عثورا وعثارا إذا سقط لوجهه ، ومنه قولهم فى المثل : الجواد لايكاد يعثر ، ثم تجوز به فى الاطلاع على أمر من غير طلبه .

وقال بعضهم : لما كان كل عاثر ينظر إلى موضع عثرته ، ورد العثور بمعنى الاطلاع والعرفان ، فهو فى ذلك مجاز مشهور بعلاقة السببية .

ومفعول ﴿ أَعْثَرْنَا ﴾ محذوف لقصد العموم ، أى : وكذلك أطلعنا الناس عليهم .[1]

والمعنى : وكما أنمناهم تلك المدة الطويلة ، وبعثناهم هذا البعث الخاص ، أطلعنا الناس عليهم ليعلم هؤلاء الناس عن طريق المعاينة والمشاهدة ، ﴿ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بالبعث ﴿ حَقٌّ ﴾ وصدق وليعلموا كذلك أن الساعة ـ أى القيامة ـ آتية لاريب فيها ، ولاشك فى حصولها ، فإن من شاهد أهل الكهف ، وعرف أحوالهم ، أيقن بأن من كان قادرا على إنامتهم تلك المدة الطويلة ثم على بعثهم بعد ذلك ، فهو قادر على إعادة الحياة إلى الموتى ، وعلى بعث الناس يوم القيامة للحساب والجزاء .

وقد ذكروا فى كيفية إطلاع الناس عليهم روايات ملخصها : أن زميلهم الذى أرسلوه بالدراهم إلى السوق ليشترى لهم طعاما عندما وصل إلى سوق المدينة ، عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام ، فدفع إليه ما معه من نقود ، لكى يأخذ فى مقابلها طعاما ، فلما رأى البائع النقود أنكرها ـ لأنها مصنوعة منذ زمن بعيد ـ وأخذ يطلع عليها بقية التجار ، فقالوا له : أين وجدت هذه الدراهم؟ فقال لهم : بعت بها أمس شيئا من التمر ، وأنا من أهل هذه المدينة ، وقد خرجت أنا وزملائى إلى الكهف خوفا من إيذاء المشركين لنا ، فأخذوه إلى ملكهم وقصوا عليه قصته ، فسر الملك به ، وذهب معه إلى الكهف ليرى بقية زملائه فلما رآهم سلم عليهم ، ثم أماتهم الله ـ تعالى ـ .[2]

ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان من أمرهم بعد وفاتهم واختلاف الناس فى شأنهم ، فقال : ﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ .

والظرف ﴿ إِذْ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : اذكر ، و﴿ يَتَنَازَعُونَ ﴾ من التنازع بمعنى التخاصم والاختلاف ، والضمير فى ﴿ أَمْرَهُمْ ﴾ يعود إلى الفتية .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٥ ص٢٣٢ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ٥ ص١٤٢ .

والمعنى : لقد قصصنا عليك - أيها الرسول الكريم - قصة هؤلاء الفتية ، وبينا لك أحوالهم عند رقادهم ، وبعد بعثهم من نومهم ، وبعد الإعثار عليهم ، وكيف أن الذين عثروا عليهم صاروا يتنازعون فى شأنهم ، فمنهم من يقول إنهم وجدوا فى زمن كذا ، ومنهم من يقول إنهم مكثوا فى كهفهم كذا سنة ، ومنهم من يقول نبنى حولهم بنيانا صفته كذا .

ويجوز أن يكون الضمير فى ﴿ أَمْرَهُمْ ﴾ يعود إلى الذين أطلعهم الله على الفتية ، فيكون المعنى : اذكر وقت تنازع هؤلاء الذين عثروا على الفتية وتخاصمهم فيما بينهم ، حيث أن بعضهم كان مؤمنا ، وبعضهم كان كافرا ، وبعضهم كان يؤمن ببعث الأرواح والأجساد ، وبعضهم كان يؤمن يبعث الأجساد فقط .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ﴾ تفسير للمتنازع فيه ، وبيان لما قاله بعض الذين اطلعوا على أمر الفتية .

أى اختلف الذين عثروا علي الفتية فقال بعضهم : ابنوا على باب كهفهم بنيانا ، حتى لايصل الناس إليهم ، وحتى نصونهم من الأذى .

وقوله - تعالى - : ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ يحتمل أنه حكاية لكلام طائفة من المتنازعين فى شأن أصحاب الكهف ، وقد قالوه ليقطعوا النزاع فى شأنهم ، وليفوضوا أمرهم إلى الله - تعالى - .

ويحتمل أن يكون من كلام الله - تعالى - ردا للخائضين فى شأنهم .

أى : اتركوا أيها المتنازعون ما أنتم فيه من تنازع ، فإنى أعلم منكم بحال أصحاب الكهف .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ .

أى : أن الذين أعثرهم الله على أصحاب الكهف قال بعضهم : ابنوا على هؤلاء الفتية بنيانا يسترهم ، وقال الذين غلبوا على أمرهم ، وهم أصحاب الكلمة النافذة ، والرأى المطاع ، لنتخذن على هؤلاء الفتية مسجدا ، أى : معبدا تبركا بهم .

قال الآلوسى : واستدل بالآية على جواز البناء على قبور الصلحاء ، واتخاذ المساجد عليها ، وجواز الصلاة فى ذلك وممن ذكر ذلك الشهاب الخفاجى فى حواشيه على البيضاوى ، وهو قول باطل عاطل ، فاسد كاسد ، فقد روى أحمد وأبوداود والترمذى

والنسائى وابن ماجه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج» .

وزاد مسلم : «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك» .

وروى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» .(1)

٦ ـ ثم حكت السورة بعد ذلك ما أثير من جدل حول عدد أصحاب الكهف وأمرت النبى ﷺ أن يكل ذلك إلى الله ـ تعالى ـ وحده ، فقال ـ سبحانه ـ :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) ﴾ .

أى : سيختلف ـ الناس فى عدة أصحاب الكهف ـ أيها الرسول الكريم ـ فمن الناس من سيقول إن عدتهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، ومنهم من يقول : إنهم خمسة سادسهم كلبهم .

فالضمير فى قوله : ﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ وفى الفعلين بعده ، يعود لأولئك الخائضين فى قصة أصحاب الكهف ، وفى عددهم ، على عهد النبى ﷺ .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ رد على القائلين بأنهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وعلى القائلين بأنهم خمسة سادسهم كلبهم .

وأصل الرجم : الرمى بالحجارة ، والمراد به هنا : القول بالظن والحدس والتخمين بدون دليل أو برهان .

أى : يرمون رميا بالخبر الغائب عنهم ، والذى لا اطلاع لهم على حقيقته ، شأنهم فى ذلك شأن من يرمى بالحجارة التى لاتصيب المرمى المقصود .

ثم حكى ـ سبحانه ـ القول الذى هو أقرب الأقوال إلى الصواب فقال : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ١٥ ص٢٣٧ .

أى : وبعض الناس ـ وهم المؤمنون ـ يقولون إن عدد أصحاب الكهف سبعة أفراد وثامنهم كلبهم .

قال ابن كثير : يقول ـ تعالى ـ مخبرا عن اختلاف الناس فى عدة أصحاب الكهف .

فحكى ثلاثة أقوال ، فدل على أنه لاقائل برابع ، ولما ضعف القولين الأولين بقوله : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ أى : قول بلاعلم ، كمن يرمى إلى مكان لايعرفه ، فإنه لايكاد يصيب ، وإذا أصاب فبلا قصد ، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ دل على صحته وأنه هو الواقع فى نفس الأمر .(1)

ثم أمر الله ـ تعالى ـ النبى ﷺ أن يخبر الخائضين فى عدة أصحاب الكهف ، بما يقطع التنازع الذى دار بينهم فقال : ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ .

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لمن خاضوا فى عدة أصحاب الكهف : ربى ـ عز وجل ـ أقوى علما منكم بعدتهم ـ أيها المتنازعون ، فإنكم إن علمتم عنهم شيئا علما ظنيا ، فإن علم ربى بهم هو علم تفصيلى يقينى لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها .

ثم أثبت ـ سبحانه ـ علم عددهم لقليل من الناس فقال :﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ .

أى : مايعلم عدة أصحاب الكهف إلا عدد قليل من الناس .

ولاتعارض بين هذه الجملة وبين سابقتها ، لأن علم هذا العدد القليل من الناس بعدة أصحاب الكهف ، هو علم إجمالى ظنى ، أما علم الله ـ تعالى ـ فهو علم تفصيلى يقينى شامل لجميع الأزمنة .

فضلا عن أن علم هؤلاء القلة من الناس بعدة أصحاب الكهف ، نابع من إعلام الله ـ تعالى ـ لهم عن طريق الوحى كالرسول ﷺ أو من يطلعه الرسول ﷺ على عدتهم .

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنا من أولئك القليل ، كانوا سبعة ثم ذكر أسماءهم .

ثم نهى الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ عن الجدال المتعمق فى شأنهم ، كما نهاه عن استفتاء أحد فى أمرهم فقال ـ تعالى ـ : ﴿ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ .

والمراء : هو الجدال والمحاجة فيما فيه مرية ، أى : تردد ، مأخوذ من مريت الناقة إذا كررت مسح ضرعها للحلب .

---

(1) تفسير ابن كثير جـ٥ ص١٤٣ .

والاستفتاء : طلب الفتيا من الغير ، والفاء فى قوله : ﴿ فَلا تُمَارِ ﴾ للتفريع .

أى : إذا كان الشأن كما أخبرناك عن حال أصحاب الكهف ، فلاتجادل فى أمرهم أحدا من الخائضين فيه إلا جدالا واضحا لايتجاوز حدود ما قصصناه عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ ولا تطلب الفتيا فى شأنهم من أحد ، لأن ما قصصناه عليك من خبرهم ، يغنيك عن السؤال وعن طلب الإيضاح من أهل الكتاب أو من غيرهم .

٧ ـ ثم نهى الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ عن الإخبار عن فعل شىء فى المستقبل إلا بعد تقديم مشيئة الله ـ عز وجل ـ فقال :

﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) ﴾ .

قال القرطبى : قال العلماء : عاتب الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذى القرنين : غدا أخبركم عن أسئلتكم ، ولم يستثن فى ذلك .

فاحتبس الوحى عنه خمسة عشر يوما حتى شق ذلك عليه ، وأرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السورة مفرجة ، وأمر فى هذه الآية ألا يقول فى أمر من الأمور إنى أفعل غدا كذا وكذا ، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله ـ عز وجل ـ حتى لايكون محققا لحكم الخبر ، فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل ، كان كاذبا ، وإذا قال ، لأفعلن ذلك ـ إن شاء الله ـ خرج عن أن يكون محققا للمخبر عنه .[1]

والمراد بالغد : مايستقبل من الزمان ، ويدخل فيه اليوم الذى يلى اليوم الذى أنت فيه دخولا أوليا ، وعبر عما يستقبل من الزمان بالغد للتأكيد .

أى : ولاتقولن ـ أيها الرسول الكريم ـ لأجل شىء تعزم على فعله فى المستقبل : إنى فاعل ذلك الشىء غدا ، إلا وأنت مقرن قولك هذا بمشيئة الله ـ تعالى ـ وإذنه ، بأن تقول : سأفعل هذا الشىء غدا بإذن الله ومشيئته ، فإن كل حركة من حركاتك ـ ومن حركات غيرك ـ مرهونة بمشيئة الله ـ تعالى ـ وإرادته ، ومايتعلق بمستقبلك ومستقبل غيرك من شئون ، هو فى علم الله ـ تعالى ـ وحده .

وليس المقصود من الآية الكريمة نهى الإنسان عن التفكير فى أمر مستقبله ، وإنما المقصود نهيه عن الجزم بما سيقع فى المستقبل ، لأن ماسيقع علمه عند الله ـ تعالى ـ وحده .

(١) تفسير القرطبى جـ١٠ ص٣٨٥ .

والعاقل من الناس هو الذى يباشر الأسباب التى شرعها الله ـ تعالى ـ سواء أكانت هذه الأسباب تتعلق بالماضى أم بالحاضر أم بالمستقبل ، ثم يقرن كل ذلك بمشيئة الله ـ تعالى ـ وإرادته ، فلايقول : سأفعل غدا كذا وكذا لأننى أعددت العدة لذلك ، وإنما يقول : سأفعل غدا كذا وكذا إذا شاء الله ـ تعالى ـ ذلك وأراد ، وأن يوقن بأن إرادة الله فوق إرادته ـ وتدبيره ـ سبحانه ـ فوق كل تدبير .

وكم من أمور أعد الإنسان أسبابها التى تؤدى إلى قضائها ، ثم جاءت إرادة الله ـ تعالى ـ فغيرت ما أعده ذلك الإنسان ، لأنه لم يستشعر عند إعداده للأسباب أن ، إرادة الله ـ تعالى ـ فوق إرادته ، وأنه ـ سبحانه ـ القادر على خرق هذه الأسباب ، وخرق ماتؤدى إليه ، ولأنه لم يقل عندما يريد فعله ، فى المستقبل إن شاء الله .

وقوله : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ تأكيد لما قبله أى : لاتقولن أفعل غدا إلا ملتبسا بقول : إن شاء الله ، واذكر ربك ـ سبحانه ـ إذا نسيت تعليق القول بالمشيئة ، أى : عند تذكرك بأنك لم تقرن قولك بمشيئة الله ، فأت بها .

والمقصود من هذه الآية الكريمة بيان أن تعليق الأمور بمشيئة الله ـ تعالى ـ هو الذى يجب أن يفعل ، لأنه ـ تعالى ـ لايقع شىء إلا بمشيئته فإذا نسى المسلم ثم تذكر ، فإنه يقول : إن شاء الله ، ليخرج بذلك من عهدة عدم التعليق بالمشيئة وبذلك يكون قد فوض أمره إلى الله ـ تعالى ـ .

وليس المقصود بها التحلل من يمين قد وقعت ، لأن تداركها قد فات بالانفصال ، ولأن الاستثناء المتأخر لا أثر له ولا تحل به اليمين .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ أى : قدم ـ أيها الرسول الكريم ـ مشيئة ربك عند إرادة فعل شىء ، وأت بها إذا نسيت ذلك عند التذكر ، وقل عسى أن يوفقنى ربى ويهدينى ويدلنى على شىء أقرب فى الهداية ، والإرشاد من هذا الذى قصصته عليكم من أمر أصحاب الكهف .

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿ لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا .. ﴾ اسم الاشارة يعود إلى نبأ أصحاب الكهف : ومعناه : لعل الله يؤتينى من البينات والحجج على أنى نبى صادق ، ماهو أعظم فى الدلالة وأقرب رشدا من نبأ أصحاب الكهف .

وقد فعل ـ سبحانه ـ ذلك حيث آتاه من قصص الأنبياء ، والإخبار بالغيوب ، ماهو أعظم من ذلك وأدل .[1]

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٤٨٠ .

٨ ـ ثم بين ـ سبحانه ـ على وجه اليقين ، المدة التى قضاها أصحاب الكهف راقدين فى كهفهم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) ﴾ .

أى : أن أصحاب الكهف مكثوا فى كهفهم راقدين ثلاثمائة سنين ، وازدادوا فوق ذلك تسع سنين .

فالآية الكريمة إخبار منه ـ سبحانه ـ عن المدة التى لبثها هؤلاء الفتية مضروبا على آذانهم .

وقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ ﴾ تقرير وتأكيد لكون المدة التى لبثوها هى ما سبق بيانه فى الآية السابقة .

فكأنه ـ سبحانه ـ يقول : هذا هو فصل الخطاب فى المدة التى لبثوها راقدين فى كهفهم ، وقد أعلمك الله ـ تعالى ـ بذلك أيها الرسول الكريم ـ وما أعلمك به فهو الحق الصحيح الذى لايحوم حوله شك ، فلاتلتفت إلى غيره من أقوال الخائضين فى أمر هؤلاء الفتية ، فإن الله ـ تعالى ـ هو الأعلم بحقيقة ذلك .

ويرى بعضهم أن قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ﴾ حكاية لكلام أهل الكتاب فى المدة التى لبثها أهل الكهف نياما فى كهفهم ، وأن قوله ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ ﴾ للرد عليهم .

وقد حكى الإمام ابن كثير القولين ، ورجح الأول منهما فقال : هذا خبر من الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ بمقدار مالبث أصحاب الكهف فى كهفهم ، منذ أن أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان ، كان مقداره ثلاثمائة سنين وتسع سنين بالهلالية وهى ثلاثمائة سنة بالشمسية ، فإن تفاوت مابين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين ، فلهذا قال بعد الثلاثمائة ﴿ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ﴾ وهذا قول أهل الكتاب وقد رده الله ـ تعالى ـ بقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ ﴾ .

وفى هذا الذى قاله قتادة نظر ، فإن الذى بأيدى أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة

من غير تسع ولو كان الله ـ تعالى ـ قد حكى قولهم لما قال : ﴿ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ وظاهر الآية أنه خبر عن الله لا حكاية عنهم .[1]

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ تأكيد لاختصاصه ـ عز وجل ـ بعلم المدة التى لبثوها ، أى : أنه ـ سبحانه ـ وحده علم ما خفى وغاب من أحوال السموات والأرض ، وأحوال أهلهما ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ صيغتا تعجب : أى : ما أبصره وما أسمعه ـ تعالى ـ والمراد أنه ـ سبحانه ـ لايغيب عن بصره وسمعه شىء .

وجاءت هذه الجملة الكريمة بصيغة التعجب للدلالة على أن أمره ـ تعالى ـ فى الإدراك خارج عما عليه إدراك المبصرين والسامعين ، إذ لايحجبه شىء ، ولايتفاوت عنده لطيف وكثيف ، وصغير وكبير ، وجلى وخفى .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ .

أى : ليس لأهل السموات ولا لأهل الأرض ، ولالغيرهما غير الله ـ تعالى ـ نصير ينصرهم ، أو ولى يلى أمرهم ، ولايشرك ـ سبحانه ـ فى حكمه أو قضائه أحدا كائنا من كان من خلقه ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

٩ ـ هذا ، وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات مسائل منها .

(أ) مكان الكهف الذى لجأ إليه هؤلاء الفتية ، والزمن الذى ظهروا فيه ، أما مكان الكهف فللعلماء فيه أقوال : من أشهرها أنه كان بالقرب من مدينة تسمى «أفسوس» وهى من مدن تركيا الآن ، قالوا إنها تبعد عن مدينة «أزمير» بحوالى أربعين ميلا ، وتعرف الآن باسم «أيازبوك» .

وقيل : إنه كان ببلدة تدعى «أبْسسُ» ـ بفتح الهمزة وسكون الباء وضم السين ـ وهذه البلدة من ثغور «طرسوس» بين مدينة حلب بسوريا ، وبلاد أرمينية وأنطاكية .

وقيل : إنه كان ببلدة تسمى «بتراء» بين خليج العقبة وفلسطين ، إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة التى لانرى داعيا لذكرها ، لقلة فائدتها .

وأما الزمن الذى ظهروا فيه ، فيرى كثير من المفسرين أنه كان فى القرن الثالث

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٥ ص١٤٦ .

الميلادى فى عهد الامبراطور الرومانى «دقيانوس» الذى كان يحمل الناس حملا على عبادة الأصنام ، ويعذب من يخالف ذلك .

(ب) العبر والعظات والأحكام التى تؤخذ من هذه القصة ـ ومن أهمها :

١ ـ إثبات صدق الرسول ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، حيث أخبر ـ عن طريق ما أوحاه الله إليه من قرآن ـ عن قصة هؤلاء الفتية ، وبين وجه الحق فى شأنهم ورد على ما خاضه الخائضون فى أمرهم ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ . . ﴾ .

٢ ـ الكشف عن جانب من بلاغة القرآن الكريم فى قصصه ، حيث ساق هذه القصة مجملة فى الآيات الأربع الأولى منها ثم ساقها مفصلة بعد ذلك تفصيلا حكيما ، وفى ذلك ما فيه من تمكن أحداثها وهداياتها فى القلوب .

والمرشد العاقل هو الذى ينتفع بهذا الأسلوب القرآنى فى وعظه وإرشاده .

٣ ـ بيان أن الإيمان متى استقر فى القلوب ، هان كل شىء فى سبيله ، فهؤلاء الفتية آثروا الفرار بدينهم ، على البقاء فى أوطانهم ، لكى تسلم لهم عقيدتهم ، فهم كما قال ـ سبحانه ـ فى شأنهم :﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ .

٤ ـ بيان أن على المؤمن أن يلجأ إلى الله بالدعاء ـ لاسيما عند الشدائد والكروب ،وأنه متى اتقى الله ـ تعالى ـ وأطاعه ، جعل له ـ سبحانه ـ من كل ضيق فرجا ، ومن كل هم مخرجا ، ورزقه من حيث لايحتسب ، وصانه من السوء .

فهؤلاء الفتية عندما لجأوا إلى الكهف ، تضرعوا إلى الله بقولهم : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ .

فأجاب الله دعاءهم ، حيث ضرب على آذانهم فى الكهف سنين عددا ، وجعل الشمس لاتصل إليهم مع أنهم فى فجوة من الكهف ، وصان أجسادهم من البلى والتعفن بأن قلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وأنام كلبهم بعتبة باب الكهف ، حتى لكأنه حارس لهم : وألقى الهيبة عليهم بحيث لو رآهم الرائى لولى منهم فرارا ، ولملئ قلبه رعبا من منظرهم .

وسخر أصحاب النفوذ والقوة للدفاع عنهم ، وللتعبير عن تكريمهم لهم بقولهم :

﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾

٥ ـ بيان أن التفكير السليم ـ المصحوب بالنية الطيبة والعزيمة الصادقة ـ يؤدى إلى الاهتداء إلى الحق ، وأن القلوب النقية الطاهرة تتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، وأن فضح الباطل والكشف عن زيفه ، دليل على سلامة اليقين .

فهؤلاء الفتية اجتمعوا على الحق ، وربط الله على قلوبهم إذ قاموا للوقوف فى وجه الباطل ، وهداهم تفكيرهم السليم إلى أن المستحق للعبادة هو ربهم رب السموات والأرض ، وأن من يعبد غيره يكون قد افترى على الله كذبا .

وأن اعتزال الكفر ، يوصل إلى نشر الرحمة ، والظفر بالسداد والتوفيق ، ولذا تواصوا فيما بينهم بقولهم : ﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ .

٦ ـ بيان أن مباشرة الأسباب المشروعة لاتنافى التوكل على الله .

فهؤلاء الفتية عندما خرجوا من ديارهم أخذوا معهم بعض النقود ، وبعد بعثهم من رقادهم أرسلوا أحدهم إلى المدينة ليحضر لهم طعاما طاهرا حلالا ، وأوصوه بالتلطف فى أخذه وعطائه وبكتمان أمره وأمرهم حتى لايعرف الأعداء مكانهم وهكذا العقلاء لايمنعهم توكلهم على الله ـ تعالى ـ من أخذ الحيطة والحذر فى كل شئونهم التى تستدعى ذلك .

٧ ـ إقامة أوضح الأدلة وأعظمها على أن البعث حق ، فقد أطلع الله ـ تعالى ـ الناس على هؤلاء الفتية ، ليوقنوا بأنه سبحانه ـ قادر على إحياء الموتى ، لأن من يقدر على بعث الراقدين من رقادهم بعد مئات السنين ، فهو قادر على إحياء الموتى يوم القيامة .

٨ ـ بيان أن من الواجب على المؤمن إذا أراد فعل شىء أن يقرن ذلك بمشيئة الله ـ تعالى ـ لأنه ـ سبحانه ـ بيده الأمر كله ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ .

هذه بعض العظات والأحكام التى ترشدنا إليها هذه القصة ، وقد ذكرنا جانبا آخر منها خلال تفسيرنا للآيات التى اشتملت عليها ، وبالله التوفيق .

٢ـ قصة صاحب الجنتين

١ ـ هذه القصة ساقها القرآن الكريم مثلا للنفس الإنسانية المغرورة المتفاخرة بزينة الحياة الدنيا ، الجاحدة لنعم الله ـ تعالى ـ .

كما ساقها ـ أيضا ـ مثلا للنفس الإنسانية المتواضعة المعتزة بعقيدتها السليمة ، الشاكرة لربها ، لكى يكون فى كل ذلك عبرة وعظة «لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» .

وقد وردت هذه القصة فى سورة الكهف ، فى قوله ـ تعالى ـ :

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

والمثل فى اللغة : الشبيه والنظير ، وهو فى عرف القران الكريم : الكلام البليغ المشتمل على تشبيه بديع .

وضرب المثل : إيراده ، وعبر عن إيراده بالضرب ، لشدة مايحدث عنه التأثير فى نفس السامع .

أى : واضرب - أيها الرسول الكريم - مثلا للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، وللكافرين الذين غرتهم الحياة الدنيا ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة .

قال الآلوسى : والمراد بالرجلين : إما رجلان مقدران على ماقيل ، وضرب المثل لايقتضى وجودهما ، وإما رجلان موجودان وهو المعول عليه ، فقيل هما رجلان من بنى إسرائيل أحدهما : كافر . . والآخر مؤمن :

ثم قال : والمراد ضربهما مثلا للفريقين المؤمنين والكافرين ، لا من حيث أحوالهما المستفادة ، مما ذكر آنفا بل من أن للمؤمنين فى الآخرة كذا ، وللكافرين فيها كذا ، من حيث عصيان الكفرة مع تقلبهم فى نعم الله ، وطاعة المؤمنين مع مكابدتهم مشاق الفقر .[1]

أى : واضرب لهم مثلا من حيثية العصيان مع النعمة ، والطاعة مع الفقر ، حال رجلين : ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا ﴾ وهو الكافر ﴿ جَنَّتَيْنِ ﴾ أى : بستانين ، ولم يعين - سبحانه - مكانهما ، لأنه لم يتعلق بهذا التعيين غرض .

ثم بين ما اشتملت عليه هاتان الجنتان من خيرات فقال : ﴿ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ جمع عنب والعنبة الحبة منه ، والمراد : من كروم متنوعة .

وقوله : ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ بيان لما أضيف إلى الجنتين من مناظر تزيدهما بهجة وفائدة .

والحف بالشىء : الإحاطة به ، يقال : فلان حفه القوم ، أى : أحاطوا به ، ومنه قوله - تعالى - : ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ .

أى : جعلنا لأحد الرجلين ، وهو الكافر منهما جنتين من أعناب ، وأحطناهما بنخل ليكون كالحماية النافعة لهما ، وجعلنا فى وسطهما زرعا وبذلك تكون الجنتان جامعتين للأقوات والفواكه ، مشتملتين على ما من شأنه أن يشرح الصدر ، ويفيد الناس .

ثم ذكر - سبحانه - مايزيد من جودة الجنتين ، ومن غزارة خيرهما فقال : ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴾ وكلتا : اسم مفرد اللفظ مثنى المعنى عند البصريين ، وهو المذهب المشهور ، ومثنى لفظا ومعنى عند غيرهم .

أى : أن كل واحدة من الجنتين ﴿ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ أى : أعطت ثمارهما التى يأكلها الناس

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٥ ص٢٧٣ .

من العنب والتمر وغيرهما من صنوف الزرع ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ أى : ولم تنقص من هذا المأكول شيئا فى سائر السنين ، بل كان أكل كل واحدة منهما وافيا كثيرا فى كل سنة ، على خلاف ما جرت به عادة البساتين ، فإنها فى الغالب تكثر ثمارها فى أحد الأعوام وتقل فى عام آخر .

وفى التعبير بكلمة ﴿ تَظْلِم ﴾ بمعنى تنقص وتمنع ، مقابلة بديعة لحال صاحبهما الذى ظلم نفسه بجحوده لنعم الله - تعالى - واستكباره فى الأرض .

وقوله : ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴾ أى : وشققنا فى وسطهما نهرا ليمدهما بما يحتاجان إليه من ماء بدون عناء وتعب .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هاتين الجنتين بما يدل على جمال منظرهما ، وغزارة عطائهما ، وكثرة خيراتهما ، واشتمالهما على ما يزيدهما بهجة ومنفعة .

ثم بين - سبحانه - أن صاحب هاتين الجنتين كانت له أموال أخرى غيرهما ، فقال : ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ .

قال الآلوسى ما ملخصه : ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ أى : للأحد المذكور وهو صاحب الجنتين «ثمر» أى : أنواع أخرى من المال ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى ، «ثُمُر» بضم الثاء والميم ، وهو جمع ثمار - بكسر الثاء - أى : أموال كثيرة من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك ، وبذلك فسره ابن عباس وقتادة وغيرهما .[1]

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ حكاية لما تفوه به هذا الكافر من ألفاظ تدل على غروره وبطره .

والمحاورة : المراجعة للكلام من جانبين أو أكثر ، يقال : تحاور القوم ، إذا تراجعوا الكلام فيما بينهم ، ويقال : كلمته فما أحار جوابا ، أى : مارد جوابا .

والنفر : من ينفرُ - بضم الفاء - مع الرجل من قومه وعشريته لقتال عدوه .

أى : فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن الشاكر ، أنا أكثر منك مالا وأعز منك عشيرة وحشما وأعوانا .

وهذا شأن المطموسين المغرورين ، تزيدهم شهوات الدنيا وزينتها ، بطرا وفسادا فى الأرض .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٥ ص٢٧٤ .

وما أصدق قول قتادة - رضي الله عنه - : «تلك - والله - أمنية الفاجر كثرة المال وعزة النفر» .

ثم انتقل صاحب الجنتين من غروره هذا إلى غرور أشد ، حكاه القرآن فى قوله : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ .

أى : أن هذا الكافر لم يكتف بتطاوله على صاحبه المؤمن ، بل سار به نحو جنته ، حتى دخلها وهو ظالم لنفسه بسبب كفره وجحوده وغروره .

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ أى : وهو معجب بما أوتى مفتخر به ، كافر لنعمة ربه ، معرض بذلك نفسه لسخط الله ، وهو أفحش الظلم .(١)

وقوله : ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴾ أى : قال هذا الكافر لصاحبه : ما أظن أن هذه الجنة تفنى أو تهلك أبدا .

يقال : باد الشىء يبيدُ بَيْدا وبُيُودا إذا هلك وفنى .

ثم ختم هذا الكافر محاورته لصاحبه بقوله : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أى : كائنة ومتحققة ، فهو قد أنكر البعث وما يترتب عليه من حساب بعد إنكاره لفناء جنته ، ثم أكد كلامه بجملة قسمية فقال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ أى : والله لئن رددت إلى ربى على سبيل الفرض والتقدير كما أخبرتنى يا صاحبى بأن هناك بعثا وحسابا ﴿ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا ﴾ أى : من هذه الجنة ﴿ مُنقَلَبًا ﴾ أى : مرجعا وعاقبه ، اسم مكان من الانقلاب بمعنى الرجوع والانصراف عن الشىء إلى غيره .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ .

والمتدبر لحال صاحب الجنتين يراه ، - أولا - قد زعم أن مدار التفاضل هو الثروة والعشيرة ، ويراه - ثانيا - قد بنى حياته على الغرور والبطر ، واعتقاد الخلود لزينة الحياة الدنيا ، ويراه - ثالثا - قد أنكر البعث والحساب ، والثواب والعقاب .

ويراه - رابعا : قد توهم أن غناه فى الدنيا سيكون معه مثله فى الآخرة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص ٤٨٤ .

قال صاحب الكشاف : وأخبر عن نفسه بالشك فى بيدودة جنته ، لطول أمله ، واستيلاء الحرص عليه ، وتمادى غفلته ، واغتراره بالمهلة ، واطراحه النظر فى عواقب أمثاله ، وترى أكثر الأغنياء من المسلمين ، وإن لم يطلقوا بمثل هذا ألسنتهم ، فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به ، منادية عليه .

وأقسم على أنه إن رد إلى ربه - على سبيل الفرض والتقدير - ليجدن فى الآخرة خيرا من جنته فى الدنيا ، تطمعا وتمنيا على الله .(١)

٢ - ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله الرجل المؤمن لصاحب الجنتين ، الذى نطق بأفحش الفحش ، وأفجر الفجور فقال - تعالى - :

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

أى : قال الرجل الفقير المؤمن ، فى رده على صاحبه الجاحد المغرور ، منكرا عليه كفره قال له على سبيل المحاورة والمجاوبة : يا هذا ﴿ أَكَفَرْتَ ﴾ بالله الذى ﴿ خَلَقَكَ ﴾ بقدرته ﴿ من تُرَابٍ ﴾ أى : خلق أباك الأول من تراب ، كما قال : - سبحانه - ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٢)

﴿ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ أى : خلق أباك آدم من تراب ، ثم أوجدك أنت من نطفة عن طريق التناسل والمباشرة بين الذكر والأنثى .

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٤٨٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٩ .

﴿ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ أى : ثم صيرك إنسانا كاملا ، ذا صورة جميلة ، وهيئة حسنة ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أَكَفَرْتَ ﴾ للإنكار والاستبعاد ، لأن خلق الله ـ تعالى ـ له من تراب ثم من نطفة ، ثم تسويته إياه رجلا ، يقتضى منه الإيمان بهذا الخالق العظيم ، وإخلاص العبادة له ، وشكره على نعمائه .

قالوا : ولا يستلزم قول صاحب الجنتين قبل ذلك : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ أنه كان مؤمنا لأنه قال ذلك على سبيل الفرض والتقدير ، لا على سبيل الاعتقاد واليقين ، بدليل تردده فى إمكان قيام الساعة ، ولأن اعترافه بوجود الله ـ تعالى ـ لا يستلزم الإيمان الحق ، فالكفار كانوا يعترفون بأن الله ـ تعالى ـ هو الخالق للسموات والأرض ، ومع هذا يشركون معه فى العبادة آلهة أخرى .

وجاء التعبير بحرف «ثم» فى الآية ، للإشارة إلى أطوار خلق الإنسان التى فصلها ـ سبحانه ـ فى آيات أخرى ، منها قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .[1]

ثم يعلن الرجل الصالح موقفه بشجاعة ووضوح ، فيقول لصاحبه صاحب الجنتين : ﴿ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ .

أى : إن كنت أنت يا هذا قد كفرت بالله الذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، فإنى لست بكافر ، ولكنى أنا مؤمن ، أعترف له بالعبادة والطاعة وأقول : هو الله ـ تعالى ـ وحده ربى ، ولا أشرك معه أحدا من خلقه لا فى الربوبية ، ولا فى الألوهية ، ولا فى الذات ولا فى الصفات .

وقوله ـ سبحانه ـ فى هذه الآية ﴿ لَّكِنَّا . . ﴾ أصله : «لكن أنا» أى : لكن أنا أقول هو الله ربى ، فحذفت همزة «أنا» وأدغمت نون «لكن» فى نون أنا بعد حذف الهمزة .

ثم أرشده إلى ما كان يجب عليه أن يقوله عند دخوله جنته فقال : ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ . . ﴾ .

---

(١) سورة المؤمنون الايات من ١٢ : ١٤ .

قال الإمام ابن كثير : هذا تحضيض وحث على ذلك ، أى : هلا إذا أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها ، حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ، ما لم يعط غيرك وقلت : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه شىء من حاله أو ولده ، أو ماله ، فليقل : ما شاء الله لاقوة إلا بالله ، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة ، وقد روى فيه حديث مرفوع ، فعن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول : «ما شاء الله لاقوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت» .[1]

وبعد أن حضه على الشكر لله - تعالى - رد على افتخاره وغروره بقوله - كما حكى القرآن عنه - : ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا . فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾ .

أى : إن ترن - أيها المغرور - أنا أقل منك فى المال والولد فإنى أرجو الله الذى لايعجزه شىء ، أن يرزقنى ما هو خير من جنتك فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : عذابا من جهة السماء كالصواعق والسموم وغيرها مما يشاء الله - تعالى - إرساله عليها من المهلكات التى تذرها قاعا صفصفا .

قال صاحب الكشاف : والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى الحساب ، أى : ويرسل عليها مقدارا قدره الله وحسبه ، وهو الحكم بتخريبها .

﴿ فَتُصْبِحَ ﴾ بعد اخضرارها ونضارتها ﴿ صَعِيدًا ﴾ أى : أرضا ﴿ زَلَقًا ﴾ ، أى : جرداء ملساء لانبات فيها ، ولايثبت عليها قدم .

والمراد أنها تصير عديمة النفع من كل شىء حتى من المشى عليها ، يقال : مكان زَلَق ، أى : دَحْضٌ ، وهو فى الأصل مصدر زلقت رجله تزلق زلقا ، ومعناه : الزلل فى المشى لوحل ونحوه .

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾ أى : غائرا ذاهبا فى الأرض ، فالغور مصدر وصف به على سبيل المبالغة وهو بمعنى الفاعل ، يقال : غار الماء يغور غورا : أى سفل فى الأرض وذهب فيها .

ومنه قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١٥ ص١٥٤ .

﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ أى : فلن تستطيع أن تحصل عليه أو تطلبه بأية حيلة من الحيل ، لأنه لايقدر على الإتيان بهذا الماء الغائر إلا الله ـ عز وجل ـ .

وإلى هنا نجد أن الرجل المؤمن قد رد على صاحبه الكافر ، بما يذكره بمنشئه ، وبما يوجهه إلى الأدب الذى يجب أن يتحلى به مع خالقه ورازقه ، وبما يحذره من سوء عاقبة بطره .

وهكذا الإيمان الحق ، يجعل المؤمن يعتز بعقيدته ، ويتجه إلى الله وحده الذى تعنو له الجباه ، ويرجو منه وحده ماهو خير من بساتين الدنيا وزينتها .

٣ ـ ثم يختتم ـ سبحانه ـ هذه القصة ببيان العاقبة السيئة التى حلت بذلك الرجل الجاحد المغرور صاحب الجنتين فيقول :

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

أى : وكانت نتيجة جحود صاحب الجنتين لنعم ربه ، أن أهلكت أمواله وأبيدت كلها ، فصار يقلب كفيه ظهرا لبطن أسفا وندما ، على ما أنفق فى عمارتها وتزيينها من أموال كثيرة ضاعت هباء ، ومن جهد كبير ذهب سدى .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ معطوف على مقدر محذوف لدلالة السباق والسياق عليه .

وأصل الإحاطة مأخوذ من إحاطة العدو بعدوه ، من جميع جوانبه لإهلاكه واستئصاله .

والمعنى : فحدث ما توقعه الرجل الصالح من إرسال الحسبان على بستان صاحبه الجاحد المغرور ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ بأن هلكت أمواله وثماره كلها .

وجاء الفعل ﴿ أُحِيطَ ﴾ مبنيا للمجهول ، للإشعار بأن فاعله متيقن وهو العذاب الذى أرسله الله ـ تعالى ـ أى : وأحاط العذاب بجنته .

وقوله : ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾ تصوير بديع لما اعتراه من غم وهم

وحسرة وندامة ، وتقليب اليدين عبارة عن ضرب إحداهما على الأخرى ، أو أن يبدى ظهرهما ثم بطنهما ويفعل ذلك مرارا ، وأيًّامًا كان ففعله هذا كناية عن الحسرة الشديدة والندم العظيم .

﴿ وَهِيَ ﴾ أى الجنة التى أنفق فيها ما أنفق ﴿ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أى : ساقطة ومتهدمة على دعائمها وعلى سقوفها .

وأصل الخواء السقوط والتهدم ، يقال : خوى البيت إذا سقط ، كما يطلق على الخلاء من الشىء ، يقال : خوى بطن فلان من الطعام أى : خلا منه ، وخوت الدار إذا خلت من سكانها .

والعروش جمع عرش ، وهو سقف البيت .

والمقصود أن الجنة بجميع ما اشتملت عليه ، صارت حطاما وهشيما تذروه الرياح .

وجملة : ﴿ وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ . . ﴾ .

أى : صار يقلب كفيه حسرة وندامة لهلاك جنته ، ويقول زيادة فى الحسرة والندامة : يا ليتنى اتبعت نصيحة صاحبى فلم أشرك مع ربى - سبحانه - أحدا فى العبادة أو الطاعة .

وهكذا حال أكثر الناس ، يذكرون الله - تعالى - عند الشدائد والمحن ، وينسونه عند السراء والعاقبة .

والمتدبر لهذه الآية الكريمة يراها قد صورت فجيعة الرجل الجاحد فى جنته تصويرا واقعيا بديعا .

فقد جرت عادة الإنسان أنه إذا نزل به ما يدهشه ويؤلمه ، أن يعجز عن النطق فى أول وهلة ، فإذا ما أفاق من دهشته بدأ فى النطق والكلام .

وهذا ماحدث من ذلك الرجل - كما صوره القرآن الكريم - فإنه عندما رأى جنته وقد تحطمت أخذ يقلب كفيه حسرة وندامة دون أن ينطق ، ثم بعد أن أفاق من صدمته جعل يقول : يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا .

فياله من تصوير بديع ، يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان عظيم قدرته ونفاذ إرادته فقال : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا . هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ .

أى : ولم تكن لهذا الجاحد المغرور بعد أن خوت جنته على عروشها ، عشيرة أو أعوان

ينصرونه ، أو يدفعون عنه ما حل به ، وإنما القادر على ذلك هو الله ـ تعالى ـ وحده ، وما كان هذا الرجل الذى جحد نعم ربه منتصرا لأنه ـ سبحانه ـ قد حجب عنه كل وسيلة تؤدى إلى نصره وعونه ، بسبب إيثاره الغى على الرشد ، والكفر على الإيمان .

فالآية الكريمة تبين بجلاء ووضوح ، عجز كل قوة عن نصرة ذلك الرجل المخذول سوى قوة الله ـ عز وجل ـ وعجز ذلك الرجل فى نفسه عن رد انتقام الله ـ تعالى ـ منه .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ .. ﴾ تقرير وتأكيد للآية السابقة ، ولفظ هنالك ظرف مكان .

وكلمة ﴿ الْوَلايَةُ ﴾ قرأها الجمهور بفتح الواو بمعنى الموالاة والصلة والنصرة كما قرأ الجمهور كلمة ﴿ الْحَقِّ ﴾ بالجر على أنها نعت للفظ الجلالة .

فيكون المعنى : فى ذلك المقام وتلك الحال تكون الولاية ـ أى : الموالاة والصلة ـ من كل الناس ، لله ـ تعالى ـ وحده إذ الكافر عندما يرى العذاب يعترف بوحدانية الله ـ تعالى ـ كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ .[1]

ويجوز أن يكون المعنى : فى ذلك المقام وتلك الحال تكون الولاية أى الموالاة لله ـ تعالى ـ وحده ، فيوالى المؤمنين برحمته ومغفرته وينصرهم على أعدائهم ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ .[2]

وقرأ حمزة والكسائى : ﴿ الْوِلايَةُ ﴾ بكسر الواو ، بمعنى الملك والسلطان كما قرأ أبو عمرو والكسائى لفظ ﴿ الْحَقُّ ﴾ بالرفع على أنه نعت للولاية .

فيكون المعنى : فى ذلك المقام تكون الولاية الحق والسلطان الحق ، لله رب العالمين ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ .[3]

قال بعض العلماء : وقوله ﴿ هُنَالِكَ ﴾ يرى بعضهم أنه متعلق بما يعده ، والوقوف تام على قوله : ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ .

---

(١) سورة غافر : الآيتان ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) سورة محمد : الاية ١١ .

(٣) سورة الفرقان : الاية ٢٦ .

ويرى آخرون أنه متعلق بما قبله .

فعلى القول الأول يكون الظرف ﴿هُنَالِكَ﴾ عامله ما بعده أى : الولاية كائنة لله هنالك .

وعلى القول الثانى فالعامل فى الظرف اسم الفاعل الذى هو منتصرا أى : لم يكن انتصاره واقعا هنالك .[1]

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أى : هو ـ عز وجل ـ خير إثابة وإعطاء لأوليائه ، وخير عاقبة لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى .

وعاقبة الأمر : آخره وما يصير إليه منتهاه .

وبذلك نرى أن هذه القصة التى ضربها الله ـ تعالى ـ مثلا للأخيار والأشرار قد بينت لنا بأسلوب بليغ أخاذ ، صورة عاقبة الجاحدين المغرورين ، وحسن عاقبة الشاكرين المتواضعين ، كما بينت لنا الآثار الطيبة التى تترتب على الإيمان والعمل الصالح ، والآثار السيئة التى يفضى إليها الكفر وسوء العمل ، كما بينت لنا أن المتفرد بالولاية والقدرة هو الله ـ عز وجل ـ فلاقوة إلا قوته ، ولا نصر إلا نصره ، ولا مستحق للعبادة أحد سواه ، ولا ثواب أفضل من ثوابه ولا عاقبة لأوليائه خير من العاقبة التى يقدرها لهم ، وصدق ـ سبحانه حيث يقول : ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ .

---

(١) تفسير أضواء اليان جـ٥ ص١٠٨ .

٣ـ قصة ذى القرنين

هذه قصة من قصص القرآن الكريم ، وهى قصة ذى القرنين ، قصة إنسان أعطاه الله ـ تعالى ـ الملك الواسع ، والقوة العظيمة ، فشكر خالقه على نعمه ، وسخر حياته لخدمة الحق ، وللإصلاح فى الأرض ، وقد وردت هذه القصة فى قوله ـ تعالى ـ فى سورة «الكهف» .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ معطوف على قصة موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ عطف القصة على القصة .

قال البقاعى : كانت قصة موسى مع الخضر مشتملة على الرحلات من أجل العلم ، وكانت قصة ذى القرنين مشتملة على الرحلات من أجل الجهاد فى سبيل الله ، ولما كان العلم أساس الجهاد تقدمت قصة موسى والخضر على قصة ذى القرنين .[1]

والسائلون هم كفار قريش بتلقين من اليهود ، فقد سبق أن ذكرنا عند تفسيرنا لقصة أصحاب الكهف ، أن اليهود قالوا لوفد قريش : سلوه ـ أى الرسول ﷺ ـ عن ثلاث نأمركم بهن ، سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماذا كان من أمرهم ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وسلوه عن الروح .

وجاء التعبير بصيغة المضارع ـ مع أن الآيات نزلت بعد سؤالهم ـ لاستحضار الصورة الماضية ، أو للدلالة على أنهم استمروا فى لجاجهم إلى أن نزلت الآيات التى ترد عليهم .

أما ذو القرنين ، فقد اختلفت فى شأنه أقوال المفسرين اختلافا كبيرا ، لعل أقربها إلى الصواب ما أشار إليه الآلوسى بقوله : وذكر أبوالريحان البيرونى فى كتابه المسمى «بالآثار الباقية عن القرون الخالية» ، أن ذا القرنين هو أبوكريب الحميرى ، وهو الذى : افتخر به تبع اليمنى حيث قال :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما ... ملكا علا فى الأرض غير مفند

بلغ المغارب والمشارق يبتغى ... أسباب ملك من حكيم مرشد

ثم قال أبوالريحان : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب ، لأن ملوك اليمن كانوا يلقبون بكلمة ذى ، كذى نواس ، وذى يزن . . إلخ[2]

ومن المقطوع به أن ذا القرنين هذا : ليس هو الاسكندر المقدونى الملقب بذى القرنين ، تلميذ أرسطو ، فإن الاسكندر هذا كان وثنيا ، بخلاف ذى القرنين الذى تحدث عنه القرآن ، فإنه كان مؤمنا بالله ـ تعالى ـ ومعتقدا بصحة البعث والحساب .

والرأى الراجح أنه كان عبدا صالحا ، ولم يكن نبيا .

ويرى بعضهم أنه كان بعد موسى ـ عليه السلام ـ ويرى آخرون غير ذلك ومن المعروف أن القرآن يهتم فى قصصه ببيان العبر والعظات المستفادة من القصة ، لا ببيان الزمان أو المكان للأشخاص .

وسمى بذى القرنين ـ على الراجح ـ لبلوغه فى فتوحاته قرنى الشمس من أقصى المشرق والمغرب .

---

(١) نظم الدرر للبقاعى جـ١٢ ص١٢٨ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ١٦ ص٢٧ .

والمعنى : ويسألك قومك ـ يا محمد ـ عن خبر ذى القرنين وشأنه .

﴿ قُلْ ﴾ لهم ـ على سبيل التعليم والرد على تحديهم لك ، ﴿ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ .

والضمير فى ﴿ مِنْهُ ﴾ يعود على ذى القرنين ومن للتبعيض .

أى : قل لهم : سأتلو عليكم من خبره ـ وسأقص عليكم من أنبائه عن طريق هذا القرآن الذى أوحاه الله إلى مايفيدكم ويكون فيه ذكرى وعبرة لكم إن كنتم تعقلون .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما أعطاه الله لذى القرنين من نعم فقال : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ .

وقوله : ﴿ مَكَّنَّا ﴾ من التمكين بمعنى إعطائه الوسائل التى جعلته صاحب نفوذ وسلطان فى أقطار الأرض المختلفة ، والمفعول محذوف ، أى : إنا مكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء ، بأن أعطيناه سلطانا وطيد الدعائم ، وآتيناه من كل شىء أراده فى دنياه لتقوية ملكه ﴿ سَبَبًا ﴾ أى : سبيلا وطريقا يوصله إلى مقصوده ، كآلات السير ، وكثرة الجند ، ووسائل البناء والعمران .

وهذه الأسباب التى أعطاها الله إياه ، لم يرد حديث صحيح بتفصيلها ، فعلينا أن نؤمن بأن الله ـ تعالى ـ قد أعطاه وسائل عظيمة لتدعيم ، ملكه ، دون أن نلتفت إلى ما ذكره هنا بعض المفسرين من إسرائيليات لاقيمة لها .

والفاء فى قوله : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ فصيحة ، أى : فأراد أن يزيد فى تدعيم ملكه ، فسلك طريقا لكى يوصله إلى المكان الذى تغرب فيه الشمس .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أى : حتى إذا وصل إلى منتهى الأرض المعمورة فى زمنه من جهة المغرب .

﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أى : رآها فى نظره عند غروبها ، كأنها تغرب فى عين مظلمة ، وإن لم تكن هى فى الحقيقة كذلك .

وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس ماء فإنه يراها كأنها تشرق منه وتغرب فيه ، كما أن الذى يكون فى أرض ملساء واسعة ، يراها كأنها تطلع من الأرض وتغيب فيها .

وحمئة : أى : ذات حمأة وهى الطين الأسود ، يقال : حمأت البئر تحمأ حمأ إذا صارت فيها الحمأة وهى الطينة السوداء .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائى : «وجدها تغرب فى عين حامية» : أى : حارة اسم فاعل من حَمِىَ يحمَى حمْيا .

﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ﴾ أى : ووجد عند تلك العين على ساحل البحر قوما .

الظاهر أن هؤلاء القوم كانوا من أهل الفترة ، فدعاهم ذو القرنين إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، فخيره الله ـ تعالى ـ فيهم فقال : ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ .

أى : قال الله ـ تعالى ـ له عن طريق الإلهام ، أو على لسان ملك أخبره بذلك : يا ذا القرنين إما أن تعذب هؤلاء القوم الكافرين أو الفاسقين بالقتل أو غيره ، وإما أن تتخذ فيهم أمرا ذا حسن ، أو أمرا حسنا ، تقتضيه المصلحة والسياسة الشرعية .

ثم حكى ـ الله ـ تعالى ـ عنه فى الجواب مايدل على سلامة تفكيره ، فقال : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ .. ﴾ أى : قال ذو القرنين فى الرد على تخيير ربه له فى شأن هؤلاء القوم ، يارب : أما من ظلم نفسه بالإصرار على الكفر والفسوق والعصيان ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ فى هذه الدنيا بالقتل وما يشببه ، ثم يُرد الظالم نفسه إلى ربه ـ سبحانه ـ فيعذبه فى الآخرة ﴿ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أى : عذابا فظيعا عظيما منكرا وهو عذاب جهنم .

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ يقتضيه إيمانه ﴿ فَلَهُ ﴾ فى الدارين ﴿ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ﴾ أى : فله المثوبة الحسنى ، أو الفعلة الحسنى وهى الجنة .

﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ ﴾ أى لمن آمن وعمل صالحا ﴿ مِنْ أَمْرِنَا ﴾ أى مما نأمره به قولا ﴿ يُسْرًا ﴾ لاصعوبة فيه ولا مشقة ولا عسر .

فأنت ترى أن ذا القرنين قد رد بما يدل على أنه قد اتبع فى حكمه الطريق القويم ، والأسلوب الحكيم ، الذى يدل على قوة الإيمان ، وصدق اليقين ، وطهارة النفس .

إنه بالنسبة للظالمين ، يعذب ، ويقتص ، ويرهب النفوس ، المنحرفة ، حتى تعود إلى رشدها ، وتقف عند حدودها .

وبالنسبة للمؤمنين الصالحين ، يقابل إحسانهم بإحسان وصلاحهم بصلاح واستقامتهم بالتكريم والقول الطيب والجزاء الحسن .

وهكذا الحاكم الصالح فى كل زمان ومكان : الظالمون والمعتدون ، يجدون منه كل شدة تردعهم وتزجرهم وتوقفهم عند حدودهم .

والمؤمنون والمصلحون يجدون منه كل تكريم وإحسان واحترام وقول طيب .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس .

أى : وبعد أن بلغ مغرب الشمس ، ونال مقصده ، كر راجعا من جهة غروب الشمس إلى جهة شروقها .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ أى : حتى إذا كر راجعا وبلغ منتهى الأرض المعمورة فى زمنه من جهة المشرق .

﴿ وَجَدَهَا ﴾ أى : الشمس ﴿ تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أى : لم نجعل لهم من دون الشمس ما يستترون به من البناء أو اللباس ، فهم قوم عراة يسكنون الأسراب والكهوف فى نهاية المعمورة من جهة المشرق .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى : أمر ذى القرنين كذلك من حيث إنه آتاه الله من كل شىء سببا ، فبلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها .

وقوله : ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ بيان لشمول علم الله ـ تعالى ـ بأحوال ذى القرنين الظاهرة والباطنة ولأحوال غيره .

أى : كذلك كان شأن ذى القرنين ، وقد أحطنا إحاطة تامة وعلمنا علما لايعزب عنه شىء ، بما كان لدى ذى القرنين من جنود وقوة وآلات ، وغير ذلك من أسباب الملك والسلطان .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس ومشرقها .

أى : ثم بعد أن بلغ مغرب الشمس ومشرقها ، سار فى طريق ثالث معترض بين المشرق والمغرب ، آخذا فيه ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ ﴾ فى مسيرة ذلك ﴿ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ أى : الجبلين ، وسمى الجبل سدا ، لأنه سد فجا من الأرض .

قالوا : والسدان هما جبلان من جهة أرمينية وأذربيجان ، وقيل هما فى نهاية أرض الترك مما يلى المشرق .

﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا ﴾ أى : من دون السدين ومن ورائهما ﴿ قَوْمًا ﴾ أى : أمة من الناس لغتهم لاتكاد تعرف لبعدهم عن بقية الناس ، ولذا قال ـ سبحانه ـ .

﴿ لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ أى : لايكاد هؤلاء القوم يفهمون أو يقرءون ما يقوله الناس لهم ، لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم ، ولايعرف الناس ـ أيضا ـ ما يقوله هؤلاء القوم لهم ، لشدة عجمتهم .

﴿ قَالُوا ﴾ أى : هؤلاء القوم لذى القرنين : ﴿ يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ، قيل : مأخوذان من الأوجة وهى الاختلاط أو شدة الحر : وقيل : من الأوج وهو سرعة الجرى .

واختلف فى نسبهم ، فقيل : هم من ولد يافث بن نوح والترك منهم ، وقيل : يأجوج من الترك ، ومأجوج من الديلم .

أى : قال هؤلاء القوم ـ الذين لايكادون يفقهون قولا ـ لذى القرنين بعد أن توسموا فيه القوة والصلاح ، ياذا القرنين إن قبيلة يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض بشتى أنواع الفساد والنهب والسلب .

وفى الصحيحين من حديث زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ قالت : استيقظ رسول الله ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول : «لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق ـ بين أصابعه ـ قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : نعم إذا كثر الخبث» .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ حكاية لما عرضه هؤلاء القوم على ذى القرنين من عروض تدل على ثقتهم فيه وحسن أدبهم معه ، حيث خاطبوه بصيغة الاستفهام الدالة على أنهم يفوضون الأمر إليه .

والخَرْج : اسم لما يخرجه الإنسان من ماله لغيره ، وقرأ حمزة والكسائى خراجا : وهما بمعنى واحد .

أى : فهل نجعل لك مقدارا كبيرا من أموالنا على سبيل الأجر ، لكى تقيم بيننا وبين قبيلة يأجوج ومأجوج سدا يمنعهم من الوصول إلينا ، ويحول بيننا وبينهم؟

وهنا يرد عليهم ذو القرنين ـ كما حكى القرآن عنه ـ بما يدل على قوة إيمانه وحرصه على إحقاق الحق وإبطال الباطل ، فيقول : ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ . .﴾ .

أى : قال ذو القرنين لهؤلاء القوم الذين لايكادون يفقهون قولا : إن ما بسطه الله ـ تعالى ـ لى من الرزق والمال والقوة ، خير من خرجكم ومالكم الذى تريدون أن تجعلوه لى فى إقامة السد بينكم وبين يأجوج ومأجوج ، فوفروا عليكم أموالكم ، وقفوا إلى جانبى ﴿فَأَعِينُونِي﴾ بسواعد كم وبآلات البناء ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أى : بكل ما أتقوى به على المقصود وهو بناء السد ، لكى ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ﴾ وبين يأجوج ومأجوج ﴿رَدْمًا﴾ .

أى : حاجزا حصينا ، وجدارا متينا ، يحول بينكم وبينهم .

والردم : الشىء الذى يوضع بعضه فوق بعض حتى يتصل ويتلاصق ، يقال : ثوب مردم ، أى : فيه رقاع فوق رقاع ، وسحاب مردم ، أى : متكاثف بعضه فوق بعض .

ويقال : ردمت الحفرة ، إذا وضعت فيها من الحجارة والتراب وغيرهما ما يسويها بالأرض .

قال ابن عباس : الردم أشد الحجاب .

وجملة : ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ جواب الأمر فى قوله : ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ .

ثم شرع فى تنفيذ ما راموه منه من عون فقال لهم : ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ..﴾ .

والزبرَ ـ كالغُرَف ـ جمع زُبره ـ كغرفة ـ وهى القطعة الكبيرة من الحديد وأصل الزبر ، الاجتماع ومنه زبرة الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله ، ويقال : زبرت الكتاب أى كتبته وجمعت حروفه .

أى : أحضروا لى الكثير من قطع الحديد الكبيرة ، فأحضروا له ما أراد ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أى : بين جانبى الجبلين ، وسمى كل واحد من الجانبين صدفا ، لكونه مصادفا ومقابلا ومحاذيا للآخر ، مأخوذ من قولهم صادفت الرجل : أى : قابلته ولاقيته ، ولذا لايقال للمفرد صدف حتى يصادفه الآخر ، فهو من الأسماء المتضايفة كالشفع والزوج .

وقوله : ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ أى النار على هذه القطع الكبيرة من الحديد الموضوع بين الصدفين .

وقوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ أى : حتى إذا صارت قطع الحديد الكبيرة كالنار فى احمرارها وشدة توهجها ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أى : نحاسا أو رصاصا مذابا وسمى بذلك لأنه إذا أذيب صار يقطر كما يقطر الماء .

أى : قال لهم أحضروا لى قطع الحديد الكبيرة ، فلما أحضروها له ، أخذ يبنى شيئا فشيئا حتى إذا ساوى بين جانبى الجبلين بقطع الحديد ، قال لهم : أوقدوا النار وانفخوا فيها بالكيران ، وما يشبهها لتسخين هذه القطع من الحديد وتليينها ، ففعلوا ما أمرهم به ، حتى صارت تلك القطع تشبه النار فى حرارتها وهيئتها ، قال أحضروا لى نحاسا مذابا ، لكى أفرغه على تلك القطع من الحديد لتزداد صلابة ومتانة وقوة .

وبذلك يكون ذو القرنين قد لبى دعوة أولئك القوم فى بناء السد ، وبناه لهم بطريقة محكمة سليمة ، اهتدى بها العقلاء فى تقوية الحديد والمبانى فى العصر الحديث .

وكان الداعى له لهذا العمل الضخم ، الحيلولة بين هؤلاء القوم ، وبين يأجوج ومأجوج الذين يفسدون فى الأرض ولايصلحون .

ولقد أخبر القرآن الكريم بأن ذا القرنين بهذا العمل جعل يأجوج ومأجوج يقفون عاجزين أمام هذا السد الضخم المحكم فقال : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ .

أى : فما استطاع قوم يأجوج ومأجوج أن يرتفعوا على ظهر السد ، أو يرقوا فوقه لملاسته وارتفاعه ، وما استطاعوا ـ أيضا ـ أن يحدثوا فيه نقبا أو خرقا لصلابته ومتانته وثخانته .

ووقف ذو القرنين أمام هذا العمل العظيم ، مظهرا الشكر لله ـ تعالى ـ ، والعجز أمام قدرته ـ عز وجل ـ شأن الحكام الصادقين فى إيمانهم ، الشاكرين لخالقهم توفيقه إياهم لكل خير .

وقف ليقول بكل تواضع وخضوع لخالقه : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ .

أى : هذا الذى فعلته من بناء السد وغيره ، أثر من آثار رحمة ربى التى وسعت كل شىء .

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ الذى حدده لفناء هذه الدنيا ، ونهايتها ، أو الذى حدده لخروجهم منه ﴿ جعله دكَّاء ﴾ أى : جعل هذا السد أرضا مستوية ، وصيره مدكوكا أى : بمساواة الأرض ، ومنه قولهم : ناقة دكاء أى : لاسنام لها .

﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ أى : وكان كل ما وعد الله ـ تعالى ـ به عباده من ثواب وعقاب وغيرهما ، وعدا حقا لايتخلف ولايتبدل ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وبذلك نرى فى قصة ذى القرنين ما نرى من الدروس والعبر والعظات ، التى من أبرزها : أن التمكين فى الأرض نعمة يهبها الله لمن يشاء من عباده ، وأن السير فى الأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل من صفات المؤمنين الصادقين ، وأن الحاكم العادل من صفاته : ردع الظالمين عن ظلمهم ، والإحسان إلى المستقيمين المقسطين ، والعمل على ما يجعلهم يزدادون استقامة وفضلا ، وأن من معالم الخلق الكريم ، أن يعين الإنسان المحتاج إلى عونه ، وأن يقدم له ما يصونه عن الوقوع تحت وطأة الظالمين المفسدين ، وأن من الأفضل أن يحتسب ذلك عند الله ـ تعالى ـ وألا يطلب من المحتاج إلى عونه أكثر من طاقته .

كما أن من أبرز صفات المؤمنين الصادقين : أنهم ينسبون كل فضل إلى الله ـ تعالى ـ وإلى قدرته النافذة ، وأنهم يزدادون شكرا وحمدا لله ـ تعالى ـ كلما زادهم من فضله ، وما أجمل وأحكم أن تختتم قصة ذى القرنين بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ .

٤ـ قصة سيل العرم

فى سورة «سبأ» قصتان متعاقبتان ، إحداهما لداود وسليمان ـ عليهما السلام ـ وهى تمثل النموذج المشرق للشاكرين ، وقد سبق الكلام عليها عند حديثنا عن قصة هذين النبيين الكريمين .

والثانية : لأهل سبأ الذين أعطاهم الله ـ تعالى ـ من فضله النعم الوفيرة ، فبطروا وجحدوا ، فمحق الله ـ تعالى ـ هذه النعم من بين أيديهم .

وهذه القصة الثانية نراها فى قوله ـ تعالى ـ :

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

و«سبأ» فى الأصل اسم لرجل ، وهو : سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود ، وهو أول ملك من ملوك اليمن .

والمراد به هنا : الحى أو القبيلة المسماة باسمه ، وكانوا يسكنون بمأرب باليمن ، على مسيرة ثلاثة أيام من صنعاء وكانت أرضهم مخصبة ذات بساتين وأشجار متنوعة ، وزاد خيرهم ونعيمهم بعد أن أقاموا سدا ، ليأخذوا من مياه الأمطار على قدر حاجتهم ، وكان هذا السد يعرف بسد مأرب ، ولكنهم لم يشكروا الله - تعالى - على هذه النعم ، فسلبها - سبحانه - منهم .

قال ابن كثير : كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس منهم ، وكانوا فى نعمة وغبطة ، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله ، ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد .

أخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : إن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ فقال ﷺ : بل هو رجل ، كان له عشرة أولاد ، سكن اليمن منهم ستة ، وهم : مَذْحِجْ ، وكِنْدَه ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحِميْر ، وسكن الشام منهم أربعة وهم : لَخْم ، وجُذَام ، وعامِلَةُ ، وغسَّان .

وإنما سمى «سبأ» لأنه أول من سبأ فى العرب - أى : جمع السبايا - وكان يقال له الرائش ، لأنه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال - ريشا ورياشا ، وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ فى زمانه - المتقدم .[1]

والمعنى : والله لقد كان لقبيلة سبأ فى مساكنهم التى يعيشون فيها ﴿آيَةٌ﴾ بينة واضحة ، وعلامة ظاهرة تدل على قدرة الله - تعالى - وعلى فضله على خلقه وعلى وجوب شكره على نعمه ، وعلى سوء عاقبة الجاحدين لهذه النعم .

فالمراد بالآية : العلامة الواضحة الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته وبديع صنعه ، ووجوب شكره ، والتحذير من معصيته .

ثم وضح - سبحانه - هذه الآية فقال : ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أى : كانت لأهل سبأ طائفتان من البساتين والجنان : طائفة عن يمين بلدهم ، وطائفة أخرى عن شماله .

وهذه البساتين المحيطة بهم كانت زاخرة بما لذ وطاب من الثمار .

قالوا : كانت المرأة تمشى تحت أشجار تلك البساتين وعلى رأسها المكتل ، فيمتلىء من أنواع الفواكه التى تتساقط فى مكتلها دون جهد منها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٤٩١ .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ مقول لقول محذوف .

أى وقلنا لهم على ألسنة رسلنا ، وعلى ألسنة الصالحين منهم ، كلوا من الأرزاق الكريمة ، والثمار الطيبة ، التى أنعم بها ربكم عليكم ، واشكروا له ـ سبحانه ـ هذا العطاء ، فإنكم إذا شكرتموه زادكم من فضله وإحسانه .

وقوله : ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ كلام مستأنف لبيان موجبات الشكر ، أى : هذه البلدة التى تسكنونها بلدة طيبة لاشتمالها على كل ما تحتاجونه من خيرات ، وربكم الذى أعطاكم هذه النعم ، رب واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأناب ، ويعفو عن كثير من ذنوب عباده بفضله وإحسانه .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما أصابهم بسبب جحودهم وبطرهم فقال : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ .

والعرم : اسم للوادى الذى كان يأتى منه السيل ، وقيل : هو المطر الشديد الذى لا يطاق .

فيكون من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أى : أرسلنا عليهم السيل الشديد المدمر .

ويرى بعضهم أن المراد بالعرم : السدود التى كانت مبنية لحجز الماء من خلفها ، ويأخذون منها لزروعهم على قدر حاجتهم ، فلما أصيبوا بالترف والجحود تركوا العناية بإصلاح هذه السدود ، فتصدعت ، واجتاحت المياه أراضيهم فأفسدتها ، واكتسحت مساكنهم فتفرقوا عنها ، ومزقوا شر ممزق ، وضربت بهم الأمثال التى منها قولهم : تفرقوا أيدى سبأ ، وهو مثل يضرب لمن تفرق شملهم تفرقا لا اجتماع لهم معه .

وهذا ماحدث لقبيلة سبأ فقد تفرق بعضهم إلى المدينة المنورة كالأوس والخزرج ، وذهب بعضهم إلى عمان كالأزد ، وذهب بعضهم إلى الشام كقبيلة غسان .

وقوله : ﴿ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ الأكل : هو الثمر ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ أى : ثمرها ، والخمط : هو ثمر الأراك أو هو النبت المر الذى لايمكن أكله .

﴿ وَأَثْلٍ ﴾ هو نوع من الشجر يشبه شجر الطرفاء ، أو هو نوع من الشجر كثير الشوك ، و﴿ سِدْرٍ ﴾ هو مايعرف بالنبق ، أو هو نوع من الثمار التى يقل الانتفاع بها .

والمعنى : فأعرض أهل سبأ عن شكرنا وطاعتنا ، فكانت نتيجة ذلك ، أن أرسلنا عليهم

السيل الجارف ، الذى اجتاح أراضيهم ، فأفسد مزارعهم ، وأجلاهم عن ديارهم ، ومزقهم شر ممزق ، وبدلناهم بالجنان اليانعة التى كانوا يعيشون فيها ، بساتين أخري قد ذهبت ثمارها الطيبة اللذيذة ، وحلت محلها ثمار مرة لاتؤكل ، وتناثرت فى أماكنهم الأشجار التى لاتسمن ولاتغنى من جوع ، بدلا من تلك الأشجار التى كانت تحمل لهم مالذ وطاب ، وعظم نفعه .

فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن الجحود والبطر ، يؤديان إلى الخراب والدمار ، وإلى زوال النعم وتحويلها إلى نقم .

ولذا جاء التعقيب بعد هذه الآية بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾ .

أى : ذلك الذى فعلناه بهم من تبديل جنتيهم ، بجنتين ذواتى أكل خمط ، هو الجزاء العادل لهم بسبب جحودهم وترفهم وفسوقهم عن أمرنا .

وإننا من شأننا ومن سنتنا أننا لانعاقب ولانجازى هذا الجزاء الرادع الشديد ، إلا لمن جحد نعمنا ، وكفر بآياتنا ، وآثر الغى على الرشد ، والعصيان على الطاعة .

فاسم الإشارة يعود إلى التبديل الذى تحدثت عنه الآية السابقة ، وهو المفعول الثانى لجزيناهم مقدم عليه ، أى : جزيناهم ذلك التبديل لاغيره ، والمراد بالجزاء هنا : العقاب .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾ بمعنى وهل نعاقب .

وهو الوجه الصحيح ، وليس لقائل أن يقول : لم قيل : وهل نجازى إلا الكفور ، على اختصاص الكفور بالجزاء ، والجزاء عام للمؤمن والكافر ، لأنه لم يرد الجزاء العام وإنما أريد الخاص وهو العقاب .[١]

ثم بين ـ سبحانه ـ نقمة أخرى أصابتهم بسبب جهلهم وحمقهم ، وكيف أن هذه النقمة قد حلت محل نعمة كانوا فيها ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ .

أى : وجعلنا ـ بقدرتنا ورحمتنا بين أهل سبأ ﴿ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ كمكة فى الجزيرة العربية ، وكبيت المقدس فى بلاد الشام ، جعلنا بينهم وبين تلك القرى المباركة ، ﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ أى : قرى متقاربة متواصلة بحيث يرى من فى إحداها غيرها .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص٥٧٦ .

﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ أى : وجعلنا زمن السير من قرية إلى أخرى مقدرا محددا ، بحيث لايتجاوز مدة معينة قد تكون نصف يوم أو أقل .

وقالوا : كان المسافر يخرج من قرية ، فيدخل الأخرى قبل حلول الظلام بها .

وقوله : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ مقول لقول محذوف ، أى : وقلنا لهم : سيروا فى تلك القرى المتقاربة العامرة بالخيرات والتى توصلكم إلى القرى المباركة سيروا فيها ليالى وأياما آمنين من كل شر سواء سرتم بالليل أم النهار ، فإن الأمن فيها مستتب فى كل الأوقات : وفى كل الأحوال .

فالآية الكريمة تحكى نعمة عظمى أخرى أنعم الله ـ تعالى ـ بها على أهل سبأ ، وهى نعمة تيسير سبل السفر لهم إلى القرى المباركة ، وتهيئة الأمان والاطمئنان لهم خلال سفرهم ، وهى نعمة عظمى لايدرك ضخامتها إلا من مارس الأسفار من مكان إلى آخر .

ولكنهم لم يقدروا هذه النعمة ، بل بلغ بهم الجهل والحمق والبطر ، أنهم دعوا الله ـ تعالى ـ بقولهم ـ كما حكى القرآن عنهم ـ : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ .

أى : مع أننا بفضلنا وإحساننا قد أعطيناهم تلك النعمة ، ومكناهم منها ، وهى نعمة تيسير وسائل السفر ، ومنحهم الأمان والاطمئنان خلاله ، إلا أنهم ـ لشؤمهم وضيق تفكيرهم وشقائهم ـ تضرعوا إلينا وقالوا : يا ربنا اجعل بيننا وبين القرى المباركة ، مفاوز وصحارى متباعدة الأقطار ، بدل تلك القرى العامرة المتقاربة ، فهم ـ كما يقول صاحب الكشاف ـ : بطروا النعمة ، وبشموا ، أى : سئموا ـ من طيب العيش ، وملوا العافية ، فطلبوا النكد والتعب ، كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم ، مكان المن والسلوى .[1]

وقوله : ﴿ وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ أى : قالوا ذلك القول السيئ ، وظلموا أنفسهم بسببه ، حيث أجيب دعاؤهم ، فكان نقمة عليهم ، لأنهم بعد أن كانوا يسافرون بيسر وأمان ، صاروا يسافرون بمشقة وخوف .

وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ بيان لما آل إليه أمرهم .

والأحاديث : جمع أحدوثة ، وهى ما يتحدث به الناس على سبيل التلهى والتعجب أى : قالوا ما قالوا من سوء وفعلوا من منكر ، فكانت نتيجة ذلك ، أن صيرناهم أحاديث يتلهى الناس بأخبارهم ، ويضربون بهم المثل ، فيقولون : تفرقوا أيدى سبأ ، ومزقناهم كل ممزق فى البلاد المتعددة ، فمنهم من ذهب إلى الشام ، ومنهم من ذهب إلى العراق ، بعد أن كانوا أمة متحدة ، يظلها الأمان والاطمئنان والغنى والجاه ،﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الذى

فعلناه بهم بسبب جهلهم وفسوقهم وبطرهم ﴿لآيَاتٍ﴾ واضحات بينات ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على طاعة الله - تعالى - ﴿شَكُورٍ﴾ له - سبحانه - على نعمه .

وخص - سبحانه - الصبار والشكور بالذكر ، لأنهما هما المنتفعان بآياته وعبره ومواعظه .

ثم بين - عز وجل - الأسباب التى أدت إلى جحودهم وفسوقهم فقال : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

ولفظ ﴿صَدَّقَ﴾ قرأه بعض القراء السبعة بتشديد الدال المفتوحة ، وقرأه البعض الآخر بفتح الدال بدون تشديد ، وقوله : ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بصدق .

وقوله : ﴿ظَنَّهُ﴾ مفعول به على قراءة التشديد ، ومنصوب بنزع الخافض على القراءة بالتخفيف ، وضمير الجمع فى ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وفى ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ يعود إلى قوم سبأ .

والمعنى : على القراءة بالتشديد : ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فى قدرته على إغوائهم ، وحقق ما كان يريده منهم من الانصراف عن طاعة الله - تعالى - وشكره ، فاتبعوا خطوات الشيطان ، بسبب انغماسهم فى الفسوق والعصيان ، إلا فريقا من المؤمنين ، لم يستطع إبليس إغوائهم لأنهم أخلصوا عبادتهم لخالقهم - عز وجل - واستمسكوا بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها .

والمعنى على القراءة بالتخفيف : ولقد صدق إبليس فى ظنه أنه إذا أغواهم اتبعوه ، لأنه بمجرد أن زين لهم المعاصى أطاعوه ، إلا فريقا من المؤمنين لم يطيعوه .

ثم بين - سبحانه - أن إغواء الشيطان لأهل سبأ ولأشباههم من بنى آدم ، لم يكن عن قسر وإكراه ، وإنما كان عن اختيار منهم ليتميز الخبيث من الطيب فقال - تعالى - : ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ . .﴾ .

والمراد بالسلطان هنا : التسلط بالقهر والغلبة والإكراه ، والمراد بالعلم فى قوله - تعالى - ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ إظهار هذا العلم للناس ليتميز قوى الإيمان من غيره .

أى : وما كان لإبليس عليهم من سلطان قاهر يجعلهم لايملكون دفعه ، وإنما كان له عليهم الوسوسة التى يملكون صرفها ودفعها متى حسنت صلتهم بنا ، ونحن ما أبحنا لإبليس الوسوسة لبنى آدم ، إلا لنظهر فى عالم الواقع حال من يؤمن بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب وحساب ، ولنميزه عمن هو منها فى شك وريب وإنكار .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى : وربك - أيها الرسول الكريم - على كل شىء رقيب وحفيظ ، بحيث لايخرج شىء عن حفظه وهيمنته وعلمه وقدرته .

وهكذا نجد القرآن قد ساق لنا قصتين متعاقبتين ، إحداهما تدل على أن طاعة الله - تعالى - وشكره ، وإخلاص العبادة له ، وحسن الصلة به - سبحانه - كل ذلك يؤدى إلى المزيد من نعمه - تعالى ، كما حدث لداود وسليمان - عليهما السلام - .

وأما الثانية فتدل على أن الجحود والبطر والانغماس فى المعاصى والشهوات ، كل ذلك يؤدى إلى زوال النعم ، كما حدث لقبيلة سبأ .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

---

(١) سورة يوسف : الآية ١١١ .

٥ـ قصة أصحاب القرية

١ ـ وأصحاب القرية هؤلاء ، هم قوم أرسل ـ الله تعالى ـ إليهم من يأمرهم بإخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وبالتحلى بمكارم الأخلاق ، وينهاهم عن عبادة غيره ـ سبحانه ـ وعن ارتكاب ما نهى عنه ، فما آمن منهم إلا قليل ، وقد جاء الحديث عنهم فى سورة «يس» فى قوله ـ تعالى ـ :

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

قال القرطبى ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ وهذه القرية هى «أنطاكية» فى قول جمهور المفسرين ، والمرسلون : قيل : هم رسل من الله على الابتداء وقيل : إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية ، للدعاء إلى الله ـ تعالى ـ [(١)]

ولم يرتض ابن كثير ما ذهب إليه القرطبى والمفسرون من أن المراد بالقرية «أنطاكية» كما أنه لم يرتض الرأى القائل بأن الرسل الثلاثة كانوا من عند عيسى ـ عليه السلام ـ فقد قال ـ رحمه الله ـ ما ملخصه :

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ١٥ ص١٤ .

وقد تقدم عن كثير من السلف ، أن هذه القرية هى أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عيسى - عليه السلام - وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله - عز وجل - لا من جهة عيسى ، كما قال - تعالى - : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ .

الثانى : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل عيسى إليه ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح - عليه السلام - ولهذا كانت عند النصارى ، إحدى المدن الأربعة التى فيها بتاركة - أى علماء بالدين المسيحى - .

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب عيسى ، كانت بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبوسعيد الخدرى وغيره ، أن الله تعالى - بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين .

فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة ، قرية أخرى غير أنطاكية فإن هذه القرية المشهورة بهذا الاسم لم يعرف أنها أهلكت ، لا فى الملة النصرانية ولا قبل ذلك .[1]

والذى يبدو لنا أن ما ذهب إليه الإمام ابن كثير هو الأقرب إلى الصواب وأن القرآن الكريم ، لم يذكر من هم أصحاب القرية ، لأن اهتمامه فى هذه القصة وأمثالها ، بالعبر والعظات التى تؤخذ منها :

وضرب المثل فى القرآن الكريم كثيرا ما يستعمل فى تطبيق حالة غريبة ، بأخرى تشبهها ، كما فى قوله - تعالى - : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ .

فيكون المعنى : واجعل - أيها الرسول الكريم - حال أصحاب القرية مثلا لمشركى مكة فى الإصرار على الكفر والعناد ، وحذرهم من أن مصيرهم سيكون كمصير هؤلاء السابقين ، الذين كانت عاقبتهم أن أخذتهم الصيحة فإذا هم خامدون ، لأنهم كذبوا المرسلين .

وقوله - سبحانه - : ﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ بدل اشتمال من ﴿ أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا . . ﴾ بيان لكيفية الإرسال ولموقف أهل القرية ممن جاءوا لإرشادهم إلى الدين الحق .

---

(١) راجع تفير ابن كثير جـ٦ ص٥٥٩ .

أى : إن موقف المشركين منك - أيها الرسول الكريم - يشبه موقف أصحاب القرية من الرسل الذين أرسلناهم لهدايتهم ، إذ أرسلنا إلى أصحاب هذه القرية اثنين من رسلنا فكذبوهما ، وأعرضوا عن دعوتهما .

والفاء فى قوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ للإفصاح ، أى : أرسلنا إليهم اثنين لدعوتهم إلى إخلاص العبادة لنا فذهبا إليهم فكذبوهما .

وقوله : عززنا بثالث أى : قوينا الرسالة برسول ثالث ، من التعزيز بمعنى التقوية ، ومنه قولهم : تعزز لحم الناقة ، إذا اشتد وقوى ، وعزز المطر الأرض ، إذا قواها وشدها ، وأرض عزاز ، إذا كانت صلبة قوية .

ومفعول ﴿ فَعَزَّزْنَا ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه أى : فعززناهما برسول ثالث ﴿ فَقَالُوا ﴾ أى : الرسل الثلاثة لأصحاب القرية : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ لا إلى غيركم ، فأطيعونا فيما ندعوكم إليه من إخلاص العبادة لله - تعالى - ونبذ عبادة الأصنام .

ثم حكى - سبحانه - ما دار بين الرسل وأصحاب القرية من محاورات فقال : ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾ .

أى : قال أصحاب القرية للرسل على سبيل الاستنكار والتطاول : أنتم لستم إلا بشرا مثلنا فى البشرية ، ولامزية لكم علينا ، وكأن البشرية فى زعمهم تتنافى مع الرسالة ، ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : وما أنزل الرحمن من شىء مما تدعوننا إليه .

ثم وصفوهم بالكذب فقالوا لهم : ما أنتم إلا كاذبون ، فيما تدعونه من أنكم رسل إلينا ، وهكذا قابل أهل القرية رسل الله ، بالإعراض عن دعوتهم وبالتطاول عليهم ، وبالإنكار لما جاءوا به ، وبوصفهم بالكذب فيما يقولونه .

ولكن الرسل قابلوا كل ذلك بالأناة والصبر ، شأن الواثق من صدقه ، فقالوا لأهل القرية : ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ .

أى : قالوا لهم بثقة وأدب : ربنا - وحده - يعلم إنا إليكم لمرسلون وكفى بعلمه علما ، وبحكمه حكما ، وما علينا بعد ذلك بالنسبة لكم إلا أن نبلغكم ما كلفنا بتبليغه إليكم تبليغا واضحا ، لاغموض فيه ولا التباس .

فأنت ترى أن الرسل لم يقابلوا سفاهة أهل القرية بمثلها ، وإنما قابلوا تكذيبهم لهم بالمنطق الرصين ، وبتأكيد أنهم رسل الله ، وأنهم صادقون فى رسالتهم ، لأن قولهم ﴿ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ جار مجرى القسم فى التوكيد .

وقولهم : ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ تجديد للوظيفة التى أرسلهم الله ـ تعالى ـ من أجلها .

ولكن أهل القرية لم يقتنعوا بهذا المنطق السليم ، بل ردوا على الرسل ردا قبيحا ، فقالوا لهم : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والتطير : التشاؤم ، أى قالوا فى الرد عليهم : إنا تشاءمنا من وجودكم بيننا ، وكرهنا النظر إلى وجوهكم ، وإذا لم ترحلوا عنا ، وتكفوا عن دعوتكم لنا إلى مالا نريده ، لنرجمنكم بالحجارة ، وليمسنكم منا عذاب شديد الألم قد ينتهى بقتلكم وهلاككم .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أى : تشاءمنا بكم ، وذلك أنهم كرهوا دينهم ، ونفرت منه نفوسهم ، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شىء مالوا إليه ، واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم ، ويتشاءموا مما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم خير أو بلاء ، قالوا : ببركة هذا وبشؤم هذا .[1]

ولكن الرسل قابلوا هذا التهديد ـ أيضا ـ بالثبات ، والمنطق الحكيم فقالوا لهم : ﴿ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ .

أى : قال الرسل لأهل القرية : ليس الأمر كما ذكرتم من أننا سبب شؤمكم بل الحق أن شؤمكم معكم ، ومن عند أنفسكم ، بسبب إصراركم على كفركم ، وإعراضكم عن الحق الذى جئناكم به من عند خالقكم .

وجواب الشرط لقوله : ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ محذوف ، والتقدير : أئن وعظتم وذكرتم بالحق وخوفتم من عقاب الله ، تطيرتم وتشاءمتم .

وقوله : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ إضراب عما يقتضيه الاستفهام والشرط من كون التذكير سببا للشؤم .

أى : ليس الأمر كما ذكرتم من أن وجودنا بينكم هو سبب شؤمكم ، بل الحق أنكم قوم عادتكم الإسراف فى المعاصى ، وفى إيثار الباطل على الحق ، والغى على الرشد ، والتشاؤم على التيامن .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد تلك المحاورة التى دارت بين أهل القرية وبين الرسل ، والتى تدل على أن أهل القرية ، كانوا مثلا فى السفاهة والكراهة للخير والحق .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٤ ص٩ .

٢ - بين - سبحانه - بعد ذلك ما دار بين أهل القرية ، وبين رجل صالح منهم ساءه أن يرى من قومه تنكرهم لرسل الله - تعالى - وتطاولهم عليهم ، وتهديدهم لهم بالرجم : فقال - تعالى - :

وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

وقوله - سبحانه - ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ معطوف على كلام محذوف ، يفهم من سياق القصة ، والتقدير .

وانتشر خبر الرسل بين أصحاب القرية ، وعلم الناس بتهديد بعضهم لهم ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ أى من أبعد مواضعها ﴿ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ أى : رجل ذو فطرة سليمة ، يسرع الخطى لينصح قومه ، وينهاهم عن إيذاء الرسل ويأمرهم باتباعهم .

قالوا : وهذا الرجل كان اسمه حبيب النجار ، لأنه كان يشتغل بالنجارة .

وقد أكثر بعض المفسرين هنا من ذكر صناعته وحاله قبل مجيئه ، ونحن نرى أنه لا حاجة إلى ذلك ، لأنه لم يرد نص صحيح يعتمد عليه فيما ذكروه عنه .

ويكفيه فخرا هذا الثناء من الله ـ تعالى ـ عليه بصرف النظر عن اسمه أو صنعته أو حاله لأن المقصود من هذه القصة وأمثالها فى القرآن الكريم هو الاعتبار والاقتداء بأهل الخير .

وعبر هنا بالمدينة بعد التعبير عنها فى أول القصة بالقرية للإشارة إلى سعتها ، وإلى أن خبر هؤلاء الرسل قد انتشر فيها من أولها إلى آخرها .

والتعبير بقوله : ﴿ يَسْعَىٰ ﴾ يدل على صفاء نفسه ، وسلامة قلبه ، وعلو همته ومضاء عزيمته ، حيث أسرع بالحضور إلى الرسل وإلى قومه ، ليعلن أمام الجميع كلمة الحق ولم يرتض أن يقبع فى بيته ـ كما يفعل الكثيرون ـ بل هرول نحو قومه ليقوم بواجبه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ بيان لما بدأ ينصح قومه به بعد وصوله إليهم .

أى : ﴿ قَالَ ﴾ لقومه على سبيل الإرشاد والنصح ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ الذين جاءوا لهدايتكم إلى الصراط المستقيم ، وإنقاذكم من الضلال المبين الذى انغمستم فيه .

ثم أكد هذه الدعوة بقوله : ﴿ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ أى : اتبعوا هؤلاء الرسل الذين جاءوا بأمر ربكم إليكم ، ليرشدوكم إلى الطريق الحق ، والحال أنهم فى أنفسهم ثابتون على الهدى ، راسخون فى التمسك بالعقيدة السليمة .

ثم أخذ بعد ذلك فى حض قومه على اتباع الحق ، عن طريق بيان الأسباب التى حملته على الإيمان ، حتى يستثير قلوبهم نحو الهدى ، فقال ـ كما حكى القرآن عنه ـ : ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ . إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ. إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ .

أى : قال الرجل الصالح لقومه : وأى مانع يمنعنى من أن أعبد الله ـ تعالى ـ وحده ، لأنه هو الذى خلقنى ولم أكن قبل ذلك شيئا مذكورا ، وهو الذى إليه يكون مرجعكم بعد مماتكم ، فيحاسبكم على أعمالكم فى الدنيا ، ويجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

والاستفهام فى قوله : ﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً . . ﴾ للإنكار والنفى .

أى : لايصح ولايجوز أن أتخذ معه فى العبادة آلهة أخري ، كائنة ما كانت هذه الآلهة ، لأنه ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ من النفع حتى ولو كان هذا النفع فى نهاية القلة والحقارة .

﴿وَلا يُنقِذُونِ﴾ ولاتستطيع هذه الآلهة إنقاذى وتخليصى مما يصيبنى من ضر أراد الرحمن أن ينزله بى .

﴿إِنِّي إِذًا﴾ لو اتخذت هذه الآلهة شريكا مع الله فى العبادة ﴿لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ أى : لأكونن فى ضلال واضح لايخفى على أحد من العقلاء .

ثم ختم حديثه معهم بإعلان إيمانه بكل صراحة وقوة فقال : ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذى خلقكم ورزقكم ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ أى : فاسمعوا ما نطقت به ، واشهدوا لى بأنى آمنت بربكم الذى خلقكم وخلقنى ، وكفرت بهؤلاء الشركاء ولن أشرك معه ـ سبحانه ـ فى العبادة أحدا ، مهما كانت النتائج .

وهكذا نرى الرجل الصالح الذى استقر الإيمان فى قلبه ومشاعره ووجدانه يدافع عن الحق الذى آمن به دفاعا قويا دون أن يخشى أحدا إلا الله ، ويدعو قومه بشتى الأساليب إلى اتباعه ويقيم لهم ألوانا من الأدلة على صحة مايدعو إليه .

ثم يصارحهم فى النهاية ، ويشهدهم على هذه المصارحة ، بأنه قد آمن بما جاء به الرسل إيمانا لايقبل الشك أو التردد ، ولايثنيه عنه وعد أو وعيد أو إيذاء أو قتل .

ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد أجاد فى تصوير هذه المعانى فقال ما ملخصه : قوله : ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ كلمة جامعة فى الاستجابة لدعوة الرسل ، أى : لاتخسرون معهم شيئا من دنياكم ، وتربحون صحة دينكم ، فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة .

ثم أبرز الكلام فى معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ، وليتلطف بهم ويداريهم ، فقال : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .

ثم قال : ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ يريد فاسمعوا قولى وأطيعونى ، فقد نبهتكم على الصحيح الذى لامعدل عنه ، أن العبادة لاتصح إلا لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم .[1]

(١) تفسير الكشاف جـ٤ ص١١ .

ولكن هذه النصائح الغالية الحكيمة من الرجل الصالح لقومه، لم تصادف أذنا واعية بل إن سياق القصة بعد ذلك ليوحى بأن قومه قتلوه، فقد قال - تعالى - بعد أن حكى نصائح هذا الرجل لقومه، ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ..﴾.

أى: قالت الملائكة لهذا الرجل الصالح عند موته على سبيل البشارة: ادخل الجنة بسبب إيمانك وعملك الطيب.

قال الآلوسى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ..﴾ قوله: استئناف لبيان ما وقع له بعد قوله ذلك.

والظاهر أن الأمر المقصود به الإذن له بدخول الجنة حقيقة، وفى ذلك إشارة إلى أن الرجل قد فارق الحياة، فعن ابن مسعود أنه بعد أن قال ما قال قتلوه.

وقيل: الأمر للتبشير لا للإذن بالدخول حقيقة، أى: قالت ملائكة الموت وذلك على سبيل البشارة له بأنه من أهل الجنة - يدخلها إذا دخلها المؤمنون بعد البعث.[1]

وقوله - تعالى - : ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ استئناف بيانى لبيان ما قاله عند البشارة.

أى: قيل له ادخل الجنة بسبب إيمانك وعملك الصالح، فرد وقال: يا ليت قومى الذين قتلونى ولم يسمعوا نصحى، يعلمون بما نلته من ثواب من ربى، فقد غفر لى - سبحانه - وجعلنى من المكرمين عنده، بفضله وإحسانه.

قال ابن كثير: ومقصوده - من هذا القول - أنهم لو اطلعوا على ما حصل عليه من ثواب ونعيم مقيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضى عنه، فلقد كان حريصا على هداية قومه.

روى ابن أبى حاتم أن عروة بن مسعود الثقفى، قال للنبى ﷺ: ابعثنى إلى قومى أدعوهم إلى الإسلام، فقال له ﷺ «إنى أخاف أن يقتلوك» قال: يا رسول الله، لو وجدونى نائما ما أيقظونى: فقال له رسول الله ﷺ «انطلق إليهم» فانطلق إليهم، فمر على اللات والعزى فقال: لأُصْبِحنك غدا بما يسوؤك فغضبت ثقفيف فقال لهم: يا معشر ثقيف: أسلموا تسلموا - ثلاث مرات - فرماه رجل منهم فأصاب أكْحَله فقتله - والأكحل: عرق فى وسط الذراع - فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «هذا مثله كمثل صاحب يس. ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.[2]

---

(١) تفسير الالوسى جـ٢٢ ص٢٢٨.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٥٥٨.

وقال صاحب الكشاف ما ملخصه : وقوله : ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . . ﴾ إنما تمنى علم قومه بحاله ليكون علمهم بها سببا لاكتساب مثلها لأنفسهم ، بالتوبة عن الكفر والدخول فى الإيمان ، وفى حديث مرفوع : «نصح قومه حيا وميتا» .

وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والترؤف على من أدخل نفسه فى غمار الأشرار وأهل البغى ، والتشمر فى تخليصه والتلطف فى افتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة به ، والدعاء عليه ، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته ، وللباغين له الغوائل وهم كفرة وعبدة أصنام .(١)

ثم بين ـ سبحانه ـ ما نزل بأصحاب القرية من عذاب أهلكهم فقال : ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى : من بعد موته .

﴿مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ لأنهم كانوا أحقر وأهون من أن نفعل معهم ذلك .

﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أى : وما صح وما استقام فى حكمتنا أن ننزل عليهم جندا من السماء ، لهوان شأنهم وهوان قدرتهم .

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أى : ما كانت عقوبتنا لهم إلا صيحة واحدة صاحها بهم جبريل بأمرنا .

﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ أى : هامدون ميتون ، شأنهم فى ذلك كشأن النار التى أصابها الخمود والانطفاء بعد أن كانت مشتعلة ملتهبة ، يقال : خمدت النار تخمد خمودا ، إذا سكن لهيبها ، وانطفأ شررها ، وخمد الرجل كقعد ـ إذا مات وانقطعت أنفاسه .

وهكذا كانت نهاية الذين كذبوا المرسلين ، وقتلوا المصلحين فقد نزلت بهم عقوبة الله ـ تعالى ـ فجعلتهم فى ديارهم جاثمين .

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ سوء مصارع المكذبين ، أتبع ذلك بدعوة الناس إلى الاتعاظ بذلك من قبل فوات الأوان ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ .

والحسرة : الغم والحزن على ما فات ، والندم عليه ندما لانفع من ورائه ، كأن المتحسر قد انحسرت عنه قواه وذهبت ، وصار فى غير استطاعته إرجاعها .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٤ ص١١ .

و﴿ يَا ﴾ حرف نداء و﴿ حَسْرَةً ﴾ منادى ونداؤها على المجاز بتنزيلها منزلة العقلاء .

والمراد بالعباد : أولئك الذين كذبوا الرسل ، وآثروا العمى على الهدى ، ويدخل فيهم دخولا أوليا أصحاب تلك القرية المهلكة .

والمقصود من الآية الكريمة التعجب من حال هؤلاء المهلكين وبيان أن حالهم تستحق التأثر والتأسف والاعتبار ، لأنها حالة تدل على بؤسهم وظلمهم لأنفسهم وجهلهم .

والمعنى : يا حسرة على العباد الذين أهلكوا بسبب إصرارهم على كفرهم احضرى فهذا أوان حضورك ، فإن هؤلاء المهلكين كانوا فى دنياهم ما يأتيهم من رسول من الرسل ، إلا كانوا يه يستهزئون ، ويتغامزون ويستخفون به ويدعونه ، مع أنهم ـ لو كانوا يعقلون ـ لقابلوا دعوة رسلهم بالطاعة والانقياد .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ .. ﴾ نداء للحسرة عليهم ، كأنما قيل لها : تعالى يا حسرة فهذه من أحوالك التى حقك أن تحضرى فيها ، وهى حال استهزائهم بالرسل .

والمعنى : أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ، ويتلهف عليهم المتلهفون ، أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين .

وقرىء : يا حسرة العباد ، على الإضافة إليهم لاختصاصها بهم ، من حيث أنها موجهة إليهم .(1)

أى : يا حسرة العباد منهم على أنفسهم ، بسبب تكذيبهم لرسلهم ، واستهزائهم بهم .

ثم وبخ ـ سبحانه ـ كفار مكة ، بسبب عدم اعتبارهم بمن سبقهم فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ .

والقرون : جمع قرن ، وهم القوم المقترنون فى زمن واحد ، وكم : خبرية بمعنى كثير .

أى : ألم يعلم كفار مكة أننا أهلكنا كثيرا من الأمم السابقة عليهم ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، واستهزائهم برسلهم ، وأن هؤلاء المهلكين لايرجعون إليهم ليخبروهم بما جرى لهم ، لأنهم لن يستطيعوا ذلك فى الدنيا ، لحكمة أرادها الله ـ تعالى ـ .

ولكن الجميع سيعودون إليه ـ سبحانه ـ وسيبعثهم يوم القيامة من قبورهم للحساب والجزاء ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ .

---

(1) تفسير الكشاف جـ٤ ص١٣ .

و﴿ إن ﴾ حرف نفى و﴿ كُلٌّ ﴾ مبتدأ والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه و﴿ لَمَّا ﴾ بمعنى إلا ، و ﴿ جَمِيعٌ ﴾خبر المبتدأ و ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾خبر ثان .

أى : لقد علم أهل مكة وغيرهم أننا أهلكنا كثيرا من القرى الظالم أهلها ، وأن هؤلاء المهلكين لن يرجعوا إلى أهل مكة فى الدنيا ، ولكن الحقيقة التى لاشك فيها أنه ما من أمة من الأمم ، أو جماعة من الجماعات المتقدمةأو المتأخرة إلا ومرجعها إلينا يوم القيامة ، لنحاسبها على أعمالها ، ولنجازيها بالجزاء الذى تستحقه .

كما قال ـ سبحانه ـ فى آية أخرى : ﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١)

هذا ، ومن الدروس التى تتعلمها من هذه القصة ـ إلى جانب ما ذكرناه فى ثناياها ـ أن رحمة الله ـ تعالى ـ بخلقه واسعة ، فهو ـ سبحانه ـ لم يرسل إلى أهل تلك القرية رسولا واحدا ، وإنما أرسل إليهم اثنين ، ثم عززهما بثالث ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وأن من شأن العقلاء الحكماء أنهم يقابلون جهل الجاهلين ، وسفاهة السفهاء بالحلم والصبر ، كما نرى ذلك واضحا من محاورة الرسل للسفهاء من أهل تلك القرية .

وأن كل أمة لاتخلو من رجال أصفياء أنقياء ، يتحلون بالشجاعة والحكمة ، ويقفون على جانب الحق يدافعون عن أهله بكل ما أوتوا من قوة ، حتى ولو أدى ذلك إلى استشهادهم ، كما نرى فى قصة ذلك الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، وهو يقول لقومه : «ياقوم اتبعوا المرسلين» .

وأن عدالة الله ـ تعالى ـ قد اقتضت أن يهلك القوم الظالمين ، الذين يستحبون العمى على الهدى ، ويصرون على باطلهم دون استماع إلى نصيحة الناصحين ، أو إرشاد المرشدين ، أو أن العقلاء من الناس هم الذين ينتفعون بأحوال من سبقهم ، فيقتدون بالصالحين ، وينبذون الطالحين ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

---

(١) سورة هود : الآية ١١١ .

٦ـ قصة أصحاب الجنة

وقصة أصحاب الجنة ملخصها : أن عددا من الأبناء ترك لهم أبوهم حديقة مثمرة ، وأوصاهم عند وفاته أن يجعلوا جزءا منها للفقراء والمساكين ، ولكنهم بعد وفاته لم يلتزم أكثرهم بوصيته ، فكانت النتيجة أن هلكت تلك الحديقة ، وحرموا من ثمارها بسبب بخلهم وأنانيتهم وعدم وفائهم .

واستمع إلى القرآن الكريم وهو يصور كل ذلك بأسلوبه البليغ الحكيم المصور لأحوال النفوس البشرية تصويرا معجزا ، استمع إلى قوله ـ تعالى ـ في سورة القلم :

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : هذا مثل ضربه الله - تعالى - لكفار قريش ، فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعم الجسيمة ، وهو بعثه محمدا ﷺ إليهم فقابلوه بالتكذيب والمحاربة .

وقد ذكر بعض السلف : أن أصحاب الجنة هؤلاء كانوا من أهل اليمن ، كانوا من قرية يقال لها : «ضَرَوان» على ستة أميال من صنعاء ، وكان أبوهم قد ترك لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما استغله منها يرد فيها ما يحتاج إليه ، ويدخر لعياله قوت سنتهم ، ويتصدق بالفاضل .

فلما مات وورثه أولاده قالوا : لقد كان أبونا أحمق ، إذ كان يصرف من هذه الجنة شيئا للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك لنا ، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فقد أذهب الله ما بأيديهم بالكلية : أذهب رأس المال ، والربح ، فلم يبق لهم شىء .[1]

وقوله - سبحانه - : ﴿ بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أى : اختبرناهم وامتحناهم ، مأخوذ من البلوى ، التى تطلق على الاختبار ، والابتلاء قد يكون بالخير وقد يكون بالشر ، كما قال - تعالى - : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً .. ﴾ وكما فى قوله - سبحانه - : ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

والمراد بالابتلاء هنا : الابتلاء بالشر بعد جحودهم لنعمة الخير .

أى : إنا امتحنا مشركى قريش بالقحط والجوع ، حتى أكلوا الجيف ، بسبب كفرهم بنعمنا ، وتكذيبهم لرسولنا ﷺ كما ابتلينا من قبلهم أصحاب الجنة ، بأن دمرناها تدميرا ، بسبب بخلهم وامتناعهم عن أداء حقوق الله منها .

ويبدو أن قصة أصحاب الجنة ، كانت معروفة لأهل مكة ولذا ضرب الله - تعالى - المثل بها ، حتى يعتبروا ويتعظوا .

ووجه المشابهة بين حال أهل مكة ، وحال أصحاب الجنة ، يتمثل فى أن كلا الطرفين قد منحه الله - تعالى - نعمة عظيمة ، ولكنه قابلها بالجحود وعدم الشكر .

و ﴿ إِذْ ﴾ فى قوله : ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ تعليلية .

والضمير فى ﴿ أَقْسَمُوا ﴾ يعود لمعظمهم ، لأن الآيات الآتية بعد ذلك تدل على أن أوسطهم قد نهاهم عما اعتزموه من حرمان المساكين ، ومن مخالفة ما يأمرهم شرع الله - تعالى - به .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٨ ص٢٢٣ .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴾ .

قوله : ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ من الصرم وهو القطع ، يقال : صرم فلان زرعه ـ من باب ضرب ـ إذا جزه وقطعه ، ومنه قولهم : انصرم حبل المودة بين فلان وفلان ، إذا انقطع .

وقوله : ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ أى : داخلين فى وقت الصباح المبكر .

أى : إنا امتحنا أهل مكة بالبأساء والضراء ، كما امتحنا أصحاب البستان الذين كانوا قبلهم ، لأنهم أقسموا بالأيمان المغلظة ، ليقطعن ثمار هذا البستان فى وقت الصباح المبكر .

﴿ وَلا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أى : دون أن يجعلوا شيئا ـ ولو قليلا ـ من ثمار هذا البستان للمحتاجين ، الذين أوجب الله ـ تعالى ـ لهم حقوقا فى تلك الثمار .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله ـ تعالى ـ : ﴿ لَيَصْرِمُنَّهَا ﴾ وهى فى الوقت نفسه مقسم عليه .

أى : أقسموا ليصرمنها فى وقت الصباح المبكر ، وأقسموا كذلك على ألا يعطوا شيئا منها للفقراء أو المساكين .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما ترتب على هذا القسم الذى لم يقصد به الخير ، وإنما قصد به الشر فقال : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ .

والطائف : مأخوذ من الطواف ، وهو المشى حول الشىء من كل نواحيه ومنه الطواف حول الكعبة ، وأكثر ما يستعمل لفظ الطائف فى الشر كما هنا ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ .

وعدى لفظ ﴿ طَائِفٌ ﴾ بحرف «على» لتضمينه معنى : تسلط أو نزل ، والصريم ـ كما يقول القرطبى ـ الليل المظلم ، أى : احترقت فصارت كالليل الأسود .

وعن ابن عباس : كالرماد الأسود ، أو كالزرع المحصود ، فالصريم بمعنى المصروم ، أى : المقطوع مافيه .[1]

أى : أقسم هؤلاء الجاحدون على ألا يعطوا شيئا من جنتهم للمحتاجين ، فكانت نتيجة نيتهم السيئة ، وعزمهم على الشر ، أن نزل بهذه الحديقة بلاء أحاط بها فأهلكها فصارت كالشىء المحترق الذى قطعت ثماره ، ولم يبق منه شىء ينفع .

(١) راجع تفسير القرطبى جـ١٨ ص٢٤١ .

ولم يعين ـ سبحانه ـ نوع هذا الطائف ، أو كيفية نزوله ، لأنه لايتعلق بذكره غرض ، وإنما المقصود ما ترتب عليه من آثار توجب الاعتبار .

وتنكير لفظ ﴿ طَائِفٌ ﴾ للتهويل و ﴿ مِّن ﴾ فى قوله ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾ للابتداء والتقييد بكونه من الرب ـ عز وجل ـ لإفادة أنه بلاء لاقبل لأحد من الخلق بدفعه .

قال القرطبى : فى هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان ، لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم ، ومثله قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وفى الحديث الصحيح : «إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار ، قيل : يا رسول الله ، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه» .(١)

ثم صور ـ سبحانه ـ أحاسيسهم وحركاتهم ، وقد خرجوا لينفذوا ما عزموا عليه من سوء ، فيقول : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴾ أى : فنادى بعضهم بعضا فى وقت الصباح المبكر ، حتى لايراهم أحد .

فقالوا فى تناديهم : ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ أى : قال بعضهم لبعض : هيا بنا لنذهب إلى بستاننا لكى نقطع مافيه من ثمار فى هذا الوقت المبكر ، حتى لايرانا أحد ، إذ الغدو هو الخروج إلى المكان فى غدوة النهار ، أى : فى أوله .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : اغدوا إلى حرثكم ، وما معنى «على»؟

قلت : لما كان الغدو إليه ليصرموه ويقطعوه : كان غدوا عليه ، كما تقول : غدا عليهم العدو ، ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال ، كقولهم : يغدى عليه بالجفنة ويراح ، أى : فأقبلوا على حرثكم باكرين .(٢)

وجواب الشرط فى قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أى : إن كنتم صارمين فاغدوا .

﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴾ أى : فانطلقوا مسرعين نحو جنتهم وهم يتسارُّون فيما بينهم ، إذ التخافت : تفاعل من خفت فلان فى كلامه إذا نطق به بصوت منخفض لايكاد يسمع .

وجملة : ﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ مفسرة لما قبلها لأن التخافت فيه

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٨ ص٢٤١ .

(٢) تفسير الكشاف جـ٤ ص٥٩٠ .

معنى القول دون حروفه أى : انطلقوا يتخافتون وهم يقولون فيما بينهم : احذروا أن يدخل جنتكم اليوم وأنتم تقطعون ثمارها أحد من المساكين .

وجملة : ﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ حالية ، والحرد : القصد ، يقال : فلان حرد فلان - من باب ضرب - أى : قَصَد قَصْدَه .

قال الإمام الشوكانى : الحرد معنى المنع والقصد ، لأن القاصد إلى الشىء حارد ، يقال : حرد يحرد إذا قصد ، وقال أبوعبيدة : ﴿ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أى : على منع ، من قولهم : حردت الإبل حردا ، إذا قلت ألبانها ، وقال الحسن : على حرد ، أى : على حاجة وفاقة ، وقيل : ﴿ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أى : على انفراد ، يقال : حرد يحرد حردا ، إذا تنحى عن قومه ، ونزل منفردا عنهم دون أن يخالطهم .

أى : أن أصحاب الجنة ساروا إليها غدوة ، على أمر قد قصدوه وبيتوه ، موقنين أنهم قادرون على تنفيذه ، لأنهم قد اتخذوا له جميع وسائله ، من الكتمان والتبكير والبعد عن أعين المساكين .

أو : ساروا إليها فى الصباح المبكر ، وهم ليس معهم أحد من المساكين أو من غيرهم ، وهم فى الوقت نفسه يعتبرون أنفسهم قادرين على قطع ثمارها ، دون أن يشاركهم أحد في تلك الثمار .

ثم صور - سبحانه - حالهم تصويرا بديعا عندما شاهدوا جنتهم ، وقد صارت كالصريم ، فقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴾ .

أى : فحين شاهدوا جنتهم - وهى على تلك الحال العجيبة - قال بعضهم لبعض : إنا لضالون عن طريق جنتنا التى عهدناها بالأمس القريب ، زاخرة بالثمار .

ثم اعترفوا بالحقيقة المرة بعد أن تأكدوا أن ما أمامهم هى حديقتهم فقالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى : لسنا بضالين عن الطريق إليها ، بل الحقيقة أن الله - تعالى - قد حرمنا من ثمارها ، بسبب إصرارنا على حرماننا المساكين من حقوقهم منها .

وهنا تقدم إليهم أوسطهم رأيا ، وأعدلهم وأمثلهم تفكيرا ، فقال لهم : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴾ .

والاستفهام للتقرير ، و﴿ لَوْلا ﴾ حرف تحضيض بمعنى هلا ، والتسبيح هنا بمعنى : الاستغفار والتوبة وإعطاء كل ذى حق حقه .

أى : قال لهم ـ أعقلهم وأصلحهم ـ بعد أن شاهد ما شاهد من أمر الحديقة قال لهم : لقد قلت لكم عندما عزمتم على حرمان المساكين حقوقهم منها ، اتقوا الله ولاتفعلوا ذلك ، وسيروا على الطريقة التى كان يسير عليها أبوكم ، وأعطوا المساكين حقوقهم منها ، ولكنكم خالفتمونى ولم تطيعوا أمرى ، فكانت نتيجة مخالفتكم لنصحى ، ما ترون من خراب الجنة ، التى أصابنى من خرابها ما أصابكم .

وكعادة كثير من الناس الذين : لايقدرون النعمة إلا بعد فوات الأوان ، قالوا لأعقلهم وأصلحهم : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ .

أى : قالوا وهم يعترفون بظلمهم وجرمهم ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا .. ﴾ أى : ننزه ربنا ونستغفره عما حدث منا ، فإننا كنا ظالمين لأنفسنا حين منعنا حق الله ـ تعالى ـ عن عباده .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما دار بينهم بعد أن أيقنوا أن حديقتهم قد دمرت فقال : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ ﴾ أى : يلوم بعضهم بعضا ، وكل واحد منهم يلقى التبعة على غيره ، ويقول له : أنت الذى كنت السبب فيما أصابنا من حرمان .

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا ﴾ أى : يا هلاكنا وياحسرتنا ، ﴿ إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ أى : إنا كنا متجاوزين لحدودنا ، وفاسقين عن أمر ربنا ، عندما صممنا على البخل بما أعطانا ـ سبحانه ـ من فضله ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَا ﴾ بفضله وإحسانه ﴿ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا ﴾ أى : أن يعطينا ماهو خير منها ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا ﴾ لا إلى غيره ﴿ رَاغِبُونَ ﴾ أى : راغبون فى عطائه راجعون إليه بالتوبة والندم .

قال الآلوسى : قال مجاهد : إنهم تابوا فأبدلهم الله ـ تعالى ـ خيرا منها ، وحكى عن الحسن : التوقف ، وسئل قتادة عنهم : أهم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال للسائل : لقد كلفتنى تعبا .[١]

ثم ختم ـ سبحانه ـ قصتهم بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أى : مثل الذى بلونا به أصحاب الجنة ، من إهلاك جنتهم بسبب جحودهم لنعمنا ، يكون عذابنا لمن خالف أمرنا من كفار مكة وغيرهم .

فقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ خبر مقدم ، و﴿ الْعَذَابُ ﴾ مبتدأ مؤخر ، والمشار إليه هو ما تضمنته القصة من إتلاف تلك الجنة ، وإذهاب ثمارها .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢٩ ص٣٢ .

وقدم المسند وهو الخبر على المسند إليه وهو المبتدأ للاهتمام بإحضار تلك الصورة العجيبة فى ذهن السامع .

وقوله : ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على أن المراد بالعذاب السابق عذاب الدنيا .

أى : مثل ذلك العذاب الذى أنزلناه بأصحاب الجنة فى الدنيا ، يكون عذابنا لمشركى قريش ، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى وأعظم ، ولو كانوا من أهل العلم والفهم ، لعلموا ذلك ، ولأخذوا منه حذرهم عن طريق الإيمان والعمل الصالح .

هذا ، والمتأمل فى هذه القصة ، يراها زاخرة بالمفاجآت ، وبتصوير النفس الإنسانية فى حال غناها وفى حال فقرها ، فى حال حصولها على النعمة وفى حال ذهاب هذه النعمة من بين يديها .

كما يراها تحكى لنا سوء عاقبة الجاحدين لنعم الله ، إذ أن هذا الجحود يؤدى إلى زوال النعم ، ورحم الله القائل ، من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها .

٧ـ قصة أصحاب الأخدود

هذه القصة ملخصها : أن جماعة من المؤمنين الصادقين ، ثبتوا على إيمانهم وإخلاصهم العبادة لخالقهم ، فعذبهم أعداؤهم عذابا شديدا ، حيث حفروا لهم حفرا فى الأرض ، ثم أضرموا فيها النار ، ثم ألقوا بالمؤمنين فيها وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فى سورة «البروج» فقال ـ تعالى ـ :

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾
قُتِلَ أَصْحَٰبُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾
وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ
يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ
يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ
الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ
وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ
لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ
الَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ
هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

والبروج : جمع برج ، وهى فى اللغة : القصور العالية الشامخة ، ويدل لذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ أى : لو كنتم فى قصور عظيمة محصنة .

والمراد بها هنا : المنازل الخاصة بالكواكب السيارة ، ومداراتها الفلكية الهائلة ، وهى اثنا عشر منزلا : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت .

وسميت بالبروج ، لأنها بالنسبة لهذه الكواكب كالمنازل لساكنيها .

وقوله : ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ المقصود به : يوم القيامة ، لأن الله ـ تعالى ـ وعد الخلق به ، ليجازى فيه الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

وقوله : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قسم ثالث ببعض مخلوقاته ـ تعالى ـ .

والمراد بالشاهد هنا : الحاضر فى ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة ، والمرائى لأهواله وعجائبه .

والمراد بالمشهود : مايشاهد فى ذلك اليوم من أحوال يشيب لها الولدان .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ بالتنكير ، لتهويل أمرهما ، وتفخيم شأنهما .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ جواب القسم بتقدير اللام وقد .

أى : وحق السماء ذات البروج وحق اليوم الموعود ، وحق الشاهد والمشهود ، لقد قتل ولعن أصحاب الأخدود ، وطردوا من رحمة الله بسبب كفرهم وبغيهم .

والأخدود وهو الحفرة العظيمة المستطيلة فى الأرض ، كالخندق ، وجمعه أخاديد ، ومنه الخد لمجارى الدمع ، والمخدة : لأن الخد يوضع عليها .

ويقال : تخدد وجه الرجل ، إذا صارت فيه التجاعيد ، ومنه قول الشاعر :

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها … عليه ، نقى اللون لم يتخدد

وقيل : إن جواب القسم محذوف ، دل عليه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ كأنه قيل : أقسم بهذه الأشياء إن كفار مكة لملعونون كما لعن أصحاب الأخدود .

وأصحاب الأخدود : هم قوم من الكفار السابقين ، حفروا حفرا مستطيلة فى الأرض ، ثم أضرموها بالنار ، ثم ألقوا فيها المؤمنين ، الذين خالفوهم فى كفرهم ، وأبوا إلا إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ وحده .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ بدل اشتمال مما قبله وهو الأخدود .

والوقود : اسم لما توقد به النار كالحطب ونحوه ، وذات الوقود : صفة للنار .

أى : قتل وطرد من رحمة الله أصحاب الأخدود ،الذين أشعلوا فيه النيران ذات اللهب الشديد ، لكى يلقوا المؤمنين فيها .

والظرف فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ متعلق بقوله ـ تعالى ـ : ﴿قُتِلَ﴾ أى : لعنوا وطردوا من رحمة الله ، حين قعدوا على الأخدود ، ليشرفوا على من يعذبونهم من المؤمنين .

فالضمير ﴿هُمْ﴾ يعود على أولئك الطغاة الذين كانوا يعذبون المؤمنين ويجلسون على حافات الأخدود ، ليروهم وهم يحرقون بالنار ، أو ليأمروا أتباعهم وزبانيتهم بالجد فى التعذيب حتى لايتهاونوا فى ذلك .

و﴿عَلَيْ﴾ للاستعلاء المجازى ، إذ من المعلوم أنهم لايقعدون فوق النار ، وإنما هم يقعدون حولها ، لإلقاء المؤمنين فيها .

وجملة ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ فى موضع الحال من الضمير فى قوله : ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ أى : أن هؤلاء الطغاة الظالمين ، لم يكتفوا بإشعال النار ، والقعود حولها وهم يعذبون المؤمنين ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم يشهدون تعذيبهم ، ويرونه بأعينهم على سبيل التشفى منهم ، فقوله : ﴿شُهُودٌ﴾ بمعنى حضور ، أو بمعنى يشهد بعضهم لبعض أمام ملكهم الظالم ، بأنهم ما قصروا فى تعذيب المؤمنين ، وهذا الفعل منهم ، يدل على نهاية القسوة والظلم ، وعلى خلو قلوبهم من أى رحمة أو شفقة .

قال الآلوسى : وقوله : ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أى : يشهد بعضهم لبعض عند الملك ، بأن أحدا لم يقصر فيما أمر به ، أو يشهدون عنده على حسن مايفعلون ، أو يشهد بعضهم على بعض بذلك الفعل الشنيع يوم القيامة ، أو يشهدون على أنفسهم بذلك ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

وقيل : ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى مع ، أى : وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب حضور ، لايرقون لهم ، لغاية قسوة قلوبهم .[1]

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٣٠ ص٩٠ .

ثم بين ـ سبحانه ـ الأسباب التى حملت هؤلاء الطغاة على إحراق المؤمنين فقال: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

والنقمة هنا بمعنى الإنكار والكراهية ، يقال : نقم فلان هذا الشىء ـ من باب ضرب ـ إذا كرهه وأنكره .

أى : أن هؤلاء الكافرين ماكرهوا المؤمنين وما أنزلوا بهم ما أنزلوا من عذاب ، إلا لشىء واحد ، وهو أن المؤمنين أخلصوا عبادتهم لله ـ تعالى ـ صاحب العزة التامة ، والحمد المطلق ، والذى له ملك جميع مافى السموات والأرض ، وهو ـ سبحانه ـ على كل شىء شهيد ورقيب ، لايخفى عليه أمر من أمور عباده ، أو حال من أحوالهم .

فالمقصود من هاتين الآيتين الكريمتين ، التعجيب من حال هؤلاء المجرمين ، حيث عذبوا المؤمنين ، لا لشىء إلا من أجل إيمانهم بخالقهم ، وكأن الإيمان فى نظرهم جريمة تستحق الإحراق بالنار .

وهكذا النفوس عندما يستحوذ عليها الشيطان ، تتحول الحسنات فى نظرها إلى سيئات وقديما قال المنكوسون من قوم لوط ـ عليه السلام ـ ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ .

والاستثناء فى قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ .. ﴾ استثناء مفصح عن براءة المؤمنين مما يعاب وينكر ، فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم كما فى قول القائل :

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

قال الإمام ابن كثير : وقد اختلفوا فى أهل هذه القصة من هم؟ فعن على ابن أبى طالب : أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل زواج المحارم ، فامتنع عليه علماؤهم ، فعمد إلى حفر أخدود ، فقذف فيه من أنكر عليه منهم .

وعنه أنهم كانوا قوما من اليمن ، اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم فتغلب مؤمنوهم على كفارهم ، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين ، فخدوا لهم الأخاديد ، وأحرقوهم فيها .

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ بعد ذلك جملة من الآثار فى هذا المعنى فارجع إليها إن شئت .[1]

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٧ ص٣٨٧ .

وعلى أية حال فالمقصود بهذه الآيات الكريمة ، تثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان ، وتسليتهم عما أصابهم من أعدائهم ، وإعلامهم بأن ما نزل بهم من أذى قد نزل ما هو أكبر منه بالمؤمنين السابقين ، فعليهم أن يصبروا كما صبر أسلافهم ، وقد اقتضت سنته ـ تعالى ـ أن يجعل العاقبة للمتقين .

ثم هدد ـ سبحانه ـ كفار قريش بسوء المصير إذا ما استمروا فى إيذائهم للمؤمنين ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ .

أى : إن الظالمين الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات ، وأحرقوهم بالنار ثم لم يتوبوا إلى الله ـ تعالى ـ من ذنوبهم ، ويرجعوا عن تعذيبهم للمؤمنين والمؤمنات ، فلهم فى الآخرة عذاب جهنم ، بسبب إصرارهم على كفرهم وعدوانهم ، ولهم نار أخرى زائدة على غيرها فى الإحراق .

والمراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات : كفار قريش ، كأبى جهل وأمية ابن خلف ، وغيرهما ، فقد عذبوا بلالا ، وعمار بن ياسر وأباه وأمه سمية .

ويؤيد أن المراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات كفار قريش ، قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ لأن هذه الجملة تحريض على التوبة وترغيب فيها للكافرين المعاصرين للنبى ﷺ .

ويصح أن يراد بهم جميع من عذبوا المؤمنين والمؤمنات ، ويدخل فيه أصحاب الأخدود ، وكفار قريش دخولا أوليا .

وجمع ـ سبحانه ـ بين عذاب جهنم لهم ، وبين عذاب الحريق ، لبيان أن العذاب لهم مضاعف ، بسبب طغيانهم وشركهم .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك ما أعده للمؤمنين والمؤمنات من ثواب وعطاء كريم فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ﴾ الأعمال ﴿ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ ﴾ أى : عند ربهم ﴿ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى تجري من تحت أشجارها وبساتينها الأنهار ﴿ ذَلِكَ ﴾ العطاء هو ﴿ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ الذى لافوز يضارعه أو يقاربه .

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك ، مايدل على نفاذ قدرته ومشيئته ، حتى يزداد المؤمنون ثباتا على ثباتهم ، وصبرا على صبرهم فقال : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ .

والبطش : هو الأخذ بقوة وسرعة وعنف ، أى : إن بطش ربك ـ أيها الرسول الكريم ـ بالظالمين والطغاة لبالغ نهاية القوة والعنف : فمر أصحابك فليصبروا على الأذى ، فإن العاقبة الحسنة تكون لهم وحدهم .

﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ أى : إنه وحده هو الذى يخلق الخلق أولا فى الدنيا ، ثم يعيدهم إلى الحياة بعد موتهم للحساب والجزاء ، وهو ـ سبحانه ـ وحده الذى يبدئ البطش بالكفار فى الدنيا ثم يعيده عليهم فى الآخرة بصورة أشد وأبقى .

﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ أى : وهو ـ سبحانه ـ الواسع المغفرة لمن تاب وآمن ، وهو الكثير المحبة والود لمن أطاعه واتبع هداه .

﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ أى : وهو ـ عز وجل ـ صاحب العرش العظيم ، الذى لا يعرف كنهه إلا هو ـ سبحانه ـ وهو ﴿ الْمَجِيدُ ﴾ أى : العظيم فى ذاته وصفاته .

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ أى : وهو ـ تعالى ـ الذى يفعل كل شىء يريده ، دون أن يعترض عليه أحد ، بل فعله هو النافذ ، وأمره هو السارى والمطاع .

ثم ساق ـ سبحانه ـ بعد ذلك ، مايدل على شدة بطشه ، ونفاذ أمره فقال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ . فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ .

والاستفهام هنا : للتقرير والتهويل ، والمراد بالجنود : الجموع الكثيرة التى عتت عن أمر ربها ، فأخذها ـ سبحانه ـ أخذ عزيز مقتدر ، وقوله : ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ بدل من الجنود

والمراد بفرعون وثمود : ملؤهما وقومهما الذين آثروا الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية ، والباطل على الحق ، أى : لقد بلغك ـ أيها الرسول الكريم ـ حديث فرعون الذى طغى وبغى ، واتبعه قومه فى طغيانه وبغيه ، وحديث قوم صالح ـ عليه السلام ـ وهم الذين كذبوا نبيهم ، وآذوه ، وعقروا الناقة التى نهاهم عن أن يمسوها بسوء .

وكيف أنه ـ سبحانه ـ قد دمر الجميع تدميرا شديدا ، جزاء كفرهم وبغيهم .

وخص ـ سبحانه ـ جند فرعون وثمود بالذكر ، لأنهم كانوا أشد من غيرهم بغيا وظلما ، ولأنهم كانت قصصهم معروفة لأهل مكة أكثر من غيرهم .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ . وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ إضراب انتقالى ، المقصود منه بيان أن هؤلاء المشركين المعاصرين للنبى ﷺ لم يتعظوا بمن سبقهم .

أى : لقد كانت عاقبة جنود فرعون وثمود ، الهلاك والدمار ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، ولكن قومك ـ أيها الرسول لم يعتبروا بهم ، بل استمروا فى تكذيبهم لك ، وفى إعراضهم عنك ، واعلم أن الله ـ تعالى ـ محيط بهم إحاطة تامة ، ولن يفلتوا من عقابه بأية حيلة من الحيل ، فهم تحت قبضته وسلطانه ، وسينزل بهم بأسه فى الوقت الذى يريده .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ إضراب انتقالى آخر ، من بيان شدة تكذيبهم للحق ، إلى بيان أن القرآن الكريم هو كتاب الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أى : ليس الأمر كما قال هؤلاء المشركون فى القرآن من أنه أساطير الأولين ، بل الحق أن هذا القرآن هو كلام الله ـ تعالى ـ البالغ النهاية فى الشرف والرفعة والعظمة .

وأنه كائن فى لوح محفوظ من التغيير والتبديل ، ومن وصول الشياطين إليه ، ونحن نؤمن بأن القرآن الكريم كائن فى لوح محفوظ ، إلا أننا نفوض معرفة حقيقة هذا اللوح وكيفيته إلى علمه ـ تعالى ـ لأنه من أمر الغيب الذى تفرد الله ـ تعالى ـ بعلمه ، وما قيل فى وصف هذا اللوح لم يرد به حديث صحيح يعتمد عليه .

ومن العظات والعبر التى نأخذها من هذه القصة ، أن هذه الحياة قد جعلها الله ـ تعالى ـ نزاعا موصولا بين أهل الحق وأهل الباطل ، إلا أن سنته ـ عز وجل ـ قد جعل العاقبة للمؤمنين الصادقين .

٨ـ قصة الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه

هذه قصة تدل دلالة ساطعة على قدرة الله ـ تعالى ـ وعلى أن البعث والجزاء والثواب والعقاب حق .

وقد جاءت هذه القصة بعد تلك المحاورة التى دارت بين سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبين ذلك الملك الجبار الذى زعم أنه يحيى ويميت ، فرد عليه سيدنا إبراهيم بقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

وهذا الإنسان الذى أماته الله ـ تعالى ـ مائة عام ثم بعثه ، حكى القرآن قصته فى قوله ـ سبحانه ـ :

أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ
عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ
بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ
قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ
فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ
حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى
ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

والذى ﴿ مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ قيل هو عزير بن شرخيا ، وقيل حزقيال بن بوزى وقيل غير ذلك ، والقرية قيل المراد بها بيت المقدس ، وكان قد خربها بختنصر البابلى والقرآن الكريم لم يهتم بتحديد الأشخاص والأماكن لأنه يقصد العبرة وبيان الحال والشأن .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ حكاية لما قاله ذلك الذى مر على تلك القرية ورأى فيها ما رأى من مظاهر الخراب والدمار .

والمعنى : إليك قصة الذى مر على قرية وهى ساقطة حيطانها على سقوفها ، وفارغة ممن كان يسكنها فهاله أمرها ، وراعه شأنها ، وقال على سبيل التعجب كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ، بأن يعيد إليها العمران بعد الخراب ، ويجعلها عامرة بسكانها الذين خلت منهم ، فقوله : ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ﴾ بمعنى كيف أو بمعنى متى أى : متى يحيى الله هذه القرية بعد موتها .

وقال القرطبى : قوله : ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ معناه من أى طريق وبأى سبب ، وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان ، كما يقال الآن فى المدن الخربة يبعد أن تعمر وتسكن أى : أنى تعمر هذه بعد خرابها ، فكأن هذا تلهف من الواقف المعتبر على مدينته التى عهد فيها أهله وأحبته .(1)

وقوله هذا إنما هو تساؤل عن كيفية الإعادة لا عن أصل الإعادة لأنه كان مؤمنا بالبعث والنشور ، إلا أنه لما رأى حال القرية على تلك الصورة من الخراب تعجب من قدرة الله على إحيائها ، وتشوق إلى عمارتها واعترف بالعجز عن معرفة طريق الإحياء ، فماذا كانت نتيجة هذا التساؤل؟ كانت نتيجته كما حكاها القرآن : ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ .

أى : بعد أن قال هذا الذى مر على تلك القرية الخاوية على عروشها ما قال ، ألبثه الله ـ تعالى ـ فى الموت مائة عام ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أى أحياه ببعث روحه إلى بدنه ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ أى : كم مدة من الزمن لبثتها على هذه الحال؟ ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ ولم يقل ثم أحياه ، للدلالة على أنه عاد كهيئته يوم مات عاقلا فاهما مستعدا للنظر والاستدلال وكان ذلك بعد عمارة القرية .

وفى هذه الجملة الكريمة بيان للناس بأن الموت يشبه النوم ، وأن البعث يشبه اليقظة بعده وأنه لاشىء محال على الله ـ تعالى ـ فهو القائل : ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ .

وفى الحديث الشريف : والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا .

---

(1) تفسير القرطبى جـ3 ص299 .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ معطوف على مقدر ، أى : ليس الأمر كما قلت إنك لبثت يوما أو بعض يوم بل إنك لبثت مائة عام .

ثم أرشده ـ سبحانه ـ إلى التأمل فى أمور فيها أبلغ دلالة على قدرة الله ـ تعالى ـ وعلى صحة البعث ، فقال ـ سبحانه ـ : ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ .

وقوله : ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أى : لم يتغير بمرور السنين الطويلة ولم تذهب طراوته فكأنه لم تمر عليه السنون .

وقوله : ﴿نُنشِزُهَا﴾ أى نرفعها ، يقال : أنشز الشىء إذا رفعه من مكانه ، وأصله من النشز ـ بفتحتين والسكون ـ وهو المكان المرتفع ، وقرئ «ننشرها» ـ بضم النون والراء ـ أى نحييها من أنشر الله الموتى أى أحياهم .

والمعنى : قال الله ـ تعالى ـ لهذا الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها إنك لم تلبث يوما أو بعض يوم فى الموت كما تظن بل لبثت مائة عام فإن كنت فى شك من ذلك فانظر إلى طعامك وشرابك لتشاهد أمرا آخر من دلائل قدرتنا فإن هذا الطعام والشراب كما ترى لم يتغير بمرور السنين وكر الأعوام بل بقى على حالته ، وانظر إلى حمارك كيف نخرت عظامه ، وتفرقت أوصاله مما يشهد بأنه قد مرت عليه السنوات الطويلة .

وقوله : ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ معطوف على محذوف متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق ، والتقدير فعلنا ما فعلنا لترى وتشاهد بنفسك مظاهر قدرة الله ، ولنجعلك آية معجزة ودليلا على صحة البعث .

وقوله : ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ أى : انظر وتأمل فى هذه العظام كيف نركب بعضها فى بعض بعد أن نوجدها .

وقيل : المعنى : وانظر إلى العظام أى عظام حمارك التى تفرقت وتناثرت لتشاهد كيف نرفعها من الأرض فنردها إلى أماكنها فى جسده .

قال ابن كثير : قال السدى وغيره : تفرقت عظام حماره يمينا وشمالا حوله فنظر إليها وهى تلوح من بياضها ، فبعث الله ريحا فجمعتها من كل موضع ، ثم ركب كل عظم فى موضعه ، وذلك كله بمرأى من العزير .[1]

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٣١٤ .

وجاء الضمير فى قوله : ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ بالإفراد مع أن المتقدم طعام وشراب ، لأنهما متلازمان بمعنى أن أحدهما لايكتفى به عن الآخر فصار بمنزلة شىء واحد ، فكأنه قال : انظر إلى غذائك .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : فلما تبين له بالأدلة الناصعة ، وبالمشاهدة الحسية قدرة الله ـ تعالى ـ على الإحياء والإماتة ، وعلى البعث والنشور قال أعلم أى أستيقن وأومن وأعتقد أن الله ـ تعالى ـ على كل شىء قدير ، وأنه ـ سبحانه ـ لايعجزه شىء ، والفاء فى قوله : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ ﴾ عاطفة على مقدر يستدعيه المقام فكأنه قيل : رفع الله العظام من أماكنها وأكساها لحما فلما تبين له ذلك ، وتيقنه قال أعلم أن الله على كل شىء قدير ، وفاعل «تبين» مضمر يفسره سياق الكلام والتقدير فلما تبين له كيفية الإحسان أو فلما تبين له ما أشكل عليه من أمر إحياء الموتى قال أعلم أن الله على كل شىء قدير .

فهذه القصة تدل دلالة واضحة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وعلى قدرته النافذة ، كما تدل عن طريق المشاهدة على أن البعث حق .

٩ - قصة العادين فى السبت

وقصة هؤلاء المعتدين فى يوم السبت تتلخص فى أن قوما من بنى إسرائيل ، أخذ الله - تعالى - عليهم عهدا بأن يتفرغوا لعبادته فى يوم السبت ، وحرم عليهم الاصطياد فيه دون سائر الأيام .

واختبارا منه - سبحانه - لإيمانهم ولوفائهم بعهودهم ، أرسل إليهم الحيتان فى يوم السبت دون غيره ، فكانت تتراءى لهم على الساحل فى ذلك اليوم ، قريبة المأخذ ، سهلة الاصطياد .

وهنا سال لعاب شهواتهم ومطامعهم وفكروا في حيلة لاصطياد هذه الحيتان فى يوم السبت فقالوا : لامانع من أن نحفر إلى جانب ذلك البحر الذى يزخر بالأسماك فى يوم السبت أحواضا تنساب إليها المياه ومعها الأسماك ، ثم نترك هذه الأسماك محبوسة فى الأحواض فى يوم السبت - لأنها لاتستطيع الرجوع إلى البحر لضآلة الماء الذى فى الأحواض ، ثم نصطادها بعد ذلك فى غير يوم السبت ، وبذلك نجمع بين احترام ما عهد إلينا فى يوم السبت وبين ما تشتهيه أنفسنا من الحصول على تلك الأسماك .

ولقد نصحهم الناصحون بأن عملهم هذا هو احتيال على محارم الله ، وأن حبس الحيتان في الأحواض هو صيد لها فى المعنى ، وهو فسوق عن أمر الله ونقض لعهوده .

ولكنهم لجهلهم واستيلاء المطامع على نفوسهم لم يعبأوا بنصح الناصحين بل نفذوا حيلتهم الشيطانية ، فغضب الله عليهم ومسخهم قردة ، وجعلهم عبرة لمن عاصرهم ولمن أتى بعدهم وموعظة للمتقين .

واستمع إلى سورة الأعراف وهى تحكى لنا هذه القصة بأسلوبها البليغ فتقول :

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ
حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ
شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾
وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا

شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ . . ﴾ . . إلخ معطوف على اذكر المقدر فى قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا ﴾ والخطاب للنبى ﷺ وضمير الغيبة للمعاصرين له من اليهود .

أى : سل يا محمد هؤلاء اليهود المعاصرين لك كيف كان حال أسلافهم الذين تحايلوا على استحلال محارم الله فإنهم يجدون أخبارهم فى كتبهم ولايستطيعون كتمانها .

والمقصود من سؤالهم تقريعهم على عصيانهم ، لعلهم أن يتوبوا ويرجعوا إلى الحق ، ولا يعرضوا أنفسهم لعقوبات كالتى نزلت بسابقيهم ، وتعريفهم بأن هذه القصة من علومهم المعروفة لهم والتى لا يستطيعون إنكارها ، والتى لاتعلم إلا بكتاب أو وحى ، فإذا أخبرهم بها النبى الأمى الذى لم يقرأ كتابهم كان ذلك معجزة له ، ودليلا على أنه نبى صادق موحى إليه بها .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره للآية الكريمة : «أى واسأل ـ يا محمد ـ هؤلاء اليهود الذين بحضرتكم عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نقمته على اعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة ، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم «لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم وهذه القرية هى «أيلة» وهى على شاطىء بحر القلزم ، أى ـ البحر الأحمر ـ.[(١)]

وجمهور المفسرين على أن المراد بهذه القرية ، قرية «أيلة» التى تقع بين مدين والطور ، وقيل هي قرية طبرية ، وقيل هى مدين .

ومعنى كونها ﴿ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ قريبة منه ، مشرفة على شاطئه ، تقول كنت بحضرة الدار أى قريبا منها .

وقوله : ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ أى يظلمون ويتجاوزون حدود الله ـ تعالى ـ بالصيد فى يوم السبت ويعدون بمعنى يعتدون ، يقال : عدا فلان الأمر واعتدى إذا تجاوز حده .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٢٥٦ .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ ﴾ بيان لموضع الاختبار والامتحان .

وقوله : ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ ﴾ ظرف ليعدون ، وحيتان جمع حوت وهو السمك الكبير ، وشرعا : أى : شارعة ظاهرة على وجه الماء ، جمع شارع ، من شرع عليه إذا دنا ، وأشرف وكل شىء دنا من شىء فهو شارع ، وقوله : شرعا حال من الحيتان .

والمعنى : إذ تأتيهم حيتانهم فى وقت تعظيمهم ليوم السبت ظاهرة على وجه الماء دانية من القرية بحيث يمكنهم صيدها بسهولة ، فإذا مر يوم السبت وانتهى لاتأتيهم كما كانت تأتيهم فيه ، ابتلاء من الله ـ تعالى ـ لهم .

قال ابن عباس : «اليهود أمروا باليوم الذى أمرتم به ، وهو يوم الجمعة ، فتركوه واختاروا السبت فابتلاهم الله ـ تعالى ـ به ، وحرم عليهم الصيد فيه وأمرهم بتعظيمه ، فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها فى البحر ، فإذا انقضي السبت ذهبت وما تعود إلا فى السبت ، وذلك بلاء ابتلاهم الله به ، فذلك معنى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ ﴾ . [(١)]

وقال الإمام القرطبى : «وروى فى قصص هذه الآية أنها كانت فى زمن داود ـ عليه السلام ـ وأن إبليس أوحى إليهم فقال : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت ، فاتخذوا الحياض ، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فتبقى فيها ، فلايمكنها الخروج منها لقلة الماء ، فيأخذونها يوم الأحد .[(٢)]

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ معناه : بمثل هذا الابتلاء ، وهو ظهور السمك لهم فى يوم السبت ، واختفائه فى غيره نبتليهم ونعاملهم معاملة من يختبرهم لينالوا ما يستحقونه من عقوبة بسبب فسقهم وتعديهم حدود ربهم ، وتحايلهم القبيح علي شريعتهم ، فقد جرت سنة الله بأن من أطاعه سهل له أمور دنياه ، وأجل له ثواب أخراه ، ومن عصاه أخذه أخذ عزيز مقتدر .

ثم بين ـ سبحانه ـ طوائف هذه القرية وحال كل طائفة فقال ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٣١٦ طبعة الأميرية الأزهرية سنة ١٣٠٨هـ .

(٢) تفسير القرطبى جـ٧ ص٣٠٦ .

والذى يفهم من الآية الكريمة - وعليه جمهور المفسرين - أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق .

١ - فرقة المعتدين فى السبت ، المتجاوزين حدود الله عن تعمد وإصرار .

٢ - فرقة الناصحين لهم بالانتهاء عن تعديهم وفسوقهم .

٣ - فرقة اللائمين للناصحين ليأسهم من صلاح العادين فى السبت .

وهذه الفرقة الثالثة هي التى عبر القرآن الكريم عنها بقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أى : قالت فرقة من أهل القرية ، لإخوانهم الذين لم يألوا جهدا فى نصيحة العادين فى السبت ، لم تعظون قوما لافائدة من وعظهم ولاجدوى من تحذيرهم ، لأن الله تعالى قد قضى باستئصالهم وتطهير الأرض منهم ، أو بتعذيبهم عذابا شديدا ، جزاء تماديهم فى الشر ، وصممهم عن سماع الموعظة فكان رد الناصحين عليهم ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

فهم قد عللوا نصيحتهم للعادين بعلتين :

الأول : الاعتذار إلى الله - تعالى - من مغبة التقصير فى واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

والثانية : الأمل فى صلاحهم وانتفاعهم بالموعظة حتى ينجوا من العقوبة ويسيروا فى طريق المهتدين .

وقيل : إن أهل القرية كانوا فرقتين ، فرقة أقدمت على الذنب فاعتدت فى السبت ، وفرقة أحجمت عن الإقدام ، ونصحت المعتدين بعدم التجاوز لحدود الله - تعالى - فلما داومت الفرقة الواعظة على نصيحتها للفرقة العادية ، قالت لها الفرقة العادية على سبيل التهكم والاستهزاء : لم تعظون قوما الله مهلكم أو معذبهم عذابا شديدا فى زعمكم؟ فأجابتهم الناصحة بقولها : معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون .

والذى نرجحه أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق كما قال جمهور المفسرين لأن هذا هو الظاهر من الضمائر فى الآية الكريمة ، إذ لو كانوا فرقتين لقالت الناهية للعاصية «ولعلكم تتقون» بكاف الخطاب ، بدل قولهم «ولعلهم يتقون» الذى يدل على أن المحاورة قد دارت بين الفرقة اللائمة ، والفرقة الناصحة .

قال الإمام القرطبى عند تفسيره الآية الكريمة : إن بنى إسرائيل افترقت ثلاث فرق «فرقة عصت وصدت ، وكانوا نحوا من سبعين ألفا ، فرقت نهت واعتزلت ولم تنه ولم

تعص ، وأن هذه الطائفة هي التى قالت للناهية ، لم تعظون قوما - عصاة - الله مهلكهم ، أو معذبهم على غلبة الظن ، وما عهد حينئذ من فعل الله - تعالى - بالأم العاصية؟»[1]

وقوله : ﴿مَعْذِرَةً﴾ بالنصب على أنها مفعول لأجله أى : وعظناهم لأجل المعذرة ، أو منصوبة على أنها مصدر لفعل مقدر من لفظها أى : نعتذر وقرئت «معذرة» بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أى : موعظتنا معذرة وقد اختار سيبويه هذا الوجه وقال فى تعليله : لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا مستأنفا ولكنهم قيل لهم لم تعظون؟ فقالوا موعظتنا معذرة .

ثم بين - سبحانه - عاقبة كل من الفرقة الناهية والعاصية فقال - تعالى - : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أى : فلما لج الظالمون فى طغيانهم ، وعموا وصموا عن النصيحة أنجينا الناصحين ، وأخذنا العادين بعذاب شديد لارحمة فيه بسبب خروجهم على أوامر الله .

والآية الكريمة صريحة فى بيان أن الذين أخذوا بالعذاب البئيس هم الظالمون المعتدون وأن الذين نجوا هم الناهون عن السوء ، أما الفرقة الثالثة التى لامت الناهين عن السوء على وعظهم للمعتدين فقد سكت عنها .

ويرى بعض المفسرين : أنها لم تنج لأنها لم تنه عن المنكر ، فضلا عن أنها لامت الناصحين لغيرهم .

ويرى جمهور المفسرين : أنها نجت ، لأنها كانت كارهة لما فعله العادون فى السبت ولم ترتكب شيئا مما ارتكبوه ، وإذا كانت قد سكتت عن النصيحة ، فلأنها كانت يائسة من صلاح المعتدين ، ومقتنعة بأن القوم قد أصبحوا محل سخط الله وعذابه ، فلاجدوى وراء وعظهم ، وإلى هذا الرأى ذهب صاحب الكشاف وغيره .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : الأمة الذين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ، من أى الفريقين هم؟ أمن فريق الناجين أم من فريق المعذبين ، قلت من فريق الناجين ، لأنهم من فريق الناهين ، فرضا صحيحا لعلمهم بحال القوم ، وإذا علم الناهى حال المنهى ، وأن النهى لايؤثر فيه ، سقط عنه النهى ، وربما وجب الترك لدخوله فى باب العبث ، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى الماكثين القاعدين على المآثر والجلادين المرتبين للتعذيب ، لتعظهم وتكفهم عما هم فيه ، كان ذلك عبثا منك ، ولم يكن إلا سببا للتلهى بك ، أما الآخرون فإنهم لم يعرضوا عنهم ، إما لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس الأولين ، ولم يخبروهم كما خبروهم ، أو لفرط حرصهم

(١) تفسير القرطبى جـ٧ ص٣٠٧ .

وجدهم فى أمرهم ، كما وصف الله - تعالى - رسوله عليه الصلاة والسلام فى قوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [١]

وقال الإمام ابن كثير : «ويروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال عندما سئل عن مصير الفرقة اللائمة ، ما أدرى ما فعل بهم ، ثم صار إلى نجاتهم لما قال له غلامه عكرمة : ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم فقالوا : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قال عكرمة : فلم أزل به حتى عرفته أنهم نجوا فكسانى حلة» .[٢]

والذى نرجحه أن مصير هذه الفرقة مفوض إلى الله ، لأنه لم يرد نص صحيح فى شأنها ، فإن الآية الكريمة قد ذكرت صراحة عاقبة كل من الناصحين والعادين ، ولم تذكر مصير الفرقة اللائمة للناصحين ولعل ذلك مرجعه إلى أنها وقفت من العادين فى السبت موقفا سلبيا استحقت معه الإهمال ، إن لم تكن بسببه أهلا للمؤاخذة .

ثم فصل - سبحانه - ما عوقبوا به من العذاب البئيس الذى أصابهم فقال - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ أى : فلما تكبروا عن ترك ما نهاهم عنه الواعظون ، قلنا لهم كونوا قردة صاغرين فكانوا كذلك .

قال الآلوسى : والأمر فى قوله - تعالى - ﴿ قُلْنَا ﴾ تكوينى لاتكليفى لأنه ليس فى وسعهم حتى يكلفوا به ، وهذا كقوله - تعالى - ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ فى أنه يحتمل ألا يكون هناك قول وأن يكون الغرض مجرد التمثيل .[٣]

وقيل فى تفسير الآية إن الله - تعالى - عاقب القوم أو لا بالعذاب البئيس الذى يتناول البؤس والشقاء والفقر فى المعيشة ، فلما لم يرتدعوا ويثوبوا إلى رشدهم ، مسخهم مسخا خلقيا وجسميا ، فكانوا قردة على الحقيقة ، وهو الظاهر من الآية ، وعليه الجمهور :

وقيل : مسخهم مسخا خلقيا ونفسيا ، فصاروا كالقردة فى شرورها وإفسادها لما تصل إليه أيديها ، وهذا مروى عن مجاهد .

وتلك العقوبة كانت جزاء إمعانهم فى المعاصى ، وتأبيهم عن قبول النصيحة ، وضعف إرادتهم أمام مقاومة أطماعهم ، وانتكاسهم إلى عالم الحيوان لتخليهم عن خصائص الإنسان ، فكانوا حيث أرادوا لأنفسهم من الصغار والهوان .

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥١٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٦٧ .
(٣) تفسير الآلوسى جـ٩ ص٩٣ .

هذا وقد استدل العلماء بهذه الآيات الكريمة على تحريم الحيل القبيحة التى يتخذها بعض الناس ذريعة للتوصل إلى مقاصدهم الذميمة ، وغاياتهم الدنيئة ومطامعهم الخسيسة .

وقد أفاض الإمام ابن القيم فى كتابه «إغاثة اللهفان» فى إيراد الأدلة الدالة على هذا التحريم ، فقال ما ملخصه : «ومن مكايد الشيطان التى كاد بها الإسلام وأهله ، الحيل والمكر والخداع الذى يتضمن تحليل ما حرم الله وإسقاط ما فرضه ومضادته فى أمره ونهيه ، وهى من الباطل الذى اتفق السلف على ذمه ، فإن الرأى رأيان : رأى يوافق النصوص وتشهد له بالصحة والاعتبار ، وهو الذى اعتبره السلف وعملوا به ، ورأى يخالف النصوص وتشهد له بالإبطال والإهدار ، وهو الذي ذموه وأهدروه .

وكذلك الحيل نوعان : نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله ـ تعالى ـ به وترك ما نهى عنه ، والتخلص من الحرام وتخليص الحق من الظالم المانع له ، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغى فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلمه ، ونوع يتضمن إسقاط الواجبات ، وتحليل المحرمات ، وقلب المظلوم ظالما ، والظالم مظلوما ، والحق باطلا ، والباطل حقا ، فهذا الذى اتفق السلف على ذمه ، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض ، ثم قال :

إن الله ـ تعالى ـ أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة ، لما تحايلوا على إباحة ما حرمه الله ـ تعالى ـ عليهم من الصيد ، بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة ، فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد .

قال بعض الأئمة : ففى هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية ، ممن يتلبس بعلم الفقه وهو غير فقيه ، إذ الفقيه من يخشى الله ـ تعالى ـ بحفظ حدوده ، وتعظيم حرماته ، والوقوف عندها وليس المتحيل على إباحة محارمه ، وإسقاط فرائضه ، ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيبا لموسى ـ عليه السلام ـ وكفرا بالتوراة ، وإنما هو استحلال تأويل واحتيال ، ظاهره ظاهر الإيفاء وباطنه باطن الاعتداء ، ولهذا مسخوا قردة ، لأن صورة القردة فيها شبه من صور الإنسان ، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله ـ تعالى ـ بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين فى بعض مظاهره دون حقيقته ، مسخهم ـ سبحانه ـ قردة يشبهونهم فى بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاء وفاقا ، وفى الحديث الشريف «لاترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» .[1]

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

«قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها» .

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد دمغت العادين فى السبت من اليهود ، برذيلة الجهالة وضعف الإرادة ، وتحايلهم القبيح على استحلال محارم الله ، مما جعلهم أهلا للعذاب الشديد والمسخ الشنيع ، جزاء إمعانهم فى المعصية وصممهم عن سماع الموعظة ، وما ربك بظلام للعبيد .

---

(١) إغاثة اللهفان جـ١ ص٣٥٨

١٠ ـ قصة أصحاب الفيل

قصة أصحاب الفيل من القصص المشهورة فى التاريخ ، وملخصها : أن أبرهة الحبشى أعد جيشا كبيرا لهدم الكعبة ، فأهلكه الله ـ تعالى ـ هو وجيشه .

وقد سجل القرآن ذلك فى سورة كريمة هى سورة «الفيل» قال ـ تعالى ـ :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾

والاستفهام في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ أَلَمْ تَرَ .. ﴾ للتقرير بما تواتر نقله .

وعلمه ﷺ وعلمه غيره علما مستفيضا ، حتى إن العرب كانوا يؤرخون بتلك الحادثة ، فيقولون : هذا الأمر حدث فى عام الفيل ، أو بعده أو قبله ، والمراد بالرؤية هنا : العلم المحقق .

وعبر ـ سبحانه ـ عن العلم بالرؤية ، لأن خبر هذه القصة ـ كما أشرنا ـ كان من الشهرة بمكان ، فالعلم الحاصل بها مساو فى قوة الثبوت للرؤية والمشاهدة .

والمعنى : لقد علمت ـ أيها الرسول الكريم ـ علما لايخالطه ريب أو لبس ، ما فعله ربك بأصحاب الفيل ، الذين جاءوا لهدم الكعبة ، حيث أهلكناهم إهلاكا شنيعا ، كانت فيه العبرة والعظة ، والدلالة الواضحة على قدرتنا ، وعلى حمايتنا لبيتنا الحرام .

وأوقع ـ سبحانه ـ الاستفهام عن كيفية ما أنزله بهم ، لا عن الفعل ذاته ، لأن الكيفية أكثر دلالة على قدرته ـ تعالى ـ وعلى أنه ـ سبحانه ـ لايعجزه شىء .

وفى التعبير بقوله : ﴿ فَعَلَ رَبُّكَ .. ﴾ إشارة إلى أن هذا الفعل لايقدر عليه أحد سواه ـ سبحانه ـ فهو الذى ربى نبيه ﷺ وتعهده بالرعاية ، وهو الكفيل بنصره على أعدائه ، كما نصر أهل مكة ، على جيوش الحبشة ، وهم أصحاب الفيل .

ووصفوا بأنهم ﴿أَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ لأنهم أحضروا معهم الفيلة ، ليستعينوا بها على هدم الكعبة ، وعلى إذلال أهل مكة .

والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ للتقرير ـ أيضا ـ أى : لقد جعل الله ـ تعالى ـ مكر أصحاب الفيل وسعيهم لتخريب الكعبة ، فى ﴿تَضْلِيلٍ﴾ أى : فى تخسير وإبطال وتضييع ، بأن تبرهم ـ سبحانه ـ تتبيرا ودمرهم تدميرا .

والكيد : إرادة وقوع الإضرار بالغير فى خفية وسمى ـ سبحانه ـ ما فعله أبرهة وجيشه كيدا ، مع أنهم جاءوا لهدم الكعبة جهارا نهارا ، لأنهم كانوا يضمرون من الحقد والحسد والعداوة لأهل مكة ، أكثر مما كانوا يظهرونه ، فهم ـ كما قال ـ تعالى ـ : ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ .

والمقصود بالتضليل هنا : التضييع والإبطال ، تقول : ضللت كيد فلان ، إذا جعلته باطلا ضائعا .

ثم بين ـ سبحانه ـ مظاهر إبطاله لكيدهم فقال : ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ .

والطير : اسم جمع لكل ما من شأنه أن يطير فى الهواء ، وتنكيره للتنويع والتهويل ، والأبابيل : اسم جمع لا واحد له من لفظه ، وقيل هو جمع إبّالة ، وهى حزمة الحطب الكبيرة ، شبهت بها الجماعة من الطير فى تضامنها وتلاصقها .

أى : لقد جعل الله ـ تعالى ـ كيد هؤلاء المعتدين فى تضييع وتخسير ، بأن أرسل إليهم جماعات عظيمة من الطير ، أتتهم من كل جانب فى تتابع ، فكانت سببا فى إهلاكهم والقضاء عليهم ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ .

وجملة : ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ بيان لما فعلته تلك الطيور بإذن الله ـ تعالى ـ وهى حال من قوله ﴿طَيْرًا﴾ والسجيل : الطين اليابس المتحجر .

قال بعض العلماء : قوله : ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أى : من طين متحجر محرق ، أو بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون فى السجيل ، وهو الديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن السجيل هو الديوان الذى كتبت فيه أعمالهم ، واشتقاقه من الإسجال بمعنى الإرسال .

وعن عكرمة : كانت ترميهم بحجارة معها كالحِمِّصة ، فإذا أصاب أحدهم حجر منها ،

خرج به الجدرى ، وكان ذلك أول يوم رئى فيه الجدرى بأرض العرب .

وقال ابن عباس : كان الحجر إذا وقع على أحدهم نفط جلده أى : احترق ، فكان ذلك أول الجدرى ، وقيل إن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام .

وقال ابن جُزَى فى تفسيره : إن الحجر كان يدخل من رأس أحدهم ويخرج من أسفله .

ووقع فى سائر الجدرى والأسقام ، وانصرفوا وماتوا فى الطريق متفرقين ، وتمزق أبرهة قطعة قطعة .[1]

وقوله ـ سبحانه ـ ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ بيان للآثار الفظيعة التى ترتبت على ما فعلته الحجارة التى أرسلتها الطيور عليهم بإذن الله ـ تعالى ـ .

والعصف : ورق الزرع الذى يبقى فى الأرض بعد الحصاد وتعصفه الرياح فتأكله الحيوانات ، أو هو التبن الذى تأكله الدواب .

أى : سلط الله ـ تعالى ـ عليهم طيرا ترميهم بحجارة من طين متحجر ، فصاروا بسبب ذلك صرعى هالكين ، حالهم فى تمزقهم وتناثرهم كحال أوراق الأشجار اليابسة أو التبن الذى تأكله الدواب .

وهكذا نرى السورة الكريمة قد ساقت من مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ مايزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، وثباتا على ثباتهم ، وما يحمل الكافرين على الاهتداء إلى الحق ، والإقلاع عن الشرك والجحود لو كانوا يعقلون .

---

(١) تفسير «صفوة البيان» جـ٢ ص٥٦٩ للشيخ حسنين محمد مخلوف .

مسك الختام
حديث القرآن عن خير الأنام
سيدنا محمد ﷺ

إن القارىء للقرآن الكريم بتدبر وتفكر ، يراه قد تحدث عن خاتم المرسلين ﷺ حديثا جامعا لكل معانى الخير والفضل والهداية .

حديثا جمع فى ألفاظه ومعانيه بين البشرية والنبوة ، والصدق والوضوح ، والإرشاد والامتنان ، والتكريم والتشريف ، والتذكير والاعتبار ، والتأسى والطاعة والتسلية ، والتثبيت ، والعتاب والتوجيه ، والتعليم والتلقين ، والتأييد والدفاع ، والجهاد والعبادة .

حديثا يزيد المؤمنين إيمانا ويقينا واستبشارا بأن اتباعهم للرسول الكريم محمد ﷺ هو عين الحق والخير والهداية والسعادة .

وأستطيع أن أقول دون تردد : إن القرآن الكريم هو خير مصدر لمعرفة شخصية سيدنا رسول الله ﷺ معرفة واضحة دقيقة صادقة ، لا يأتيها الباطل بين يديها ولا من خلفها .

لذا فكلامى هنا مقصور على جوانب من حديث القرآن عنه ﷺ ، أما الحديث المفصل عن مولده ﷺ وعن نشأته ، وصباه ، وشبابه ، وكهولته ، وبعثته ، وهجرته ، وغزواته ، ومعجزاته ، وغير ذلك من مظاهر سلوكه وصفاته الخَلْقية ، والخُلقية ، فهذه أمور تكفلت كتب السيرة النبوية ، والتاريخ الإسلامى بالبيان الشامل لها .

ومن أهم الجوانب التى تحدث القرآن الكريم عنها ، بالنسبة لشخصه ﷺ ما يأتى :

البشارات به ﷺ

١ - حديث القرآن الكريم عن البشارات التى سجلتها الكتب السماوية السابقة عن بعثة النبى ﷺ وعن رسالته ، وردت فى آيات متعددة ، ومن هذه الآيات قوله - تعالى - فى سورة «الأعراف» :

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

ففى هذه الآية الكريمة وصف الله - تعالى - رسوله محمدا ﷺ بأوصاف سامية تدعو العاقل المنصف إلى اتباعه والإيمان به .

الوصف الأول : أنه رسول الله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا .

الوصف الثانى : أنه نبى أوحى الله إليه بشريعة عامة كاملة باقية إلى يوم الدين .

الوصف الثالث : أنه أمى ما قرأ ولا كتب ولاجلس إلى معلم ولا أخذ علمه عن أحد ولكن الله - تعالى - أوحى إليه بالقرآن الكريم عن طريق جبريل - عليه السلام - ، وأفاض عليه من لدنه علوما نافعة ومبادئ توضح ما أنزله عليه من القرآن الكريم ، فسبق بذلك الفلاسفة والمشرعين والمؤرخين وأرباب العلوم الكونية والطبيعية ، فأميته مع هذه العلوم التى يصلح عليها أمر الدنيا والآخرة ، أوضح دليل على أن ما يقوله إنما هو بوحى من الله إليه .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١)

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٢)

الصفة الرابعة : أشار إليها بقوله ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ﴾ أى هذا الرسول النبى الأمى من صفاته أن أهل الكتاب يجدون اسمه ونعته مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، ووجود اسمه ونعته فى كتبهم من أكبر الدواعى إلى الإيمان به وتصديقه واتباعه .

ولقد كان بعض أهل الكتاب يبشرون ببعثة النبى ﷺ قبل زمانه ويقرؤون فى كتبهم مايدل على ذلك فلما بعث الله ـ تعالى ـ نبيه بالهدى ودين الحق آمن منهم الذين فتحوا قلوبهم للحق ، وخافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا ، وحسدوا محمدا ﷺ على ما آتاه الله من فضله فقد أخذوا يحذفون من كتبهم ما جاء عن النبى ﷺ فيها ، أو يؤولونه تأويلا فاسدا ، أو يكتمونه عن عامتهم .

ورغم حرصهم على حذف ما جاء عن الرسول فى كتبهم أو تأويلهم السقيم له ، أو كتمانه عن الأميين منهم ، أبى الله ـ تعالى ـ إلا أن يتم نوره ، إذ بقى فى التوراة والإنجيل ما بشر بالنبى ﷺ وصرح بنعوته وصفاته ، بل وباسمه صريحا .

وقد تحدث العلماء الأثبات عن بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ وجمعوا عشرات النصوص التى ذكرت نعوته وصفاته ، وهانحن نذكر طرفا مما قاله العلماء فى هذا الشأن .

قال الإمام الماوردى فى «أعلام النبوة» : «وقد تقدمت بشائر من سلف من الأنبياء ، بنبوة محمد ﷺ بما هو حجة على أممهم ، ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم ، بما أطلعه الله ـ تعالى ـ على غيبه ، ليكون عونا للرسل ، وحثا على القبول فمنهم من عينه باسمه ، ومنهم من ذكره بصفته ومنهم من عزاه إلى قومه ، ومنهم من أضافه إلى بلده ، ومنهم من خصه بأفعاله ، ومنهم من ميزه بظهوره وانتشاره ، وقد حقق الله ـ تعالى ـ هذه الصفات جميعها فيه ، حتى صار جليا بعد الاحتمال ، ويقينا بعد الارتياب» .(٣)

---

(١) سورة الشورى الآية ٥٢ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٨ .

(٣) الباب الخامس عشر : فصل «بشائر الأنبياء بنوة محمد ﷺ» .

وجاء فى «منية الأذكياء فى قصص الأنبياء» : «إن نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد بشر به الأنبياء السابقون، وشهدوا بصدق نبوته، ووصفوه وصفا رفع كل احتمال، حيث صرحوا باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره وسمته، ومع أن أهل الكتاب حذفوا اسمه من نسخهم الأخيرة إلا أن ذلك لم يجدهم نفعا، لبقاء الصفات التى اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة وهى أظهر دلالة من الاسم على المسمى، إذ قد يشترك اثنان فى جميع الأوصاف، لكن من أمد غير بعيد قد شرعوا فى تحريف بعض الصفات ليبعد صدقها على النبى ﷺ فترى كل نسخة متأخرة تختلف عما قبلها فى بعض المواضع اختلافا لايخفى على اللبيب أمره، ولا ما قصد به، ولم يفدهم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم، لانتشار النسخ بالطبع وتيسير المقابلة بينها» .[1]

وقال المرحوم الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه «إظهار الحق» : «إن الأخبار الواقعة فى حق محمد ﷺ توجد كثيرة إلى الآن ـ أيضا ـ مع وقوع التحريفات فى هذه الكتب، ومن عرف أولا طريق أخبار النبى المتقدم عن النبى المتأخر، ثم نظر ثانيا بنظر الإنصاف إلى هذه الإخبارات وقابلها بالإخبارات التى نقلها الإنجيليون فى حق عيسى ـ عليه السلام ـ جزم بأن الإخبارات المحمدية فى غاية القوة» .[2]

وقد جمع صاحب كتاب «إظهار الحق» وغيره من العلماء والمؤرخين كثيرا من البشائر التى وردت فى التوراة والإنجيل خاصة بالنبى ﷺ ومبينة نعوته وصفاته .

ومن أجمع ما جاء فى التوراة خاصا بالنبى ﷺ ما أخرجه البخارى عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ قال : «قرأت فى التوراة صفة النبى ﷺ (محمد رسول الله : عبدي ورسولى، سميته المتوكل، ليس بفظ، ولاغليظ، ولاصخاب فى الأسواق، ولايجزى بالسيئة السيئة، بل يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله») .[3]

كذلك مما يشهد بوجود النبى ﷺ فى التوراة، ما أخرجه الإمام أحمد عن أبى صخر العقيلى قال : «حدثنى رجل من الأعراب فقال : جلبت حلوبة[4] إلى المدينة فى حياة النبى ﷺ فلما فرغت من بيعى قلت لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه، قال : فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشيان، فتبعتهم حتى إذا أتوا على رجل من اليهود وقد نشر التوراة يقرؤها يعزى بها نفسه عن ابن له فى الموت كأجمل الفتيان وأحسنها، فقال له رسول الله ﷺ : أنشدك بالذى أنزل التوراة هل تجد فى كتابك هذا صفتى ومخرجى» .

---

(١) نقلا عن تفسير القاسمى جـ٧ ص٢٨٧٤ .

(٢) كتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله الهندى .

(٣) صحيح البخارى باب «كراهة الصخب فى الأسواق» من «كتاب البيوع» جـ٣ ص٨٣ .

(٤) الحلوبة : الشاة ذات اللبن وهى للواحد وللجمع .

فقال برأسه هكذا ، أى : لا ، فقال ابنه : أى والذى أنزل التوراة إنا لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فقال الرسول ﷺ : أقيموا اليهودى عن أخيكم ، ثم تولى كفنه والصلاة عليه» .(١)

هذا ، ومن أراد مزيد معرفة بتلك المسألة فليراجع ما كتبه العلماء فى ذلك .(٢)

ثم وصف الله ـ تعالى رسوله ﷺ بصفة خامسة فقال ـ تعالى ـ : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ أى هذا الرسول النبى الأمى الذى يجده أهل الكتاب مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل من صفاته كذلك أنه يأمرهم بالمعروف الذى يتناول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، كما يتناول مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وغير ذلك من الأمور التى جاء بها الشرع الحنيف ، وارتاحت لها العقول السليمة ، والقلوب الطاهرة وينهاهم عن المنكر الذى يتناول الكفر والمعاصى ومساوئ الأخلاق .

ثم وصف الله ـ تعالى ـ رسوله محمدا ﷺ بصفة سادسة فقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ أى : يحل لهم ما حرمه الله عليهم من الطيبات كالشحوم وغيرها بسبب ظلمهم وفسوقهم عقوبة لهم ، ويحل لهم كذلك ما كانوا قد حرموه على أنفسهم دون أن يأذن به الله كلحوم الإبل وألبانها ، ويحرم عليهم ما هو خبيث كالدم ولحم الميتة والخنزير فى المأكولات ، وكأخذ الربا وأكل أموال الناس بالباطل فى المعاملات وفى ذلك سعادتهم وفلاحهم .

ثم وصف الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ بصفة سابعة فقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

الإصر : الثقل الذى يأصر صاحبه ، أي يحبسه عن الحركة لثقله ، ويطلق على العهد كما فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ﴾ أى عهدى .

والأغلال : جمع غل ، وهو ما يوضع في العنق أو اليد من الحديد ، والتعبير بوضع الإصر والأغلال عنهم استعارة لما كان فى شرائعهم من الأشياء الشاقة والتكاليف الشديدة كاشتراط قتل النفس لصحة التوبة .

والمعنى : إن من صفات هذا الرسول النبى الأمى أنه جاءهم ليرفع عنهم ما ثقل عليهم من تكاليف كلفهم الله بها بسبب ظلمهم ، لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ جاء بالتبشير والتخفيف ، وبعث بالحنيفية السمحة ، ومن وصاياه ﷺ : «بشروا ولاتنفروا ويسروا ولاتعسروا» .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٥١ .

(٢) راجع تفسير القاسمى جـ٧ ص٢٨٧٤ وما بعدها ، وكتاب : «خاتم النبيين» جـ١ ص٨٨ ، ١٤٠ ، ٣٢٧ لفضيلة الشيخ محمد أبوزهرة ـ رحمه الله ـ .

قال الإمام ابن كثير : «وقد كانت الأمم التى قبلنا فى شرائعهم ضيق عليهم ، فوسع الله على هذه الأمة أمورها ، وسهلها لهم ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : «إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسهم مالم تقل أو تعمل» ، وقال : «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» ولهذا قال : أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا ﴿ رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ وثبت فى صحيح مسلم أن الله ـ تعالى ـ قال بعد كل سؤال من هذه : «قد فعلت قد فعلت» .(١)

ثم ختم الله ـ تعالى ـ الآية الكريمة ببيان حالة المصدقين لنبيه فقال ـ تعالى ـ : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

أى : فالذين آمنوا بهذا الرسول النبى الأمى وعزروه ، بأن منعوه من كل من يعاديه ، مع التعظيم والتوقير له ، ونصروه بكل وسائل النصر ﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ وهو ما أوحاه الله ـ تعالى ـ إليه من القرآن الكريم ، ومن الهدى الحكيم ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : الفائزون الظافرون برحمة الله ـ تعالى ـ ورضوانه .

وبذلك تكون الآية الكريمة ، قد وصفت الرسول ﷺ بأحسن الصفات ، وأكرم المناقب ، وأعلنت بأن البشارات بالنبى ﷺ ثابتة فى التوراة والإنجيل .

٢ ـ وفى سورة «الصف» آية كريمة صرحت بأن عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ قد بَشَّر من بُعِث إليهم بالنبى ﷺ وذكره باسمه .

وهذه الآية هى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

فهذه الآية الكريمة واضحة وضوح الشمس ، فى أن عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ قد بشر من أرسل إليهم بالرسول ﷺ .(٢)

(١) تفسير ابن كثير جـ٣ ص٢٥٤ .

(٢) راجع تفسيرنا للآية الكريمة عند الحديث عن قصة عيسى ـ عليه السلام ـ ص٨٤٦ .

٣ ـ وفى سورة «البقرة» آية كريمة ، ذكرت أن بعض أهل الكتاب كانوا يبشرون بالنبى ﷺ ويهددون من يخالفهم بأنهم سيؤمنون بهذا النبى الكريم عند مبعثه ، وأنهم بسبب إيمانهم به سينتصرون على كل من يعاديهم .

وهذه الآية الكريمة هى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية آثارا متعددة ، منها : ما جاء عن عاصم بن عمرو بن قتادة الأنصارى عن رجال من قومه قالوا : مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه ، أنا كنا نسمع من رجال يهود حين كنا أهل شرك وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور ، فكنا إذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبى يبعث الآن ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله محمدا ﷺ رسولا من عند الله أجبنا حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه ، فآمنا به وكفروا به ، ففينا وفيهم نزل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ .. ﴾ الآية .[1]

ومعنى الآية إجمالا : وحين جاء إلى اليهود محمد ﷺ ومعه القرآن الكريم وهو الكتاب الذى أوحاه الله إليه ، مصدقا لما معهم من التوراة فيما يختص ببعثة النبى ﷺ ونعته ، وكانوا قبل ذلك يستنصرون به على أعدائهم لما جاءهم هذا النبى المرتقب ومعه القرآن الكريم جحدوا نبوته ، وكذبوا كتابه ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

والمراد بالكتاب فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ القرآن الكريم ، وفى تنكيره زيادة تعظيم وتشريف له ، وفى الإخبار عنه بأنه من عند الله ، إشارة إلى أن ما يوحى به ـ سبحانه ـ جدير بأن يتلقى بالقبول وحسن الطاعة لأنه صادر من الحكيم الخبير ، والذى مع اليهود هو التوراة ، ومعنى كون القرآن مصدقا لها ، أنه يؤيدها ويوافقها فى أصول الدين ، وفيما يختص ببعثة النبى ﷺ وصفته .

وفى وصف القرآن الكريم بأنه مصدق لما معهم ، زيادة تسجيل عليهم بالمذمة لأنهم لم يكفروا بشىء يخالف أصول كتابهم وإنما كفروا بالكتاب الذى يصدق كتابهم .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص١٢٣ .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .

بيان لحالتهم قبل البعثة المحمدية ، فإن اليهود كانوا عندما يحصل بينهم وبين أعدائهم نزاع ، يستنصرون عليهم بالنبى ﷺ قبل بعثته فيقولون اللهم انصرنا عليهم بالنبى الذى نجد نعته فى التوراة .

والاستفتاح معناه : طلب الفتح وهو الفصل فى الشىء والحكم فيه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ ويستعمل بمعنى النصر لأن فيه فصلا بين الناس قال ـ تعالى ـ : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ .. ﴾ أى : إن تستنصروا فقد جاءكم النصر ، فالمراد به فى الآية الاستنصار .

ثم بين ـ سبحانه ـ حقيقة حالهم بعد أن جاءهم الكتاب والرسول فقال ـ تعالى ـ :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ أى : فلما جاءهم ما كانوا يستفتحون به على أعدائهم ويرتقبونه جحدوه وكفروا به .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا .. ﴾ ولم يقل فلما جاءهم الكتاب أو الرسول ، ليكون اللفظ اشمل ، فيتناول الكتاب والرسول الذى جاء به لأنه لايجىء الكتاب إلا عن طريق رسول .

ومعرفتهم بصدق الرسول ﷺ وما أنزل عليه حاصلة بانطباق العلامات والصفات الواردة فى التوراة عن النبى ﷺ فكان من الواجب عليهم أن يؤيدوا هذه المعرفة بالإيمان به ، ولكن خوفهم على زوال رياستهم وأموالهم وفوات ما كانوا يحرصون عليه من أن يكون النبى المبعوث منهم لا من العرب ، ملأ قلوبهم غيظا وحسدا ، وأخذ هذا الغيظ والحسد يغالب تلك المعرفة حتى غلبها ، وحال بينها وبين أن يكون لها أثر نافع لهم لعدم اقترانها بالقبول والتصديق .

ولقد حاول رئيسهم «عبدالله بن سلام» ﷺ أن يصرفهم عن العناد وأقسم لهم بأن ما جاء به النبى ﷺ هو الحق المصدق لما معهم أن يتبعوه ولكنهم عموا وصموا وتنقصوه ولذا لعنهم الله ـ تعالى ـ وأبعدهم عن رحمته ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

وقال ـ سبحانه ـ ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ولم يقل عليهم ، للإشعار بأن حلول اللعنة عليهم كان بسبب كفرهم .

ومن كل ما تقدم يتبين لنا ، أن البشارات بالنبى ﷺ ثابتة فى الكتب السماوية التى أنزلها الله ـ عز وجل ـ على رسله ، وقد صرح بها آخر رسول أرسله الله ـ تعالى ـ إلى بنى إسرائيل ، وهو عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ .

هذا ، وإن هذه البشارات بقرب بعثة خاتم المرسلين محمد ﷺ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، كانت تستلزمها وتقتضيها حالة الإنسانية فى تلك الفترة التى سبقت مولده وبعثته ﷺ فقد كان العالم يموج بفتن كقطع الليل المظلم ، إذ الحرب كانت قائمة على قدم وساق بين الفرس والروم ، والعقائد كانت قد وصلت إلى الدرك الأسفل من الاضطراب والتحريف ، والأخلاق كانت تحكمها الشهوات والأهواء ، والأنانية والأحقاد ، والظلم والطغيان .

وحال سكان الجزيرة العربية وعلى رأسهم أهل مكة ، لم يكن أحسن حالا من غيرهم ، فقد كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب ، وكانوا يعبدون أصناما لاتنفع ولاتضر ، ويقولون : «هؤلاء شفعاؤنا عند الله» ويقولون : «إنا وجدنا آباءنا على أمة ـ أى : على مذهب وطريقة ـ وإنا على آثارهم مهتدون» مع أنهم إذا سألهم سائل عمن خلقهم ليقولن الله!

كانوا غارقين فى الشهوات المردية ، وفى العصبيات المخزية ، وفى التقاليد البالية ، وفى التفاخر بالأحساب والأنساب دون التفات إلى غير ذلك من قيم كريمة ، ومن عدالة فى الأحكام ، واستقامة فى السلوك ، وهذا لايمنع أن قلة قليلة من أهل مكة ، كانت تنفر من شرك المشركين ، ومن عاداتهم المرذولة ، ومن عصبيتهم العمياء ، كزيد بن عمرو بن نفيل ، وقس بن ساعدة ، وورقة بن نوفل وغيرهم .

ولقد صور أمير الشعراء أحمد شوقى ـ رحمه الله ـ حال العالم قبل بعثته ﷺ تصويرا حكيما ، حيث قال فى قصيدته «نهج البردة» .

أتيت والناس فوضى لاتمر بهم	إلا على صنم قد هام فى صنم
والأرض مملوءة جورا ، مسخرة	لكل طاغية فى الخلق محتكم
مسيطر الفرس يبغى فى رعيته	وقيصر الروم من كبر أصم عم
يعذبان عباد الله فى شبه	ويذبحان كما ضحيت بالغنم
والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم	كالليث بالبهم ، أو كالحوت بالبلم[1]

وخلال تلك الظلمات التى سادت الإنسانية ، جاءت البشارات بخاتم الرسل ﷺ الذى كانت رسالته «رحمة للعالمين» .

(١) البهم : صغار الحيوانات ، والبلم : صغار السمك .

٢ ـ إنعام الله ـ تعالى ـ على المؤمنين بالرسول ﷺ

١ ـ لقد صرح القرآن الكريم فى كثير من آياته ، بأن الله ـ عز وجل ـ قد امتن على المؤمنين ، وأحسن إليهم ـ بل إلى العالم كله ـ بأن بعث فيهم رسوله محمدا ﷺ لكى يخرجهم من ظلمات الكفر والجهل ، إلى نور الإيمان والعلم ، ولكى يهديهم إلى الصراط المستقيم ، وإلى الدين القويم الذى ارتضاه ـ سبحانه ـ لعباده دينا ، ومن الآيات القرآنية التى قررت هذا المعنى ، قوله ـ تعالى ـ فى سورة «آل عمران» .

لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

قال الإمام الرازى : قال الواحدى : «للِمَنِّ فى كلام العرب معان» :

أحدها : الذى يسقط من السماء وهو قوله : ﴿ وأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾ .

وثانيها : أن تمن بما أعطيت كما فى قوله :﴿ لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ ﴾ .

وثالثها : القطع كما فى قوله : ﴿ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ .

ورابعها : الإنعام والإحسان إلى من لاتطلب الجزاء منه ـ وهو المراد هنا .[١]

والمعنى : لقد أنعم على المؤمنين وأحسن إليهم ﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أى بعث فيهم رسولا عظيم القدر ، هو من العرب أنفسهم ، وهم يعرفون حسبه ونسبه وشرفه وأمانته ﷺ .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٩ ص٨٧ .

وعلى هذا المعنى يكون المراد بقوله : ﴿ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أى من نفس العرب ، ويكون المراد بالمؤمنين مؤمنى العرب ، وقد بعثه الله عربيا مثلهم ، ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع بتوجيهاته .

ويصح أن يكون معنى قوله : ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أنه بشر مثل سائر البشر إلا أن الله - تعالى - وهبه النبوة والرسالة ، ليخرج الناس - منهم وغير العربى - من ظلمات الشرك إلي نور الإيمان ، وجعل رسالته عامة فقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

وخص الله - تعالى - منته وفضله بالمؤمنين ، لأنهم هم الذين انتفعوا بنعمة الإسلام الذى لن يقبل الله دينا سواه والذى جاء به محمد ﷺ .

والجملة الكريمة جواب قسم محذوف والتقدير : والله ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ثم بين - سبحانه - مظاهر هذه المنة والفضل ببعثة الرسول ﷺ فقال : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ .

والتلاوة : هى القراءة المتتابعة المرتلة التى يكون بعضها تلو بعض .

والتزكية : هى التطهير والتنقية .

أى لقد أعطى الله - تعالى - المؤمنين من النعم ما أعطى لأنه قد بعث فيهم رسولا من جنسهم يقرأ عليهم آيات الله التى أنزلها لهدايتهم وسعادتهم ، ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أى : يطهرهم من الكفر والذنوب ، أو يدعوهم إلى ما يكونون به زاكين طاهرين مما كانوا عليه من دنس الجاهلية ، والاعتقادات الفاسدة .

﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ بأن يبين لهم المقاصد التى من أجلها نزل القرآن الكريم ، ويشرح لهم أحكامه ، ويفسر لهم ما خفى عليهم من ألفاظه ومعانيه التى قد تخفى على مداركهم .

فتعليم الكتاب غير تلاوته : لأن تلاوته قراءته مرتلا مفهوما أما تعليمه فمعناه بيان أحكامه وما اشتمل عليه من تشريعات وآداب .

ويعلمهم كذلك ﴿ الْحِكْمَةَ ﴾ أى الفقه فى الدين ومعرفة أسراره وحِكَمه ومقاصده التى يكمل بها العلم بالكتاب .

وهذه الآية الكريمة قد اشتملت على عدة صفات من الصفات الجليلة التى منحها الله ـ تعالى ـ لنبيه محمد ﷺ .

ثم بين ـ سبحانه ـ حال الناس قبل بعثة الرسول ﷺ فقال : ﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

أى : إن حال الناس وخصوصا العرب أنهم كانوا قبل بعثة الرسول ﷺ إليهم فى ضلال بين واضح لايخفى أمره على أحد من ذوى العقول السليمة والأذواق المستقيمة .

وحقا لقد كان الناس قبل أن يبزغ نور الإسلام الذى جاء به ﷺ من عند ربه فى ضلال واضح ، وظلام دامس ، فهم من ناحية العبادة كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى ، ومن ناحية الأخلاق تفشت فيهم الرذائل حتى صارت شيئا مألوفا ، ومن ناحية المعاملات كانوا لايلتزمون الحق والعدل فى كثير من شئونهم .

والخلاصة أن الضلال والجهل وغير ذلك من الرذائل ، كانت قد استشرت فى العالم بصورة لاتخفى على عاقل ، فكان من رحمة الله بالناس ومنته عليهم أن أرسل فيهم نبيه محمدا ﷺ لكى يخرجهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان إلى نور الهداية والاستقامة والإيمان .

٢ ـ وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله ـ تعالى ـ فى سورة «الجمعة» : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

ولفظ ﴿ الْأُمِّيِّينَ ﴾ جمع أمى ، والمراد بهم العرب ، لأن معظمهم كانوا لايعرفون القراءة والكتابة .

وسمى من لايعرف القراءة والكتابة بالأمى ، لغلبة الأمية عليه ، حتى لكأن حاله بعد تقدمه فى السن ، كحاله يوم ولدته أمه فى عدم معرفته للقراءة والكتابة .

ولفظ «من» فى قوله ـ تعالى ـ ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ للتبعيض ، باعتبار أنه واحد منهم ويشاركهم فى بعض صفاتهم وهى الأمية .

أى : هو ـ سبحانه ـ وحده ، الذى بعث بفضله وإحسانه فى العرب الأميين رسولا كريما عظيما كائنا من جنسهم ، لكى يتلو عليهم آيات الله ـ تعالى ـ ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، مع أنهم كانوا قبل بعثته ﷺ فى ضلال ، فكان من رحمته وفضله ـ عز وجل ـ أن أرسل فيهم رسُوله محمد ﷺ ، لكى يخرجهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان ، إلى نور الهداية والاستقامة والإيمان .

والتعبير بقوله - تعالى - ﴿ مِنْهُمْ ﴾ فيه مافيه من دعوتهم إلى الإيمان به ، لأن هذا الرسول الكريم ، ليس غريبا عنهم ، وإنما هو واحد منهم ، شرفهم من شرفه ، وفضلهم من فضله .

والتعبير بقوله - تعالى - ﴿ فيهمْ ﴾ المفيد للظرفية للإشعار بأنه ﷺ كان مقيما فيهم ، وملازما لهم ، وحريصا على أن يبلغهم رسالة ربه فى كل الأوقات .

٣ - وفى سورة البقرة آية كريمة قصت علينا أن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - قد تضرعا إلى خالقهما وهما يبنيان البيت الحرام ، أن يبعث فى هذه الأمة المحيطة بهذا البيت ، رسولا كريما يهديهم إلى الصراط المستقيم .

وهذه الآية هى قوله - تعالى - : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

والضمير فى قوله : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ يعود إلى الذرية أو الأمة المسلمة فى قوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ .

والرسول : من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه والمراد بقوله - تعالى - : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ يقرؤها عليهم قراءة تذكير وفى هذا إيماء إلى أنه يأتيهم بكتاب فيه شرع .

والآيات : جمع آية ، والمراد بها ما يشهد بوحدانية الله ، وبصدق رسوله ﷺ فيما يبلغه عنه ، أو المراد بها آيات القرآن الكريم فهو يتلوها عليهم ليحفظوها بألفاظها كما نزلت ، ويتعبدوا بتلاوتها ، وليعرفوا من فضل بلاغتها وروعة أساليبها وجها مشرقا من وجوه إعجازها .

والكتاب : القرآن ، وتعلمه يكون ببيان معانيه وحقائقه ، ليعرفوا ما أقامه لهم من دلائل التوحيد وما اشتمل عليه من أحكام وحكم ومواعظ وآداب .

والحكمة : العلم النافع المصحوب بالعمل الواقع موقعه اللائق به ، ووضعها بجانب الكتاب يرجح أن المراد بها السنة النبوية المطهرة التى تنتظم أقوال النبى ﷺ وأفعاله ، إذ بالكتاب وبالسنة يعرف الناس أصلح الأعمال ، وأعدل الأحكام وأسنى الآداب ، وتنفتح لهم طرق التفقه فى أسرار الدين ومقاصده .

والمعنى : ونسألك يا ربنا أن تبعث فى الأمة المسلمة ، أو فى ذريتنا رسولا منهم يقرأ عليهم آياتك الدالة على وحدانيتك ، ويعلمهم كتابك بأن يبين لهم معانيه ، ويرشدهم

إلى ما فيه من حكم ومواعظ وآداب ، كما يهديهم إلى الحكمة التى تتمثل فى اتباع سنة نبيك ـ والتى بها يتم التفقه فى الدين ومعرفة أسراره وحكمه ومقاصده ، والتى يكمل بها العلم بالكتاب إنك يا مولانا أنت العزيز الحكيم .

أى : القادر الذى لايغلب على أمره ، العالم الذى يدبر الأمور على وفق المصلحة ، ومن كان قادرا على كل ما يريد ، عليما بوجوه المصالح ، كانت استجابته قريبة من دعاء الخير الصادر عن إخلاص وابتهال .

ولقد حقق الله ـ تعالى ـ دعوة هذين النبيين الكريمين ، فأرسل فى ذريتهما رسولا منهم .

وهو محمد ﷺ أرسله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا .

وقد أخبر ﷺ أنه دعوة إبراهيم ، فقال : «أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات المؤمنين يرين» .

٤ ـ هذا ، ومن الآيات الجامعة لمعانى الامتنان والإحسان من الله ـ تعالى ـ على خلقه ، بسبب إرسال الرسول ﷺ فيهم ، قوله ـ سبحانه ـ فى سورة الأنبياء» :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

أى : وما أرسلناك ـ أيها الرسول الكريم ـ بهذا الدين الحنيف وهو دين الإسلام ، إلا من أجل أن تكون رحمة للعالمين من الإنس والجن .

وذلك لأننا قد أرسلناك بما يسعدهم فى دينهم وفى دنياهم وفى آخرتهم متى اتبعوك ، واستجابوا لما جئتهم به ، وأطاعوك فيما تأمرهم به أو تنهاهم عنه .

وفى الحديث الشريف : «إنما أنا رحمة مهداة» فرسالته ﷺ رحمة فى ذاتها ولكن هذه الرحمة انتفع بها من استجاب لدعوتها ، أما من أعرض عنها فهو الذى ضيع على نفسه فرصة الانتفاع .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد وضح هذا المعنى فقال : أرسل ﷺ «رحمة للعالمين» لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه ، ومن خالف ولم يتبع فإنما أتى من عند نفسه ، حيث ضيع نصيبه منها ، ومثاله : أن يفجر الله عينا عذيقة ـ أى : كبيرة عذبة ـ فيسقى ناس زروعهم ، ومواشيهم بمائها فيفلحوا ، ويبقى ناس مفرطون فيضيعوا ، فالعين المفجرة فى نفسها نعمة من الله ـ تعالى ـ ورحمة للفريقين ، ولكن الكسلان محنة على نفسه ، حيث حرمها ماينفعها .[1]

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص١٣٨ .

٥ ـ وحقا لقد كان الرسول ﷺ الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير ، وصدق الله ـ تعالى ـ إذن يقول فى ختام سورة «التوبة» :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾ .

وجمهور المفسرين على أن الخطاب فى قوله ـ سبحانه ـ : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ للعرب ، فهو كقوله : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ .

أى : لقد جاءكم ـ يا معشر العرب ـ رسول كريم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أى : من جنسكم ، ومن نسبكم ، فهو عربى مثلكم ، فمن الواجب عليكم أن تؤمنوا به وتطيعوه .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ترغيب العرب فى الإيمان بالنبى ﷺ وفى طاعته وتأييده ، فإن شرفهم قد تم بشرفه ، وعزهم بعزه ، وفخرهم بفخره ، وهم فى الوقت نفسه قد شهدوا فى صباه بالصدق والأمانة والعفاف وطهارة النسب ، والأخلاق الحميدة .

قال القرطبى : قوله : ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يقتضى مدحا لنسب النبى ﷺ وأنه من صميم العرب وخالصها ، وفى صحيح مسلم عن وائلة بن الأسفع قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم» ، وعنه ﷺ أنه قال : «إنى من نكاح ولست من سفاح» .[1]

وقال الزجاج إن الخطاب فى الآية الكريمة لجميع البشر ، لعموم بعثته ﷺ ومعنى كونه ﷺ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أنه من جنس البشر .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح : لأن الآية الكريمة ليست مسوقة لإثبات رسالته ﷺ وعمومها ، وإنما هى مسوقة لبيان منته وفضله ـ سبحانه ـ على العرب ، حيث أرسل خاتم أنبيائه منهم ، فمن الواجب عليهم أن يؤمنوا به ، لأنه ليس غريبا عنهم ، وإذا لم يؤمنوا به تكون الحجة عليهم ألزم ، والعقوبة لهم أعظم .

وقوله ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أى : شديد وشاق عليه عنتكم ومشقتكم ، لكونه بعضا منكم ، فهو يخاف عليكم سوء العقوبة ، والوقوع فى العذاب .

---

(١) تفسير القرطبى جـ٨ ص٣٠١ .

وقوله : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ أى : حريص على إيمانكم وهدايتكم وعزتكم وسعادتكم فى الدنيا والآخرة .

والحرص على الشىء معناه : شدة الرغبة فى الحصول عليه وحفظه .

وقوله : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى : شديد الرأفة والرحمة بكم - أيها المؤمنون - والرأفة عبارة عن السعى فى إزالة الضرر ، والرحمة عبارة عن السعى فى إيصال النفع ، فهو - ﷺ - يسعى بشدة فى إيصال الخير والنفع للمؤمنين ، وفى إزالة كل مكروه عنهم .

قال بعضهم : لم يجمع الله - تعالى - لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبى ﷺ فإنه قال : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقال عن ذاته - سبحانه - ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]

أى : فإن اعرضوا عن الإيمان بك ، وتركوا طاعتك فلاتبتئس ولاتيأس ، بل قل ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أى : هو كافينى ونصيرى ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ - سبحانه - ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ الذى لايعلم مقدار عظمته إلا الله - عز وجل - .

ففى هاتين الآيتين الكريمتين بيان للصفات التى منحها - سبحانه - لرسوله محمد ﷺ ودعوة له ﷺ إلى أن يفوض أمره إلى خالقه فهو - سبحانه - كافيه وناصره .

هذه بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، التى صرحت بأن الله - تعالى - بفضله وكرمه ، قد امتن على الثقلين ، بأن أرسل فيهم رسوله محمدا ﷺ على حين فترة من الرسل ، لكى يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ولكى يرشدهم إلى التحلى بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، ولكى ينهاهم عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فبلغ ﷺ رسالة ربه ، وأدى الأمانة ونصح للأمة .

نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا شفاعته يوم الدين .

---

(١) تفسير القرطبى جـ٨ ص٣٠٢ .

٣ ـ تفضيله على غيره ﷺ

١ ـ تحدث القرآن الكريم فى آيات متعددة عن الفضائل الجمة والمناقب الحميدة، والدرجات الرفيعة، والخصائص الفريدة، التى منحها الله ـ تعالى ـ لنبيه محمد ﷺ .

ومن هذه الآيات قوله ـ تعالى ـ فى سورة البقرة :

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

والإشارة بتلك فى قوله : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ إلى جماعة الرسل الذين تقدم ذكرهم فى السورة والذين أرسلهم الله ـ تعالى ـ لهداية البشر، وأمرنا ـ سبحانه ـ بالإيمان بهم .

أى أولئك الرسل الذين أرسلناهم لهداية الناس ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أى جعلنا لبعضهم مناقب وخصائص ومزايا لم تتوافر للبعض الآخر .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض مظاهر التفضيل فقال : ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أى منهم من فضله الله بتكليمه إياه كموسى ـ عليه السلام ـ فقد وردت آيات صريحة فى ذلك منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ وقوله ـ تعالى ـ : ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ .

ثم قال ـ سبحانه ـ : ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ أى : ومنهم من رفعه الله على غيره من الرسل مراتب سامية ومنازل عالية .

قيل كإبراهيم الذى اتخذه الله خليلا، وإدريس الذى رفعه الله مكانا عليا، وداود الذى آتاه الله النبوة والملك .

والذى عليه المحققون من العلماء والمفسرين أن المقصود بقوله ـ تعالى ـ ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ هو سيدنا محمد ﷺ لأنه هو صاحب الدرجات الرفيعة والمعجزة الخالدة الباقية إلى يوم القيامة ،والرسالة العامة الناسخة لكل الرسالات قبلها .

وقد صرح صاحب الكشاف بذلك فقال : قوله ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ أى : ومنهم من رفعه الله على سائر الأنبياء فكان بعد تفاوتهم فى الفضل أفضل منهم درجات كثيرة والظاهر أنه ـ سبحانه ـ أراد محمدا ﷺ لأنه هو المفضل عليهم ، حيث أوتى مالم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقبة إلى ألف آية أو أكثر ، ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلا منيفا على سائر ما أوتى الأنبياء ، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات ، وفى هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره مالا يخفى لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذى لايشتبه والمتميز الذى لايلتبس ويقال للرجل : من فعل هذا؟ فيقول : أحدكم أو بعضكم ، يريد به الذى تعورف واشتهر بنحوه من الأفعال فيكون أفخم من التصريح ، وسئل الحطيئة عن أشعر الناس ، فذكر زهيرا والنابغة ثم قال : ولو شئت لذكرت الثالث ، أراد نفسه ، ولو قال : لوشئت لذكرت نفسى لم يفخم أمره .[1]

ثم قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ .

﴿ الْبَيِّنَاتِ ﴾ هى المعجزات الظاهرة البينة ، وروح القدس : هو جبريل ـ عليه السلام ـ والروح هنا بمعنى الملك الخاص ، والقدس أصل معناه الطهارة ، وهو يطلق على الطهارة المعنوية وعلى الخلوص والنزاهة ، فإضافة روح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة ، وقيل القدس اسم الله كالقدوس فإضافة روح إضافة للتشريف أى روح من ملائكة الله .

والمعنى : وأعطينا عيسى بن مريم الآيات الباهرات والمعجزات الواضحات كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وإخبار قومه بما يأكلونه ويدخرونه فى بيوتهم ، وفضلا عن هذا فقد قويناه بجبريل ـ عليه السلام ـ لأن عيسى ـ عليه السلام ـ قد عاش حياته محاربا من أعدائه الرومان ومن قومه الذين أرسل إليهم وهم بنو إسرائيل ولم يؤذن له بالقتال ليدافع عن نفسه بل تولى الله ـ تعالى ـ الدفاع عنه بجنده الذين من بينهم جبريل ـ عليه السلام ـ .

قال الزمخشرى : فإن قلت لم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر؟ قلت : لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة ولقد بين الله وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل وهو آية من الآيات ، ولما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام الآيات خصا بالذكر فى باب التفضيل ، وهذا دليل بين على أن من زيد تفضيلا بالآيات

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص ٢٩٧ .

منهم فقد فضل على غيره ، ولما كان نبينا محمد ﷺ هو الذى أوتى منها ما لم يؤت أحد فى كثرتها وعظمها كان هو المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع .

وقال الإمام القرطبى ما ملخصه : هذه الآية تثبت التفاضل بين الأنبياء وهناك أحاديث تقول : «لاتخيرونى على موسى» و«لاتخيروا بين الأنبياء» و«لاتفضلوا بين الأنبياء» أى لاتقولوا فلان خير من فلان ، ولا فلان أفضل من فلان فكيف الجمع؟

فالجواب أن هذا كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل وقبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل ، أو أن قوله هذا من باب الهضم والتواضع ، أو المراد النهى عن الخوض فى ذلك لأن الخوض فى ذلك ذريعة إلى الجدال والجدال قد يؤدى إلى أن يذكر بعضهم بمالا ينبغي أن يذكر به ، وقد يؤدى إلى قلة احترامهم ، ثم قال ، وأحسن من هذا القول قول من قال : إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التى هى خصلة واحدة لاتفاضل فيها ، وإنما التفضيل فى زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات ، وأما النبوة فى نفسها فلاتتفاضل وإنما تتفاضل بأمور أخرى زائدة عليها ، ولذلك فهم رسل ، وأولو عزم ، ومنهم من كلمه الله ، فالقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل ، وأعطى من الوسائل وبذلك نكون قد جمعنا بين الآية والأحاديث من غير النسخ .

ثم قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ .

أى : ولو شاء الله ـ تعالى ـ ألا يقتتل الذين جاءوا بعد كل رسول من الرسل وبعد أن جاءهم الرسل بالبينات الدالة على الحق ، لو شاء الله ذلك لفعل ، ولكن الله ـ تعالى ـ لم يشأ ذلك ، لأنه خلق الناس مختلفين فى تقبلهم للحق ، فترتب على هذا الاختلاف أن آمن بالحق الذى جاءت به الرسل من فتح له قلبه ، واتجه إليه اختياره ، وأن كفر به من آثر الضلالة على الهداية واستحب العمى على الهدى ، وترتب عليه ـ أيضا ـ أن تقاتل الناس وتحاربوا .

ومفعول المشيئة محذوف دل عليه جواب الشرط أى لو شاء الله ألا يقتتل الذين جاءوا من بعد الرسل ما اقتتلوا .

وقدم ـ سبحانه ـ المسبب وهو الاقتتال على السبب وهو الاختلاف كما يشهد له قوله :

﴿ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا ﴾ للتنبيه على سوء مغبة الاختلاف ، وللتحذير من الوقوع فيه ، لأن وقوعهم فيه سيؤدى إلى أن يقتل بعضهم بعضا ، وللإشارة إلى أنه ـ سبحانه ـ قادر على إزالة الاقتتال فى ذاته حتى مع وجود أسبابه ، لأنه ـ تعالى ـ هو الخالق للأسباب والمسببات .

وفى قوله : ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ إشارة إلى ما جبلت عليه بعض النفوس من العناد الذى يؤدى إلى التنازع والاختلاف والتقاتل حتى بعد ظهور الحق ، وانكشاف وجه الصواب ، لأن هذه النفوس قد آثرت الهوى على الرشاد ، واتخذت طريق الغى طريقا لها .

وفى قوله : ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا﴾ إشارة إلى أنه ـ سبحانه ـ لم يشأ أن يزيل القتال الذى حدث بين المقاتلين ، لأن هذا القتال قد نشأ بينهم بسبب اختلافهم وسوء اختيارهم ، وعدم استجابتهم للهدايات والتوجيهات والبينات التى جاءتهم بها الرسل ـ عليهم السلام ـ .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أى : ولو شاء الله عدم اقتتالهم لأى سبب من الأسباب لما اقتتلوا ، ولكنه ـ سبحانه ـ يفعل ما يريد حسب ما تقتضيه حكمته ، وترتضيه مشيئته ، فهو الكبير المتعال الذى كل شىء عنده بمقدار ، فالآية الكريمة تبين أن الرسل ـ عليهم السلام ـ يتفاضلون فيما بينهم ، وتنهى الناس فى كل زمان ومكان عن الاختلاف والتنازع لأنهما يؤديان إلى أوخم العواقب ، وأسوأ النتائج .

٢ ـ هذا ، ومن الأحاديث الشريفة التى وردت فى فضله ﷺ : ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : «إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال ﷺ : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» .

وروى الإمام مسلم فى صحيحة أن رسول الله ﷺ قال : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأنا أول من ينشق عنه القبر ، وأنا أول شافع وأول مشفع ـ أى : إنه ﷺ أول من يطلق الشفاعة لأتباعه وأول من يجاب طلبه ـ وفى رواية للإمام الترمذى : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبى يومئذ آدم فمن سواه إلا وهو تحت لوائى ، وإذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين» .

وعن أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال : «أنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر» ، وفى رواية أنه ﷺ قال : «أنا أكرم الأولين والآخرين ولافخر» .

هذه بعض الأحاديث التى وردت فى فضله ﷺ ومن أراد المزيد منها ، فليرجع إلى كتب السنة النبوية الشريفة .[1]

---

(١) راجع على سبيل المثال كتاب : «التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول» جـ٣ ص٢٢٨ لفضيلة الشيخ منصور على ناصف ـ رحمه الله ـ .

٤ـ وجوب طاعته ووجوب توقيره ـ ﷺ ـ

١ ـ وجوب طاعة الرسول ﷺ فى كل ما أمر به أو نهى عنه ، من الحقائق التى أكدتها شريعة الإسلام ، وبينت أن معصيته ﷺ تؤدى إلى المروق عن الدين ، وإلى سوء المصير فى الدنيا والآخرة .

ومن الآيات القرآنية التى أمرت بطاعته ﷺ قوله ـ تعالى فى سورة «النساء» :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾ .

وطاعة الله وطاعة رسوله متلازمتان ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ .

ومعنى طاعتهما : التزام أوامرهما ، واجتناب نواهيهما .

والمراد بأولى الأمر ـ على الراجح ـ الحكام ، وطاعتهم إنما تكون فى غير معصية ، الله ، فإذا أمروا بما يتنافى مع تعاليم الدين فلا سمع لهم على الأمة ولاطاعة .

وإنما أمرنا الله ـ تعالى ـ بطاعتهم فى غير معصية ، لأنهم هم المنفذون لتعاليم الشريعة ، وهم الذين بيدهم مقاليد الأمة التى يقومون على رعاية مصالحها ، ولأن عدم طاعتهم يؤدى إلى اضطراب أحوال الأمة وفسادها .

قال صاحب الكشاف : والمراد بـ ﴿ أُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ أمراء الحق ، لأن ـ أمراء الجور ـ الله ورسوله بريئان منهم ، فلايعطفون على الله ورسوله بوجوب الطاعة لهم ، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما فى إيثار العدل واختيار الحق والأمر بهما ، والنهى عن أضدادهما كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان ، وكان الخلفاء يقولون : أطيعونى ما عدلت فيكم ، فإن خالفت فلا طاعة لى عليكم ، وعن أبى حازم أن مسلمة بن عبدالملك قال له : ألستم أمرتم بطاعتنا فى قوله : ﴿ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ فقال له : أليس قد نزعت عنكم إذا خالفتم الحق بقوله : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ .

وقيل هم العلماء الدينيون الذين يعلمون الناس ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر .[1]

وأعاد ـ سبحانه الفعل ﴿أَطِيعُوا﴾ مع الرسول فقال : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ولم يعده مع أولى الأمر ، للإشارة إلى استقلال الرسول ﷺ بالطاعة حتى ولو كان ما يأمر به ليس منصوصا عليه فى القرآن ، لأنه لاينطق عن الهوى ، وللإيذان بأن طاعة الرسول ﷺ أعلى من طاعة أولى الأمر .

وقوله : ﴿مِنكُمْ﴾ فى محل نصب على الحال من أولى الأمر ، أى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر حالة كونهم كائنين منكم أى من دينكم وملتكم .

وفى ذلك إشارة إلى أنه لاطاعة لمن يتحكمون فى شئون المسلمين ممن ليسوا على ملتهم .

وقوله : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ بيان لما يجب على المؤمنين أن يفعلوه إذا ما حدث بينهم اختلاف فى أمر من الأمور الدينية ، والمراد بالتنازع هناك الاختلاف والجدال مأخوذ من النزع بمعنى الجذب ، فكأن كل واحد من المختلفين يجذب من غيره الحجة لدليله .

ومن قول النبى ﷺ «مالى أنازع القرآن» أى ينازعنى غيرى ويجاذبنى فى القراءة ، وذلك أن بعض المأمومين جهر خلفه فنازعة قراءته فشغله ، فنهاه عن الجهر بالقراءة فى الصلاة خلفه .[2]

والمعنى : فإن تنازعتم واختلفم أيها المؤمنون أنتم وأولو الأمر منكم فى أمر من أمور الدين ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أى فردوا ذلك الحكم أو الأمر الذى اختلفتم فيه إلى كتاب الله وإلى رسوله ﷺ بأن تسألوه عنه فى حياته ، وترجعوا إلى سنته بعد مماته .

قال القرطبى : قوله : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أى : تجادلتم واختلفتم فى شىء من أمور دينكم ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أى ردوا ذلك الحكم إلى كتاب الله أو إلى رسوله بالسؤال فى حياته أو بالنظر فى سنته بعد وفاته ، وهذا قول مجاهد والأعمش وقتادة ، وهو الصحيح .

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٥٢٤ .

(٢) هامش تفسير القرطبى جـ٥ ص٢٦١ .

ومن لم ير هذا اختل إيمانه ، لقوله ـ تعالى ـ : ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ .

وفى قوله : ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ دليل على أن سنته ﷺ يعمل بها ويمتثل مافيها .

قال ﷺ : «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم» ، أخرجه مسلم .

وروى أبوداود عن أبى رافع عن النبى ﷺ قال : «لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته ، يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا ندرى ما وجدناه فى كتاب الله اتبعناه» .

وعن العرباض بن سارية أنه حضر رسول الله ﷺ يخطب الناس وهو يقول : «أيحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله لم يحرم شيئا ، إلا ما فى هذا القرآن ألا وإنى والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أوأكثر» .[1]

وقوله : ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ شرط جوابه محذوف عند جمهور البصريين اكتفاء بدلالة المذكور عليه .

أى : إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر حق الإيمان فارجعوا فيما تنازعتم فيه من أمور دينية إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

والجملة الكريمة تحريض للمؤمنين على الامتثال لتعاليم الإسلام وآدابه ، لأن الإيمان الحق يقتضى ذلك .

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ يعود إلى الرد إلى الكتاب والسنة وقوله : ﴿تَأْوِيلاً﴾ من آل هذا الأمر إلى كذا رجع إليه ، فيكون المعنى : ذلك الذى أمرتكم به من رد ما اختلفتم فيه إلى الكتاب والسنة خير لكم وأحمد مغبة ، وأجمل عاقبة .

ويجوز أن يكون قوله : ﴿تَأْوِيلاً﴾ بمعنى التفسير والتوضيح فيكون المعنى .

ذلك أى الرد إلى الكتاب والسنة خير لكم وأحسن تأويلا وتفسيرا من تأويلكم أنتم إياه ، من غير رد إلى أصل من الكتاب والسنة ، والأول أنسب لسياق الآية الكريمة .

قال ابن كثير : قوله : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الآية هذا أمر من الله ـ تعالى ـ بأن

---

(١) تفسير القرطبي جـ٥ ص٢٦٢ ـ بتصرف وتلخيص .

كل شىء تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه ، أن يردوا التنازع فى ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال - تعالى - : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ فما حكم به القرآن والسنة وشهد له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ، ولهذا قال - تعالى - ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ أى : ردوا الخصومات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فدل على أن من لم يتحاكم فى محل النزاع إلى الكتاب والسنة ، ولايرجع إليهما فى ذلك فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر .(١)

وقد بين - سبحانه - فى آية أخرى أن طاعة رسول الله ﷺ إنما هى طاعة له فقال : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ .

أى : من يستجب لما يدعوه إليه محمد ﷺ ويذعن لتعاليمه فإنه بذلك يكون مطيعا لله ، لأن الرسول ﷺ مبلغ لأمر الله ونهيه .

وقوله : ﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ بيان لوظيفة الرسول ﷺ .

أى : من أطاعك يا محمد فقد أطاع الله ، ومن أعرض عن طاعتك وعصى أمرك فعلى نفسه يكون جانيا لأننا ما أرسلناك على الناس حافظا ورقيبا لأعمالهم ، وإنما أرسلناك مبلغا ومنذرا .

قال الآلوسى : وقوله - تعالى - : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ بيان لإحكام رسالته إثر بيان تحققها ، وإنما كان الأمر كذلك لأن الآمر والناهى فى الحقيقة هو الحق - سبحانه - والرسول إنما هو مبلغ للأمر والنهى فليست الطاعة له بالذات إنما هى لمن بلغ عنه .(٢)

٢ - هذا ، والذى يتدبر القرآن الكريم يجد عشرات الآيات القرآنية ، تأمر بطاعة الرسول ﷺ وتنهى عن معصيته .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٢] .

وقوله - سبحانه - : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر : ٧]

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص٥١٨ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ٥ ص٩١ .

وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٥١]

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦]

٣ ـ أما الأحاديث النبوية الشريفة التى وردت فى وجوب طاعته ﷺ فهى كثيرة، وحسبك منها ما أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : «كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا يا رسول الله ومن يأبى؟ قال : من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى» .(١)

٤ ـ وأما الآيات القرآنية التى وردت فى وجوب توقيره وتعظيمه ـ ﷺ ـ فيكفيك منها قوله ـ تعالى ـ فى مطلع سورة الحجرات :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

---

(١) راجع كتاب : التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول جـ١ ص٤٢ للشيخ منصور على ناصف ـ رحمه الله ـ .

والمعنى : يامن آمنتم بالله ـ تعالى ـ حق الإيمان : احذروا أن تتسرعوا فى الأحكام ، فتقولوا قولا ، أو تفعلوا فعلا يتعلق بأمر دينى ، دون أن تستندوا فى ذلك إلى حكم ، الله ـ تعالى ـ وحكم رسوله ﷺ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ـ تعالى ـ فى كل ما تأتون وتذرون ، إن الله سميع لأقوالكم عليم بجميع أحوالكم .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية هذه آداب أدب الله ـ تعالى ـ بها عباده المؤمنين ، فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ .

أى : لاتسرعوا فى الأشياء بين يديه ، أى : قبله ، بل كونوا تبعا له فى جميع الأمور ، حتى يدخل فى عموم هذا الأدب الشرعى ، حديث معاذ ، إذ قال له النبى ﷺ حيث بعثه إلى اليمن : «بم تحكم؟ قال بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد؟ قال فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد؟ قال : أجتهد رأيى» .

فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده ، إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدى الله ورسوله .(١)

والمقصود من الآية الكريمة نهى المؤمنين فى كل زمان ومكان عن أن يقولوا قولا أو يفعلوا فعلا يتعلق بأمر شرعى ، دون أن يعودوا فيه إلى حكم الله ورسوله .

ثم وجه ـ سبحانه ـ نداء ثانيا إلى المؤمنين ، أكد فيه وجوب احترامهم للرسول ﷺ فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ .

أى : يا من آمنتم بالله واليوم الآخر ، واظبوا على توقيركم واحترامكم لرسولكم ﷺ ولاترفعوا أصواتكم فوق صوته عند مخاطبتكم له ، ولاتجعلوا أصواتكم مساوية لصوته ﷺ حين الكلام معه ، ولا تنادوه باسمه مجردا بأن تقولوا له يا محمد ، ولكن قولوا له : يا رسول الله ، أو يا نبى الله .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ بيان لما يترتب على رفع الصوت عند مخاطبته ﷺ من خسران .

والجملة تعليل لما قبلها ، وهى فى محل نصب على أنها مفعول لأجله ، أى : نهاكم ـ تعالى ـ عن رفع أصواتكم فوق صوت النبى ، وعن أن تجهروا له بالقول كجهر بعضكم

(١) تفسير ابن كثير جـ٧ ص٣٤٥ .

لبعض ، كراهة أو خشية أن يبطل ثواب أعمالكم بسبب ذلك وأنتم لاتشعرون بهذا البطلان .

قال ابن كثير : وقوله : ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ أى : إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده ﷺ خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله لغضبه فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لايدرى وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ، كما كان يكره فى حياته لأنه محترم حيا وفى قبره .(١)

ولقد امتثل الصحابة لهذه الإشارات امتثالا تاما ، فهذا أبوبكر يروى عنه أنه لما نزلت هذه الآية قال : يا رسول الله ، والله لا أكلمك إلا كأخى السرار - أى : كالذى يتكلم همسا ، وهذا ثابت بن قيس ، كان رفيع الصوت ، فلما نزلت هذه الآية قال : أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار ، حبط عملى ، وجلس فى أهل بيته حزينا ، فلما بلغ النبى ﷺ ما قال ثابت ، قال لأصحابه : «لا بل هو من أهل الجنة» .(٢)

قال بعض العلماء : وما تضمنته هذه الآية من لزوم توقير النبى ﷺ جاء مبينا فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ .

وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله - تعالى - لم يخاطبه فى كتابه باسمه ، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم كقوله - سبحانه - : ﴿ يأيها النبى يأيها الرسول يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

مع أنه سبحانه - قد نادى غيره من الأنبياء بأسمائهم كقوله - تعالى - : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ ﴾ وقوله - عز وجل - ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ﴾ .

أما النبى ﷺ فلم يذكر اسمه فى القرآن فى خطاب ، وإنما ذكر فى غير ذلك ، كقوله - تعالى - :﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ .

ثم مدح - سبحانه - الذين يغضون أصواتهم فى حضرة الرسول ﷺ فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ .

وقوله : ﴿ يَغُضُّونَ ﴾ بمعنى يخفضون قال : غض فلان من صوته ومن طرفه إذا خفضه ، وكل شىء كففته عن غيره فقد غضضته .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٧ ص٣٤٨ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ٧ ص٣٤٧ والقرطبى جـ١٦ ص٣٠٤ .

وقوله : ﴿ امْتَحَنَ ﴾ أى : اختبر وأخلص ، وأصله من امتحان الذهب وإذابته ليخلص جيده من خبيثه ، والمراد به هنا : إخلاص القلوب لمراقبة الله وتقواه .

أى : إن الذين يخفضون أصواتهم فى حضرة رسول الله ﷺ وعند مخاطبتهم له ، أولئك الذين يفعلون ذلك هم الذين أخلص الله ـ تعالى ـ قلوبهم لتقواه وطاعته ، وجعلها خالصة من أى شىء سوى هذه الخشية والطاعة .

وقوله : ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ بشارة عظيمة من الله تعالى ـ لهم ، أى : لهؤلاء الغاضبين أصواتهم عند رسول الله ﷺ مغفرة لذنوبهم ، وأجر كبير لا يعرف مقداره أحد سوى الله ـ تعالى ـ .

ولقد التزم المسلمون بهذا الأدب فى حياة النبى ﷺ وبعد مماته ، فقد سمع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه رجلا يرفع صوته فى المسجد النبوى : فقال له : من أين أنت ـ أيها الرجل ـ؟ فقال : من الطائف ، فقال له : لو كنت من أهل المدينة لأوجعتك ضربا .

ثم أشار ـ سبحانه ـ إلى ما فعله بعض الناس من رفع أصواتهم عند ندائهم للنبى ﷺ فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وقد ذكروا فى سبب نزول هاتين الآيتين أن جماعة من بنى تميم أتوا إلى المدينة فى عام الوفود فى السنة التاسعة ، فوقفوا بالقرب من منزل النبى ﷺ فى ساعة القيلولة وأخذوا يقولون : يا محمد اخرج إلينا ، فكره النبى ﷺ منهم ذلك .

والمراد بالحجرات : حجرات نسائه ـ ﷺ ـ جمع حجرة وهى القطعة من الأرض المحجورة ، أى : المحددة بحدود لا يجوز تخطيها ، ويمنع الدخول فيها إلا بإذن .

أى : إن الذين ينادونك ـ أيها الرسول الكريم ـ ﴿ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ .

أى : من خلف حجرات أزواجك وخارجها ، أكثرهم لا يجرون على ما تقتضيه العقول السليمة ، والآداب القويمة من مراعاة الاحترام والتوقير لمن يخاطبونه من الناس ،فضلا عن أفضلهم ، وأشرفهم ، وذلك لأنهم من الأعراب الذين لم يحسنوا مخاطبة الناس ، لجفائهم وغلظ طباعهم .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ للإشعار بأن قلة منهم لم تشارك هذه الكثرة فى هذا النداء الخارج عن حدود الأدب واللياقة .

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : وورود الآية على النمط الذى وردت عليه ، فيه مالا يخفى على الناظر من إكبار للنبى ﷺ وإجلال لمقامه .

ومن ذلك : مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به السفه والجهل بسبب ما أقدموا عليه ، ومن ذلك : التعبير بلفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه ، والمرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذى يظهر به موضع الاستنكار عليهم .

ومن ذلك : شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم ، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز فى المخاطبات ، تهوينا للخطب وتسلية لهم ﷺ .[1]

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى السلوك الأفضل فقال - تعالى - : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ .

أى : ولو أن هؤلاء الذين ينادونك - أيها الرسول الكريم - من وراء الحجرات ، صبروا عليك حتى تخرج إليهم ولم يتعجلوا بندائك بتلك الصورة الخالية من الأدب ، لكان صبرهم خيرا لهم ﴿ وَاللَّهُ ﴾ - تعالى - ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى : واسع المغفرة والرحمة .

هذا والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد رسمت للمؤمنين أسمى ألوان الأدب فى مخاطبتهم لرسول الله ﷺ وفى إلزامهم بألا يقولوا قولا أو يفعلوا فعلا ، يتعلق بشأن من شئون دينهم إلا بعد معرفتهم بأن هذا القول أو الفعل يستند إلى حكم شرعى ، شرعه الله - تعالى - ورسوله ﷺ .

كما أنه يراها قد مدحت الذين يغضون أصواتهم عن رسول الله ﷺ وذمت الذين لا يلتزمون هذا الأدب عند مخاطبته أو ندائه .

كما يتبين لنا وجوب توقيره وتعظيمه ﷺ .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٤ ص٣٥٨ .

٥- عموم دعوته وختام رسالته ﷺ

١ - من الحقائق التى يجب الإيمان بها ، ولا يشك فيها إلا من كان مريض القلب ، فاقد الإيمان : عموم بعثته ﷺ للإنس وللجن ، وختام رسالته ﷺ لجميع من سبقه من الأنبياء والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم جميعا - .

ومن الآيات القرآنية التى صرحت بعموم بعثته ﷺ إلى الناس جميعا ، قوله - تعالى - فى سورة «الأعراف» .

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٨﴾

أى : قل يا محمد لكافة البشر من عرب وعجم ، إنى رسول الله إليكم جميعا ، لافرق بين نصرانى أو يهودى ، وإنما رسالتى إلى الناس عامة ، وقد جاء فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية ما يؤيد عموم رسالته .

أما فى القرآن الكريم ، فمن ذلك قوله - تعالى - : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١)

وقال - تعالى - : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ (٢)

وقال - تعالى - : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ (٣)

أى لأنذركم به - يا أهل مكة - ولأنذر به - أيضا - كل من بلغه القرآن ممن يوجد إلى يوم القيامة من سائر الأمم ، وفى ذلك دلالة على عموم رسالة النبى ﷺ وعلى أن أحكام القرآن تعم الثقلين إلى يوم الدين .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧

(٢) سورة سبأ : الآية ٢٨

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٩ .

٢ ـ وأما فى السنة فمن ذلك ما رواه البخارى عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة» .(١)

وفى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرى ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده لايسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لايؤمن بى إلا دخل النار» .(٢)

قال الإمام ابن كثير : والآيات فى هذا كثيرة ، كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر ، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه رسول إلى الناس كلهم .(٣)

٣ ـ ثم وصف الله ـ تعالى ـ ذاته بما هو أهل له من صفات القدرة والوحدانية فقال ـ تعالى ـ : ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى : قل ـ يا محمد ـ للناس إنى رسول إليكم من الله الذى له التصرف فى السموات والأرض ، والذى لامعبود بحق سواه والذى بيده الإحياء والإماتة ، ومن كان هذا شأنه فمن الواجب أن يطاع أمره ، وأن يترك ما نهى عنه ، وأن يصدق رسوله ، ثم بنى ـ سبحانه ـ على هذه النعوت الجليلة ، التى وصف بها نفسه الدعوة إلى الإيمان قال ـ تعالى ـ : ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى فآمنوا أيها الناس جميعا بالله الواحد الأحد وآمنوا ـ أيضا برسوله محمد ﷺ النبى الأمى الذى يؤمن بالله وبما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه واسلكوا سبيله ، واقتفوا آثاره ، فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه رجاء أن تهتدوا إلى الصراط المستقيم .

٤ ـ كذلك من الآيات القرآنية التى تشهد بأن بعثته ﷺ لم تكن إلى الإنس وحدهم ، بل كانت إلى الجن أيضا ، قوله ـ تعالى ـ فى مطلع سورة الجن : ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ .

---

(١) صحيح البخارى «باب التيمم» جـ١ ص١٧ .

(٢) صحيح مسلم «كتاب المساجد» .

(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٥٥ .

وقوله ـ سبحانه ـ فى سورة الأحقاف :

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات الكريمة : أن رسالة النبى ﷺ كانت إلى الإنس والجن ، لأن هذه الآيات تحكى إيمان بعض الجن به ﷺ كما تحكى دعوتهم غيرهم إلى الإيمان به .

٥ ـ أما الآيات القرآنية التى صرحت بختام رسالته ﷺ لجميع الرسالات السماوية فمنها قوله ـ تعالى ـ فى سورة «الأحزاب» :

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴿٤٠﴾﴾ .

أى : لم يكن محمد ﷺ أبا لأحدكم على سبيل الحقيقة ولكنه كان رسولا من عند الله ـ تعالى ـ ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وكان ـ أيضا ـ خاتم النبيين ، بمعنى أنهم ختموا به ، فلانبى بعده ، فهو كالخاتم والطابع لهم ، ختم الله ـ تعالى ـ به الرسل والأنبياء فلارسول ولا نبى بعده إلى قيام الساعة .

قال القرطبى : قرأ الجمهور ﴿خَاتِمَ﴾ ـ بكسر التاء ـ بمعنى أنه ختمهم ، أى : جاء آخرهم

وقرأ عاصم ﴿ خَاتَمَ ﴾ ـ بفتح التاء ـ بمعنى أنهم ختموا به ، فهو كالخاتم والطابع لهم .

وقيل : الخاتَم والخاتِم ، بالفتح والكسر ـ لغتان مثل طابَع وطابِع .

وقد روى الإمام مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : «مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها ، إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون : ما أجمل هذه الدار ، هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال ﷺ : أنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء» .[1]

وقد ذكر الإمام ابن كثير عددا من الأحاديث فى هذا المعنى منها ما رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون» .

ثم قال ـ رحمه الله ـ تعالى ـ بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره : والأحاديث فى هذا كثيرة ، فمن رحمة الله ـ تعالى ـ بالعباد إرسال محمد ﷺ إليهم ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له ، وقد أخبر ـ تعالى ـ فى كتابه ، وأخبر رسوله فى السنة المتواترة عنه ، أنه لا نبى بعده ، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ، ولو تخرق وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم .[2]

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ .

أى : وكان ـ عز وجل ـ ومازال ، هو العليم علما تاما بأحوال خلقه ، وبما ينفعهم ويصلحهم ، ولذا فقد شرع لكم ما أنتم فى حاجة إليه من تشريعات ، واختار رسالة نبيكم محمد ﷺ لتكون خاتمة الرسالات ، فعليكم أن تقابلوا ذلك بالشكر والطاعة ليزيدكم ـ سبحانه ـ من فضله وإحسانه .

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٤ ص١٩٦ .

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ٦ ص٤٢٤ .

٦ـ براهين صدقه ﷺ

جميع الشواهد والقرائن والأدلة والبراهين ، تقرر وتؤكد أن الرسول ﷺ صادق فى رسالته ، وفيما يبلغه عن ربه .

إذ حياته الشخصية فى صباه ، وفى شبابه ، وفى كهولته ، كانت نموذجا ساميا عاليا للعفاف ، والطهر ، والصدق ، والفطنة ، والوفاء ، وسلامة التفكير ، ورجاحة العقل ، وفصاحة اللسان ، وسخاء اليد ، وشرف الأسرة ، وكرم المنبت ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وإعانة المحتاج ، وإكرام الضيف ، وشجاعة القلب ، ووفرة الحياء ، وحسن المعاشرة ، وشدة التواضع ، والوقوف إلى جانب الحق والعدل والتنزه عن كل مالايليق .

لقد منحه الله ـ تعالى ـ من الكمالات النفسية والخَلقية والخُلُقية ، مالم يمنحه لأحد غيره ممن قبله أو بعده ، ويكفيه فخرا قوله ـ تعالى ـ فى شأنه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وكانت هذه المناقب الجمة ، والخلال الحميدة ، كفيلة بأن تجعل الناس يتبعونه فيما يدعوهم إليه من وجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ومن وجوب التحلى بالفضائل ، والتخلى عن الرذائل .

إلا أن الخالق ـ عز وجل ـ إلى جانب ما أعطى لنبيه ﷺ من كل تلك الصفات الجليلة ، أعطاه ـ أيضا ـ المعجزة الكبرى التى تعلن على رؤوس الأشهاد ، صدقه ﷺ فيما يبلغه عن ربه .

وهذه المعجزة هى القرآن الكريم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإنما هو تنزيل من حكيم حميد .

لقد جاء ﷺ إلى الناس وقال لهم : إنى رسول الله إليكم ، لكى أخرجكم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان .

ودليل صدقى على ما أقول : هذا القرآن ، فإن كنتم فى شك من ذلك ، فهاتوا مثله قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور : ٣٤]

ثم تحداهم ﷺ أن يأتوا بعشر سور من مثله ، قال ـ تعالى ـ :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود : ١٣]

ثم أرخى لهم ﷺ العنان، وسهل لهم الأمر، حيث تحداهم فى نهاية المطاف أن يأتوا بسورة واحدة من مثل سور القرآن الكريم، ولو كانت كأقصر سورة واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك فيقول:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾.

والمعنى: وإن ارتبتم أيها المشركون فى شأن هذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد على مهل وتدريج، فأتوا أنتم بسورة من مثله فى سمو الرتبة، وعلو الطبقة واستعينوا على ذلك بآلهتكم وبكل من تتوقعون منهم العون، ليساعدوكم في مهمتكم أو ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بما يماثله، إن كنتم صادقين فى زعمكم أنكم تقدرون على معارضة القران الكريم.

والمقصود بقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا.. ﴾ نفى الريب عن المنزل عليه - وهو محمد ﷺ بنفيه عن المنزل وهو القرآن الكريم.

والتعبير عن اعتقادهم فى حقه بالريب للإيذان بأن أقصى مايمكن صدوره عنهم هو الارتياب فى شأنه، أو للتنبيه على أن كلامهم فى شأن القرآن هو بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح الدلائل الدالة على أن القرآن من عند الله - تعالى - .

وعبر بقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ.. ﴾ ولم يقل: وإن ارتبتم فيما نزلنا، للإشارة إلى أن ذات القرآن لا يتطرق إليها ريب، ولا يطير إلى أفقها شرارة من شك، وأنه إن أثير حوله أى شك فمرجعه إلى انطماس بصريتهم، وضعف تفكيرهم، واستيلاء الحقد والعناد على نفوسهم.

وأتى بإن المفيدة للشك مع أن كونهم فى ريب مما نزل على النبى ﷺ أمر محقق، تنزيلا للمحقق منزلة المشكوك فيه، وتنزيها لساحة القرآن عن أن يتحقق الشك فيه من أى أحد، وتوبيخا لهم على وضعهم الأمور فى غير مواضعها.

ووجه الإتيان بفى الدالة على الظرفية، للإشارة إلى أنهم قد امتلكهم الريب وأحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف.

وقال: ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ دون أنزلنا، لأن المراد النزول على سبيل التدريج، ومن المعروف أن القرآن قد نزل منجما فى مدة تزيد على عشرين سنة.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قيل : «مما نزلنا» على لفظ التنزيل دون الإنزال؟ قلت : لأن المراد النزول على سبيل التدريج والتنجيم وذلك أنهم كانوا يقولون : لو كان هذا القرآن من عند الله ، لم ينزل هكذا نجوما سورة بعد سورة ، وآيات عقب آيات ، على حسب النوازل ، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود مايوجد منهم مفرقا حينا فحينا حسب ما يعن لهم من الأحوال المتجددة ، فقيل لهم : إن ارتبتم فى هذا الذى وقع إنزاله هكذا على مهل وتدريج ، فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه ، وهاتوا نجما فردا من نجومه : سورة من أصغر السور أو آيات شتى مفترقات ، وهذا غاية التبكيت ومنتهى إزاحة العلل .[1]

والمراد بالعبد فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ محمد ﷺ وفى إضافته إلى الله ـ تعالى ـ تنبيه على شرف منزلته عنده ، واختصاصه به .

وفى ذكره ﷺ باسم العبودية ، تذكير لأمته بهذا المعنى ، حتى لايغالوا فى تعظيمه فيدعوا ألوهيته ، كما غالت بعض الفرق فى تعظيم أنبيائها أو زعمائهم فادعت ألوهيتهم .

والسورة : الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص ، والتى أقلها ثلاث آيات ، والضمير فى قوله ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ يعود على المنزل وهو القرآن .

والمراد من مثل القرآن : ما يشابهه فى حسن النظم ، وبراعة الأسلوب وحكمة المعنى ، وهذا الوجه من الإعجاز يتحقق فى كل سورة .

وقيل : إن الضمير فى قوله ﴿ مِن مِّثْلِهِ ﴾ يعود على المنزل عليه القرآن ، وهو النبى ﷺ ولكن الرأى الأول أرجح .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : وعود الضمير إلى القرآن أرجح لوجوه :

أحدها : أن ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة فى باب التحدى لاسيما ما ذكره فى سورة يونس من قوله : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ .. ﴾

وثانيها : أن البحث إنما وقع فى المنزل وهو القرآن ، لأنه قال : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا .. ﴾ فوجب صرف الضمير إليه ، ألا ترى أن المعنى ، وإن ارتبتم فى أن القرآن منزل من عند الله فهاتوا أنتم شيئا مما يماثله ، وقضية الترتيب لو كان الضمير مردودا إلى رسول الله ﷺ أن يقال : وإن ارتبتم فى أن محمدا منزل عليه فهاتوا قرآنا مثله .

(١) تفسير الكشاف جـ ص٩٧ .

وثالثها : أن الضمير لو كان عائدا إلى القرآن لاقتضى كونهم عاجزين عن الإتيان بمثله سواء اجتمعوا أم انفردوا وسواء أكانوا أميين أم عالمين ، أما لو كان عائدا إلى محمد ﷺ فذلك لا يقتضى إلا كون آحادهم من الأميين عاجزين عنه ، لأنه لايكون مثل محمد إلا الشخص الأمى ، أما لو اجتمعوا وكانوا قارئين لم يكونوا مثل محمد ، لأن الجماعة لاتماثل الواحد ، والقارئ لايكون مثل الأمى ، ولاشك أن الإعجاز على الوجه الأول أقوى .

ورابعها : أننا لو صرفنا الضمير إلى محمد ﷺ لكان ذلك يوهم أن صدور مثل القرآن مما لم يكن مثل محمد فى كونه أميا ممكن ، ولو صرفناه إلى القرآن لدل ذلك على أن صدور مثله من الأمى ومن غير الأمى ممتنع فكان هذا أولى .[1]

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ . . ﴾ .

وادعوا : من الدعاء والمراد به هنا : طلب حضور المدعو أى : نادوهم .

وشهداءكم : أى : آلهتكم ، جمع شهيد وهو القائم بالشهادة ، فقد كانوا يزعمون أن آلهتهم تشهد لهم يوم القيامة ، بأنهم على حق ، وقيل : الشهداء جمع شهيد ، بمعنى الحاضر أو الناصر ، أو الإمام وكأنه سمى به لأنه يحضر المجالس وتبرم بحضره الأمور .

ودون : بمعنى غير : وتطلق فى أصل اللغة على أدنى مكان من الشىء ومنه تدوين الكتب لأنه إدناء البعض من البعض ، ودونك هذا أى : خذه من أدنى مكان منك ، ثم استعير للتفاوت فى الرتب فقيل : زيد دون عمرو أى : فى الشرف ، ومنه الشىء الدون ، ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل تجاوز حد إلى حد وتخطى أمر إلى أمر .

قال الجمل : والمعنى : وادعوا إلى المعارضة من حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غيرالله ، فإنه لايقدر على أن يأتى بمثله إلا الله ، أو ادعوا من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن ما أتيتم به مثله ، ولا تستشهدوا بالله ، فإن الاستشهاد به من عادة المبهوت العاجز عن إقامة الحجة ، أو شهداءكم الذين اتخذتموهم من دون الله آلهة وزعمتم أنها تشهد لكم يوم القيامة .[2]

وفى أمرهم بدعوة أصنامهم وهى جماد ، وفى تسميتها شهداء مع إضافتها إليهم مع أنها لاتعقل ولاتنطق ، فى كل ذلك أقوى ألوان التهكم ، لكى يثير فى نفوسهم من الألم ما قد يكون سببا لتنبيههم إلى جهلهم ، وانصرافهم عن ضلالهم .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص٢٢٢ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ١ ص٣٨ .

وقوله ـ تعالى ـ ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ جملة معترضة فى آخر الكلام وجواب الشرط محذوف دل عليه الكلام السابق دلالة واضحة حتى صار ذكره فى نظم الكلام مما ينزل به عن مرتبة البلاغة .

والمعنى : إن كنتم صادقين فى زعمكم أنكم تقدرون على معارضة القرآن فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا آلهتكم وبلغاءكم وجميع البشر ليعينوكم أو ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بما يماثله فى حكمة معانيه وحسن بيانه .

وفى هذه الآية الكريمة إثارة لحماستهم ، إذ عرَّض بعدم صدقهم فتتوفر دواعيهم على المعارضة التى زعموا أنهم أهل لها .

ثم قال ـ تعالى ـ : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ .

المعنى : فإن لم تفعلوا أى : تعارضوا القرآن ، وتبين لكم أن أحدا لايستطيع معارضته ، فخافوا العذاب الذى أعده الله للجاحدين وهو النار التى وقودها الناس والحجارة .

والوقود : ما يلقى فى النار لإضرامها كالحطب ونحوه ، والحجارة : الأصنام التى كانوا يعبدونها من دون الله كما قال ـ تعالى ـ : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ .

واقتران المشركين بما كانوا يعبدون فى النار مبالغة فى إيلامهم وتحسيرهم والاقتصار على ذكر الناس والحجارة لايؤخذ منه أن ليس فى النار غيرهما بدليل ما ذكر فى مواضع أخرى من القرآن أن الجن والشياطين يدخلونها .

قال صاحب الكشاف فإن قلت : انتفاء إتيانهم بالسورة واجب فهلا جيء بلفظ «إذا» الذى للوجوب دون «إنْ» الذى للشك؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما : أن يساق القول معهم على حسب حسبانهم وطمعهم ، وأن العجز عن المعارضة كان قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم لاتكالهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام .

والثانى : أن يُتهكم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على من يعاديه : إن غلبتك لم أبق عليك وهو يعلم أنه غالبه ويتيقنه تهكما به .[1]

وقال : فإن لم تفعلوا ، ولم يقل فإن لم تأتوا بسورة من مثله ، لأن قوله : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ جار مجرى الكناية التى تعطى اختصارا ووجازة تغنى عن طول المكنى عنه ، ولأن الإتيان ما هو إلا فعل من الأفعال ، تقول : أتيت فلانا ، فيقال لك : نعم ما فعلت .

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص١٠١ .

وجملة ﴿ ولَن تَفْعَلُوا ﴾ جملة معترضة بين الشرط والجزاء ، جيء بها لتأكيد عجزهم عن معارضته ، فإن فى نفيها فى المستقبل بإطلاق تأكيدا لنفيها فى الحال .

قال الإمام الرازى : فإن قيل : فما معنى اشتراطه فى اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؟ فالجواب أنه إذا ظهر عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق رسول الله ﷺ وإذا صح ذلك ثم لزموا العناد استوجبوا العقاب بالنار ، فاتقاء النار يوجب ترك العناد ، فأقيم المؤثر مقام الأثر ، وجعل قوله : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ قائما مقام قوله فاتركوا العناد وهذا هو الإيجاز الذى هو أحد أبواب البلاغة ، وفيه تهويل لشأن العناد ، لإنابة اتقاء النار منابه متبعا ذلك بتهويل صفة النار .[1]

ومعنى ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ هيئت لهم ، لأنهم الذين يخلدون فيها ، أو أنهم خصوا بها وإن كانت معدة للفاسقين ـ أيضا ـ لأنه يريد بذلك نارا مخصوصة لايدخلها غيرهم كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ .

وفى هذه الآية الكريمة معجزة من نوع الإخبار بالغيب ، إذ لم تقع المعارضة من أحد فى أيام النبوة وفيما بعدها إلى هذا العصر .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : من أين لك أنه إخبار بالغيب ، على ماهو عليه حتى يكون معجزة؟ قلت : لأنهم لو عارضوه بشىء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه ، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال ، لاسيما والطاعنون فيه أكثف عددا من الذابين عنه ، فحين لم ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ماهو به ، فكان معجزة .[2]

وقال بعض العلماء : هذه الآية الجليلة من جملة الآيات التى صدعت بتحدى الكافرين بالتنزيل الكريم ، وقد تحداهم الله فى غير موضع منه فقال فى سورة القصص : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وقال فى سورة الإسراء : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ وقال فى سورة يونس : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وكل هذه الآيات مكية .

ثم تحداهم أيضا فى المدينة بهذه الآية : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ . . إلخ فعجزوا عن

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص٢٢٤ .

(٢) تفسير الكشاف جـ١ ص١٠٢ .

آخرهم ، وهم فرسان الكلام ، وأرباب النظام ، وقد خصوا من البلاغة والحكم ما لم يخص به غيرهم من الأمم ، جعل الله لهم ذلك طبعا وخلقة وفيهم غريزة وقوة ، يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به إلى كل سبب ، فيخطبون ويمدحون ويقدحون ويتوسلون ، ويتوصلون ، ويرفعون ، ويضعون ، فيأتون بالسحر الحلال ، ومع هذا فلم يتصد لمعارضة القرآن منهم أحد ، ولم ينهض ـ لمقدار سورة منه ـ ناهض من بلغائهم ، ولم ينبض منهم عرق العصبية مع اشتهارهم بالإفراط فى المضارة والمضادة .

وقد جرد لهم النبى ﷺ الحجة أولا ، والسيف آخرا فلم يعارضوا إلا السيف وحده ، وما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أنهم أعجز من المعارضة ، وبذلك يظهر أن فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ معجزة أخرى ، فإنهم ما فعلوا وما قدروا .

وحيث عجز عرب ذلك العصر فما سواهم أعجز فى هذا الأمر ، فدل على أن القرآن ليس من كلام البشر ، بل هو كلام خالق القوى والقدر أنزله تصديقا لرسوله ، وتحقيقا لمقوله .(١)

ومن كل ما سبق يتبين لكل عاقل أن هذا القرآن أعظم دليل ، وأقوى برهان على صدق النبى ﷺ فيما بلغه عن ربه ـ عز وجل ـ .

---

(١) تفسير القاسمى جـ٢ ص٧٧ .

٧- وضوح شريعته ﷺ

يمتاز دين الإسلام الذى ارتضاه الله - تعالى - لعباده دينا ، بالوضوح فى عقائده ، وفى عباداته ، وفى معاملاته ، وفى أوامره ونواهيه ، وفى كل ما جاء به الرسول ﷺ من عند ربه من تشريعات حكيمة ومن آداب قويمة .

إنه دين الفطرة السوية ، كما قال - سبحانه - ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم : ٣٠]

أى : اثبت - أيها الرسول الكريم - على هذا الدين القائم على الحق الذى لايحوم حوله باطل ، والذى ترتاح له الفطرة الإنسانية الرشيدة ، لأنه يناسبها ، وتشعر معه بالسعادة والاستقرار والحياة الطيبة .

إنه الدين الذى لاتعقيد فيه ولا اشتباه ، ولاتكلف فيه ولاتصنع ، ولا طلاسم فى أحكامه ولا ألغاز ، وإنما هو دين واضح فى جميع شعائره وضوح الشمس فى رائعة النهار ، مشرق فى كافة تعاليمه إشراق النور الساطع .

إنه الدين الذى يأمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يقول للناس : ﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾ [ص : ٨٦]

أى : قل - أيها الرسول - للناس ، إنى لا أسألكم أجرا على تبليغكم ما أمرنى ربى بتبليغه إليكم ، وما أنا من الذين يتكلفون ويتصنعون القول أو الفعل الذى لايحسنونه ، إنه الدين الذى يسمع توجيهاته وإرشاداته العقل السليم ، فيؤمن بها ، ويصدقها ، وكم من آيات قرآنية عندما استمع العقلاء إليها ، ما كان منهم إلا أن صدقوا النبى ﷺ لوضوح ما تدعو إليه من فضائل وما تنهى عنه من رذائل .

ومن هذه الآيات قوله - تعالى - فى سورة «الأنعام» :

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

وإن المتأمل فى هذه الآيات ليراها قد رسمت للإنسان علاقته بربه علاقة ينال بها السعادة والثواب ، ورسمت له علاقته بأسرته بحيث تقوم على المودة والمحبة وسدت فى وجهه أبواب الشر التى تؤدى إلى انتهاك حرمات الأنفس والأموال والأعراض .

وقد أطلق العلماء على هذه الآيات الكريمة اسم «الوصايا العشر» نظرا لتذييل آياتها الثلاث بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ ﴾ .

وروى الترمذى ـ بسنده عن ابن مسعود أنه قال : من سره أن ينظر إلى وصية محمد التى عليها خاتمه فليقرأ هذه الآيات ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

وروى الحاكم وصححه وابن أبى حاتم عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : «أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث ، ثم تلا قوله ـ تعالى ـ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ﴾ حتى فرغ منها ثم قال : من وفى بهن أجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله ، إن شاء الله أخذه ، وإن شاء عفا عنه» .(١)

وروى البيهقى عن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال : لما أمر الله نبيه ﷺ أن يعرض

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٨٧ .

نفسه علي قبائل العرب خرج إلى منى وأنا وأبوبكر معه ، فوقف رسول الله ﷺ على منازل القوم ومضاربهم ، فسلم عليهم وردوا السلام ، وكان فى القوم مفروق بن عمرو وهانىء بن قبيصة والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك وكان مفروق بن عمرو أغلب القوم لسانا وأفصحهم بيانا ، فالتفت إلى رسول الله ﷺ وقال له :

إلام تدعو يا أخا قريش؟ فقال النبى ﷺ أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأنى رسول الله ، وأن تؤوونى وتنصرونى وتمنعونى حتى أؤدى حق الله الذى أمرنى به ، فإن قريشا تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد .

فقال له مفروق : وإلام تدعو أيضا يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث .

فقال له مفروق : وإلام تدعو أيضا يا أخا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه ، فتلا رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ الأية .

فقال له مفروق : دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، وقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك .

وقال هانىء بن قبيصة : قد سمعت مقالتك ، واستحسنت قولك يا أخا قريش ، ويعجبنى ما تكلمت به ، فبشرهم الرسول ـ إن آمنوا ـ بأرض فارس وأنهار كسرى .

فقال له النعمان : اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾ ثم نهض رسول الله ﷺ .

هذا جانب من فضائل هذه الآيات الثلاث ، وذلك هو تأثيرها فى نفوس العرب ، والآن فلنبدأ فى التفسير التحليلى لها فنقول :

لقد بدئت الآيات بقوله ـ تعالى ـ : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ .

أى : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين حللوا وحرموا حسب أهوائهم ، تعالوا إلىّ وأقبلوا نحوى لأبين لكم ما حرمه ربكم عليكم ، ولأتلو على مسامعكم ما أمركم به ، وما نهاكم عنه خالقكم ومربيكم ، فإنكم إن أقبلتم نحوى وأطعتمونى سعدتم فى دينكم ودنياكم .

وفى تصدير هذه الوصايا بكلمة ﴿قُلْ﴾ إشعار من أول الأمر بأن هذا بيان إلهى ، ليس

الرسول فيه إلا ناقلا مبلغا وفيه - أيضا - دلالة على أن المأمور به يحتاج إلى مزيد عناية واهتمام .

والأصل فى كلمة ﴿تَعَالَ﴾ أن يقولها من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه ، ثم اتسع فيها حتى عمت ، وهى تتضمن إرادة تخليص المخاطبين ورفعتهم من انحطاط هم فيه إلى علو يراد لهم ويدعون إليه ، وتتضمن كذلك أن المتكلم يريد منهم أن يلتفوا من حوله لتتحد وجهتهم ، ولا تتفرق بهم الأهواء والسبل .

وفى قوله : ﴿أَتْلُ﴾ إيماء قوى بأن المتكلم يقدر المخاطبين ، ويرتفع بهم إلى درجة أنهم لايحتاجون فى الإرشاد إلا لأن يتلو عليهم مايريدهم أن يعملوه ثم هم بعد ذلك سيمتثلون لحسن استعدادهم لقبول الحق .

- وإنه لأسلوب قد بلغ الغاية فى اللطف وفى التكريم وفى حسن الموعظة وتوجيه الخطاب .

- وخص التحريم بالذكر مع أن الوصايا قد اشتملت على المحرمات وعلى غيرها لأن سياق الآيات قبل ذلك كان منصبا على كشف ما اخترعه المشركون من تحريم فى الحرث والنسل ما أنزل الله به من سلطان ولأن بيان أصول المحرمات يستلزم حل ما عداها لأنه الأصل .

وفى نسبة التحريم إلى الرب الذى هو منبع الخير والإحسان ، حض لهم على التدبر والاستجابة ، لأن الذى حرم عليهم ذلك هو مربيهم ، فليس معقولا أن يحرم عليهم مافيه منفعة لهم ، وإنما هو بمقتضى ربوبيته قد حرم عليهم مافيه ضررهم .

قال بعض العلماء : وهذه العبارة التى قدمت بها الوصايا وهى ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ فيها إشعار بأن الحقائق الأولى التى قام عليها الجدال فى السورة قد أصبحت واضحة ، لامفر من قبولها والبناء عليها ، فالله - تعالى - يأمر رسوله بأن يبلغهم ، وإذن فهناك إله من شأنه أن يرسل الرسل ، وهناك رسل من شأنهم أن يتلقوا عن الله ، وهناك محرمات وردت من المصدر الذى يحق له التحريم وحده لأنه هو الرب ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ ثم هناك لازم عقلى لهذا التحريم هو أن من تعداه وانتهكه كان مغضبا للرب الذى قرره ، مستحقا لعقوبته ، وإذن فهناك دار للجزاء ،[1] ولننظر بعد ذلك فى الوصايا .

الوصية الأولى : ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أى : أوصيكم ألا تشركوا مع الله فى عبادتكم آلهة أخرى ، بل خصوه وحده بالعبادة والخضوع والطاعة فإنه هو الخالق لكل شىء .

---

(١) سورة الأنعام والأهداف الأولى للإسلام ص٩١ لفضيلة الاستاذ محمد المدنى - رحمه الله - .

وصدر ـ سبحانه ـ هذه الوصايا بالنهى عن الشرك ، لأنه أعظم المحرمات وأكبرها إفسادا للفطرة ، ولأنه هو الجريمة التى لاتقبل المغفرة من الله ، بينما غيره قد يغفره ـ سبحانه ـ قال ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ .

وقد ساق القرآن مئات الآيات التى تدعو إلى الإيمان وتنفر من الشرك وتقيم الأدلة الساطعة ، والبراهين الدامغة على وحدانية الله ـ عز وجل ـ .

أما الوصية الثانية : فى قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أى : أحسنوا بهما إحسانا كاملا لا إساءة معه .

وقد قرن ـ سبحانه ـ هذه الوصية بالوصية الأولى التى هى توحيده وعدم الإشراك به ، فى هذه الآية وفى غيرها ، للإشعار بعظم هذه الوصية وللتنبيه إلى معنى واحد يجمعها مع الأولى وهو أن المنعم يجب أن يشكر ، فالوالدان سبب فى حياة الولد فيجب أن يشكرهما ويحسن إليهما ، والله ـ تعالى ـ هو الخالق المنعم فيجب أن يشكر ويفرد بالعبادة والطاعة .

– قال بعض العلماء ـ وقد جاءت هذه الوصية بأسلوب الأمر بالواجب المطلوب وهو الإحسان إلى الوالدين ، ولم تذكر بأسلوب النهى عن المحرم وهو الإساءة سموا بالإنسان عن أن تظن به الاساءة إلى الوالدين ، وكأن الإساءة إليهما ، ليس من شأنها أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهى عنها ، ولأن الخير المنتظر من هذه الوصية وهو تربية الأبناء على الاعتراف بالنعم وشكر المنعمين عليها إنما يتحقق بفعل الواجب ، وهو الإحسان لابمجرد ترك المحرم وهو الإساءة ، لهذا وذاك قال ـ سبحانه ـ ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (١)

ثم جاءت الوصية الثالثة وهى قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ .

الإملاق : الفقر ، مصدر أملق الرجل إملاقا إذا احتاج وافتقر .

أى : لاتقتلوا أولادكم الصغار من أجل الفقر فنحن قد تكفلنا برزقكم ورزقهم .

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ .

ولاشك أن الحياة حق لهؤلاء الصغار كما أنها حق لكم ، فمن الظلم البين الاعتداء على حقوقهم ، والتخلص منهم خوفا من الفقر ، مع أن الله ـ تعالى ـ هو الرازق لكم ولهم .

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص٤٣٤ لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت .

والمجتمع الذى يبيح قتل الأولاد خوفا من الفقر أو خوفا من العار ، لايمكن أن يصلح شأنه ، لأنه مجتمع نفعى تسوده الأثرة والأنانية ، ويكون فى الوقت نفسه مجتمعا أفراده يسودهم التشاؤم ، وتتغشاهم الأوهام ، لأنهم يظنون أن الله يخلق خلقا لايدبر لهم حقهم من الرزق ، ويعتدون على روح بريئة طاهرة تخوفا من جريمة متوهمة وذلك هو الضلال المبين .

● وقد روى النهى عن قتل الأولاد هنا بهذه الصيغة ، وورد فى سورة الإسراء بصيغة أخرى هى قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ وليس إحداهما تكرارا للأخرى ، وإنما كل واحدة مهما تعالج حالة معينة .

● فهنا يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ أى : خوفا من فقر ليس حاصلا ، ولكنه متوقع بسبب الأولاد ولذا قال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ فقدم رزق الأولاد لأنهم سبب توقع الفقر ليكف الآباء عن هذا التوقع ، وليضمن للأولاد رزقهم ابتداء مستقلا عن رزق الآباء .

ففى كلتا الحالتين القرآن ينهى عن قتل الأولاد ، ويغرس فى نفوس الآباء الثقة بالله ، والاعتماد عليه .

وجملة ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ تعليلية لإبطال ما اتخذوه سببا لمباشرة جريمتهم ، وضمان منه ـ سبحانه ـ لأرزاقهم أى : نحن نرزق الفريقين لا أنتم وحدكم ، فلا تقدموا علي تلك الجريمة النكراء وهى قتل الأولاد لأن الأولاد قطعة من أبيهم ، والشأن حتى فى الحيوان الأعجم أنه يضحى من أجل أولاده ، ويحميهم ويتحمل الصعاب فى سبيلهم .

أما الوصية الرابعة فتقول : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ الفواحش : جمع فاحشة وهى ـ كما قال الراغب فى مفرداته ـ ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال يقال : فحش فلان ، أى صار فاحشا مرتكبا للقبائح ، والمتفحش هو الذى يأتى بالفحش من القول أو الفعل ، كالسرقة والزنا والنميمة وشهادة الزور .

وأنهاكم عن أن تقتربوا من الأقوال والأفعال القبيحة ما كان منها ظاهرا وما كان منها خافيا .

وقد تعلق التحريم والنهى بهذا الوصف الذى يشعر بالعلة ـ كما يقول علماء الأصول ـ فكأنه قال : إن كل قول أو فعل تستقبحه العقول فهو فاحشة يجب البعد عنها .

والمجتمع الذى يؤمن بأن هناك «فواحش» يجب أن تجتنب و«محاسن» يجب أن تلتمس هو المجتمع الفاضل ، الطهور .

أما المجتمع الذى يسوى بين القبيح والحسن ، ويقوم على الإباحة التى لاتفرق بين مايجب أن يفعل ومايجب أن يترك ، فلابد أن يكون مصيره إلى التدهور والتعاسة والمهانة .

وتعليق النهى بقربانها للمبالغة فى الزجر عنها لأن قربانها قد يؤدى إلى مباشرتها ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وهذا لون حكيم من ألوان الإصلاح ، لأنه إذا حصل النهى عن القرب من الشيء ، فلأن ينهى عن فعله من باب أولى .

ثم جاءت الآية فى ختامها بالوصية الخامسة فقالت : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ .

أى : لاتقتلوا النفس التى حرم الله قتلها بأن عصمها بالإسلام إلا بالحق الذى يبيح قتلها شرعا كردة أو قصاص أو زنا يوجب الرجم .

قال ابن كثير : وهذا مما نص - تبارك وتعالى - على النهى عنه تأكيدا ، وإلا فهو داخل فى النهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فقد جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «لايحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة» .(١)

وذلك لأن الإسلام ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناء بناه الله فلايحق لأحد أن يهدمه إلا بالحق ، وبذلك يقرر عصمة دم الإنسان ، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة فكأنما قد اعتدى على الناس جميعا : ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢]

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - : ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

أى : ذلكم الذى ذكرناه لكم من وصايا جليلة ، وتكاليف حكيمة ، وصاكم الله به ، وطلبه منكم ، لعلكم تستعملون عقولكم التى تعقل نفوسكم وتحبسها عن مباشرة القبائح .

هذه هى الوصايا الخمس التى تضمنتها الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث وكلها تشترك فى معنى واحد هو أنها حقائق أو حقوق ثابتة فى نفسها ، ولم يكن ثبوتها إلا تجاوبا مع الفطرة ، فالله واحد سواء آمن الناس بهذه الحقيقة عقيديا وعمليا أم لم يؤمنوا ،

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٩٠ .

وشكر النعمة يقتضى الإحسان إلى الوالدين طبعا ووضعا ، وللنسل حق الحياة والحفظ ، والفواحش فحش ونكر فى ذاتها فيجب أن تجتنب ، والنفوس معصومة فليس لأحد أن يهدمها إلا بحق ، ولاتفاقها كلها فى هذا المعنى جاءت فى آية واحدة ، وختمت بعبارة تفيد أن هذا مرجعه إلى حكم العقول ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

والوصية السادسة تأتى فى مطلع الآية الثانية فتقول : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ .

أى : ولاتقربوا مال اليتيم الذى فقد الأب الحانى ، ولاتتعرضوا لما هو من حقه بوجه من الوجوه إلا بالوجه الذى ينفعه فى الحال أو المآل ، كتربيته وتعليمه وحفظ ماله واستثماره .

وإذن ، فكل تصرف مع اليتيم أو فى ماله لايقع فى تلك الدائرة ـ دائرة الأنفع والأحسن ـ محظور ومنهى عنه .

قال بعض العلماء وكثيرا ما يتعلق النهى فى القرآن بالقربان من الشىء ، وضابطه بالاستقراء : أن كل منهى عنه كان من شأنه أن تميل إليه النفوس وتدفع إليه الأهواء النهى فيه عن «القربان» ويكون القصد التحذير من أن يأخذ ذلك الميل فى النفس مكانة تصل بها إلى اقتراف الحرم ، وكان من ذلك فى الوصايا السابقة النهى عن الفواحش ، ومن هذا الباب ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ . ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ . ﴿ لا تقربوهن حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ إلخ .

أما المحرمات التى لم يؤلف ميل النفوس إليها ولا اقتضاء الشهوات لها ، فإن الغالب فيها أن يتعلق النهى عنها بنفس الفعل لا بالقربان منه ، ومن ذلك فى الوصايا السابقة الشرك بالله ، وقتل الأولاد ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها ، فإنها وإن كان الفعل المنهى عنه فيها أشد قبحا وأعظم جرما عند الله من أكل مال اليتيم وفعل الفواحش ، إلا أنها ليست ذات دوافع نفسية يميل إليها الإنسان بشهوته ، وإنما هى فى نظر العقل على المقابل من ذلك يجد الإنسان فى نفسه مرارة من ارتكابها ولايقدم عليها إلا وهو كاره لها أو فى حكم الكاره .[1]

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ ليس غاية للنهى ، إذ ليس المعنى فإذا بلغ أشده فاقربوه لأن هذا يقتضى إباحة أكل الولى له بعد بلوغ الصبى ، بل هو غاية لمايفهم من النهى كأنه قيل : احفظوه حتى يصير بالغا رشيدا فحينئذ سلموا إليه ماله .

والخطاب للأولياء والأوصياء ، أى : احفظوا ماله حتى يبلغ الحلم فإذا بلغه فادفعوه إليه .

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص٤٤١ لفضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت .

والأشد : قوة الإنسان واشتعال حرارته : من الشدة بمعنى القوة والارتفاع ، يقال : شد النهار إذا ارتفع ، وهو مفرد جاء بصيغة الجمع ، ولا واحد له .

والوصية السابعة : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ .

أى : أتموا الكيل إذا كلتم للناس أو اكتلتم عليهم لأنفسكم ، وأوفوا الميزان إذاوزنتم لأنفسكم فيما تبتاعون أو لغيركم فيما تبيعون .

فالجملة الكريمة أمر من الله ـ تعالى ـ لعباده بإقامة العدل فى التعامل : بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان ولابخس ، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طالب الزيادة .

وهذه الوصية هى مبدأ العدل والتعادل ، وكل مجتمع محتاج إليها ، فالناس لابد لهم من التعامل ولابد لهم من التبادل ، والكيل والوزن هما وسيلتا ذلك ، فلابد من أن يكونا منضبطين بالقسط .

والمجتمعات الأمينة التى لاتجد فيها أحدا يغبن عن جهل أو غفلة ، وهى أيضا المجتمعات الأمينة التى لاتجد فيها من يحاول أن يأخذ أكثر من حقه ، أو يعطى أقل مما يجب عليه .

وقوله : ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ أى : لانكلف نفسا إلا ما يسعها ولايعسر عليها ، والجملة مستأنفة جىء بها عقيب الأمر بإيفاد الكيل والميزان بالعدل ، للترخيص فيما خرج عن الطاقة ، ولبيان قاعدة من قواعد الإسلام الرافعة للحرج وذلك لأن التبادل التجارى لايمكن أن يتحقق على وجه كامل من المساواة أو التعادل ، فلابد من تقبل اليسير من الغبن فى هذا الجانب أو ذاك .

والوصية الثامنة تقول : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ .

أى : وإذاقلتم قولا فاعدلوا فيه ولوكان المقول له أو عليه صاحب قرابة منكم .

إذ العدل هو أساس الحكم السليم : العدل فى القول والعدل فى الحكم ، والعدل فى كل فعل .

وإنما خصصت الآية العدل فى القول مع أن العدل مطلوب فى الأقوال والأفعال وفى كل شىء ، لأن أكثر مايكون فيه العدل أقوال كالشهادة ، والحكم ، ثم الأقوال هى التى تراود النفوس فى كل حال ، فالإنسان حين تصادفه قضية من القضايا القولية أو العملية يحدث نفسه فى شأنها ويراوده معنى العدل وكأنه يطالبه بأن ينطق به ويؤيده ، فيقول فى نفسه سأفعل كذا لأنه العدل ، فإذا لم يكن صادقافى هذا القول فقد جافى العدل وقال زورا وكذبا .

أما قوله : ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ فهو أخذ بالإنسان عما جرت به عادته من التأثر بصلات القربى فى المحاباة للأقرباء والظلم لغيرهم .

فالقرآن يرتفع بالضمير البشرى إلى مستوى سامق رفيع ، على هدى من العقيدة فى الله ، بأن يكلف بتحرى العدل فى كل أحواله ولو إزاء أقرب المقربين إليه .

أما **الوصية التاسعة والأخيرة** فى هذه الآية فهى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ .

أى : كونوا أوفياء مع الله فى كل ما عهد إليكم به من العبادات والمعاملات وغيرها .

إذ الوفاء أصل من الأصول التى يتحقق بها الخير والصلاح ، وتستقر عليها أمور الناس .

ثم ختمت الآية بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أى : ذلكم المتلو عليكم فى هذه الآية من الأوامر والنواهى وصاكم الله به فى كتابه رجاء أن تتذكروا وتعتبروا وتعملوا بما أمرتم به وتجتنبوا ما نهيتم عنه أو رجاء أن يذكر بعضكم بعضا فإن التناصح واجب بين المسلمين .

أما **الوصية العاشرة** فهى قوله ـ تعالى ـ فى الآية الثالثة من هذه الآيات : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ .

أى : ولأن هذا الذى وصيتكم به من الأوامر والنواهى طريقى ودينى الذى لا اعوجاج فيه ، فمن الواجب عليكم أن تتبعوه وتعملوا به .

وقوله : ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ يعنى الأديان الباطلة ، والبدع والضلالات الفاسدة ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أى : فتفرقكم عن صراط الله المستقيم وهو دين الإسلام الذى ارتضاه لكم .

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : خط لنا رسول الله ﷺ خطا ثم قال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله ثم قال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ .

وقد أفرد ـ سبحانه ـ الصراط المستقيم وهو سبيل الله ، وجمع السبل المخالفة له لأن الحق واحد والباطل ما خالفه وهو كثير فيشمل الأديان الباطلة ، والبدع الفاسدة ، والشبهات الزائفة ، والفرق الضالة وغيرها .

ثم ختمت الآية بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أى : ذلكم

المذكور من اتباع سبيله ـ تعالى ـ وترك اتباع السبل وصاكم الله به لعلكم تتقون اتباع سبل الكفر والضلالة ، وتعملون بما جاءكم به هذا الدين .

وبعد : فهذه هى الوصايا العشر التى جاءت بها هذه الآيات الكريمة ، والمتأمل فيها يراها قد وضعت أساس العقيدة السليمة فى توحيد الله ـ تعالى ـ وبنت الأسرة الفاضلة على أساس الإحسان بالوالدين والرحمة بالأبناء وحفظت المجتمع من التصدع عن طريق تحريمها لانتهاك الأنفس والأموال والأعراض ، ثم ربطت كل ذلك بتقوى الله التى هى منبع كل خير وسبيل كل فلاح ، ثم هى بعد كل ذلك واضحة وضوح الشمس فيما أمرت به من فضائل ، وفيما نهت عنه من رذائل .

فأين المسلمون اليوم من هذه الوصايا؟ إنهم لو عملوا بها لعزوا فى دنياهم ولسعدوا فى أخراهم ، فهل تراهم فاعلون؟

اللهم خذ بيدنا إلى ما يرضيك وجنبنا مالا يرضيك .

٢ ـ وفى سورة «النحل» آية كريمة عندما استمع إليها بعض العقلاء وتذوق ما فى توجيهاتها من وضوح وإشراق وإرشاد حكيم ، ما كان منه إلا أن قال : لو لم يكن ما جاء به محمد ﷺ من عند ربه دينا ، لكان فى عرف الناس حسنا .

وهذه الآية الكريمة ، هى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ .

والمعنى : إن الله ـ تعالى ـ يأمركم ـ أيها المسلمون ـ أمرا دائما وواجبا ، أن تلتزموا الحق والإنصاف فى كل أقوالكم وأفعالكم وأحكامكم ، وأن تلتزموا التسامح والعفو والمراقبة لله ـ تعالى ـ فى كل أحوالكم .

كما يأمركم أن تقدموا لأقاربكم على سبيل المعاونة والمساعدة ، ما تستطيعون تقديمه لهم من خير وبر .

لأن هذه الفضائل متى سرت بينكم ، نلتم السعادة فى دينكم ودنياكم ، إذ بالعدل ينال كل صاحب حق حقه ، وبالإحسان يكون التحاب والتواد والتراحم ، وبصلة الأقارب يكون التكافل والتعاون .

وبعد أن أمر ـ سبحانه ـ بأمهات الفضائل ، نهى عن رؤوس الرذائل فقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ .

والفحشاء : كل ما اشتد قبحه من قول أو فعل ، وخصها بعضهم بالزنا .

والمنكر : كل ما أنكره الشرع بالنهى عنه ، فيعم جميع المعاصى والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها .

والبغى : هو تجاوز الحد فى كل شىء يقال : بغى فلان على غيره ، إذا ظلمه وتطاول عليه ، وأصله من بغى الجرح إذا ترامى إليه الفساد .

أى : كما أمركم ـ سبحانه ـ بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، فإنه ـ تعالى ـ ينهاكم عن كل قبيح وعن كل منكر ، وعن كل تجاوز لما شرعه الله ـ عز وجل ـ .

وذلك لأن هذه الرذائل ما شاعت فى أمة إلا وكانت عاقبتها خسرا ، وأمرها فرطا ، والفطرة البشرية النقية تأبى الوقوع أو الاقتراب من هذه الرذائل ، لأنها تتنافى مع العقول السليمة ، ومع الطباع القويمة .

ومهما روج الذين لم ينبتوا نباتا حسنا لتلك الرذائل ، فإن النفوس الطاهرة تلفظها بعيدا عنها ، كما يلفظ الجسم الأشياء الغريبة التى تصل إليه .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله ـ : ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أى : ينبهكم ـ سبحانه ـ أكمل تنبيه وأحكمه إلى ما يصلحكم عن طريق اتباع ما أمركم به وما نهاكم عنه ، لعلكم بذلك تحسنون التذكر لما ينفعكم ، وتعملون بمقتضى ما علمكم ـ سبحانه ـ .

هذا ، وقد ذكر المفسرون فى فضل هذه الآية كثيرا من الآثار والأقوال ، ومن ذلك ما أخرجه الحافظ أبويعلى فى كتاب معرفة الصحابة ، قال : بلغ أكثم بن صيفى مخرج النبى ﷺ فأراد أن يأتيه ، فأبى قومه أن يتركوه وقالوا له : أنت كبيرنا لم تكن لتذهب إليه ، فقال لهم : فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه ، فقام رجلان فأتيا النبى ﷺ فقالا له : نحن رسل أكثم بن صيفى وهو يسألك من أنت وما أنت؟ فقال النبى ﷺ : «أما أنا فمحمد بن عبدالله ، وأما ما أنا ، فأنا عبدالله ورسوله» .

ثم تلا عليهم هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ .. ﴾ الآية .

فقالوا : ردد علينا هذا القول ، فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتيا أكثم فقالا له : أبى أن يرفع نسبه فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب ، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها فلما سمعهن أكثم قال : إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها ، فكونوا فى هذا الأمر رؤوسا ولا تكونوا فيه أذنابا ، وإن ما جاء به محمد من عند ربه لو لم يكن دينا لكان فى عرف الناس حسنا .[1]

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥٨٣ .

٣ ـ وفى سورة «الأعراف» آيات كريمة فيها من الوضوح مافيها ، لما أباحه الله ـ تعالى ـ لعباده من طيبات ، ولما حرمه من خبائث والقارئ لها بتدبر وتفكر ، يرى كيف أن شريعة الإسلام التى جاء بها سيدنا رسول الله ﷺ من عند ربه ـ عز وجل ـ قد اشتملت على كل ما ترتاح إليه العقول السليمة ، وتنشرح له الصدور النقية ، وتحبه النفوس السوية .

وهذه الآيات هى قوله ـ عز وجل ـ :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾ .

والمعنى : عليكم يا بنى آدم أن تتجملوا بما يستر عورتكم ، وأن تتحلوا بلباس زينتكم كلما صليتم أو طفتم .

ثم أمرهم ـ سبحانه ـ أن يتمتعوا بالطيبات بدون إسراف أو تقتير فقال : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

أى : كلوا من المآكل الطيبة ، واشربوا المشارب الحلال ولا تسرفوا لا فى زينتكم ولا فى مأكلكم أو مشربكم ، لأنه ـ سبحانه ـ يكره المسرفين .

قال الإمام ابن كثير : قال بعض السلف : جمع الله الطب فى نصف آية فى قوله : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾ وقال البخارى : قال ابن عباس : «كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة» .[١]

وقد كان السلف الصالح يقفون بين يدى الله فى عبادتهم وهم فى أكمل زينة فهذا ـ مثلا ـ الإمام الحسن بن على ، كان إذا قام إلى الصلاة لبس أحسن ثيابه فقيل له : يا ابن بنت رسول الله لم تلبس أجمل ثيابك؟ فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، فأنا أتجمل لربى ، لأنه هو القائل :

﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [٢]

فهذه الآية الكريمة تهدى الناس إلى ما يصلح معاشهم ومعادهم ، إذ أنها أباحت للمسلم أن يتمتع بالطيبات التى أحلها الله ، ولكن بدون إسراف أو بطر ، ولذا جاء الرد على المتنطعين الذين يضيقون على أنفسهم ما وسعه الله فى قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢١ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ٨ ص١٠٨ .

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾ .

أى : قل يا محمد لأولئك الذين يمتنعون عن أكل الطيبات : من أين أتيتم بهذا الحكم الذى عن طريقه حرمتم على أنفسكم بعض ما أحله الله لعباده؟ فالاستفهام لإنكار ما هم عليه بأبلغ وجه .

ثم أمر رسوله أن يرد عليهم بأبلغ رد فقال : ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .

أى : قل أيها الرسول لأمتك : هذه الزينة والطيبات من الرزق ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويشاركهم فيها المشركون أيضا ، أما فى الآخرة فهى خالصة للمؤمنين ولا يشاركهم فيها أحد ممن أشرك مع الله آلهة أخرى .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ معناه : مثل تفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام لقوم يعلمون ما فى تضاعيفها من توجيهات سامية ، وآداب عالية .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك ألوانا من المحرمات التى نهى عباده عن اقترافها فقال ـ تعالى ـ :

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾ .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء الذين ضيقوا على أنفسهم ما وسعه الله ، قل لهم : إن ما حرمه الله عليكم فى كتبه وعلى ألسنة رسله هو هذه الأنواع الخمس التى أولها ﴿الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أى : ما كان قبيحا من الأقوال والأفعال سواء أكان فى السر أو العلن ، وثانيها وثالثها : ﴿وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ والإثم : هو الشىء القبيح الذى فعله يعتبر معصية ، والبغى : و الظلم والتطاول على الناس وتجاوز الحد .

قال الإمام ابن كثير : «وحاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه ، والبغى هو التعدى على الناس ، فحرم الله هذا وهذا» .(١)

وقيد البغى بكونه بغير الحق ، لأنه لايكون إلا كذلك ، إذ معناه فى اللغة تجاوز الحد ، يقال : بغى الجرح ، إذ تجاوز الحد فى فساده .

ورابع الأمور التى حرمها الله أخبر عنه القرآن بقوله : ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ .

أى : وحرم عليكم أن تجعلوا لله شركاء فى عبادته بدون حجة وبرهان ، وقوله : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ بيان للواقع من شركهم ، إذ أنهم لاحجة عندهم على شركهم : لا من العقل ولا من النقل .

فالجملة الكريمة قد اشتملت على التهكم بالمشركين وتوبيخهم على كفرهم .

وخامسها قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ أى حرم عليكم أن تقولوا قولا يتعلق بالعبادات أو المحللات أو المحرمات أو غيرها بدون علم منكم بصحة ما تقولون ، وبغير بينة علي صدق ما تدعون .

قال صاحب المنار : «ومن تأمل هذه الآية حق التأمل ، فإنه يجتنب أن يحرم على عباد الله شيئا أو يوجب عليهم شيئا فى دينهم بغير نص صريح عن الله ورسوله ، بل يجتنب ـ أيضا ـ أن يقول : هذا مندوب أو مكروه فى الدين بغير دليل واضح من النصوص ، وما أكثر الغافلين عن هذا المتجرئين على التشريع» .(٢)

هذه بعض الآيات القرآنية التى نأخذ منها أن شريعة الإسلام ، التى جاء بها الرسول ﷺ من ربه ـ عز وجل ـ تمتاز بالوضوح الذى ترتاح له النفوس الكريمة ، وتهواه العقول السليمة ، وتطمئن إليه الأفئدة الخالية من العناد والحقد والجحود والجهل .

كما تمتاز ـ أيضا ـ برعايتها لمصالح الناس ، فحيث تكون المصلحة يكون حكمها ، وحيث لا تكون ينتفى حكمها .

كما تمتاز ـ كذلك ـ بقيامها على السماحة واليسر ورفع الحرج ، فى كل ما جاءت به من أحكام ، ويكفى فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٢٢ .

(٢) تفسير المنار جـ٨ ص٣٩٩ .

وقـول رسـوله ﷺ : «إن الـدين يسـر ، ولن يشـاد الـدين أحـد إلا غلبـه ، فـسـددوا ، وقاربوا ، وأبشروا . .» .

وشريعة هذه بعض مزاياها وخصائصها ، جدير بمن هداه الله ـ تعالى ـ إليها ، أن يردد دائما قوله ـ تعالى ـ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ .

٨ـ درء الشبهات عن رسالته ﷺ

١ ـ أثار المشركون ومن فى قلوبهم مرض ، كثيرا من الشبهات الفاسدة ، والاعتراضات المتعنتة ، والأقاويل الكاذبة ، حول رسالة النبى ﷺ .

وقد حكى القرآن الكريم كل هذه الشبهات والاعتراضات والأقاويل ، كما نطق بها مروجوها ، ثم رد عليها بما يدحضها ، وبما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، وثباتا على ثباتهم .

وهذه الشبهات والاعتراضات التى أثارها الذين عموا وصموا عن الحق ، منها : ما يتعلق بوحدانية الله ـ تعالى ـ ومنها : ما يتعلق بشخصية النبى ـ ومنها : ما يتعلق بالبعث والحساب فى الآخرة ، ومنها : ما يتعلق بالقرآن الكريم ، ومنها : ما يتعلق بالقضاء والقدر ، ومنها : ما يتعلق بغير ذلك من أحداث سجلها القرآن الكريم ثم رد عليها بما يحق الحق ويبطل الباطل .

ومن الآيات القرآنية التى قصت علينا بعض هذه الأقاويل الفاسدة التى تفوه بها أعداء الدعوة الإسلامية ، ثم ردت عليها بما يخرس ألسنة أصحابها قوله ـ تعالى ـ فى أوائل سورة «ص» :

وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : أن جماعة من قريش اجتمعوا فى نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى أبى طالب ، لنكلمه فى شأن ابن اخيه ، فلما دخلوا على أبى طالب قالوا له : أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك ، فمره فليكف عن شتم آلهتنا ، وندعه وإلهه .

فقال أبوطالب للنبى ﷺ يا ابن أخى هؤلاء مشيخة قريش ، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك .

فقال ﷺ : «ياعم ، أفلا أدعوهم إلى ماهو خير لهم؟ قال : وإلام تدعوهم؟ قال : أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم» .

فقال أبوجهل من بين القوم : ماهى وأبيك؟ لنعطينها لك وعشرة أمثالها ، فقال ﷺ : «تقولون : لا إله إلا الله» .

فنفر أبوجهل وقال : سلنا غير هذا .

فقال ﷺ : «لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ، ما سألتكم غيرها» .

فقاموا غضابا ، وقالوا : والله لنشتمنك وإلهك الذى أرسلك بهذا .[1]

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَعَجِبُوا . . ﴾ مأخوذ من العجب ، وهو تغير فى النفس من أمر لاترتاح إليه ، وتخفى لديها أسبابه .

أى : وعجب هؤلاء الكافرون من مجىء منذر منهم ينذرهم بسوء عاقبة الشرك ، ويأمرهم بعبادة الله ـ تعالى ـ وحده .

﴿ وَقَالَ ﴾ هؤلاء ﴿ الْكَافِرُونَ ﴾ عندما دعاهم الرسول ﷺ إلى الدين الحق .

﴿ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ أى : قالوا : هذا الرسول ساحر لأنه يأتينا بخوارق لم نألفها ، وكذاب فيما يسنده إلى الله ـ تعالى ـ من أنه ـ سبحانه ـ أرسله إلينا .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ بالإظهار دون الإضمار ، لتسجيل الكفر والجحود عليهم ، وللإيذان بأن كفرهم هو الباعث لهم على وصف الرسول ﷺ بما هو منزه عنه من السحر والكذب .

ثم أضافوا إلى هذا القول الباطل ، أقوالا أخرى لاتقل عن غيرها فى البطلان والفساد ، فقالوا ـ كما حكى القرآن ـ : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٧ ص٤٦ .

والاستفهام للإنكار، أى: أجعل محمد ﷺ الآلهة المتعددة، إلها واحدا، وطلب منا أن ندين له بالعبادة والطاعة؟

﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أى: إن هذا الذى طلبه منا، ودعانا إليه، لشىء قد بلغ النهاية فى العجب والغرابة ومجاوزة مايقبله العقل.

و ﴿عُجَابٌ﴾ أبلغ من عجيب، لأنك تقول فى الرجل الذى فيه طول: هذا رجل طويل، بينما تقول فى الرجل الذى تجاوز الحد المعقول فى الطول: هذا رجل طوال.

فلفظ ﴿عُجَابٌ﴾ صيغة مبالغة سماعية، وقد حكاها - سبحانه - عنهم للإشارة إلى أنهم كانوا يرون - لجهلهم وعنادهم - أن ما جاء هم به الرسول ﷺ هو شىء قد تجاوز الحد فى العجب والغرابة.

واسم الإشارة يعود إلى جعله ﷺ الآلهة إلها واحدا، لأنهم يرون - لانطماس بصائرهم - أن ذلك مخالفة تامة لما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من عبادة للأصنام.

وما كان مخالفا لما ورثوه عن آبائهم فهو - فى زعمهم - متجاوز الحد فى العجب.

ثم صور - سبحانه - حرصهم على صرف الناس عن دعوة الحق، تصويرا بديعا، فقال: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾.

أى: وانطلق الأشراف من قريش عن مجلس أبى طالب، بعد أن سمعوا من الرسول ﷺ ما أغضبهم وخيب آمالهم.

انطلقوا يقولون: أن امشوا فى طريقكم التى كان عليها آباؤكم واصبروا على عبادة آلهتكم مهما هون محمد ﷺ من شأنها، ومهما نهى عن عبادتها.

﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أى: إن هذا الذى يدعونا إليه محمد ﷺ من عبادة الله - تعالى - وحده وترك عبادة آلهتنا لشىء يراد من جهته هو، وهو مصمم عليه كل التصميم، ونحن من جانبنا يجب أن نقابل تصميمه على دعوته، بتصميم منا على عبادة آلهتنا.

وعلى هذا المعنى تكون الإشارة هنا عائدة إلى مايدعوهم إليه النبى ﷺ من عبادة الله وحده.

ويصح أن تكون الإشارة إلى دينهم هم، فيكون المعنى: إن هذا الدين الذى نحن عليه لشىء يراد لنا، وقد وجدنا عليه آباءنا ومادام الأمر كذلك فلن نتركه مهما كرَّهنا فيه محمد ﷺ.

قال الآلوسى : قوله : ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ تعليل للأمر بالصبر ، والإشارة إلى ما وقع وشاهدوه من أمر النبى ﷺ وتصلبه فى أمر التوحيد ، ونفى ألوهية آلهتهم .

أى : إن هذا لشىء عظيم يراد من جهته - ﷺ - إمضاؤه وتنفيذه ، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله إلى إرادتكم ، واصبروا على عبادة آلهتكم ، وقيل : إن هذا الأمر لشىء من نوائب الدهر يراد بنا ، فلاحيلة إلا تجرع مرارة الصبر .

وقيل : إن هذا - أى : دينكم - يُطلب لينتزع منكم ويطرح ويراد إبطاله .(١)

ثم يضيفون إلى ذلك قولهم : ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ أى : ما سمعنا بهذا الدين الذى يدعونا إليه محمد ﷺ فى ملة العرب التى أدركنا عليها آباءنا ، أو ما سمعنا بهذا الذى يقوله محمد ﷺ فى الملّة الآخرة ، وهى ملة عيسى - عليه السلام - فإن أتباعه يقولون بالتثليث ، ويقولون بأنه الدين الذى جاء به عيسى .

وعلى هذين القولين يكون قوله : ﴿فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ متعلق بسمعنا .

ويصح أن يكون المعنى : ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه محمد ﷺ كائنا فى الملة التى تكون فى آخر الزمان ، والتى حدثنا عنها الكهان وأهل الكتاب .

وعلى هذا الرأى يكون قوله : ﴿فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ حالا من اسم الإشارة وليس متعلقا بسمعنا .

ثم أكدوا نفيهم لعدم سماعهم لما جاءهم به الرسول ﷺ بقولهم : ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ﴾ أى : ما سمعنا شيئا مما يقوله ، وما يقوله ما هو إلا كذب وتخرص اختلقه من عند نفسه ، دون أن يسبقه إليه أحد .

يقال : اختلق فلان هذا القول ، إذا افتراه واصطنعه واخترعه من عند نفسه ، دون أن يكون له أصل من الواقع .

ثم صرحوا فى نهاية المطاف بالسبب الحقيقي الذى حال بينهم وبين الإيمان ، ألا وهو الحقد والحسد ، وإنكار أن يختص الله - تعالى - رسوله من بينهم بالرسالة ، فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ .

والاستفهام للإنكار والنفى ، أى : كيف يدعى محمد ﷺ أنه قد أنزل عليه القرآن من بيننا ، ونحن السادة الأغنياء العظماء ، وهو دوننا فى ذلك؟ إننا ننكر وننفى دعواه النبوة من بيننا .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ٢٣ ص١٦٧ .

قال صاحب الكشاف : أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم ، كما قالوا : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم من الحسد على ما أوتى من شرف النبوة من بينهم .(١)

ولقد حكى القرآن أحقادهم هذه على النبى ﷺ فى آيات كثيرة ورد عليها بما يبطلها ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . . ﴾ . (٢)

ولقد صرح أبوجهل بهذا الحسد للنبى ﷺ فعندما سأله سائل ، أتظن محمدا على حق أم على باطل؟ كان جوابه : إن محمدا لعلى حق ولكن متى كنا لبنى هاشم تبعا ، أى : متى كانت عشيرتنا تابعة لبنى هاشم!

وفى رواية أنه قال : تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه؟ والله لانؤمن به أبدا ولانصدقه .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ﴾ إضراب عن كلام يفهم من السياق ، وتسلية للرسول ﷺ عما أصابه منهم من أذى .

أى : هؤلاء الجاحدون الحاقدون لم يقطعوا برأى فى شأنك ـ أيها الرسول الكريم ـ وفى شأن ما جئتهم به ، ولم يستندوا فى أقوالهم إلى دليل أو ما يشبه الدليل ، وإنما هم فى شك من هذا القرآن الذى أيدناك به ، بدليل أنك تراهم يصفونك تارة بالسحر ، وتارة بالكهانة ، وتارة بالشعر ، ولو عقلوا وأنصفوا لآمنوا بك وصدقوك .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ إضراب عن مجموع الكلامين السابقين المشتملين على الحسد والشك .

أى : لاتحزن ـ أيها الرسول الكريم ـ من مسالكهم الخبيثة ، وأقوالهم الفاسدة ، فإنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم لم يذوقوا عذابى بعد ، فإذا ذاقوه زال حسدهم وشكهم ، وتيقنوا بأنك على الحق المبين ، وهم على الباطل الذى لايحوم حوله حق .

وفى التعبير بقوله : ﴿ لَمَّا ﴾ إشارة إلى أن نزول العذاب بهم وتذوقهم له ، قريب الحصول .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٤ ص٧٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٤ .

ثم أنكر عليهم - سبحانه - بعد ذلك اعتراضهم على اختيار نبيه ﷺ للرسالة ، وساق هذا الإنكار بأسلوب توبيخى تهكمى فقال - تعالى - : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ أى : أنهم لم يملكوا خزائن رحمة ربك - أيها الرسول الكريم - حتى يعطوا منها من يشاءون ويمنعوها عمن يشاءون ، ويتخيروا للنبوة صناديدهم ويترفعوا بها عنك ، وإنما المالك لكل ذلك هو الله - تعالى - العزيز الذى لا يغلبه غالب - الوهاب ، أى : الكثير العطاء لعباده .

والمراد بالعندية فى قوله : ﴿ عِندَهُمْ ﴾ الملك والتصرف ، وتقديم الظرف «عند» لأنه محل الإنكار ، وفى إضافة الرب - عز وجل - إلى الضمير العائد إلى النبى ﷺ تشريف وتكريم له ﷺ .

وجىء بصفة ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ للرد على ما كانوا يزعمونه لأنفسهم وآلهتهم من ترفع وتكبر .

كما جىء بصفة ﴿ الْوَهَّابِ ﴾ للإشارة إلى أن النبوة هبة من الله - تعالى - لمن يختاره من عباده ، وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته .

وقوله - عز وجل - : ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا .. ﴾ تأكيد لما أفادته الآية السابقة من عدم ملكيتهم لشىء من خزائن الله - تعالى - أى : أن هؤلاء الكافرين ليست عندهم خزائن ربك - أيها الرسول الكريم - وليسوا بمالكين شيئا - أى شىء - من هذه العوالم العلوية أو السفلية ، وإنما هم خلق صغير من خلقنا العظيم الكبير .

وقوله - سبحانه - : ﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ ﴾ تعجيز لهم ، وتهكم بهم واستخفاف بأقوالهم ومزاعمهم ، والأسباب : جمع سبب وهو كل ما يتوصل به إلى غيره من حبل أو نحوه .

والفاء جواب لشرط محذوف ، والتقدير : إن كان عندهم خزائن رحمتنا ، ولهم شىء من ملك السموات والأرض وما بينهما ، فليصعدوا فى الطرق التى توصلهم إلى ما نملكه حتى يستولوا عليه ، ويدبروا أمره ، وينزلوا الوحى على من يختارونه للنبوة من أشرافهم وصناديدهم .

فالجملة الكريمة قد اشتملت على نهاية التعجيز لهم ، والتهكم بهم وبأقوالهم حيث بين - سبحانه - أنهم أدعياء فيما يزعمون ، وأنهم يهرفون بما لا يعرفون .

ثم بشر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ بالنصر عليهم فقال : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴾ .

ولفظ ﴿ جُندٌ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، و﴿ مَّا ﴾ مزيدة للتقليل والتحقير ، نحو قولك : أكلت شيئا ما ، أى : شيئا قليلا ، وقيل : هى للتكثير والتهويل كقولهم : لأمر ما جدع قصير أنفه .

أى : لأمر عظيم ، وعلى كلا المعنيين فالمقصود أنهم لاوزن لهم بجانب قدرة الله ـ تعالى ـ .

و﴿ مَهْزُومٌ ﴾ خبر ثان للمبتدأ المقدر ، وأصل الهزم : غمز الشىء اليابس حتى يتحطم ويكسر .

يقال : تهزمت القربة ، بمعنى يبست ، وتكسرت ، وهُزم الجيش بمعنى غُلب ، وكسر .

والمعنى : هؤلاء المشركون ـ أيها الرسول الكريم ـ لاتهتم بأمرهم ، ولاتكترث بجموعهم ، فهم سواء أكانوا قليلين أم كثيرين ، لاقيمة لهم بجانب قوتنا التى لايقف أمامها شىء ، ومهما تحزبوا عليك فهم جند مهزومون ومغلوبون أمام قوة المؤمنين فى مواطن متعددة .

فالآية الكريمة بشارة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ .

قال صاحب الكشاف : قوله : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴾ يريد ماهم إلا جيش من الكفار المتحزبين على رسل الله مهزوم مكسور عما قريب ، فلا تبال بما يقولون ، ولاتكترث لما به يهذون ، و﴿ مَّا ﴾ مزيدة وفيها معنى الاستعظام إلا أنه على سبيل الاستهزاء بهم ، و﴿ هُنَالِكَ ﴾ إشارة حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم ، من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله : لست هنالك .(١)

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت أقوال المشركين ، وردت عليها ردا يكبتهم ويزهق باطلهم ، وختمت بما يبشر المؤمنين بالنصر عليهم .

٢ ـ ومن الآيات القرآنية التى حكت شبهات المشركين حول وحدانية الله ـ تعالى ـ ووجوب إخلاص العبادة له عز وجل ـ وأمرت النبى ﷺ أن يرد عليهم بما يخرس ألسنهم ، وبما يبطل شبهاتهم ويهدم اعتراضاتهم .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٤ ص٧٥ .

من هذه الآيات قوله - تعالى - فى سورة «الإسراء» :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ .

وللمفسرين فى تفسير الآية الأولى اتجاهان : أما الاتجاه الأول فيرى أصحابه أن المعنى :

قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين ، لو كان مع الله - تعالى - آلهة أخرى - كما يزعمون - إذا لطلبوا إلى ذى العرش - وهو الله عز وجل - طريقا وسبيلا لتوصلهم إليه ، لكى ينازعوه فى ملكه ، ويقاسموه إياه ، كما هى عادة الشركاء ، وكما هو ديدن الرؤساء والملوك فيما بينهم .

قال - تعالى - : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ . (١)

وقال - سبحانه - : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ . (٢)

وهذا الاتجاه قد صدر به صاحب الكشاف كلامه فقال ما ملخصه : قوله : ﴿ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ جواب عن مقالة المشركين أى : إذا لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة ، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض .(٣)

وأما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه أن المعنى : قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين ، لو كان مع الله - تعالى - آلهة أخرى - كما يزعمون ، إذا لابتغوا - أى الآلهة المزعومة - إلى ذى العرش سبيلا وطريقا ليقتربوا إليه ، ويعترفوا بفضله ، ويخلصوا له العبادة ، كما قال - تعالى - : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (٤)

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٩١ .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .
(٣) تفسير الكشاف جـ٢ ص٤٥١ .
٤) سورة الإسراء الآية ٥٧ .

وقد اقتصر ابن كثير على هذا الوجه في تفسيره للآية فقال : يقول ـ تعالى ـ :قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكا من خلقه ، لو كان الأمر كما تقولون ، من أن معه آلهة تعبد ، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه يبتغون إليه الوسيلة والقربة .(1)

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أن الرأى الأول أظهر لأن فى الآية فرض المحال ، وهو وجود الآلهة مع الله ـ تعالى ـ وافتراض وجودها المحال لايظهر منه أنها تتقرب إليه ـ سبحانه ـ بل الذى يظهر منه أنها تنازعه لو كانت موجودة ، ولأن هذا الرأى يناسبه ـ أيضا ـ قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً ﴾ .

أى : تنزه الله ـ تعالى ـ عما يقوله المشركون فى شأنه وتباعد ، وعلا علوا كبيرا فإنه ـ جل شأنه ـ لا ولد له ، فلا شريك له .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ .

والتعبير بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ إِذاً لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ يشير إلى الارتفاع والتسامى على تلك الآلهة المزعومة ، وأنها دون عرشه ـ تعالى ـ وتحته ، وليست معه .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن جميع الكائنات تسبح بحمده فقال ـ تعالى ـ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ .

والتسبيح : مأخوذ من السبح ، وهو المر السريع فى الماء أو فى الهواء ، فالمسبح مسرع فى تنزيه الله وتبرئته من السوء ، ومن كل مالايليق به ـ سبحانه ـ .

أى تنزه الله ـ تعالى ـ وتمجده السموات السبع ، والأرض ، ومن فيهن من الإنس والجن والملائكة وغير ذلك ، وما من شىء من مخلوقاته التى لاتحصى إلا ويسبح بحمد خالقه ـ تعالى ـ ولكن أنتم يا بنى آدم ، ﴿ لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ لأن تسبيحهم بخلاف لغتكم ، وفوق مستوي فهمكم ، وإنما الذى يعلم تسْبيحهُم هو خالقهم عز وجل ، وصدق ـ سبحانه ـ إذ يقول : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

والمتدبر فى هذه الآية الكريمة ، يراها تبعث فى النفوس الخشية والرهبة من الخالق ـ عز وجل ـ لأنها تصرح تصريحا بليغا بأن كل جماد ، وكل حيوان ، وكل طير ، وكل حشرة ، بل كل كائن فى هذا الوجود يسبح بحمده ـ تعالى ـ .

---

(1) تفسير ابن كثير جـ٥ ص٧٦ .

وهذا التصريح يحمل كل إنسان عاقل على طاعة الله ، وإخلاص العبادة له ، ومداومة ذكره ، حتى لايكون ـ وهو الذى كرمه ربه وفضله ـ أقل من غيره طاعة لله ـ تعالى ـ .

وقوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ تذييل قصد به بيان فضل الله ـ تعالى ـ ورحمته بعباده مع تقصيره فى تسبيحه وذكره .

أى : ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ لايعاجل المقصر بالعقوبة ، بل يمهله لعله يرعوى وينزجر عن تقصيره ومعصيته ، ﴿غَفُوراً﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحا واهتدى إلى صراطه المستقيم .

٣ ـ أما الإشاعات الكاذبة ، والأراجيف الباطلة ، التى أثارها المشركون حول القرآن الكريم ، وحول شخصية الرسول ﷺ فهى كثيرة ومتنوعة ، وقد حكاها القرآن الكريم بأمانة ثم رد عليها بما يدحضها .

ومن هذه الأراجيف التى قصها علينا القرآن فى هذا الشأن ثم لقن الرسول ﷺ الرد المفحم عليها قوله ـ تعالى ـ فى سورة «الفرقان» :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾﴾

والإفك : أسوأ الكذب ، يقال : أفك فلان ـ كضرب وعلم ـ أفكا ، إذا قال أشنع الكذب وأقبحه .

والزور فى الأصل : تحسين الباطل ، مأخوذ من الزّور وهو الميل وأطلق على الباطل زور لما فيه من الميل عن الصدق إلى الكذب ، ومن الحق إلى ما يخالفه .

أى : وقال الذين كفروا فى شأن القرآن الكريم الذى أنزله الله ـ تعالى ـ على نبيه ﷺ ما هذا القرآن إلا كذب وبهتان ﴿افْتَرَاهُ﴾ واختلقه محمد ﷺ من عند نفسه ، ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ﴾ أى : وأعانه وساعده على هذا الاختلاق ﴿قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ من اليهود أو

غيرهم ، كعداس - مولى حويطب بن عبدالعزى - ويسار - مولى العلاء بن الحضرمى - وأبى فكيهة الرومى ، وكان هؤلاء من أهل الكتاب الذين أسلموا .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ رد على أقوال الكافرين الفاسدة .

أى : فقد فعل هؤلاء الكافرون بقولهم هذا ظلما عظيما وزورا كبيرا ، حيث وضعوا الباطل موضع الحق ، والكذب موضع الصدق .

ثم حكى - سبحانه - مقولة أخرى من مقولاته الفاسدة فقال : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ .

والأساطير : جمع أسطورة بمعنى أكذوبة واكتتبها : أى : أمر غيره بكتابتها له ، أو جمعها من بطون كتب السابقين .

أى : أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بقولهم السابق فى شأن القرآن ، بل أضافوا إلى ذلك قولا آخر أشد شناعة وقبحا ، وهو زعمهم أن هذا القرآن أكاذيب الأولين وخرافاتهم ، أمر الرسول ﷺ غيره بكتابتها له ، وبجمعها من كتب السابقين ﴿ فَهِيَ ﴾ أى : هذه الأساطير ﴿ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أى : تلقى عليه ﷺ بعد اكتتابها ليحفظها ويقرأها على أصحابه ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ أى : فى الصباح والمساء ، أى : تملى عليه خفية فى الأوقات التى يكون الناس فيها نائمين أو غافلين عن رؤيتهم .

وقد أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ بالرد عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ . . ﴾

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الذين زعموا أن القرآن أساطير الأولين ، وأنك افتريته من عند نفسك ، وأعانك على هذا الافتراء قوم آخرون ، قل لهم : كذبتم أشنع الكذب وأقبحه ، فأنتم أول من يعلم بأن هذا القرآن له من الحلاوة والطلاوة وله من حسن التأثير مايجعله باعتراف زعمائكم ليس من كلام البشر ، وإنما الذى أنزله علىَّ هو الله - تعالى - الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، أى : يعلم ماخفى فيهما ويعلم الأسرار جميعها فضلا عن الظواهر .

ثم ختم - سبحانه - الآية بما يفتح باب التوبة للتائبين ، وبما يحرضهم على الإيمان والطاعة لله رب العالمين فقال - تعالى - : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

أى : إنه - سبحانه - واسع المغفرة والرحمة ، لمن ترك الكفر وعاد إلى الإيمان ، وترك العصيان وعاد إلى الطاعة .

قال الإمام ابن كثير : وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم وأن من تاب إليه تاب عليه ، فهؤلاء مع كذبهم ، وافترائهم ، وفجورهم ، وبهتهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم - سبحانه - إلى التوبة والإقلاع عما هم عليه من كفر إلى الإسلام والهدى ، كما قال - تعالى - :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة.(١)

٤ - ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك شبهة أخرى ، تتعلق بشخصية النبى ﷺ حيث أنكروا أن يكون الرسول من البشر وأن يكون آكلا للطعام وماشيا فى الأسواق ، فقال - تعالى - :

وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾

ذكر بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآيات أن جماعة من قريش قالوا للنبى ﷺ إن كنت تريد بما جئت به مالا جمعنا لك المال حتى تكون أغنانا ، وإن كنت تريد ملكا ، جعلناك ملكا علينا .

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص١٠٢ .

فقال ﷺ : «ما أريد شيئا مما تقولون ، ولكن الله تعالى بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربى ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله - تعالى - حتى يحكم بينى وبينكم» .

فقالوا : فإن كنت غير قابل شيئا مما عرضنا عليك ، فسل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا .

فقال لهم ﷺ : «ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله - تعالى - بعثنى بشيرا ونذيرا» ، فأنزل الله - تعالى - فى قولهم ذلك . [1]

والضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالُوا ﴾ يعود إلى مشركى قريش .

أى : أن مشركى قريش لم يكتفوا بقولهم إن محمدا ﷺ قد افترى القرآن ، وأن القرآن أساطير الأولين ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم قالوا على سبيل السخرية والتهكم والإنكار لرسالته : كيف يكون محمدٌ ﷺ رسولا ، وشأنه الذى نشاهده بأعيننا ، أنه ﴿ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ كما يأكل سائر الناس ﴿ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾ أى : ويتردد فيها كما نتردد طلبا للرزق ، ﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ أى : هلا أنزل إليه ملك يعضده ويساعده ويشهد له بالرسالة ﴿ فَيَكُونَ ﴾ هذا الملك ﴿ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ أى : منذرا من يخالفه بسوء المصير .

﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ ﴾ أى : إلى الرسول ﷺ ﴿ كَنزٌ ﴾ أى : مال عظيم يغنيه عن التماس الرزق بالأسواق كسائر الناس ، وأصل الكنز ، جعل المال بعضه على بعض وحفظه ، من كنز التمر فى الوعاء إذا حفظه ، ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ ﴾ ﷺ ﴿ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أى : حديقة مليئة بالأشجار المثمرة ، لكى يأكل منها ونأكل معه من خيرها .

﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ ﴾ فضلا عن ذلك ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ أى : ما تتبعون ﴿ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾ أى : مغلوبا على عقله ومصابا بمرض قد أثر فى تصرفاته .

فأنت ترى أن هؤلاء الظالمين قد اشتمل قولهم الذى حكاه القرآن عنهم - على ست قبائح قصدهم من التفوه بها صرف الناس عن اتباعه ﷺ .

وقد رد الله - تعالى - على مقترحاتهم الفاسدة ، بالتهوين من شأنهم وبالتعجب من

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٨ ص٢٣٧ .

تفاهة تفكيرهم ، وبالتسلية للرسول ﷺ عما أصابه منهم فقال : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ .

أى : انظر - أيها الرسول الكريم - إلى هؤلاء الظالمين ، وتعجب من تعنتهم ، وضحالة عقولهم ، وسوء أقاويلهم ، حيث وصفوك تارة بالسحر ، وتارة بالشعر ، وتارة بالكهانة ، وقد ضلوا عن الطريق المستقيم فى كل ما وصفوك به ، وبقوا متحيرين فى باطلهم ، دون أن يستطيعوا الوصول إلى السبيل الحق ، وإلى الصراط المستقيم .

فالآية الكريمة تعجيب من شأنهم واستعظام لما نطقوا به ، وحكم عليهم بالخيبة والضلال وتسلية للرسول ﷺ عما قالوه فى شأنه .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلية ، تسلية أخرى لرسوله ﷺ فقال - تعالى - : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ﴾ .

أى : جل شأن الله - تعالى - وتكاثرت خيراته ، فهو - سبحانه - الذى - إن شاء جعل لك فى هذه الدنيا - أيها الرسول الكريم - خيرا من ذلك الذى اقترحوه من الكنوز والبساتين ، بأن يهبك جنات عظيمة تجرى من تحت أشجارها الأنهار ، ويهبك قصورا فخمة ضخمة .

ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، لأن ما ادخره لك من عطاء كريم خير وأبقى ، أى : إن شاء أعطاك فى الدنيا أكثر مما اقترحوه ، أما عطاء الآخرة فهو محقق ولا قيد عليه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ تفسير لقوله : ﴿ خَيْراً مِّن ذَلِكَ ﴾ فهو بدل أو عطف بيان .

ثم انتقل - سبحانه - من الحديث عن قبائحهم المتعلقة بوحدانية الله - تعالى - وبشخصية رسول الله ﷺ إلى الحديث عن رذيلة أخرى من رذائلهم المتكاثرة ، ألا وهى إنكارهم للبعث والحساب ، فقال - تعالى - : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً ﴾ أى : إن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا باتخاذ آلهة من دون الله - تعالى - ولم يكتفوا بالسخرية من رسوله ﷺ بل أضافوا إلى ذلك أنهم كذبوا بيوم القيامة ، وما فيه من بعث وحشر وثواب وعقاب ، والحال أننا بقدرتنا وإرادتنا قد أعددنا وهيأنا لمن كذب بهذا اليوم سعيرا ، أى : نارا عظيمة شديدة الاشتعال .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ ﴾ ولم يقل : لمن كذب بها ، للمبالغة فى التشنيع عليهم ، والزجر لهم ، إذ أن التكذيب بها كفر يستحق صاحبه الخلود فى النار المستعرة .

٥ ـ وأما الآيات القرآنية التى حكاها القرآن الكريم فى شأن إنكار المشركين لليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب ، فهى أكثر من أن تحصى .

وقد رد القرآن الكريم على هذا الإنكار بالأدلة النقلية والعقلية التى تقنع كل ذى عقل قويم ، وقلب سليم .

ومن الآيات التى حكت جانبا مما قاله المشركون فى شأن إنكارهم للبعث والحساب ، ورد عليهم بما يدحض شبهاتهم ، قوله ـ تعالى ـ فى سورة «الإسراء» :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾ ﴾

والرفات : ما تكسر وبَلى من كل شىء كالفتات ، يقال : رفت فلان الشىء يرفِته ـ بكسر الفاء وضمها ـ إذا كسره وجعله يشبه التراب .

والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ أَئِذَا كُنَّا ﴾ وفى قوله : ﴿ أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ للاستبعاد والإنكار .

أى : وقال الكافرون المنكرون لوحدانية الله ـ تعالى ـ ولنبوة النبى ﷺ وللبعث والحساب ، قالوا للنبى ﷺ على سبيل الإنكار ، والاستبعاد ، أئذا كنا يا محمد عظاما بالية ، ورفاتا يشبه التراب فى تفتته ودقته ، أئنا لمعادون إلى الحياة مرة أخرى ، بحيث تعود إلينا أرواحنا ، وتدب الحياة فينا ثانية ، ونبعث على هيئة خلق جديد ، غير الذى كنا عليه فى الدنيا؟

وقولهم هذا ، يدل على جهلهم المطبق ، بقدرة الله ـ تعالى ـ التى لايعجزها شىء ، وكرر ـ سبحانه ـ الاستفهام فى الآية الكريمة ، للإشعار بإيغالهم فى الجحود والإنكار .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً . أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أمر من الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ بالرد عليهم فيما استبعدوه وأنكروه من إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم .

أى : قل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ على سبيل الرد على استبعادهم ، والتحقير من شأنهم ، والتعجيز لهم ﴿كُونُوا﴾ ـ إن استطعتم ـ ﴿حِجَارَةً﴾ كالتى تعبدونها من دون الله ، ﴿أَوْ حَدِيداً﴾ كالذى تستعلمونه فى شئون حياتكم ، ﴿أَوْ﴾ كونوا ﴿خَلْقًا﴾ أى : مخلوقا سوى الحجارة والحديد ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ﴾ أى : يعظم ويستبعد ـ ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾ المظلمة ـ قبوله للحياة ، قل لهم : كونوا أى شىء من ذلك أو غيره إن استطعتم ، فإن الله ـ تعالى ـ لايعجزه أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى ، لكى يحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم عليها بما تستحقون من عقاب .

فالمقصود من الجملة الكريمة ، بيان أن قدرة الله ـ تعالى ـ لايعجزها شىء .

قال الجمل : أجابهم الله ـ تعالى ـ بما معناه : تحولوا بعد الموت إلى أى صفة تزعمون أنها أشد منافاة للحياة ، وأبعد عن قبولها ، كصفة الحجرية والحديدية ، ونحوهما ،فليس المراد الأمر بل المراد أنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله ـ تعالى ـ عن الإعادة .[1]

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ أى : فسيقولون لك ـ أيها الرسول الكريم ـ من يعيدنا إلى الحياة مرة أخرى بعد أن نكون حجارة أو حديدا أو غيرها؟

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ رد على جهالاتهم وإنكارهم للبعث والحساب .

أى : قل لهم : الله ـ تعالى ـ الذى فطركم وخلقكم ، أول مرة ، على غير مثال سابق ، قادر على أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .[1]

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ٢ ص٦٢٩ .

(٢) سورة الروم الآية ٢٧ .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما يكون منهم من استهزاء وسوء أدب عندما يسمعون من الرسول ﷺ هذه الإجابات السديدة ، فقال : ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ .. ﴾ .

أى : فسيحركون إليك رؤوسهم عندما يسمعون ردك عليهم ، ويقولون على سبيل الاستهزاء والسخرية والتكذيب : متى هو؟ أى ما ذكرته من الإعادة بعد الموت ، أو متى هو ذلك اليوم الذى نعود فيه إلى الحياة بعد أن نصير عظاما ورفاتا .

فالجملة الكريمة تصور تصويرا بليغا ما جبلوا عليه من تكذيب بيوم القيامة ومن استهزاء بمن يذكرهم بأحوال ذلك اليوم العصيب ، ومن استبعاد لحصوله كما قال ـ تعالى ـ : حكاية عنهم فى آية أخرى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

وقوله ـ تعالى ـ ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ تذييل قصد به التهديد والوعيد لهم .

أى : قل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ على سبيل التأنيب والوعيد ، عسى هذا اليوم الذى تستبعدون حصوله يكون قريبا جدا وقوعه .

ولاشك فى أنه قريب ، لأن عسى فى كلام الله ـ تعالى ـ لما هو محقق الوقوع ، وكل ماهو محقق الوقوع فهو قريب ، ولأن الرسول ﷺ قال : «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى .

ثم بين ـ سبحانه ـ أحوالهم عندما يدعون فى هذا اليوم الهائل الشديد فقال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ .. ﴾ .

والظرف ﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب بفعل مضمر أى : اذكروا يوم يدعوكم ، ويجوز أن يكون منصوبا على البدلية من ﴿ قَرِيبًا ﴾ .

والداعى لهم هو «إسرافيل» ـ عليه السلام ـ عندما يأذن الله ـ تعالى ـ له بالنفخ فى الصور ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ . (١)

وكما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ . خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ . مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ . (٢)

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٨ .
(٢) سورة القمر الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ .

وقوله : ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ حال من ضمير المخاطبين وهم الكفار ، والباء للملابسة .

أى : اذكروا ـ أيها المكذبون ـ يوم يدعوكم الداعى إلى البعث والنشور فتلبون نداءه بسرعة وانقياد حال كونكم حامدين الله ـ تعالى ـ على كمال قدرته ، وناسين ما كنتم تزعمون فى الدنيا من أنه لابعث ولاحساب .

قال صاحب الكشاف : وقوله : ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ حال منهم ، أى : حامدين ، وهى مبالغة فى انقيادهم للبعث ، كقولك لمن تأمره بركوب مايشق عليه فيتأبى ويتمنع ، ستركبه ، وأنت حامد شاكر ، يعنى : أنك تحمل عليه وتقسر قسرا ، حتى إنك تلين لين المسمح ـ أى الذليل ـ الراغب فيه ، الحامد عليه .

وعن سعيد بن جبير : ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون : سبحانك اللهم وبحمدك .(١)

وقوله : ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ ﴾ بمعنى تجيبون إلا أن الاستجابة تقتضي طلب الموافقة ، فهى أوكد من الإجابة وأسرع فى التلبية .

وجملة ﴿ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ حالية أى : والحال أنكم تظنون عند بعثكم أنكم ما لبثتم فى الدنيا أو فى قبوركم إلا زمنا قليلا .

قال قتادة : إن الدنيا تحقرت فى أعينهم وقلت ، حين رأوا يوم القيامة لهول مايرون فقالوا هذه المقالة .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴾(٢)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ . (٣)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ . (٤)

وبهذا نرى أن القرآن الكريم قد رد على ما أثاره المشركون من شبهات حول البعث وما يعقبه من ثواب وعقاب ، ردا يزهق هذه الشبهات ، ويزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، ويقينا على يقينهم ، بصدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٦٧٢ .
(٢) سورة المؤمنون الآية ١١٢ ، ١١٣ .
(٣) سورة يس الآيات ٥١ ، ٥٢ .
(٤) سورة النازعات الآية ٤٦ .

وفى سورة «يس» آيات كريمة ، اهتمت بإقامة الأدلة الساطعة على أن البعث حق ، وعلى أن قدرته - تعالى - لايعجزها شىء ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآيات ، أن أُبى بن خلف جاء إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم ، وهو يفتته ويذريه فى الهواء ويقول : يامحمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال ﷺ : نعم ، يميتك - تعالى - ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار ، ونزلت هذه الآيات إلى آخر السورة .

والمراد بالإنسان : جنسه ، ويدخل فيه المنكرون للبعث دخولا أوليا .

وأصل النطفة : الماء القليل الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها نطف ونطاف ، يقال : نطفت القربة ، إذا تقاطر ماؤها بقلة .

والمراد بها هنا : المنى الذي يخرج من الرجل ، إلى رحم المرأة .

والخصيم : الشديد الخصام والجدال لغيره ، والمراد به هنا : الكافر والمجادل بالباطل .

والمعنى : أبلغ الجهل بهذا الإنسان ، أنه لم يعلم أنا خلقناه بقدرتنا ، من ذلك الماء المهين الذى يخرج من الرجل فيصب فى رحم المرأة ، وأن من أوجده من هذا الماء قادر على أن يعيده إلى الحياة بعد الموت .

لقد كان من الواجب عليه أن يدرك ذلك ، ولكنه لغفلته وعناده ، بادر بالمبالغة فى الخصومة والجدل الباطل ، وجاهر بذلك مجاهرة واضحة ، مع علمه بأصل خلقته .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ معطوفة على الكلام المتقدم وداخل فى حيز الإنكار .

أى : أن هذا الإنسان الجاهل المجادل بالباطل ، لم يكتف بذلك ، بل ضرب لنا مثلا هو فى غاية الغرابة ، حيث أنكر قدرتنا على إحياء الموتى ، وعلى بعثهم يوم القيامة ، فقال : ـ دون أن يفطن إلى أصل خلقته ـ من يحيى العظام وهى رميم ، أى : وهى بالية أشد البلى .

ثم لقن الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ الجواب الذى يخرس ألسنة المنكرين للبعث فقال : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ .

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء الجاهلين المنكرين لإعادة الحياة إلى الأجساد بعد موتها ، قل لهم : يحيى هذه الأجسام والأجساد البالية ، الله ـ تعالى ـ الذى أوجدها من العدم دون أن تكون شيئا مذكورا ، ومن قدر على إيجاد الشىء من العدم قادر من باب أولى على إعادته بعد هلاكه ، وهو ـ سبحانه ـ بكل شىء فى هذا الوجود عليم علما تاما ، لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، سواء أكان هذا الشىء صغيرا أم كبيرا ، مجموعا أم مفرقا .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ دليل آخر على إمكانية البعث وهو بدل من قوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : ﴿ الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ . . ﴾ .

والمراد بالشجر الأخضر : الشجر الندى الرطب ، كشجر المرخ والعَفَار وهما نباتان أخضران إذا ضرب أحدهما بالآخر اتقدت منهما شرارة نار بقدرة الله ـ تعالى ـ .

قال ابن كثير : المراد بذلك سرح ـ أى : شجر المرخ والعفار ، ينبت بأرض الحجاز فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما ، كالزناد سواء بسواء .

روى هذا عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وفى المثل : «لكل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار» .[1]

أى : لكل شجر حظ من النار ، ولكن أكثر الأشجار حظا من النار : المرخ والعفار ، فهو مثل يضرب فى تفضيل بعض الشىء على بعض .

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المنكرين للبعث ، يحيى الأجساد البالية

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ص٥٨١ .

الله - تعالى - الذى أنشأها أول مرة ، والذى جعل لكم - بفضله ورحمته وقدرته - من الشجر الأخضر الرطب نارا ، فإذا أنتم من هذا الشجر الأخضر توقدون النار وتنتفعون بها فى كثير من أحوال حياتكم .

وإذن فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر - مع مافيه من المائية المضادة لها - كان أقدر على إعادة الأجساد بعد فنائها .

ثم أضاف - سبحانه - إلى توبيخهم على جهلهم وكفرهم توبيخا آخر ، فقال : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ .

والاستفهام - كسابقه - للإنكار والتعجيب من جهالاتهم ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام والضمير فى ﴿ مِثْلَهُم ﴾ يعود إلى المنكرين للبعث .

المعنى : إن من قدر على خلق السموات والأرض ، وهما فى غاية العظم قادر من باب أولى على إعادة خلق البشر ، الذى هو صغير الشكل ، ضعيف القوة .

وجملة : ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ جواب من جهته - تعالى - وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكارى ، من تقرير مابعد النفى وتأكيد قدرته - سبحانه - على الخلق والإعادة ، لأن ﴿ بَلَىٰ ﴾ حرف جواب ، يؤتى به لإثبات فعل ورد قبله منفيا .

أى : بلى إنه لقادر - سبحانه - على أن يخلق مثلهم ، وعلى أن يعيدهم للحياة مرة أخرى ، وهو - سبحانه - ﴿ الْخَلَّاقُ ﴾ أى : الكثير المخلوقات ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ أى : الكثير العلم بحيث لايخفى عليه شىء .

ثم أكد - سبحانه - شمول قدرته لكل شىء فقال : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

أى : إنما شأنه - سبحانه - فى إيجاد الشىء ، أنه إذا أراد إحداثه ، أن يقول له كن ، أى : كن موجودا فيكون ، أى : فهذا الشىء يكون ويوجد فى الحال ، قال الشاعر :

إذا ما أراد الله أمرا فإنما ... يقول له «كن» قولة فيكون

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتنزيهه - تعالى - عن كل نقص ، فقال : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

أى : فتنزه الله تعالى - الذى له ملك كل شىء ملكا تاما ، والذى إليه المرجع والمآب ، عن كل مايقوله الكافرون من عدم قدرته على إحياء الموتى .

فهو ـ سبحانه ـ لايعجزه شىء ولايخفى على علمه شىء ، ولايحول دون قدرته شىء ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

٦ ـ كذلك من أقبح الشبهات التى أثارها المشركون لتبرير ماهم عليه من شرك ، زعمهم أنهم ما فعلوا ذلك إلا بمشيئة الله ـ عز وجل ـ وقد حكى القرآن الكريم عنهم هذه المزاعم ورد عليهم بما يبطلها ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ فى سورة الأنعام :

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

إن هذه الآيات الكريمة تعرض لشبهة قديمة جديدة قديمة لأن كثيرا من مجادلى الرسل موهوا بها ، وحديثة لأنها دائما تراود كثيرا من المتمسكين بالأوهام فى سبيل إرضاء نزواتهم من المتع الباطلة والشهوات المحرمة .

إنهم يقولون عندما يرتكبون القبائح والمنكرات : هذا أمر الله ، وهذا قضاؤه ، وتلك مشيئته وإرادته ، ولو شاء الله عدم فعلنا لهذه الأشياء لما فعلناها وإذا كان الله قد قضى علينا بها فما ذنبنا؟ ولماذا يعاقبنا عليها؟ إلى غير ذلك من اللغو الباطل ، والكلام العابث الذى يريدون من ورائه التحلل من أوامر الله ونواهيه .

ولنتدبر سويا أيها القارئ الكريم ـ هذه الآيات ـ وهى تحكى تلك الشبهات الباطلة ، ثم نقذفها بالحق الواضح ، والبرهان القاطع ، فإذا هى زاهقة .

يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ .

أى : سيقول هؤلاء المشركون لو شاء الله - تعالى - ألا نشرك به وألا يشرك به آباؤنا من قبلنا ، لنفذت مشيئته ، ولما أشركنا نحن ولا آباؤنا .

ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، بل شاء لنا أن نشرك معه فى العبادة هذه الأصنام .

وقد رضى لنا ذلك فلماذا تطالبنا يا محمد بتغيير مشيئة الله ، وتدعونا إلى الدخول فى دينك الذى لم يشأ الله دخولنا فيه؟

وقد حكى القرآن فى كثير من آياته مايشبه قولهم هذا ، كما فى قوله - تعالى - ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . . ﴾(١)

أى : مثل هذا التكذيب من مشركى مكة للرسول ﷺ فيما جاء به من إبطال الشرك ، قد كذب الذين من قبلهم لرسلهم ، واستمروا فى تكذيبهم لهم حتى أنزلنا على هؤلاء المكذبين عذابنا ونقمتنا .

ومن مظاهر تكذيب هؤلاء المشركين لرسلهم ، أنهم عندما قال لهم الرسل - عليهم السلام - اعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا ، كذبوهم واحتجوا عليهم بأن ما هم عليه من شرك واقع بمشيئة الله ، وزعموا أنه مادام كذلك فهو مرضى عنده - سبحانه - فكان الرد عليهم بأن لو كان هذا الشرك وغيره من قبائحهم مرضيا عنده - سبحانه - : لما أذاق أسلافهم المكذبين - الذين قالوا لرسلهم مثل قولهم - عذابه ونقمته ، ولما أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ثم بعد هذا الرد المفحم للمشركين أمر الله - تعالى - رسوله أن يطالبهم بدليل على مزاعمهم فقال : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا . . ﴾ .

أى : قل لهم يا محمد علي سبيل التوبيخ والتعجيز : هل عندكم من علم ثابت تعتمدون عليه فى قولكم ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ إن كان عندكم هذا العلم فأخرجوه لنا لنتباحث معكم فيه ، ونعرضه على ما جئتكم به من آيات بينة ودلائل ساطعة ، فإن العاقل هو الذى لايتكلم بدون علم ، ولايحيل على مشيئة الله التى لاندرى عنها شيئا .

ثم بين حقيقة حالهم قال : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ .

أى : أنتم لستم على شىء ما من العلم ، بل ما تتبعون فى أقوالكم وأعمالكم وعقائدكم إلا الظن بالباطل الذى لايغنى من الحق شيئا ، وما أنتم إلا تخرصون أى تكذبون على الله فيما ادعيتموه .

---

(١) سورة النحل الآية ٣٥ .

وأصل الخرص : القول بالظن ، يقال : خرصت النخل خرصا ـ من باب قتل ـ حزرت ثمره وقدرته بالظن والتخمين ، واستعمل فى الكذب لما يداخله من الظنون الكاذبة ، فيقال : خرص فى قوله ـ كنصر ـ أى كذب .

وبعد أن نفى ـ سبحانه ـ عنهم أدنى مايقال له علم وحصر ماهم عليه من دين فى أدنى مراتب الظن مع أن أعلاها لايغنى من الحق شيئا ، ووصمهم بالكذب فيما يدعون ، بعد كل ذلك أثبت لذاته ـ سبحانه ـ فى مقابلة ذلك الحجة العليا التى لاتعلوها حجة فقال : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

أى : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المشركين الذين بنوا قواعد دينهم علي الظن والكذب بعد أن عجزوا عن الإثبات بأدنى دليل على مزاعمهم ، قل لهم : لله وحده الحجة البالغة ، أى البينة الواضحة التى بلغت أعلى درجات العلم والقوة والمتانة ، والتى وصلت إلى أعلى درجات الكمال فى قطع عذر المحجوج ، وإزالة الشكوك عمن تدبرها وتأملها .

وقوله : ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : لو شاء ـ سبحانه ـ هدايتكم جميعا لفعل ، لأنه لايعجزه شىء ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل شاء هداية البعض لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الحق ، وشاء ضلالة آخرين ، لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الباطل .

ونريد أن نزيد هذه الشبهة القديمة الحديثة تمحيصا وكشفا ودفعا فنقول لأولئك الذين يبررون ارتكابهم للموبقات بأنها واقعة بمشيئة الله .

نقول لهم : نحن معكم فى أنه لايقع فى ملكه ـ سبحانه ـ إلا ما يشاؤه ، فالطائع تحت المشيئة والعاصى تحت المشيئة ، ولكن المشيئة لم تجبر أحدا على طاعة أو معصية وقضاء الله وقدره هو علمه بكل ماهو كائن قبل أن يكون ، وليس العلم صفة تأثير وجبر ، وفضلا عن ذلك فما أراده الله وشاءه ، نحن لانعلمه ، وإنما الذى نعلمه هو ما أمرنا به ، أو نهانا عنه .

ولقد شاء الله ـ تعالى ـ أن يجعل فى طبيعة البشر الاستعداد للخير والشر ، ووهبهم العقل ليهتدوا به وأرسل إليهم الرسل لينموا فيهم استعدادهم وسن لهم شريعة لتكون مقياسا لما يأخذون ومايدعون ، كى لايتركهم لعقولهم وحدها .

وإذن فمشيئة الله متحققة سواء اتخذ العبد طريقه إلى الهدى أم إلى الضلال ، وهو مؤاخذ إن ضل ومأجور إذا اهتدى ، غير أن سنة الله اقتضت أن من يفتح عينه يبصر النور ، ومن يغمضها لايراه ، كذلك من يفتح قلبه لإدراك دلائل الإيمان يهتدى ، ومن يحجب قلبه عنها يضل ، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وإذن فزعم الزاعمين بأن الله شاء هذا على معنى أنه أجبرهم عليه فهم لايستطيعون عنه فكاكا ، إنما هو زعم باطل لاسند له من العلم والتفكير الصحيح فإن المشيئة الإلهية لها سنة تقيدت بها ، وهذه السنة هى أنه لاجبر على طاعة ولاقسر على معصية .

وتقرير ذلك يؤخذ من قوله ـ تعالى ـ ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : فلو شاء أن يكرهكم ويفرض هدايتكم بقدرته وقدره لهداكم ، ولكنه لم يشأ إجباركم على الضلالة ، فهى مشيئة المنح والتيسير وليست مشيئة الإلجاء والتسخير قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ .

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ بأن يطالب المشركين بإحضار من يشهد لهم بأن الله قد حرم عليهم ما زعموا تحريمه من الحرث والأنعام وغيرها فقال : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ﴾ .

أى : أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم عليكم هذا الذى زعمتم تحريمه ، وهم كبراؤهم الذين أسسوا ضلالهم .

والمقصود من إحضارهم تفضيحهم وإلزامهم الحجة ، وإظهار أنه لامتمسك لهم كمقلدين .

ثم قال ـ سبحانه ـ : ﴿ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ أى : فإن حضر ـ على سبيل الفرض ـ هؤلاء الشهود الذين عرفوا بضلالهم فلا تصدقهم ولاتقبل شهادتهم ولاتسلمها لهم بالسكوت عليها فإن السكوت عن الباطل فى مثل هذا المقام كالشهادة به ، وإنما عليك أن تبين لهم بطلان زعمهم بواسطة ما آتاك الله من حجج وبينات .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف أمره باستحضار شهدائهم ، الذين يشهدون أن الله حرم ما زعموه محرما ثم أمره بأن لايشهد معهم؟ قلت : أمره باستحضارهم وهم شهداء بالباطل ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر ، ويظهر للمشهود لهم بانقطاع الشهداء أنهم ليسوا على شىء لتساوى أقدام الشاهدين والمشهود لهم فى أنهم لايرجعون إلى مايصح التمسك به ، وقوله : ﴿ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ يعنى فلاتسلم لهم ما شهدوا به ولاتصدقهم ، لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهيد معهم مثل شهادتهم وكان واحدا منهم .(١)

ثم قال ـ سبحانه ـ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى : ولاتتبع أهواء الناس

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٧٨ .

الذين كذبوا بآياتنا التى أنزلها الله عليك لتكون هداية ونورا لقوم يعقلون ، فإن شهادتهم - إن وقعت - فإنما هى صادرة عن هوى وضلال .

ولم يقل - سبحانه - ولاتتبع أهواءهم بل قال : ولاتتبع أهواء الذين كذبوا ، فوضع الظاهر موضع الضمير لبيان أن المكذب بهذه الآيات والحجج الظاهرة إمعانا فى التمسك بتقاليده الباطلة ، إنما هو صاحب هوى وظن لاصاحب علم وحجة .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ عطف على الموصوف قبله لتعدد صفاتهم القبيحة .

أى : ولاتتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله ، وبين الكفر بالآخرة ، وبين جعلهم لله عديلا أى شريكا مع أنه - سبحانه - هو الخالق لكل شىء ، لأن هذه الصفات لاتؤهلهم لشهادة حق ، ولا للثقة بهم ، وإنما للاحتقار فى الدنيا ، ولسوء العذاب فى الآخرة .

هذا ، ومن كل ماتقدم يتبين لكل عاقل ، كيف أبطل القرآن الكريم الشبهات الفاسدة ، والإشاعات الكاذبة ، والأقاويل الساقطة التى تفوه بها المشركون ، ليصرفوا الناس عن دعوة الحق ، وكيف لقن الله - تعالى - نبيه محمدا ﷺ الحجة البالغة ، والأدلة الدامغة التى أتت على بنيان أعدائه من القواعد وصدق الله إذ يقول : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨]

٩ـ تسليته وتثبيته ﷺ

١ ـ إن الذى يقرأ سيرة الرسول ﷺ يرى أنه قد تعرض من أعدائه لألوان من الأذى الشديد ، والتعنت الساخر ، والمكر السيء ، والعناد الطاغى ، والحسد لما آتاه الله ـ تعالى ـ من فضله ، ولقد كان ﷺ يضيق لما يراه من قومه من تعصب أعمى ومن إعراض عن دعوته التى تهدى الناس إلى الصراط المستقيم ، وتوصلهم متى اتبعوها إلى سعادة الدارين .

إلا أن الله ـ تعالى ـ سكب فى قلبه من قوة الإيمان ، ومن صدق اليقين ، ومن علو الهمة ، ومن توجيهات القرآن الكريم ، ما جعله ﷺ يمضى فى طريق أداء رسالته ، وفى تبليغ الناس لما أمره الله ـ تعالى ـ بتبليغه دون تردد أو تقاعس أو فتور .

ولقد ساق ـ سبحانه ـ لعبده ورسوله محمد ﷺ أنواعا من الوسائل التى تغرس التسلية فى قلبه عما أصابه من أعدائه ، والتى تزيده ثباتا على ثباته ، وقوة على قوته .

تارة عن طريق إخباره أن ما قاله أعداؤه من سوء فى شأنه ، قد قاله أعداء الرسل السابقين .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت : ٤٣]

أى : لاتحزن أيها الرسول الكريم من الأقوال الباطلة ، التى قالها المشركون فى حقك ، فإن ما قالوه فى شأنك ، قد قاله السابقون عليهم فى حق رسلهم واعلم أن ربك ذو مغفرة عظيمة لعباده المؤمنين ، وذو عقاب أليم للكفار المكذبين .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات : ٥٢ ، ٥٣]

وتارة عن طريق أمره بالإكثار من العبادة ، لأن الإكثار منها يزيل عن القلب همومه وأحزانه .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٧ ـ ٩٩]

أى : إن ضاق صدرك - يا محمد - بسبب أقوال المشركين القبيحة ، فافزع إلينا بالتسبيح والتحميد وكثرة العبادة ، لأن ذلك يذهب الأحزان ، ويفرج الكروب بإذنه - تعالى - .

وتارة يبشره بأن العاقبة الطيبة ستكون له ولأتباعه ، مهما أحاط به وبهم البلاء .

قال - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٣]

وقال - سبحانه - : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١]

وتارة يأمره - سبحانه - بالصبر وقد تكرر ذلك فى عشرات الآيات ، ومنها قوله - تعالى - :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يونس : ١٠٩]

وقوله - سبحانه - :

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : ٦٠]

وقوله - عز وجل - : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .. ﴾ [الأحقاف : ٣٥]

وقوله - تعالى - : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾ .

٢ - ومن أجمع الآيات القرآنية التى فيها مافيها من التسلية للرسول ﷺ ومن التسرية عن نفسه قوله - تعالى - فى سورة الأنعام :

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

و﴿ قَدْ ﴾ هنا للتحقيق وتأكيد العلم وتكثيره ، والتحقيق هنا جاء من موضوعها لها من ذاتها ، والحزن ألم يعترى النفس عند فقد محبوب ، أو امتناع مرغوب أو حدوث مكروه .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات ما ملخصه : يقول ـ تعالى ـ مسليا لنبيه ﷺ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ أى قد أحطنا علما بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم وقوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أى : هم لايتهمونك بالكذب فى نفس الأمر ، ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم ، كما قال سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن ناجية عن على قال : قال أبوجهل للنبى ﷺ : إنا لانكذبك يا محمد ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله : ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ وعن أبى يزيد المدنى أن النبى ﷺ لقى أباجهل فصافحه فقال له رجل : ألا أراك تصافح هذا الصابئ؟ فقال : والله إنى لأعلم أنه لنبى ، ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعا؟ وتلا أبويزيد ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ .(١)

فالآية الكريمة مسوقة على سبيل الاستئناف لتسلية النبى ﷺ عما كان يصيبه من المشركين ومما لاشك فيه أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان حريصا على إسلامهم ،فإذا ما رآهم معرضين عن دعوته حزن وأسف ، وفى معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة منها قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ .(٢)

ومنها قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .(٣)

ومنها قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٤)

والمعنى : إن هؤلاء الكفار ـ يامحمد ـ لاينسبونك إلى الكذب ، فهم قد لقبوك بالصادق الأمين ، ولكنهم يجحدون الآيات الدالة على صدقك بإنكارها بألسنتهم مع اعتقادهم صدقها .

والجحود هو الإنكار مع العلم ، أى نفى ما فى القلب ثبوته ، أو إثبات مافى القلب نفيه ، وفى التعبير بالجحود بعد نفى التكذيب إشارة إلى أن آيات الله واضحة بحيث يصدقها كل عاقل وأنه لايصح إنكارها إلا عن طريق الجحود .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٣٠ .
(٢) سورة الكهف : ٦
(٣) سورة فاطر : ٨
(٤) سورة يس : ٧٦ .

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ ولم يقل ﴿ وَلَكِنَّهم ﴾ لبيان سبب جحودهم وهو الظلم الذى استقر فى نفوسهم ، وفيه فوق ذلك تسجيل للظلم عليهم حتى يكونوا أهلا لما يصيبهم من عقاب .

ثم زاد القرآن فى تعزية النبى ﷺ وتسليته عن طريق إخباره بما حدث للأنبياء من قبله فإن عموم البلوى مما يخفف وقعها فقال : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ .

أى : أن الرسل من قبلك ـ يامحمد ـ قد كذبتهم أقوامهم وأنزلت بهم الأذى ، فليس بدعا أن يصيبك من أعدائك ما أصاب الأنبياء من قبلك ، ولقد صبر أولئك الأنبياء الكرام على التطاول والسفه فكانت نتيجة صبرهم أن آتاهم الله النصر والظفر ، فعليك ـ وأنت خاتمهم وإمامهم ـ أن تصبر كما صبروا حتى تنال ما نالوا من النصر ، فإن سنة الله لاتتخلف فى أى زمان أو مكان .

وجاء قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ مؤكدا بقد وباللام ، للإشارة إلى تأكيد التسلية والتعزية ، وإلى تأكيد التمسك بفضيلة الصبر التى سيعقبها النصر الذى وعد الله به الصابرين .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ غاية للصبر ، أى : صبروا على التكذيب وما قارنه من الإيذاء إلى أن جاءهم نصرنا وفيه بشارة للنبى ﷺ مؤكدا سبحانه ـ التسلية بأنه سينصره على القوم الظالمين .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ معناه : لامغير لكلمات الله وآياته التى وعد فيها عباده الصالحين بالنصر على أعدائه ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

إلى غير ذلك من الآيات التى بشر فيها عباده المؤمنين بالفلاح وحسن العاقبة .

ويرى المحققون من العلماء أن المراد بكلمات الله : شرائعه وصفاته ، وأحكامه ، وسننه فى كونه ، ويدخل فيها دخولا أوليا ما وعد الله به أنبياءه وأولياءه من النصر والظفر ، وهذا الرأى أرجح من سابقه لأنه أعم وأشمل .

وإضافة الكلمات إليه ـ سبحانه ـ للإشعار باستحالة تبديلها أو تغييرها لأنه ـ سبحانه ـ لايغالبه أحد فى فعل من الأفعال ، ولايقع منه خلف فى قول من الأقوال ، فمادام المؤمنون يخلصون له العبادة والقول والعمل ويجتهدون فى مباشرة الأسباب واتخاذ الوسائل النافعة ، فإنه ـ سبحانه ـ سيجعل العاقبة لهم .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ تأكيد وتقرير لما قبله أى : ولقد جاءك من أخبار المرسلين وأنبائهم ـ مما قصه عليك فى كتابه ـ مافيه من العظات والعبر ، فلقد صبر المرسلون على الأذى فكافأهم الله ـ تعالى ـ على ذلك بالظفر على أعدائهم .

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه لاسبيل إلى إيمان هؤلاء الجاحدين إلا بمشيئة الله وإرادته فقال :

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ﴾ .

كبر عليك : أى شق وعظم عليك ، والنفق : السرب النافذ فى الأرض الذى يخلص إلى مكان .

والمعنى : وإن كان ـ يامحمد ـ قد شق عليك إعراض قومك عن الإيمان وظننت أن إتيانهم بما اقترحوه من آيات يكون سببا فى إيمانهم ، فإن استطعت أن تطلب مسلكا عميقا فى جوف الأرض ، أو مرقاة ترتقى بها إلى السماء لتأتيهم بما اقترحوا من مطالب فافعل فإن ذلك لن يفيد شيئا لأن هؤلاء المشركين لاينقصهم الدليل الدال على صدقك ، ولكنهم يعرضون عن دعوتك عنادا وجحودا .

ثم قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

أى : ولو شاء الله جمعهم على ماجئت به من الهدى والرشاد لفعل ،بأن يوفقهم إلى الإيمان فيؤمنوا ، ولكن الله لم يشأ ذلك لأنهم بسوء اختيارهم آثروا الحياة الدنيا ، فلاتكونن من الجاهلين بحكمة الله فى خلقه ، وبسننه التى اقتضاها علمه .

ثم بين ـ سبحانه ـ من هم أهل للإيمان والاستجابة للحق فقال :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أى : إنما يستجيب لك أيها الرسول الكريم أولئك الذين يسمعون توجيهك وأقوالك سماع تدبر وتفهم وتأثر ، أما هؤلاء الذين يعاندونك فقد طبع الله على قلوبهم فهم لايفقهون .

فالمراد بالاستجابة هنا ، الإجابة المقرونة بالتفكير والتأمل ، فهى إجابة محكمة دقيقة لأنها أتت بعد استقراء وتدبر وهذا ماتدل عليه السين .

ثم بين ـ سبحانه ـ حال الكافرين فقال : ﴿ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

أى : وموتى القلوب الذين لايسمعون سماع تدبر وتقبل وهم المشركون ، سيبعثهم الله من قبورهم يوم القيامة ويحاسبهم حسابا عسيرا على أقوالهم الباطلة وأعمالهم السيئة .

فالمراد بالموتى هنا الكفار لأنهم موتى القلوب فشبههم ـ سبحانه ـ بموتى الأجساد ـ وهذا من باب التهكم بهم والتحقير من شأنهم .

وقيل : إن لفظ الموتى على حقيقته وأن الله ـ تعالى ـ بقدرته النافذة سيبعث الجميع يوم القيامة ، ويرجعهم إليه فيجازى الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

٣ ـ أما الآيات القرآنية التى أنزلها ـ سبحانه ـ لتثبيت قلب نبيه محمد ﷺ ولتقوية عزيمته ، ولتشجيعه على السير فى طريقه ، فهى كثيرة ـ أيضا ـ ويكفينا منها قوله ـ تعالى ـ فى سورة هود :

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

والتنوين فى قوله : ﴿وَكُلًّا﴾ للعوض عن المضاف إليه ، والأنباء جمع نبأ وهو الخبر الهام .

أى : وكل نبأ من أنباء الرسل الكرام السابقين نقصه عليك ـ أيها الرسول الكريم ـ ونخبرك عنه : فالمقصود به تثبيت قلبك ، وتقوية يقينك ، وتسلية نفسك ونفوس أصحابك عما لحقكم من أذى فى سبيل تبليغ دعوة الحق إلى الناس .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيان لما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من أخبار صادقة ، وعظات بليغة .

أى : وجاءك ـ أيها الرسول الكريم ـ فى هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن الكريم : الحق الثابت المطابق للواقع ، والعظات الحكيمة ، والذكرى النافعة للمؤمنين بما جئت به .

وأما الذين فى قلوبهم مرض فقد زادتهم هذه السورة وأمثالها رجسا إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون .

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ بالسير فى طريق الحق بدون مبالاة بتهديد أعدائه فقال : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ والأمر فى هذه الآية الكريمة للتهديد .

ومكانتكم : مصدر مكن ـ بزنة كرم ـ مكانة ، إذا تمكن من الأمر أبلغ التمكن .

أى : وقل ـ أيها الرسول الكريم ـ لهؤلاء المشركين الذين يضعون العقبات فى طريق دعوتك ، قل لهم اعملوا ما تستطيعون عمله من الكيد لى ولدعوتى ، فإنى وأصحابى مستمرون على السير فى طريق الحق الذى هدانا الله إليه ، بدون التفات إلى كيدكم وقل لهم ـ أيضا ـ : انتظروا ما يأتى به الله من عقاب ، فإنا منتظرون معكم ذلك .

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بهذه الآية الجامعة فقال : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

أى : ولله ـ تعالى ـ وحده علم جميع ما غاب عن الحواس فى السموات والأرض ، وإليه وحده يرجع الأمر كله من إحياء وإماتة ، وهداية وضلال ، وصحة ومرض ، ونصر وهزيمة .

ومادام الأمر كذلك ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ أى : فأخلص له العبادة واجعل توكلك عليه وحده .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بل هو مطلع وبصير بأعمال عباده جميعا ، لايعزب عنه مثقال ذرة منها ، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

هذه بعض الآيات القرآنية التى أنزلها ـ سبحانه ـ لتسلية نبيه ﷺ ولتثبيت فؤاده ، وهناك آيات أخرى كثيرة فى هذا المعنى ، ولكن حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

١٠ ـ توجيهه وإرشاده ﷺ

١ ـ الأحكام الشرعية التى بلغها النبى ﷺ عن ربه ـ عز وجل ـ لأمته ، أكثر من أن تحصى ، وأكبر من أن تعد .

وهذه الأحكام سواء أكانت تتعلق بالعقيدة أم بالعبادات ، أم بالمعاملات ، أم بالآداب والسلوك ، أم بالحرب والسلم ، أم بغير ذلك من أوامر أو نواه ، هذه الأحكام يجب تطبيقها ، لأنها قد أتى بها القرآن الكريم ، وجاءت السنة النبوية الشريفة فأكدتها ، أو فصلت ما جاء مجملا منها ، أو أتت بأحكام أخرى سكت عنها القرآن الكريم ، كتحريم زواج المرأة على عمتها ، أو على خالتها ، أو على ابنة أخيها أو ابنة أختها .

ففى صحيح مسلم وفى سنن أبى داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : «لاتنكح المرأة على عمتها ، ولا على خالتها ، ولا على ابنة أخيها ، ولا على ابنة أختها» .

وفى رواية للطبرانى أنه ـ ﷺ ـ قال : «فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم» ومن المعروف عند أهل العلم أن القرآن الكريم والسنة النبوية كلاهما وحى من الله ـ عز وجل ـ إلا أن القرآن وحى من الله ـ تعالى ـ على قلب رسوله ﷺ باللفظ والمعنى ، أما السنة النبوية فوحى منه ـ سبحانه ـ على رسوله ﷺ بالمعنى ، أما اللفظ فمن الرسول ﷺ الذى ميزه خالقه ـ عز وجل ـ بأن أعطاه جوامع الكلم .

ومع أن الرسول ﷺ شهد له خالقه ـ عز وجل ـ بأنه «ماينطق عن الهوى» إلا أنه ـ سبحانه ـ كان بفضله وحكمته ، يوجه نبيه ﷺ التوجيه الحكيم ، ويرشده إلى ماهو خير وحق وعدل ، ويعاتبه عتابا رقيقا إذا ما فعل ماهو خلاف الأولى .

ولعل الحكمة فى ذلك : أنه ـ سبحانه ـ أراد أن يعلم الناس ، أن رسولهم ﷺ وهو أفضل الخلق ، إنما هو بشر مثلهم ، وهو فى حاجة دائمة إلى توجيه خالقه ، وإرشاده وتعليمه .

وصدق الله ـ تعالى ـ إذ يقول :

﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣]

٢ ـ والذى يتدبر القرآن الكريم ، يجد أن الله ـ عز وجل ـ قد عاتب نبيه ﷺ عتابا رقيقا حكيما فى أحداث معينة وقعت منه ﷺ وأرشده إلى ماهو الأفضل والأحسن ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ فى مطلع سورة «عبس»

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات ملخصها : أن النبى ﷺ كان جالسا فى أحد الأيام ، مع جماعة من زعماء قريش يدعوهم إلى الإسلام ، ويشرح لهم تعاليمه فأقبل عبدالله ابن أم مكتوم ـ وكان كفيف البصر ـ فقال : أقرئنى وعلمنى مما علمك الله ـ يا رسول الله ـ وكرر ذلك ، وهو لايعلم أن الرسول ﷺ مشغول بدعوة هؤلاء الزعماء إلى الإسلام ، رجاء أن يسلم بسبب إسلامهم خلق كثير .

فلما أكثر عبدالله من طلبه ، أعرض عنه الرسول ﷺ فنزلت هذه الآيات التى عاتب الله ـ تعالي ـ فيها نبيه ﷺ على هذا الإعراض ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه ، إذا رآه ، ويقول له : «مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى» ويبسط له رداءه[١]

قال الآلوسى : وعبدالله بن أم مكتوم ، هو ابن خال السيدة خديجة واسمه عمرو بن قيس ، وأم مكتوم كنية أمه ، واسمها عاتكة بنت عبدالله المخزومية ، واستخلفه ﷺ على المدينة أكثر من مرة ، وهو من المهاجرين الأولين ، قيل : مات بالقادسية شهيدا يوم فتح المدائن أيام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ .[٢]

ولفظ ﴿عَبَسَ﴾ من باب ضرب مأخوذ من العبوس ، وهو تقطيب الوجه ، وتغير هيئته مما يدل على الغضب .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٧ ص٣٤٢ .
(٢) تفسير الآلوسى جـ٣٠ ص٣٩ .

وقوله : ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ مأخوذ من التولى وأصله تحول الإنسان عن مكانه الذى هو فيه إلى مكان أخر ، والمراد به هنا الإعراض عن السائل وعدم الإقبال عليه .

وحذف متعلق التولى لمعرفة ، ذلك من سياق الآيات إذ من المعروف أن إعراضه ﷺ كان عن عبدالله ابن أم مكتوم الذى قاطعه خلال حديثه مع بعض زعماء قريش .

وأل فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ الأَعْمَىٰ ﴾ للعهد ، والمقصود بهذا الوصف : التعريف وليس التنقيص من قدر عبدالله ابن أم مكتوم ـ رضي الله عنه ـ وكذلك فى هذا الوصف إيماء إلى أن له عذرا فى مقاطعة الرسول ﷺ عند حديثه مع زعماء قريش ، فهو لم يكن يراه وهو يحادثهم ويدعوهم إلى الإسلام .

وجاء الحديث عن هذه القصة بصيغة الحكاية ، وبضمير الغيبة للإشعار بأن هذه القصة ، من الأمور التى لايحب الله ـ تعالى ـ أن يواجه بها نبيه ﷺ على سبيل التكريم له ، والعطف عليه ، والرحمة به .

وجملة ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴾ فى موضع الحال ، وفيها التفات من الغيبة إلى الخطاب .

والمعنى : عبس ﷺ وضاق صدره وأعرض بوجهه ، لأن جاءه الرجل الأعمى وجعل يخاطبه وهو مشغول بالحديث مع غيره .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أى : وأى شىء يجعلك ـ أيها الرسول الكريم ـ داريا بحال هذا الأعمى الذى عبست فى وجهه ﴿ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴾ أى : لعله بسبب ما يتعلمه منك يتطهر ويتزكى ، ويزداد نقاء وخشوعا لله رب العالمين ﴿ أَوْ ﴾ لعله ﴿ يَذَّكَّرُ ﴾ أى : يتذكر ما كان فى غفلة عنه ﴿ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ أى : فتنفعه الموعظة التى سمعها منك .

ثم فصل ـ سبحانه ـ ما كان منه ﷺ بالنسبة لهذه القصة فقال : ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ . فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ . وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ . وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ . وَهُوَ يَخْشَىٰ . فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ أى : أما من استغنى عن الإيمان ، وعن إرشادك ـ أيها الرسول الكريم ـ واعتبر نفسه فى غنى عن هديك ﴿ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴾ أى : فأنت تتعرض له بالقبول ، وبالإصغاء لكلامه ، رجاء أن يسلم ، فيسلم بعده غيره .

﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ ﴾ أى : وأى شىء عليك فى أن يبقى على كفره ، بدون تطهر؟

إنه لاحرج عليك فى ذلك فأنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ . . ﴾ .

﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴾ أى : وأما من جاءك مسرعا فى طلب الخير والهداية والعلم ، وهو هذا الأعمى ، الذى لم يمنعه فقدانه لبصره من الحرص على التفقه فى الدين .

﴿ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾ أى : وهو يخشى الله ، ويخاف عقابه ، ويرجو ثوابه .

﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ أى : فأنت عنه تتشاغل وتفرغ جهدك مع هؤلاء الزعماء ، طمعا فى إيمانهم .

ثم ساق ـ سبحانه ـ ما هو أشد فى العتاب وفى التحذير فقال : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ .

أى : كلا ـ أيها الرسول الكريم ـ ليس الأمر كما فعلت ، من إقبالك على زعماء قريش طمعا فى إسلامهم ، ومن تشاغلك وإعراضك عمن جاءك يسعى وهو يخشى .

والضمير فى قوله : ﴿ إِنَّهَا ﴾ يعود إلى آيات القرآن الكريم ، أى : إن آيات القرآن الكريم المشتملة على التذكير بالحق ، وعلى الموعظة الحكيمة التى ينبغى على كل عاقل أن يعمل بموجبها ، وأن يسير بمقتضاها .

﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أى : فمن شاء أن يتعظ ويعتبر وينتفع بهذا التذكير فاز وربح ، ومن شاء غير ذلك خسر وضاع ، فالجملة الكريمة لتهديد الذين يعرضون عن الموعظة ، وليست للتخيير كما يتبادر من فعل المشيئة .

وهى معترضة للترغيب فى حفظ هذه الآيات ، وفى العمل بما اشتملت عليه من هدايات .

وجاء الضمير مذكرا فى قوله : ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ لأن التذكرة هنا بمعنى التذكير والاتعاظ .

أى : فمن شاء التذكير والاعتبار ، تذكر واعتبر وحفظ ذلك دون أن ينساه .

وقوله : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ خبر ثان لقوله : ﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ وما بينهما اعتراض .

أى : إن آيات القرآن تذكرة ، مثبتة أو كائنة فى صحف عظيمة ﴿ مُّكَرَّمَةٍ ﴾ عند الله ـ تعالى ـ لأنها تحمل آياته .

هذه الصحف - أيضا - ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ أى : ذات منزلة رفيعة ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ أى : منزهة عن أن يمسها مايدنسها .

وهى كائنة ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ وهم الملائكة الذين جعلهم الله - تعالى - سفراء بينه وبين رسله : جمع سافر بمعنى سفير ، أى : رسول وواسطة أو هم الملائكة الذين ينسخون ويكتبون هذه الآيات بأمره - تعالى - ، وأنهم أتقياء مطيعون لله - تعالى - كل الطاعة ، جمع بر ، وهو من كان كثير الطاعة والخشوع لله - عز وجل - .

هذا والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها قد اشتملت على كثير من الآداب والأحكام ، ومن ذلك : أن شريعة الله - تعالى - تجعل التفاضل بين الناس ، أساسه الإيمان والتقوى ، فمع أن عبدالله ابن أم مكتوم ، كان قد قاطع الرسول ﷺ خلال حديثه مع بعض زعماء قريش ، ومع أن الرسول ﷺ لم يتشاغل عنه إلا لحرصه على جذب هؤلاء الزعماء إلى الإسلام .

مع كل ذلك ، وجدنا الآيات الكريمة ، تعاتب النبى ﷺ عتابا تارة فيه رقة ، وتارة فيه شدة ، وذلك لأن الميزان الذى أنزله الله - تعالى - للناس مع الرسل ، لكى يبنوا عليه حياتهم ، هو : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ .

ولقد استجاب الرسول الكريم لهذا التوجيه الحكيم ، فبنى حياته كلها بعد ذلك على هذا الميزان العادل ، ومن مظاهر ذلك : إكرامه لابن أم مكتوم ، وقوله له كلما رآه : «أهلا بمن عاتبنى فيه ربى» .

وفعل - ﷺ - ما يشبه ذلك ، مع جميع المؤمنين الصادقين الذين كانوا من فقراء المسلمين ، ولم يكونوا أصحاب جاه أو نفوذ أو عشيرة قوية .

لقد جعل زيد بن حارثة - وهو الغريب عن مكة والمدينة - أميرا على الجيش الإسلامى فى غزوة مؤتة ، وكان فى هذا الجيش عدد كبير من كبار الصحابة .

وقال ﷺ فى شأن سلمان الفارسى : «سلمان منا أهل البيت» .

وقال ﷺ فى شأن عمار بن ياسر ، عندما استأذن عليه فى الدخول : «ائذنوا له ، مرحبا بالطيب المطيب» .

وكان من مظاهر تكريمه لعبدالله بن مسعود ، أن جعله كأنه واحد من أهل بيته .

فعن أبى موسى الأشعرى قال : قدمت أنا وأخى من اليمن ، فمكثنا حينا وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ من كثرة دخولهم على رسول الله ، ولزومهم له .

وقال ﷺ لأبى بكر الصديق عندما حدث كلام بينه وبين سلمان وصهيب وبلال فى شأن أبى سفيان : يا أبا بكر لعلك أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك .

فقد أخرج الإمام مسلم فى صحيحه ، أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال فى نفر ، فقالوا : ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها ، فقال أبوبكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟

فأتى النبى ﷺ فأخبره فقال : «يا أبابكر لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك» فأتاهم فقال : يا إخوتاه أأغضبتكم؟ قالوا : لا ويغفر الله لك يا أخى .[(١)]

ولقد سار خلفاؤه - ﷺ - على هذه السنة ، فكانوا يكرمون الفقراء ، فأبوبكر - رضي الله عنه - أذن لصهيب وبلال فى الدخول عليه ، قبل أن يأذن لأبى سفيان وسهيل بن عمرو .

وعمر - رضي الله عنه - يقول فى شأن أبى بكر : «هو سيدنا وأعتق سيدنا يعنى : بلال ابن رباح» .

قال صاحب الكشاف عند تفسيره ، لهذه الآيات : ولقد تأدب الناس بأدب الله فى هذا تأدبا حسنا ، فقد روى عن سفيان الثورى - رحمه الله - أن الفقراء كانوا فى مجلسه أمراء .[(٢)]

٣ - وفى سورة «الأنفال» آيات كريمة ، حكت جانبا مماحدث مع أسرى غزوة بدر ، وأرشدت الرسول ﷺ إلى ما كان الأولى عمله معهم ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها ، ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال : حدثنى عمر بن الخطاب : أنه لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ

---

(١) رياض الصالحين ص١٤٢ باب : ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة .

(٢) تفسير الكشاف جـ٤ ص٧٠١ .

إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ، فاستقبل القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه : اللهم أنجز لى ما وعدتنى .

فقتل المسلمون من المشركين يومئذ سبعين وأسروا سبعين .

قال ابن عباس : فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر : ما ترون فى هؤلاء الأسارى؟ فقال أبوبكر : يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار ، فعسى أن يهديهم الله إلى الإسلام .

فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال : قلت لا والله يا رسول الله ، ما أرى الذى رأى أبوبكر ، ولكن أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، وتمكننى من فلان ـ نسيب لعمر ـ فأضرب عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده ، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبوبكر ، ولم يهو ما قلت .

فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله وأبوبكر يبكيان ، فقلت : يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟

فقال رسول الله ﷺ : أبكى على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة ـ لشجرة قريبة منه ـ ﷺ ـ وأنزل الله عز وجل ـ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ . . ﴾ . . إلخ الآيات .(١)

وروى الإمام أحمد والترمذى عن عبدالله بن مسعود قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ «ماتقولون فى هؤلاء الأسارى؟» فقال أبوبكر : يا رسول الله! قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم .

وقال عمر : يا رسول الله! كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم .

وقال عبدالله بن رواحة : يا رسول الله ، أنت بواد كثير الحطب فأضرم الوادى عليهم نارا ثم ألقهم فيه .

قال : فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد شيئا ، ثم قال فدخل فقال ناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر : وقال ناس : يأخذ بقول ابن رواحة .

ثم خرج عليهم رسول الله فقال : إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين ، ويشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر كمثل

---

(١) صحيح مسلم جـ٥ ص١٥٦ من كتاب الجهاد والسير طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٦٠ .

إبراهيم إذ قال ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] وكمثل عيسى إذ قال : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .[2]

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال : ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾[3] وكمثل موسى إذ قال : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ .[4]

ثم قال ﷺ : «أنتم عالة فلا ينفلتن أحد إلا بفداء أو ضربة عنق» .

قال ابن مسعود» : فقلت يا رسول ، إلا سهيل بن بيضاء ، فإنه يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ثم قال : «إلا سهيل بن بيضاء» ، وأنزل الله ـ عز وجل ـ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ .. ﴾ إلى آخر الآية .[5]

وقال ابن إسحاق ـ وهو يحكى أخبار غزوة بدر ـ : فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ورسول الله ﷺ فى العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله ﷺ متوشحا السيف ، فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ، يخافون عليه الكرة ، ورأى رسول الله ـ فيما ذكر لى ـ فى وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس ، فقال رسول الله ﷺ «والله لكأنك يا سعد تكره مايصنع القوم؟» فقال : أجل والله يا رسول الله : كانت هذه أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحب إلىْ من استبقاء الرجال .[6]

وقوله : ﴿ أَسْرَىٰ ﴾ جمع أسير : كقتلى جمع قتيل ، وهو مأخوذ من الأسر بمعنى الشد بالإسار ، أى : القيد الذى يقيد به حتى لايهرب ، ثم صار لفظ الأسير يطلق علي كل من يؤخذ من فئته فى الحرب ولو لم يشد بالإسار .

وقوله : ﴿ يُثْخِنَ ﴾ من الثخانة وهى فى الأصل الغلظ والصلابة ، يقال : ثخن الشىء يثخن ، ثخونة وثخانة وثخنا ، أى : غُلظ وصلب فهو ثخين ، ثم استعمل فى النكاية

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٦ .
(٢) سورة المائدة : آلية ١١٨ .
(٣) سورة نوح الآية ٢٦ .
(٤) سورة يونس : الآية ٨٨ .
(٥) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٣٢٥ .
(٦) الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام جـ٥ ص١٠٦ .

والمبالغة فى قتل العدو فقيل : أثخن فلان فى عدوه ، أى : بالغ فى قتله وإنزال الجراحة الشديدة به ، لأنه بذلك يمنعه من الحركة فيصير كالثخين الذى لايسيل ولايتحرك .

والمراد بالنبى فى قوله : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ نبينا محمد ﷺ وإنما جيء باللفظ منكرا تلطفا به ﷺ حتى لايواجه بالعتاب .

والمعنى : ما صح وما استقام لنبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ﴾ من أعدائه الذين يريدون به وبدعوته شرا ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ أى : حتى يبالغ فى قتلهم ، وإنزاله الضربات الشديدة عليهم إذلالا للكفر ، وإعزازا لدين الله .

وقوله : ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ استئناف مسوق للعتاب .

والعرض : مالا ثبات له ولا داوم من الأشياء ، فكأنها تعرض ثم تزول ، والمراد بعرض الدنيا هنا : الفداء الذى أخذوه من أسرى غزوة بدر حتى يطلقوا سراحهم .

تريدون ـ أيها المؤمنون ـ بأخذكم الفداء من أعدائكم الأسرى عرض الدنيا ومتاعها الزائل ، وحطامها الذى لاثبات له ، والله ـ تعالى ـ يريد لكم ثواب الآخرة .

فالكلام فى قوله : ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، والإرادة هنا بمعنى الرضا أى : والله ـ تعالى ـ يرضى لكم العمل الذى يجعلكم تظفرون بثوابه فى الآخرة ، وهو تفضيل إذلال الشرك على أخذ الفداء من أهله .

وقوله : ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى : والله ـ تعالى ـ لايغالب بل هو الغالب على أمره فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه .

فالآية الكريمة تعتب على المؤمنين لأنهم آثروا الفداء على القتل والإثخان فى الأرض ، وذلك لأن غزوة بدر كانت أول معركة حاسمة بين الشرك والإيمان ، وكان المسلمون فيها قلة والمشركون كثرة ، فلو أن المسلمين آثروا المبالغة فى إذلال أعدائهم عن طريق القتل لكان ذلك أدعى لكسر شوكة الشرك وأهله ، وأظهر فى إذلال قريش وحلفائها ، وأصرح فى بيان أن العمل على إعلاء كلمة الله كان عند المؤمنين فوق متع الدنيا وأعراضها ، وأنهم لايوادون من حارب الله ورسوله مهما بلغت درجة قرابته ، وهذا ما عبر عنه عمر ـ رضي الله عنه ـ بقوله : «وحتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين» .

والخلاصة أن غزوة بدر ـ بظروفها وملابساتها التى سبق أن أشرنا إليها ـ كان الأولى بالمسلمين فيها أن يبالغوا فى قتل أعدائهم لا أن يقبلوا منهم فداء حتى يذلوهم ويعجزوهم عن معاودة الكرة .

ورضى الله ـ تعالى ـ عن «سعد بن معاذ» فقد ظهرت الكراهية على وجهه بسبب أخذ الفداء من الأسرى ، وقال ـ كما سبق أن بينا ـ : «كانت غزوة بدر أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحب إلىّ من استبقاء الرجال» .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك بعض مظاهر رحمته بالمؤمنين : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

والمراد بالكتاب هنا : الحكم وأطلق عليه كتاب لأن هذا الحكم مكتوب فى اللوح المحفوظ .

وللمفسرين أقوال فى تفسير هذا الحكم السابق فى علم الله ـ تعالى ـ :

فمنهم من يرى أن المراد به أنه ـ سبحانه ـ لايعذب المخطىء فى اجتهاده .

وقد صدر صاحب الكشاف تفسيره لهذه الآية بهذا الرأى فقال قوله : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ ﴾ أى : لولا حكم منه سبق إثباته فى اللوح المحفوظ ، وهو أنه ـ سبحانه ـ لايعاقب أحدا بخطأ ، وكان هذا خطأ فى الاجتهاد ، لأنهم نظروا فى أن استبقاءهم ربما كان سببا فى إسلامهم وتوبتهم وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد فى سبيل الله ، وخفى عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم وأفل لشوكتهم .[١]

ومنهم من يرى أن المراد به أنه ـ سبحانه ـ لايعذب قوما إلا بعد تقديم النهى عن الفعل ، ولم يتقدم نهى عن أخذ الفداء .

ومنهم من يرى أن المراد به أنه ـ سبحانه ـ لايعذبهم مادام رسول الله ﷺ بينهم .

أو أنه ـ سبحانه ـ لايعذب أحدا ممن شهد بدرا .

وقد ساق الإمام الرازى هذه الأقوال وناقشها ثم اختار أن المراد بالكتاب الذى سبق : هو حكمه ـ سبحانه ـ فى الأزل بالعفو عن هذه الواقعة ، لأنه كتب على نفسه الرحمة ، وسبقت رحمته غضبه .

أما الإمام ابن جرير فهو يرى : أن الآية خبر عام غير محصور على معنى دون معنى ، وأنه لاوجه لأن يخص من ذلك معنى دون معنى ، فقال : يقول الله ـ تعالى ـ لأهل بدر الذين أخذوا من الأسرى الفداء ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ . . ﴾ .

أى : لولا قضاء من الله سبق لكم أهل بدر فى اللوح المحفوظ بأن الله يحل لكم الغنيمة ، وأن الله قضى أنه لايضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون وأنه لايعذب أحدا شهد هذا المشهد الذى شهدتموه ببدر ، لولا كل ذلك لنالكم من الله بأخذكم الفداء عذاب عظيم .[٢]

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص٢٢٧ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ١٠ ص٤٤ .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير ـ من أن الآية خبر عام يشمل كل هذه المعانى ـ أولى بالقبول ، لأنه لم يوجد نص صحيح عن النبى ﷺ يحدد تفسير المراد من هذا الكتاب السابق فى علمه ـ تعالى ـ .

ولعل الحكمة فى هذا الإبهام لتذهب الأفهام فيه إلى كل ما يحتمله اللفظ ، ويدل عليه المقام ، ولكى يعرفوا أن أخذهم الفداء كان ذنبا يستحقون العقوبة عليه لولا أن الله ـ تعالى ـ قدر فى الأزل العفو عنهم بسبب وجود النبى ﷺ فيهم ، ولأنهم قد أخطأوا فى اجتهادهم ، ولأنهم لم يتقدم لهم نهى عن ذلك ولأنهم قد شهدوا هذه الغزوة التى قال الرسول فى شأن من حضرها على لسان ربه ـ عز وجل «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» .

فقد روى الشيخان وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال لعمر فى قصة حاطب بن أبى بلعتة عندما أخبر المشركين أن الرسول سيغزوهم قبل فتح مكة وكان حاطب قد شهد بدرا : «ومايدريك لعل الله ـ تعالى ـ اطلع على أهل بدر وقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم» .(١)

والمعنى الإجمالى للآية الكريمة : ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أى : لولا حكم من الله ـ تعالى ـ سبق منه فى الأزل ألا يعذب المخطىء على اجتهاده أو ألا يعذب قوما قبل تقديم البيان إليهم ، ولولا كل ذلك ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أى : لأصابكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ أى بسبب ما أخذتم من الفداء قبل أن تؤمروا به ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لايقادر قدره فى شدته وألمه .

قال ابن جرير : قال ابن زيد : لم يكن من المؤمنين أحد ممن نصر إلا أحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب ، جعل لايلقى أسيرا إلا ضرب عنقه وقال : يا رسول الله ما لنا وللغنائم؟ نحن قوم نجاهد فى دين الله حتى يعبد الله فقال رسول الله ﷺ : «لو عذبنا فى هذا الأمر يا عمر ما نجا غيرك» .

وقال ابن إسحاق : لما نزلت الآية ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ ، قال رسول الله ﷺ «لو نزل عذاب من السماء لم ينج منه إلا سعد بن معاذ لقوله : يا نبى الله ، كان الإثخان فى القتل أحب إلىّ من استبقاء الرجال» .(٢)

وقال بعض العلماء : قال القاضى ، وفى الآية دليل على أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يجتهدون ، وأنه قد يكون خطأ ، ولكن لايقرون عليه .(٣)

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٠ ص٣٥ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ١٠ ص٤٨ .

(٣) تفسير القاسمى جـ٨ ص٣٩٣٩ .

ثم زاد ـ سبحانه ـ المؤمنين فضلا ومنة فقال : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

والمعنى : لقد عفوت عنكم ـ أيها المؤمنون ـ فيما وقعتم فيه من تفضيلكم أخذ الفداء من الأسرى على قتلهم ، وأبحت لكم الانتفاع بالغنائم فكلوا مما غنمتم من أعدائكم حلالا طيبا ، أى لذيذا هنيئا لا شبهة فى أكله ، ولاضرر ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى كل أحوالكم بأن تخشوه وتراقبوه ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ولذا غفر لكم ما فرط منكم وأباح لكم ما أخذتموه من فداء ، فسبحانه من إله واسع الرحمة والمغفرة ، لمن اتقاه وتاب إليه توبة صادقة .

٤ ـ وفى سورة التوبة آية كريمة ، ساقت عتابا رقيقا من الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ وهذه الآية هى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

قالوا : وقد نزلت هذه الآية فى شأن جماعة من المنافقين أذن لهم الرسول ﷺ فى التخلف عن الخروج معه إلى غزوة تبوك دون أن يتبين أحوالهم .

والعفو : يطلق على التجاوز عن الذنب أو التقصير ، كما يطلق على ترك المؤاخذة على عدم فعل الأولى والأفضل ، وهو المراد هنا .

والمعنى : عفا الله عنك يا محمد ، وتجاوز عن مؤاخذتك فيما فعلته مع هؤلاء المنافقين من سماحك لهم بالتخلف عن الجهاد معك فى غزوة تبوك ، حين اعتذروا إليك بالأعذار الكاذبة ، وكان الأولى بك أن تتريث وتتأنى فى السماح لهم بالتخلف ، حتى يتبين لك الذين صدقوا فى اعتذارهم من الذين كذبوا فيه ، فقد كانوا ـ إلا قليلا منهم ـ كاذبين فى معاذيرهم ، وكانوا مصرين على القعود عن الجهاد حتى ولو لم تأذن لهم به .

وقدم ـ سبحانه ـ العفو على العتاب ، وهو قوله ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ للإشارة إلى المكانة السامية التى له ﷺ عند ربه .

قال بعض العلماء : هل سمعتم بعتاب أحسن من هذا؟ لقد خاطبه ـ سبحانه ـ بالعفو قبل أن يذكر المعفو عنه .

هذا ، ومن الأمور التى تكلم عنها العلماء عند تفسيرهم لهذه الآية ما يأتى :

١ ـ أن النبى ﷺ كان يحكم بمقتضى اجتهاده فى بعض الوقائع ، وقد بسط القول فى هذه المسألة صاحب المنار فقال ما ملخصه :

وقد كان الإذن المعاتب عليه اجتهادا منه - ﷺ - فيما لا نص فيه من الوحى ، وهو جائز وواقع من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وليسوا بمعصومين من الخطأ فيه ، وإنما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحى ببيانه والعمل به ،فيستحيل على الرسول أن يكذب أو أن يخطىء فيما يبلغه عن ربه أو يخالفه بالعمل .

ويؤيده حديث طلحة فى تأبير النخل إذ رآهم - ﷺ - يلقحونها فقال : «ما أظن يغنى ذلك شيئا» فأخذوا بذلك فتركوه ظنا منهم أن قوله هذا من أمر الدين ، فنفضت النخل وسقط ثمرها ، فأخبر بذلك فقال : «إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإنى ظننت ظنا فلاتؤاخذونى بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به ، فإنى لن أكذب على الله عز وجل» .

وقد صرح علماء الأصول بجواز الخطأ فى الاجتهاد على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، قالوا : ولكن لايقرهم الله على ذلك ، بل يبين لهم الصواب فيه .[1]

٢ - أن من الواجب على المسلم التريث فى الحكم على الأمور .

قال الفخر الرازى : دلت الآية على وجوب الاحتراز عن العجلة ، ووجوب التثبت والتأنى ، وترك الاغترار بظواهر الأمور ، والمبالغة فى التفحص ، حتى يمكنه أن يعامل كل فريق بما يستحقه من التقريب أو الإبعاد .[2]

٣ - أن المتتبع لآراء العلماء عند تفسيرهم لهذه الآية يرى لهم ثلاثة أقوال :

أما **القول الأول** فهو لجمهور العلماء : وملخصه : أن المراد بالعفو فى قوله - سبحانه - ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ عدم مؤاخذته - ﷺ - فى تركه الأولى والأفضل ، لأنه كان من الأفضل له ألا يأذن للمنافقين فى التخلف عن الجهاد حتى يتبين أمرهم .

وهذا القول هو الذى نختاره ونرجحه ، لأنه هو المناسب لسياق الآية ولما ورد فى سبب نزولها .

وأما **القول الثانى** فهو لصاحب الكشاف : وملخصه : أن العفو هنا كناية عن الجناية ، فقد قال : قوله : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ كناية عن الجناية لأن العفو مرادف لها ، ومعناه ، أخطأت وبئس ما فعلت ، وقوله : ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ بيان لما كنى عنه بالعفو .[3]

ولم يرتض كثير من العلماء ما ذهب إليه صاحب الكشاف من أن العفو هنا كناية عن الجناية ، ووصفوا ما ذهب إليه بالخطأ وإساءة الأدب .

---

(١) تفسير المنار جـ١٠ ص٤٥٣ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٤٤٤ .

(٣) تفسير الكشاف جـ٢ ص١٩٢ طبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٦٦ .

قال أبوالسعود : ولقد أخطأ وأساء الأدب وبئسما فعل فيما قال وكتب من زعم أن الكلام كناية عن الجناية ، وأن معناه أخطأت ، وبئس ما فعلت .

هب أنه كناية أليس إيثارها على التصريح بالجناية للتلطيف فى الخطاب ، والتخفيف فى العقاب؟[١]

وقال الشيخ أحمد بن المنير : ليس له ـ أى الزمخشرى ـ أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير ، وهو بين أحد أمرين : إما ألا يكون هو المراد وإما أن يكون هو المراد ، ولكن قد أحل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب ، وخصوصا فى حق المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فالزمخشرى على كلا التقديرين ذهل عما يجب فى حقه ﷺ .

ولقد أحسن من قال فى هذه الآية : إن من لطف الله ـ تعالى ـ بنبيه ـ أن بدأه بالعفو قبل العتب ، ولو قال له ابتداء ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ لتفطر قلبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه فى حق سيد البشر ـ عليه الصلاة والسلام ـ .[٢]

وأما القول الثالث فهو للإمام الفخرى الرازى ، ولمن حذا حذوه كالقرطبى وغيره ، وملخص هذا القول إنه يجوز أن يكون المراد بالعفو هنا : المبالغة فى تعظيم النبى ﷺ وتوقيره ، أو أن قوله ـ سبحانه ـ : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ افتتاح كلام .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : لانسلم أن قوله ـ تعالى ـ ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ يوجب الذنب ، ولم لايجوز أن يقال : إن ذلك يدل على مبالغة الله ، تعالى ـ فى تعظيمه وتوقيره ، كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظما عنده ، عفا الله عنك ما صنعت فى أمرى ، فلايكون غرضه من هذا الكلام إلا مزيد التبجيل والتعظيم .

ويؤيد ذلك قول على بن الجهم يخاطب المتوكل وقد أمر بنفيه :

عفا الله عنك ألا حرمة تعوذ بعفوك أن أبعدا

ألم ترد عبدا عدا طوره ومولى عفا ورشيدا هدى

أقلنى أقالك من لم يزل يقيك ويصرف عنك الردى[٣]

وقال القرطبى : قوله ـ تعالى ـ : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ قيل : هو افتتاح كلام ، كما تقول : أصلحك الله وأعزك ورحمك كان كذا وكذا .[٤]

(١) تفسير أبى السعود جـ٢ ص٢٧٢ .
(٢) حاشية تفسير الكشاف جـ٢ ص١٩٢ .
(٣) تفسير الفخر الرازى جـ٤ ص٤٤٣ .
(٤) تفسير القرطبى جـ٧ ص١٥٤ .

والذى نراه أن القول الأول هو الراجح لما سبق أن بيناه .

وبعد : فهذه بعض الآيات القرآنية التى فيها مافيها من إرشاد حكيم ، ومن توجيه كريم ، ومن عتاب رقيق ، من الله ـ تعالى ـ لرسوله ﷺ .

وهى تدل دلالة واضحة على أنه إذا كان أكرم الخلق وأفضلهم وأشرفهم وأرجحهم عقلا ، لايستغنى عن إرشاد خالقه ـ عز وجل ـ وعن تعليمه ، فأولى ثم أولى غيره من البشر نسأل الله ـ تعالى ـ أن يشملنا جميعا برعايته وتوفيقه .

١١ـ أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين

١ ـ قال الله ـ تعالى ـ :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ .. ﴾ [الأحزاب : ٦]

أى : أن النبى ﷺ أحق بالمؤمنين بهم من أنفسهم ، وأولى فى المحبة والطاعة ، فإذا ما دعاهم إلى أمر ، ودعتهم أنفسهم إلى خلافه ، وجب أن يقدموا ما دعاهم إليه ، على ما تدعوهم إليه أنفسهم ، لأنه ﷺ لايدعوهم إلا إلى ما ينفعهم ، أما أنفسهم فقد تدعوهم إلى مايضرهم .

وفى الحديث الصحيح : «والذى نفسى بيده ، لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده ، والناس أجمعين» .

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أى : وأزواجه ﷺ بمنزلة أمهاتكم اللائى ولدنكم ـ أيها المؤمنون ـ فى الاحترام والتوقير والإكرام ، وفى حرمة الزواج بهن .

وأما ماعدا ذلك من الأحكام الشرعية ، كمخاطبتهن وإرثهن ، فهن كغيرهن من سائر النساء .

قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٣]

٢ ـ ولقد أثار الذين فى قلوبهم مرض ، شبهات زائفة حول زواجه ﷺ بأمهات المؤمنين ، ونحن هنا سنذكر ـ بإيجاز ـ ترجمة لكل واحدة من أزواجه ﷺ وللمقاصد الشريفة ، وللغايات النبيلة ، التى تم من أجلها هذا الزواج .

لقد كانت أولى زوجاته ﷺ السيدة خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ تزوجها ﷺ وسنه خمس وعشرون سنة ، وكانت هى فى الأربعين من عمرها .

وعاش معها زهاء خمس وعشرين سنة ، دون أن يجمع معها زوجة أخرى ، وكانت أحب الناس إليه ، وأقربهم إلى نفسه ﷺ لإيمانها العميق ، ووفائها النادر ، وحرصها التام على مايرضى الله ـ تعالى ـ ويرضى رسوله ﷺ .

وكان له منها أولاده الستة القاسم والطيب ، ورقية وأم كلثوم ، وزينب ، وفاطمة ، وقد ماتوا جميعا قبله ، سوى السيدة فاطمة التى توفيت بعده ﷺ ببضعة أشهر .

ولم يرزق ﷺ بأولاد من زوجاته اللائى تزوجهن بعدها ، سوى مارية القبطية التى أنجبت له ابنه إبراهيم ، الذى توفى - أيضا - فى حياته ﷺ .

وتوفيت السيدة خديجة - رضى الله عنها - فى السنة العاشرة من البعثة ، وهى فى الخامسة والستين من عمرها ، وحزن ﷺ لموتها حزنا شديدا ، بل وسمى العام الذى توفيت فيه بعام الحزن .

وقد بشرها ﷺ ببيت فى الجنة ، لاصخب فيه ولا نصب ، وكان عمره ﷺ عند وفاتها نحو خمسين سنة .

وكانت الزوجة الأولى له ﷺ بعد وفاة السيدة خديجة السيدة سودة بنت زمعة ، وكانت عند زواجه ﷺ بها فى الخامسة والستين من عمرها ، وكانت قد أسلمت مع زوجها «السكران بن عمرو» وهاجرت معه إلى الحبشة بعد أن اشتد أذى المشركين لهما ولغيرهما من المؤمنين ، وبعد عودتهما إلى مكة توفى زوجها ، وكان أهلها مايزالون على الشرك ، وخشيت إن عادت إليهم أن يفتنوها عن دينها ، فتزوجها ﷺ حماية وصيانة لها من أن تفتتن فى دينها بعد وفاة زوجها .

ولحقت بربها - عز وجل - فى خلافة عمر بن الخطاب - ﷺ - وكانت قد جاوزت الثمانين من عمرها - رضى الله عنها - .

ثم تزوج ﷺ بأم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق ، أول من آمن بالنبى ﷺ من الرجال .

وكان زواجه ﷺ بها ، تكريما وتشريفا لأبيها أبى بكر ، وكان دخوله ﷺ بها ، فى السنة الأولى من هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة .

وكانت - رضى الله عنها - أصغر أزواجه - ﷺ - سنا ، وآثرهن عنده لقوة إيمانها وصفاء ذهنها ، وجودة فقهها ، وشدة ذكائها ، وحرصها على كل ما يرضى الرسول ﷺ .

وقد لحقت بربها - عز وجل - فى السنة الثامنة والخمسين من الهجرة ، بعد أن أدت رسالتها فى خدمة دينها على أكمل وجه .

وفى السنة الثالثة من الهجرة - على الأرجح - تزوج ﷺ بالسيدة حفصة بنت عمر ابن الخطاب ، وكان من أسباب زواجه بها ﷺ توثيق الصحبة بينه وبين أبيها الفاروق ، وزيادة فى تكريمه ، وكان من أسبابه - أيضا - الرعاية لها بعد أن مات زوجها خُنَيس بن حذافة الذى كان من السابقين إلى الإسلام .

فتزوجها ﷺ لهذه المقاصد الشريفة ، وكانت - رضى الله عنها - ذكية حافظة تعلمت الكتابة على يد الشفاء بنت عبدالله ، وكانت - رضى الله عنها - صوامة قوامة وتوفيت سنة ٤٥ هـ .

وفى السنة الثالثة - أيضا من الهجرة ، تزوج ﷺ بالسيدة زينب بنت خزيمة ، بعد أن استشهد زوجها عبيدة بن الحارث فى غزوة بدر .

فكان زواجه ﷺ من أجل حمايتها ورعايتها ، وقد توفيت - رضى الله عنها - بعد زواجها بالرسول ﷺ ببضعة أشهر ، فكانت الزوجة الثانية التى توفيت فى حياته بعد السيدة خديجة وكانت تلقب بأم المساكين لسخائها وكرمها .

وفى السنة الرابعة من الهجرة ، تزوج ﷺ بالسيدة أم سلمة ، وهى هند بنت أبى أمية المخزومى ، بعد أن أصيب زوجها وابن عمها أبو سلمة عبدالله بن عبدالأسد فى غزوة أحد ، وقد توفى بعدها .

وكانت هى وزوجها من السابقين إلى الإسلام ، وأنجبت منه أربعة أولاد وقد حزنت لموت زوجها حزنا شديدا ، وكانت فى الثلاثين من عمرها ، وكانت تقول : غريب مات فى أرض غربة ، والله لأبكينه بكاء يتحدث الناس عنه .

وقد اعتذرت عن الزواج بعد وفاة زوجها أبى سلمة .

إلا أنها رضيت بالزواج بالرسول ﷺ بعد أن عرفها ﷺ أنه يريد الزواج بها لرعاية أولادها ولرعايتها ، بعد أن أصابها ما أصابها من أذى ومشقة هى وزوجها .

وقد لحقت بخالقها - عز وجل - سنة ٥٩هـ بعد أن جاوزت الثمانين من عمرها - رضى الله عنها - .

وفى السنة الخامسة بعد الهجرة وفى أعقاب غزوة بنى المصطلق ، تزوج ﷺ بالسيدة جويريه بنت الحارث ، سيد قبيلة بنى المصطلق ، وكانت قد وقعت أسيرة خلال تلك الغزوة ، فدخلت على الرسول ﷺ وشكت إليه حالها وحال قومها ، فرق النبى ﷺ لحالها وعرض عليها الإسلام فأسلمت ، وتزوجها ﷺ بعد عودته إلى المدينة المنورة وبعد انتهائه من غزوة بنى المصطلق .

وعلم الناس بزواج النبى ﷺ منها فأعتقوا الأسرى والسبايا من قومها ، وأسلم أبوها وإخوتها ، فكان هذا الزواج خيرا وبركة عليها وعلى قومها ، ولذا قالت السيدة عائشة : «ما كانت امرأة أبرك على قومها من جويرية ، لقد عتق بها مائة بيت من بيوت قومها» .

وتوفيت - رضى الله عنها - سنة ٥٦ من الهجرة وكانت كثيرة الصيام والعبادة .

وفى السنة السابعة تزوج ﷺ بالسيدة أم حبيبة ، وهى رملة بنت أبى سفيان ، وكانت

هي وزوجها عبيد الله بن جحش من السابقين إلى الإسلام ومن المهاجرين إلى الحبشة ، وهناك ارتد زوجها عن الإسلام ودخل فى النصرانية .

وعلم النبى ﷺ بذلك ، فأرسل أحد أصحابه إلى الحبشة ليخطبها له ، حماية لها فى أرض الغربة ، ودفع النجاشى صداقها نيابة عنه ﷺ ثم أرسلها إلى المدينة المنورة .

وعلم أبو سفيان ما فعله الرسول ﷺ مع ابنته من تكريم لها ففرح بذلك ، وقال : نعم الزوج محمد ﷺ .

وبهذا الزواج صان ﷺ ابنة زعيم قريش من الفتنة ، وأعطاها ما تستحقه من تكريم وتشريف ، جزاء صبرها وقوة إيمانها ، وتحملها للغربة فى أرض الحبشة زهاء خمسة عشرة عاما ، قضت بعدها زهاء ثلاث سنوات فى بيت النبوة بعد زواجها بالنبى ﷺ وكانت وفاتها سنة ٤٤هـ .

وفى أعقاب غزورة خيبر من السنة السابعة ، تزوج ﷺ السيدة صفية بنت حيى بن أخطب ، بعد أن أسلمت ، وبعد أن أطلق ﷺ سراحها من الأسر الذى أصابها وأصاب قومها بعد فتح خيبر .

فكان هذا الزواج رحمة بها ، وتكريما لها ، وتطييبا لخاطرها وتوفيت ـ رضى الله عنها ـ سنة ٥٢هـ .

وقبيل وفاته ﷺ بسنتين أو أكثر قليلا ، تزوج ﷺ بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وقد اختارها له ﷺ عمه العباس بن عبدالمطلب ، لتوثيق ما بينه ﷺ وبين القبائل العربية ، وقد أصدقها العباس ـ رضي الله عنه ـ من ماله بأربعمائة درهم ، ويقال بأنها هى المرأة التى وهبت نفسها للنبى ﷺ .

وكان دخوله بها ﷺ بعد عمرة القضاء بموضع يقال له «سرف» بضواحى مكة وتوفيت ـ رضى الله عنها ـ سنة ٥١هـ .

٣ ـ ومن بين أزواجه - أيضًا - السيدة زينب بنت جحش وقد أخرنا الكلام عنها لأننا نريد أن نبسط القول فى أسباب زواجه بها ﷺ .

والسيدة زينب بنت جحش ، أمها أميمة بنت عبدالمطلب ، فزينب بنت عمة النبى ﷺ وكانت قد تزوجت قبل زواجها بالنبى ﷺ بزيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ .

وكان مملوكا للسيدة خديجة ، فلما تزوجها النبى ﷺ وهبت له زيدا ، فأعتقه وتبناه وكان يقال له زيد بن محمد .

واستمر الناس يقولون زيد بن محمد لمدة طويلة ، إلى أن نزل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ . . ﴾ [الأحزاب : ٥]

فصار الناس ينادونه باسم أبيه الحقيقى وهو حارثة ، إلا أنهم كانوا يرون على حسب ما تعودوه أنه لايصح للرجل أن يتزوج بامرأة من تبناه ، فأراد الله ـ تعالى ـ أن يهدم هذه العادة على يد النبى ﷺ وبقوله وفعله .

وتروى السيدة زينب بنت جحش قصة زواجها من زيد بن حارثة فتقول : خطبنى عدة رجال من قريش ، فأرسلتُ أختى حمنة إلى رسول الله ﷺ أستشيره ، فقال لها : أين هى ممن يعلمها كتاب الله وسنة نبيه؟ قالت : ومن هو يا رسول الله؟ قال : زيد بن حارثة ، قالت : فغضبت حمنة غضبا شديدا ، وقالت : يارسول الله ، أتزوج ابنة عمتك مولاك؟ قالت : وجاءتنى فأعلمتنى فغضبت أشد من غضبها ، وقلت : أشد من قولها ، فأنزل الله ـ تعالى ـ :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦]

قالت : فأرسلت إلى رسول الله ﷺ فقلت : إنى استغفر الله وأطيع الله ورسوله .

أفعلْ يا رسول الله ما رأيت ، فزوجنى زيدا ، فكنت أرزأ عليه ـ أى : أضايقه ـ فشكانى إلى رسول الله ﷺ فعاتبنى رسول الله ﷺ ، ثم عدت فأخذته بلسانى فشكانى مرة أخرى إلى رسول الله ﷺ فقال له : «أمسك عليك زوجك واتق الله» .

فقال زيد : أنا أطلقها يا رسول الله ، قالت : فطلقنى .

وقد تزوجها النبى ﷺ بعد ذلك ، لإبطال عادة كانت متأصلة فى الناس ، وهى أن الرجل لايجوز له أن يتزوج امرأة شخص كان يتبناه .

٤ ـ هذا وفى شأن زواجه ﷺ بالسيدة زينت بنت جحش ، التى توفيت سنة ٢٠هـ ، نزل قوله ـ تعالى ـ :

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ٣٨ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٣٩ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٤٠﴾

ذكر ـ سبحانه ـ قصة زواج النبى ﷺ من السيدة زينب بنت جحش ، وما ترتب على هذا الزواج من هدم لعادات كانت متأصلة فى الجاهلية فقال ـ تعالى ـ : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ..﴾ أى : واذكر ـ أيها الرسول الكريم ـ وقت أن قلت للذى أنعم الله ـ تعالى ـ عليه بنعمة الإيمان ، وهو زيد بن حارثة رضي الله عنه .

وأنعمت عليه ، بنعمة العتق ، والحرية ، وحسن التربية ، والمحبة ، والإكرام .

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ..﴾ أى : اذكر وقت قولك له : أمسك عليك زوجك زينب بنت جحش ، فلا تطلقها ، واتق الله فى أمرها ، واصبر على مابدر منها فى حقك .

وكان زيد رضي الله عنه قد اشتكى للنبى ﷺ من تطاولها عليه وافتخارها بحسبها ونسبها ، وتخشينها له القول ، وقال : يا رسول الله ، إنى أريد أن أطلقها .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ معطوف على ﴿تَقُولُ﴾ .

أى : تقول له ذلك وتخفى فى نفسك الشىء الذى أظهره الله ـ تعالى ـ لك ، وهو إلهامك بأن زيدا سيطلق زينب ، وأنت ستتزوجها بأمر الله ـ عز وجل ـ .

قال الآلوسى : والمراد بالموصول ﴿مَا﴾ على ما أخرج الحكيم الترمذى وغيره عن علىّ ابن الحسين ما أوحى الله ـ تعالى به إليه من أن زينب سيطلقها زيد ، ويتزوجها هو ﷺ .

وإلى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين ، كالزهرى ، وبكر بن العلاء ، والقشيرى ، والقاضى أبى بكر بن العربى ، وغيرهم .(١)

وقال بعض العلماء ما ملخصه : قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾

(١) تفسير الآلوسى جـ٢٢ ص٢٤ .

جملة : الله مبديه صلة الموصول الذى هو ﴿مَا﴾ ، وما أبداه - سبحانه - هو زواجه ﷺ بزينب ، وذلك فى قوله - تعالى - : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ وهذا هو التحقيق فى معنى الآية ، الذى دل عليه القرآن ، وهو اللائق بجنابه ﷺ .

وبه تعلم أن ما قاله بعض المفسرين ، من أن ما أخفاه فى نفسه - ﷺ - وأبداه الله - تعالى - هو وقوع زينب فى قلبه ﷺ ومحبته لها ، وهي زوجة لزيد ، وأنها سمعته يقول عندما رآها : سبحانه مقلب القلوب ، إلى آخر ما قالوا ، كله لاصحة له .(١)

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : ذكر ابن جرير وابن أبى حاتم - وغيرهما - هاهنا آثارا عن بعض السلف ، أحببنا أن نضرب عنها صفحا لعدم صحتها فلانوردها .(٢)

هذا ، وبعض العلماء يرى أن ما أخفاه الرسول فى نفسه : هو علمه بإصرار زيد على طلاقه لزينب ، لكثرة تفاخرها عليه ، وسماعه منها ما يكرهه ، ومالايستطيع معه الصبر على معاشرتها .

وما أبداه الله - تعالى - هو علم الناس بحال زيد معها ،ومعرفتهم بأن زينب تخشن له القول ، وتسمعه ما يكره ، وتفخر عليه بنسبها .

فيكون المعنى : تقول للذى أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه ، أمسك عليك زوجك ، واتق الله ، وتخفى فى نفسك أن زيدا لن يستطيع الصبر على معاشرة زوجه زينب لوجود التنافر بينهما ، مع أن الله - تعالى - قد أظهر ذلك ، عن طريق كثرة شكوى زيد منها ، وإعلانه أنه حريص على طلاقها ، ومعرفة كثير من الناس بهذه الحقيقة .

ومما يؤيد هذا الرأى أنه لم يرد لا فى الكتاب ولا فى السنة مايدل دلالة صريحة على أن الله قد أوحى إلى نبيه ﷺ أن زيدا سيطلق زينب ، وأنه ﷺ سيتزوجها ، وكل ما ورد فى ذلك هى تلك الرواية التى سبق أن ذكرناها عن على بن الحسين - رضى الله عنهما - .

وهذه الأقوال جميعها تهدم هدما تاما كل الروايات التى رويت عن هذا الحادث ، والتى تشبث بها أعداء الإسلام فى كل زمان ومكان ، وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات .

وقوله - سبحانه - : ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه .

أى : تقول له ما قلت ، وتخفى فى نفسك ما أظهره الله ، وتخشى أن تواجه الناس بما

---

(١) تفسير أضواء البيان جـ٦ ص٥٨٠ للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

(٢) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٤٢٠ .

ألهمك الله ـ تعالى ـ به من أمر زيد وزينب ، مع أن الله ـ تعالى ـ أحق بالخشية من كل ما سواه .

فالجملة الكريمة عتاب رقيق من الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ وإرشاد له إلى أفضل الطرق ، وأحكم السبل ، لمجابهة أمثال هذه الأمور ، وحلها حلا سليما .

ثم بين ـ سبحانه ـ الحكمة من زواجه ﷺ بزينب فقال : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

والوطر : الحاجة ، وقضاء الوطر : بلوغ منتهى ما تريده النفس من الشىء يقال : قضى فلان وطره من هذا الشىء : إذا أخذ أقصى حاجته منه .

والمراد هنا : أن زيدا قضى حاجته من زينب ، ولم يبق عنده أدنى رغبة فيها ، بل صارت رغبته العظمى فى مفارقتها .

أى : فلما قضى زيد حاجته من زينب ، وطلقها ، وانقضت عدتها ، زوجناكها ، أى : جعلناها زوجة لك ، ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ ﴾ أو ضيق أو مشقة ﴿ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾ أى : فى الزواج من أزواج أدعيائهم ، الذين تبنوهم ﴿ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أى : إذا طلق هؤلاء الأدعياء أزواجهم ، وانقضت عدة هؤلاء الأزواج ، فلا حرج على الذين سبق لهم تبنى هؤلاء الأدعياء أن يتزوجوا بنسائهم ، ولهم فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة .

﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أى : وكان مايريده الله ـ تعالى ـ حاصلا لامحالة .

قال الإمام ابن كثير : قوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ أى : لما فرغ منها وفارقها زوجناكها ، وكان الذى تولى تزويجها منه هو الله ـ عز وجل ـ بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل بها بلا ولى ولا مهر ولاعقد ولاشهود من البشر .

روى الإمام أحمد عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب ـ رضى الله عنها ـ قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : «اذهب فاذكرها علىّ» فانطلق حتى آتاها وهى تخمر عجينها ، قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما استطيع أن أنظر إليها ، وجعلت أقول ـ وقد وليتها ظهرى ، ونكصت على عقبى ـ يا زينب ، أبشرى ، أرسلنى رسول الله ﷺ يذكرك قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربى ـ أى : أستشيره فى أمرى ـ فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن .

وروى البخارى عن أنس بن مالك أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ فتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سماوات .[1]

وقال الإمام الشوكانى : وقوله : ﴿ لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾ .

أى : فى التزوج بأزواج من يجعلونه ابنا ، كما كانت تفعله العرب ، فإنهم كانوا يتبنون من يريدون ، وكانوا يعتقدون أنه يحرم عليهم نساء من تبنوه ، كما تحرم نساء أبنائهم على الحقيقة ، والأدعياء : جمع دعى ، وهو الذى يدعى ابنا من غير أن يكون ابنا على الحقيقة ، فأخبرهم الله ـ تعالى ـ أن نساء الأدعياء حلال لهم ـ بعد انقضاء العدة ـ بخلاف الأبناء من الصلب ، فإن نساءهم تحرم على الآباء بنفس العقد عليها .[2]

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ الحكمة من زواج النبى ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش التى كانت قبل ذلك زوجة لزيد بن حارثة ـ الذى كان الرسول قد تبناه وأعتقه ـ بعد كل ذلك أخذت السورة الكريمة فى تقرير هذه الحكمة وتأكيدها ، وإزالة كل ما علق بالأذهان بشأنها ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ . . ﴾ .

أى : ما كان على النبى ﷺ من حرج أو لوم أو مؤاخذة ، فى فعل ما أحله الله له ، وقدره عليه ، وأمره به من زواجه بزينب بعد أن طلقها ابنه بالتبنى زيد بن حارثة فقوله : ﴿ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ . . ﴾ أى : فيما قسمه له ، وقدره عليه ، مأخوذ من قولهم : فرض فلان لفلان كذا ، أى : قدر له هذا الشىء ، وجعله حلالا له .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ .

زيادة فى تأكيد هذه الحكمة وفى تقرير صحة ما فرضه الله – تعالى – لنبيه ﷺ

أى : ما فعله الرسول ﷺ من زواجه بزينب بعد طلاقها من زيد ، قد جعله الله ـ تعالى ـ سنة من سننه فى الأمم الماضية ، وكان أمر الله ـ تعالى ـ قدرا مقدورا ، أى : واقعا لامحالة .

والقدر : إيجاد الله ـ تعالى ـ للأشياء على قَدْر مخصوص حسبما تقتضى حكمته .

ويقابله القضاء : وهو الإرادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ماهى عليه ، وقد يستعمل كل منهما بمعنى الآخر ، والأظهر أن قدر الله ـ تعالى ـ هنا بمعنى قضائه .

ولفظ ﴿ مَّقْدُورًا ﴾ وصف جىء به للتأكيد ، كما فى قولهم : ظل ظليل ، وليل أليل .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٤٢٠ .

(٢) تفسير فتح القدير جـ٦ ص٢٨٥ .

ثم مدح ـ سبحانه ـ هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين يبلغون دعوته دون أن يخشوا أحدا سواه فقال : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ ﴾ التى يكلفهم سبحانه ـ بتبليغها .

﴿ وَيَخْشَوْنَهُ ﴾ أى : ويخافونه وحده ﴿ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ ﴾ ـ عز وجل ـ فى كل ما يأتون وما يذرون ، وما يقولون وما يفعلون .

﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أى : وكفى بالله ـ تعالى ـ محاسبا لعباده على نيات قلوبهم وأفعال جوارحهم ، وأقوال ألسنتهم .

ثم حدد ـ سبحانه ـ وظيفة رسوله ﷺ وأثنى عليه بما هو أهله ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ أى : لم يكن محمد ﷺ أبا لأحد من رجالكم أبوة حقيقة ، تترتب عليها آثارها وأحكامها من الإرث ، والنفقة والزواج ، وزيد كذلك ليس ابنا له ﷺ فزواجه ﷺ بزينب التى طلقها زيد لاحرج فيه ، ولاشبهة فى صحته ، وقوله : ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ استدراك لبيان وظيفته ، وفضله .

أى : لم يكن ﷺ أبا لأحدكم على سبيل الحقيقة ، ولكنه كان رسولا من عند الله ـ تعالى ـ ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وكان ـ أيضا ـ خاتم النبيين ، بمعنى أنهم ختموا به ، فلانبى بعده فهو كالخاتم والطابع لهم ، ختم الله ـ تعالى ـ به الرسل والأنبياء ، فلارسول ولا نبى بعده إلى قيام الساعة .

قال القرطبى : قرأ الجمهور ﴿ وَخَاتِمَ ﴾ ـ بكسر التاء ـ بمعنى أنه ختمهم ، أى : جاء آخرهم .

وقرأ عاصم ﴿ وَخَاتَمَ ﴾ ـ بفتح التاء ـ بمعنى أنهم ختموا به ، فهو كالخاتم والطابع لهم ، وقيل : الخاتم والخاتم ـ بالفتح والكسر ـ لغتان مثل طابع وطابع .

وقد روى الإمام مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : «مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى دارا فأتمها ، وأكملها ، إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون : ما أجمل هذه الدار ، هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال ﷺ : فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء .[1]

وقد ذكر الإمام ابن كثير عددا من الأحاديث فى هذا المعنى منها ما رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع

(١) تفسير القرطبى جـ١٤ ص١٩٦ .

الكلم ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون» .

ثم قال ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر هذا الحديث ، وغيره : والأحاديث فى هذا كثيرة ، فمن رحمة الله ـ تعالى ـ بالعباد إرسال محمد ﷺ إليهم ، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له ، وقد أخبر ـ تعالى ـ فى كتابه ، وأخبر رسوله فى السنة المتواترة عنه ، أنه لانبى بعده ، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ، ولو تخرق وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم .(١)

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ .

أى : وكان عز وجل ـ ومازال ، هو العليم علما تاما بأحوال خلقه ، وبما ينفعهم ويصلحهم ، ولذا فقد شرع لكم ما أنتم فى حاجة إليه من تشريعات ، واختار رسالة نبيكم محمد ﷺ لتكون خاتمة الرسالات ، فعليكم أن تقابلوا ذلك بالشكر والطاعة ليزيدكم ـ سبحانه ـ من فضله وإحسانه .

ومن كل ما تقدم يتبين لكل عاقل ، أن زواج النبى ﷺ بأمهات المؤمنين لم يكن من أجل متعة فانية ، أو شهوة زائلة ، وإنما كان من أجل مقاصد شريفة ، وغايات نبيلة ودوافع كريمة .

فمنهن من تزوجها صيانة لها من أن تفتن فى دينها من أقاربها المشركين .

ومنهن من تزوجها تكريما وتشريفا وتوثيقا للعلاقة بينه ﷺ وبين أسرتها .

ومنهن من تزوجها جبرا لخاطرها ، وتسكينا لأحزانها ، ورعاية لأولادها .

ومنهن من تزوجها إكراما لقومها ، وتأليفا لقلوبهم خدمة للدعوة الإسلامية .

ومنهن من تزوجها حماية لها فى غربتها من العوز والاحتياج بعد أن فارقها زوجها .

ومنهن من تزوجها تطييبا لخاطرها ، ورحمة بها ، بعد أن فقدت أهلها وعشيرتها .

ومنهن من تزوجها ليبطل عادة جاهلية تأصلت فى النفوس دون أن يكون لها ما يبررها .

٥ ـ هذا ، والذى يتدبر حديث القرآن الكريم عن أمهات المؤمنين ، يراه يمتاز بالترغيب والترهيب ، والتكريم والتحذير ، والتبشير والإنذار ، والتعليم والإرشاد .

وفى سورة الأحزاب آيات كريمة ، تحدثت عن كل ذلك بأسلوب حكيم ومنها قوله ـ تعالى ـ :

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٦ ص٤٢٤ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ .

ففى هاتين الآيتين يأمر الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ أن يخير أزواجه بين أن يعشن معه معيشة الكفاف والزهد فى زينة الحياة الدنيا وبين أن يفارقهن ليحصلن على ما يشتهينه من زينة الحياة الدنيا .

قال الإمام القرطبى ما ملخصه : قال علماؤنا ، هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبى ﷺ وكان قد تأذى ببعض الزوجات ، قيل : سألنه شيئا من عرض الدنيا ، وقيل : سألنه زيادة فى النفقة .

روى البخارى ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ عن جابر بن عبدالله قال : دخل أبوبكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم ، قال : فأذن لأبى بكر فدخل ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له ، فوجد النبى ﷺ جالسا حوله نساؤه .

قال فقال عمر ، والله لأقولن شيئا يضحك رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، لو رأيت بنت خارجة ـ زوجة عمر ـ سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها ، فضحك رسول الله ﷺ وقال : «هن حولى كما ترى يسألننى النفقة» .

فقام أبوبكر إلى ابنته عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى ابنته حفصة ليضربها وكلاهما يقول : تسألن رسول الله ﷺ ماليس عنده .

فقلن : والله لانسأل رسول الله ﷺ شيئا أبدا ليس عنده .

ثم نزلت هاتان الآيتان ، فبدأ ﷺ بعائشة فقال لها : «يا عائشة إنى أريد أن أعرض عليك أمرا ، أحب أن لاتعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك» .

قالت : وماهو يا رسول الله؟ فتلا عليها هاتين الآيتين ، فقالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوى! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .

وفعل أزواج النبى ﷺ مثل ما فعلت عائشة .[١]

وقال الإمام ابن كثير ـ بعد أن ساق جملة من الأحاديث فى هذا المعنى ، وكان تحته يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش : عائشة وحفصة ، وأم حبيبة وسودة ، وأم سلمة .

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٤ ص١٦٣ .

وأربع من غير قريش ـ وهن : صفية بنت حيى النضرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية ـ رضى الله عنهن ـ .

وقال الإمام الآلوسى : فلما خيرهن واخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، مدحهن الله ـ تعالى ـ على ذلك ، إذ قال ـ سبحانه ـ : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ . . ﴾ فقصره الله ـ تعالى ـ عليهن ، وهن التسع اللاتى اخترن الله ورسوله والدار الآخرة .[1]

والمعنى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ ﴾ اللائى فى عصمتك ﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ .

أى : إن كنتن تردن سعة الحياة الدنيا وبهجتها وزخارفها ومتعها من مأكل ومشرب وملبس ، فوق ما أنتن فيه عندى من معيشة مقصورة على ضروريات الحياة ، وقائمة على الزهد فى زينتها .

إن كنتن تردن ذلك : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴾ .

والمعة : ما يعطيه الرجل للمرأة التى طلقها ، زيادة على الحقوق المقررة لها شرعا ، وقد جعلها ـ سبحانه ـ حقا على المحسنين الذين يبغون رضا الله ـ تعالى ـ وحسن ثوابه .

والتسريح : إرسال الشىء ، ومنه تسريح الشعر ليخلص بعضه من بعض ، ويقال : سرح فلان الماشية ، إذ أرسلها لترعى .

والمراد به هنا : طلاق الرجل للمرأة ، وتركها لعصمته .

أى : قل ـ أيها الرسول الكريم ـ لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، ولاتستطعن الصبر على المعيشة معى ، فلكن أن تخترن مفارقتى ، وإنى على استعداد أن أعطيكن المتعة التى ترتضينها ، وأن أطلقكن طلاقا لاضرر فيه ، ولاظلم معه ، لأنى سأعطيكن ما هو فوق حقكن .

﴿ وَإِن كُنتُنَّ ﴾ لاتردن ذلك ، وإنما ﴿ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ ﴾ .

أى : وإنما تردن ثواب الله ـ تعالى ـ والبقاء مع رسوله ﷺ وإيثار شظف الحياة على زينتها ، وإيثار ثواب الدار الآخرة على متع الحياة الدنيا .

إن كنتن تردن ذلك فاعلمن أن ﴿ اللَّهَ ﴾ ـ تعالى ـ ﴿ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ ﴾ بسبب إيمانهن وإحسانهن ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ لايعلم مقداره إلا الله ـ تعالى ـ .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ٢١ ص١٨١ .

وبهذا التأديب الحكيم ، والإرشاد القويم ، أمر الله - تعالى - رسوله ﷺ أن يؤدب نساءه ، وأن يرشدهن إلى مافيه سعادتهن ، وأن يترك لهن حرية الاختيار .

٦ - ثم وجه - سبحانه - الخطاب إلى أمهات المؤمنين ، فأدبهن أكمل تأديب وأمرهن بالتزام الفضائل ، وباجتناب الرذائل لأنهن القدوة لغيرهن من النساء ، ولأنهن فى بيوتهن ينزل الوحى على رسول الله ﷺ فقال - تعالى - :

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

فقوله - سبحانه - : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ . . ﴾ نداء من الله - تعالى - لهن - على سبيل الوعظ والإرشاد والتأديب ، والعناية بشأنهن لأنهن القدوة لغيرهن ، والفاحشة : ماقبح من الأقوال والأفعال .

والمعنى : يا نساء النبى ﷺ من يأت منكم بمعصية ظاهرة القبح ، يضاعف الله - تعالى - لها العقاب ضعفين ، لأن المعصية من رفيع الشأن تكون أشد قبحا ، وأعظم جرما .

قال صاحب الكشاف : وإنما ضوعف عذابهن ، لأن ماقبح من سائر النساء ، كان أقبح منهن وأقبح ، لأن زيادة قبح المعصية ، تتبع زيادة الفضل والمرتبة ، وليس لأحد من النساء ، مثل

فضل نساء النبى ﷺ ولا علي أحد منهن مثل ما لله عليهن من النعمة ، ولذلك كان ذم العقلاء للعاصى العالم أشد منه للعاصى الجاهل ، لأن المعصية من العالم أقبح .[1]

وقد روى عن زين العابدين بن على بن الحسين - رضى الله عنهما - أنه قال له رجل : إنكم أهل بيت مغفور لكم ، فغضب وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ، ما أجرى الله - تعالى - على نساء نبيه ﷺ من أن لمسيئنا ضعفين من العذاب ، ولمحسننا ضعفين من الأجر .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان أن منزلتهن - رضى الله عنهن - لاتمنع من وقوع العذاب بهن فى حالة ارتكابهن لما نهى الله - تعالى - عنه ، فقال : ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ أى : وكان ذلك التضعيف للعذاب لهن ، يسيرا وهينا على الله ، لأنه - سبحانه - لايصعب عليه شىء .

هذا هو الجزاء فى حالة ارتكابهن - على سبيل الفرض - لما نهى الله - تعالى - عنه ، أما فى حالة طاعتهن ، فقد بين - سبحانه - جزاءهن بقوله : ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ .

والقنوت : ملازمة الطاعة لله - تعالى - والخضوع والخشوع لذاته .

أى : ومن يقنت منكن - يا نساء النبى - لله - تعالى - ويلازم طاعته ، ويحرص على مرضاة رسوله ﷺ وتعمل عملا صالحا .

من يفعل ذلك منكن ، نؤتها أجرها الذى تستحقه مضاعفا ، فضلا منا وكرما ، ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا ﴾ أى : وهيأنا لها زيادة على ذلك ﴿ رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ لايعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

وهكذا نرى أن الله - تعالى - قد ميز أمهات المؤمنين فجعل حسنتهن كحسنتين لغيرهما ، كما جعل سيئتهن بمقدار سيئتين لغيرهما - أيضا - وذلك لعظم مكانتهن ، ومشاهدتهن من رسول الله ﷺ مالايشاهده غيرهن ، من سلوك كريم وتوجيه حكيم .

ثم وجه - سبحانه - إليهن نداء ثانيا فقال : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ﴾ .

أى : يا نساء النبى ، لقد أعطاكن الله - تعالى - من الفضل ومن سمو المنزلة مالم يعط

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص٥٣٦ .

غيركن ، فأنتن فى مكان القدوة لسائر النساء ، وهذا الفضل كائن لكن إن اتقيتن الله - تعالى - وصنتن أنفسكن عن كل ما نهاكن - سبحانه - عنه .

فالمقصود بالجملة الكريمة بيان أن ماوصلن إليه من منزلة كريمة ، هو بفضل تقواهن وخشيتهن لله - تعالى - وليس بفضل شىء آخر .

ثم نهاهن - سبحانه - عن النطق بالكلام الذى يُطمع فيهن من فى قلبه نفاق وفجور فقال : ﴿ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ .

أى : فلا ترققن الكلام ، ولاتنطقن به بطريقة لينة متكسرة تثير شهوة الرجال ، وتجعل مريض القلب يطمع فى النطق بالسوء معكن فإن من محاسن المرأة أن تنزه خطابها عن ذلك لغير زوجها من الرجال .

وهكذا يحذر الله - تعالى - أمهات المؤمنين - وهن الطاهرات المطهرات - عن الخضوع بالقول ، حتى يكون فى ذلك عبرة وعظة لغيرهن فى كل زمان ومكان فإن مخاطبة المرأة - لغير زوجها من الرجال - بطريقة لينة مثيرة للشهوات والغرائز تؤدى إلى فساد كبير ، وتطمع من لا خلاق لهم فيها .

ثم أرشدهن - سبحانه - إلى القول الذى يرضيه فقال : ﴿ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ﴾ .

أى : اتركن الكلام بطريقة تطمع الذى فى قلبه مرض فيكن ، وقلن قولا حسنا محمودا ، وانطقن به بطريقة طبيعية بعيدة عن كل ريبة أو انحراف عن الحق والخلق الكريم .

ثم أمرهن - سبحانه - بعد ذلك بالاستقرار فى بيوتهن ، وعدم الخروج منها إلا لحاجة شرعية فقال : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ .

والمعنى : الْزَمْن يا نساء النبى ﷺ بيوتكن ، ولاتخرجن منها إلا لحاجة مشروعة ، ومثلهن فى ذلك جميع النساء المسلمات ، لأن الخطاب لهن فى مثل هذه الأمور هو خطاب لغيرهن من النساء المؤمنات من باب أولى ، وإنما خاطب - سبحانه - أمهات المؤمنين على سبيل التشريف ، واقتداء غيرهن بهن .

وهذه الجملة الكريمة ليس المقصود بها ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقا وإنما المقصود بها أن يكون البيت هو الأصل فى حياتهن ، ولا يخرجن إلا لحاجة مشروعة ، كأداء الصلاة فى المسجد ، وكأداء فريضة الحج وكزيارة الوالدين والأقارب ، وكقضاء مصالحهن التى لاتقضى إلا بهن ، بشرط أن يكون خروجهن مصحوبا بالتستر والاحتشام وعدم التبذل .

ولذا قال ـ سبحانه ـ بعد هذا الأمر ﴿ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلا تَبَرَّجْنَ ﴾ مأخوذ من البَرَج ـ بفتح الباء والراء وهو سعة العين وحسنها ، ومنه قولهم : سفينة برجاء ، أى : متسعة ولا غطاء عليها .

والمراد به هنا : إظهار ما ينبغى ستره من جسد المرأة ، مع التكلف والتصنع فى ذلك .

والجاهلية الأولى ، بمعنى المتقدمة إذ يقال لكل متقدم ومتقدمة : أول وأولى .

أو المراد بها : الجاهلية الجهلاء التى كانت ترتكب فيها الفواحش بدون تحرج وقد فسروها بتفسيرات متعددة ، منها قول مجاهد : كانت المرأة تخرج فتمشى بين يدى الرجال فذلك تبرج الجاهلية .

ومنها قول قتادة : كانت المرأة فى الجاهية تمشى مشية فيها تكسر .

ومنها قول مقاتل : والتبرج : أنها تلقى الخمار على رأسها ، ولا تشده فيوارى قلائدها وعنقها .

ويبدو لنا أن التبرج المنهى عنه فى الآية الكريمة ، يشمل كل ذلك كما يشمل كل فعل تفعله المرأة ، ويكون هذا الفعل متنافيا مع آداب الإسلام وتشريعاته .

والمعنى : الزمن يا نساء النبى بيوتكن ، فلاتخرجن إلا لحاجة مشروعة ، وإذا خرجتن فاخرجن فى لباس الحشمة ، والوقار ، ولاتبدى إحداكن شيئا أمرها الله ـ تعالى ـ بستره وإخفائه ، واحذرن التشبيه بنساء أهل الجاهلية الأولى ، حيث كن يفعلن مايثير شهوة الرجال ، ويلفت أنظارهم إليهن .

ثم أتبع ـ سبحانه ـ هذا النهى بما يجعلهن على صلة طيبة بخالقهن ـ عز وجل ـ فقال : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ ﴾ أى : داومن على إقامتها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص ﴿ وَآتِينَ الزَّكَاةَ ﴾ التى فرضها الله ـ تعالى ـ عليكن ، وخص ـ سبحانه ـ هاتين الفريضتين بذلك من بين سائر الفرائض ، لأنهما أساس العبادات البدنية والمالية .

﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى : فى كل ما تأتين وتتركن ، لاسميا فيما أمرتن به ، ونهيتن عنه .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ تعليل لما أمرن به من طاعات ، ولما نهين عنه من سيئات .

والرجس فى الأصل : يطلق على كل شىء مستقذر ، وأريد به هنا : الذنوب والآثام وما يشبه ذلك من النقائص والأدناس .

أى : إنما يريد الله - تعالى - بتلك الأوامر التى أمركن بها ، وبتلك النواهى التى نهاكن عنها ، أن يذهب عنكن الآثام والذنوب والنقائص ، وأن يطهركن من كل ذلك تطهيرا تاما كاملا .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ . . ﴾ هذا نص فى دخول أزواج النبى ﷺ فى أهل البيت ها هنا ، لأنهن سبب نزول هذه الآية .

وقد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك ، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك قال : «إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ، يقول : الصلاة يا أهل البيت : ثم يتلو هذه الآية» .[1]

وقال بعض العلماء : والتحقيق - إن شاء الله - أنهن داخلات فى الآية ، بدليل السياق ، وإن كانت الآية تتناول غيرهن من أهل البيت .

ونظير ذلك من دخول الزوجات فى اسم أهل البيت ، قوله - تعالى - فى زوجة إبراهيم : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ .

وأما الدليل على دخول غيرهن فى الآية فهو أحاديث جاءت عن النبى ﷺ أنه قال فى على وفاطمة والحسن والحسين - رضى الله عنهم - : «إنكم أهل البيت» ودعا الله أن يذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيرا .

وبما ذكرنا تعلم أن الصواب شمول الآية الكريمة لأزواج النبى ﷺ لعلى وفاطمة والحسن والحسين .

فإن قيل : الضمير فى قوله : ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ ﴾ وفى قوله : ﴿ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ضمير الذكور ، فلو كان المراد أزواج النبى ﷺ لقيل ليذهب عنكن ويطهركن؟

فالجواب : ما ذكرناه من أن الآية تشملهن وتشمل فاطمة وعلى والحسن والحسين ، وقد أجمع أهل اللسان العربى على تغليب الذكور على الإناث فى الجموع ونحوها .

ومن أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، أن زوجة الرجل يطلق عليها أهل وباعتبار لفظ الأهل تخاطب مخاطبة الجمع المذكر ، ومنه قوله - تعالى - فى موسى ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا ﴾ وقوله : ﴿ سآتيكم ﴾ والمخاطب امرأته كما قاله غير واحد .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٦ ص٤٠٦ فقد ساق بضعة أحاديث فى هذا المعنى

وقال بعض أهل العلم : إن أهل البيت فى الآية هم من تحرم عليهم الصدقة[1]

ثم ختم - سبحان - هذه التوجيهات الحكيمة بقوله - عز وجل - : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ .

أى : واذكرن فى أنفسكن ذكرا متصلا ، وذكرن غيركن على سبيل الإرشاد ، بما يتلى فى بيوتكن من آيات الله البينات الجامعة بين كونها معجزات دالة على صدق النبى ﷺ ، وبين كونها مشتملة على فنون الحكم والآداب والمواعظ .

ويصح أن يكون المراد بالآيات : القرآن الكريم ، وبالحكمة : أقوال النبى ﷺ وأفعاله وتقريراته .

وفى الآية الكريمة إشارة إلى أنهن - وقد خصهن الله - تعالى - بجعل بيوتهن موطنا لنزول القرآن ، ولنزول الحكمة - أحق بهذا التذكير ، وبالعمل الصالح من غيرهن .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أى : لايخفى عليه شىء من أحوالكم ، وقد أنزل عليكم مافيه صلاح أموركم فى الدنيا والآخرة .

٧ - وفى سورة الأحزاب - أيضا - آيات كريمة ، تحدثت عن جانب من مظاهر فضل الله - تعالى - على نبيه محمد ﷺ ومن تكريمه له ، حيث خصه بأمور تتعلق بالزواج لم يخص بها أحد سواه ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ

(١) أضواء البيان جـ٦ ص٥٧٧ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى - رحمه الله - .

﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

والمراد بالأجور فى قوله - سبحانه - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ ﴾ المهور التى دفعها - ﷺ - لأزواجه .

وفى قوله : ﴿ آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ ﴾ إشارة إلى أن إعطاء المهر كاملا للمرأة دون إبقاء شىء منه ، هو الأكمل والأفضل ، وأن تأخير شىء منه إنما هو أمر مستحدث لم يكن معروفا عند السلف الصالح .

وأطلق على المهر أجر لمقابلته الاستمتاع الدائم بما يحل الاستمتاع به من الزوجة ، كما يقابل الأجر بالمنفعة .

وقوله : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ بيان لنوع آخر مما أحله الله - تعالى - لنبيه ﷺ .

والمعنى : يأيها النبى إنا أحللنا لك - بفضلنا - على سبيل التكريم والتشريف ، الاستمتاع بأزواجك الكائنات عندك ، واللاتى أعطيتهن مهورهن - كعائشة وحفصة وغيرهما - لأنهن قد اخترنك على الحياة الدنيا وزينتها .

كما أحللنا لك التمتع بما ملكت يمينك من النساء اللائى دخلن فى ملكك عن طريق الغنيمة فى الحرب ، كصفية بنت حيى بن أخطب ، وجويرية بنت الحارث .

ثم بين - سبحانه - نوعا ثالثا - أحله - سبحانه - له فقال : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ .

أى : وأحللنا لك - أيضا الزواج بالنساء اللائى تربطك بهن قرابة من جهة الأب ، أو قرابة من جهة الأم .

وقوله : ﴿ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ إشارة إلى ماهو أفضل ، وللإيذان بشرف الهجرة وشرف من هاجر .

ثم بين - سبحانه - نوعا رابعا من النساء، أحله لنبيه ﷺ فقال: ﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

والمعنى وأحللنا لك كذلك امرأة، إن ملكتك نفسها بدون مهر، وإن أنت قبلت ذلك عن طيب خاطر منك، وهذا الإحلال إنما هو خاص بك دون غيرك من المؤمنين، لأن غيرك من المؤمنين لاتحل لهم من وهبت نفسها لواحد منهم إلا بولى ومهر.

وقد ذكروا ممن وهبن أنفسهن له ﷺ خولة بنت حكيم، وأم شريك بنت جابر وليلى بنت الحطيم.

وقد اختلف العلماء فى كونه ﷺ قد تزوج بواحدة من هؤلاء الواهبات أنفسهن له أم لا؟

والأرجح أنه ﷺ لم يتزوج بواحدة منهن، وإنما زوجهن لغيره، ويشهد لذلك ما رواه الشيخان عن سهل بن سعد الساعدى، أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله إنى قد وهبت نفسى لك، فقامت قياما طويلا فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة، فقال رسول الله ﷺ: هل عندك من شىء تصدقها إياه؟ فقال: ماعندى إلا إزارى هذا، فقال - ﷺ -: إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك، فالتمس شيئا، فقال: لا أجد شيئا، فقال التمس ولو خاتما من حديد، فقام الرجل فلم يجد شيئا، فقال له النبى ﷺ: هل معك من القرآن شىء؟ قال نعم: سورة كذا وسورة كذا - لسور يسميها - فقال له رسول الله ﷺ زوجتكها بما معك من القرآن.(١)

وإلى هنا يتضح لنا أن المقصود بالإحلال في الآية الكريمة، الإذن العام والتوسعة عليه ﷺ فى الزواج من هذه الأصناف، والإباحة له فى أن يختار منهن من تقتضى الحكمة الزواج منها، واختصاصه ﷺ بأمور تتعلق بالنكاح، لاتحل لأحد سواه.

ولهذا قال - سبحانه - بعد ذلك: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ فإن هذه الجملة الكريمة معترضة ومقررة لمضمون ما قبلها، من اختصاصه ﷺ بأمور فى النكاح لاتحل لغيره، كحل زواجه ممن تهبه نفسها بدون مهر، إن قبل ذلك العرض منها.

أى: هذا الذى أحللناه لك - أيها الرسول الكريم - هو خاص بك، أما بالنسبة لغيرك من المؤمنين فقد علمنا ما فرضناه عليهم فى حق أزواجهم من شرائط العقد وحقوقه، فلايجوز لهم الإخلال بها، كما لايجوز لهم الاقتداء بك فيما خصك الله - تعالى - به،

---

(١) صحيح البخارى جـ٧ ص١٧ من كتاب النكاح.

على سبيل التوسعة عليك ، والتكريم لك ، فهم لايجوز لهم التزوج إلا بعقد وشهود ومهر ، كما لايجوز لهم أن يجمعوا بين أكثر من أربع نسوة .

وعلمنا - أيضا - ما فرضناه عليهم بالنسبة لما ملكت أيمانهم ، من كونهن ممن يجوز سبيه وحربه ، لا ممن لايجوز سبيه ، أو كان له عهد مع المسلمين .

وقوله : ﴿ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ متعلق بقوله : ﴿ أَحْلَلْنَا ﴾ وهو راجع إلى جميع ما ذكر ، فيكون المعنى :

أحللنا من آتيت أجورهن من النساء ، والمملوكات والأقارب والواهبة نفسها لك ، لندفع عنك الضيق والحرج ، ولتتفرغ لتبليغ ما أمرناك بتبليغه .

وقيل : إنه متعلق بخالصة ، أو بعاملها ، فيكون المعنى : خصصناك بنكاح من وهبت نفسها لك بدون مهر ، لكى لايكون عليك حرج فى البحث عنه .

ويرى بعضهم أنه متعلق بمحذوف ، أى : بينا لك ما بينا من أحكام خاصة بك ، حتى تخرج من الحرج ، وحتى يكون ما تفعله هو بوحى منا وليس من عند نفسك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ أى : وكان الله - تعالى - ومايزال واسع المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين .

وقوله - عز وجل - : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ شروع فى بيان جانب آخر من التوسعة التى وسعها - سبحانه - لنبيه ﷺ فى معاشرته لنسائه ، بعد بيان ما أحله له من النساء .

وقوله : ﴿ تُرْجِي ﴾ من الإرجاء بمعنى التأخير والتنحية ، وقرىء مهموزا وغير مهموز ، تقول : أرجيت الأمر وأرجأته ، إذا أخرته ونحيته جانبا ، حتى يحين موعده المناسب .

وقوله : ﴿ وَتُؤْوِي ﴾ من الإيواء بمعنى الضم والتقريب ، ومنه قوله - تعالى - :﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ أى : ضمه إليه وقربه .

والضمير فى قوله : ﴿ مِنْهُنَّ ﴾ يعود إلى زوجاته - ﷺ - اللائي كن فى عصمته .

أى : لقد وسعنا عليك - أيها الرسول الكريم - فى معاشرة نسائك ، فأبحنا لك أن تؤخر المبيت عند من شئت منهن ، وأن تضم إليك من شئت منهن ، بدون التقيد بوجوب القسم بينهن ، كما هو الشأن بالنسبة لأتباعك حيث أوجبنا عليهم العدل بين الأزواج فى البيتوتة ، وما يشبهها .

ومع هذا التكريم من الله ـ تعالى ـ لنبيه إلا أنه ﷺ كان يقسم بينهن إلى أن لحق بربه عدا السيدة سودة ، فإنها قد وهبت ليلتها لعائشة .

أخرج البخارى عن عائشة رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية ترجى من تشاء منهن .

فقيل لها : ماكنت تقولين؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذاك إلىّ فإنى لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدا .(١)

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ زيادة فى التوسعة عليه ﷺ وفى ترك الأمر لإرادته واختياره .

أى : أبحنا لك ـ أيها الرسول الكريم ـ أن تقسم بين نسائك وأن تترك القسمة بينهن وأبحنا لك ـ أيضا ـ أن تعود فى طلب من اجتنبت مضاجعتها إذ لاحرج عليك فى كل ذلك ، بعد أن فوضنا الأمر إلى مشيئتك واختيارك .

فالابتغاء بمعنى الطلب ، وعزلت بمعنى اجتنبت واعتزلت وابتعدت ، ﴿ وَمَنِ ﴾ شرطية وجوابها ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ أى : فلاحرج ولا إثم عليك فى عدم القسمة بين أزواجك وفى طلب إيواء من سبق لك أن اجتنبتها .

قال الشوكانى : والحاصل أن الله ـ سبحانه ـ فوض الأمر إلى رسوله ﷺ كى يصنع مع زوجاته ما شاء ، من تقديم وتأخير ، وعزل وإمساك وضم من أرجأ ، وإرجاء من ضم إليه ، وما شاء فى أمرهن فعل توسعة عليه ، ونفيا للحرج عنه .(٢)

واسم الإشارة فى قوله : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ يعود إلى ما تضمنه الكلام السابق من تفويض أمر الإرجاء والإيواء إلى النبى ﷺ .

وأدنى بمعنى أقرب ، ﴿ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ﴾ كناية عن تقبل ما يفعله معهن برضا وارتياح نفس ، يقال قرت عين فلان ، إذا رأت ما ترتاح لرؤيته ، مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار والسكون .

وقوله : ﴿ وَلا يَحْزَنَّ ﴾ معطوف على ﴿ أَن تَقَرَّ ﴾ وقوله : ﴿ وَيَرْضَيْنَ ﴾ معطوف عليه ـ أيضا ـ .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٤٣٧ .

(٢) تفسير فتح القدير جـ٦ ص٢٩٣ .

والمعنى ، ذلك الذى شرعناه لك من تفويض الأمر إليك فى شأن أزواجك ، أقرب إلى رضا نفوسهن لما تصنعه معهن ، وأقرب إلى عدم حزنهن وإلى قبولهن لما تفعله معهن ، لأنهن يعلمن أن ما تفعله معهن إنما هو بوحى من الله ـ تعالى ـ وليس باجتهاد منك ، ومتى علمن ذلك طابت نفوسهن سواء سويت بينهن فى القسم والبيتوتة والمجامعة أم لم تسو .

قال القرطبى : قال قتادة وغيره : أى ذلك التخيير الذى خيرناك فى صحبتهن أدنى إلى رضاهن ، إذ كان من عندنا ـ لا من عندك ، لأنهن إذا علمن أن الفعل من الله قرت أعينهن بذلك ورضين .

وكان ﷺ مع هذا يشدد على نفسه فى رعاية التسوية بينهن ، تطييبا لقلوبهن ويقول : «اللهم هذه قدرتى فيما أملك ، فلاتلمنى فيما تملك ولا أملك» .(١)

وقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ خطاب للنبى ﷺ ولأزواجه ، ويندرج فيه جميع المؤمنين والمؤمنات .

أى : والله ـ تعالى ـ يعلم مافى قلوبكم من حب وبغض ، ومن ميل إلى شىء ومن عدم الميل إلى شىء آخر .

قال صاحب الكشاف : وفى هذه الجملة وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر الله ـ تعالى ـ من ذلك ، وبعث على تواطؤ قلوبهن والتصافى بينهن ، والتوافق على طلب رضا رسول الله ﷺ ومافيه من طيب نفسه .(٢)

﴿ وَكَانَ اللَّهُ ﴾ ـ تعالى ـ ﴿ عَلِيمًا ﴾ بكل ما تظهره القلوب وما تسره ﴿ حَلِيمًا ﴾ حيث لم يعاجل عباده بالعقوبة قبل الإرشاد والتعليم .

ثم كرم ـ سبحانه ـ أمهات المؤمنين بعد تكريمه لنبيه ﷺ فقال : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ .. ﴾ .

أى : لايحل لك ـ أيها الرسول الكريم ـ أن تتزوج بنساء آخريات من بعد التسع اللائي فى عصمت اليوم ، لأنهن قد اخترنك وآثرنك على زينة الحياة الدنيا ، ورضين عن طيب نفس أن يعشن معك وتحت رعايتك ، مهما كان فى حياتك معهن من شظف العيش والزهد فى متع الدنيا .

---

(١) تفسير القرطبى جـ١٤ ص٢١٦ .

(٢) تسير الكشاف جـ٣ ص٥٥٢ .

وقوله : ﴿ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ معطوف على ما قبله .

أى : لايحل لك الزواج بعد اليوم بغير من هن فى عصمتك ، كما لايحل لك ـ أيضا ـ أن تطلق واحدة منهن وتتزوج بأخرى سواها ، حتى ولو أعجبك جمال من تريد زواجها من غير نسائك اللائى فى عصمتك عند نزول هذه الآية .

فالآية الكريمة قد اشتملت على حكمين : أحدهما : حرمة الزواج بغير التسع اللائى كن فى عصمتك عند نزولها ، والثانى : حرمة تطليق واحدة منهن ، للزواج بأخرى بدلها .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ استثناء من هذا الحكم ، أى : لايحل لك الزيادة عليهن ، ولا استبدال غيرهن بهن ، ولكن يحل لك أن تضيف إليهن ما شئت من النساء اللائى تملكهن عن طريق السبى .

قال ابن كثير : ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم أن هذه الآية الكريمة نزلت مجازاة لأزواج النبى ﷺ ورضا الله عنهن على حسن صنيعهن ، فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، لما خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم ، فلما اخترن رسول الله ، كان جزاؤهن أن قصره عليهن ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجا غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن ، إلا الإماء والسرائر ، فلاحجر عليه فيهن .

والنساء التسع اللائي حرم الله ـ تعالى ـ على نبيه ﷺ الزيادة عليهن ، والاستبدال بهن ، هن : عائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبى أمية ، وصفية بنت حيى بن أخطب ، وميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث .(١)

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ .

أى : وكان الله ـ تعالى ـ ومايزال ، مطلعا على كل شىء من أحوالكم ـ أيها الناس ، فاحذروا أن تتجاوزوا ماحده الله ـ تعالى لكم لأن هذا التجاوز يؤدى إلى عدم رضا الله ـ سبحانه ـ عنكم .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد ذكرت ألوانا متعددة من مظاهر تكريم الله ـ تعالى ـ لنبيه ﷺ ومن توسعته عليه فى شأن أزواجه ، وفى شأن ما أحله له من عدم التقيد فى القسم بينهن ، وفى تقديم أو تأخير من شاء منهن .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٤٣٨ .

كما أنها قد كرمت أمهات المؤمنين تكريما عظيما لاختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها .

وبعد : فهذه نماذج مشرقة من قصص القرآن الكريم ، بدأناها بقصة أبى البشر آدم - عليه السلام - وختمناها بجوانب من قصة أفضل الخلق على الإطلاق ألا وهو سيدنا محمد رسول الله ووسطناها بقصص الرسل الكرام الذين جاءوا بين أولهم وخاتمهم ، والذين أرسلهم الله - تعالى - مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وذكرنا فى أعقاب الحديث عنهم قصصا أخرى ، ساقها القرآن الكريم لقوم من المؤمنين الصادقين ، ولآخرين من الجاحدين الجاهلين .

وفى كل ذلك عبرة للمعتبرين ، وموعظة للمتقين وبشرى للصابرين .

وصدق الله إذ يقول :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

كتبه الراجى عفو ربه
أ . د . محمد سيد طنطاوى
شيخ الأزهر

فهرس الكتاب

الموضـوع	الصفحة